1

# دانيال ستيل

# DANIELLE STEEL



# مرفأ الأمان

# SAFE HARBOUR



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

# مرفأ الأمان

(سيف هاربر)

# مرفأ الأمان

## (سيف هاربر)

قصة إيمان وشجاعة عظيمين...

دانيال ستيل

DANIELLE STEEL

ترجمة

فايزة المنجد

مراجعة: د. محمد فداء الهاشمي



الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

# 1

كـــان يـــوماً من الأيام الباردة، الكثيرة الضباب، والمتنكرة بالصيف في شـــمالي كاليفورنيا. هبت الرياح عبر الشاطئ الطويل الهلالي الشكل، فحملت معهـــا غيمة من الرمل الناعم إلى الهواء. كانت فتاة صغيرة تمشي ببطء على الـــشاطئ مـــرتدية بنطالاً قصيراً أحمرَ وكنزة فضفاضة بيضاء، واجه رأسها الريح، وبدا على كلبها الانزعاج من الطحالب المائية على حافة الماء.

كـــان شعر هذه الفتاة الصغيرة قصيراً مجعداً أحمر اللون، وكانت عيناها عسليتين منقطتين بالكهرمان، أما وجهها فكان يعلوه بعض النمش، والعارفون بالأطفـــال ســـيخمنون أن عمـــرها يتراوح بين العاشرة والثانية عشرة. كانت صغيرة وجميلة، ذات ساقين صغيرتين نحيلتين. أما كلبها فكان من نوع اللاب شـــوكولاتي اللـــون. كانـــا يمشيان ببطء من المجمّع ذي البوابات إلى الشاطئ الشعبي في الطرف البعيد. لم يكن هناك أحد على الشاطئ في ذلك اليوم تقريباً فقـــد كان الطقس بارداً جداً، ولكنها لم تأبه لذلك، أما الكلب فكان ينبح من حين لآخـــر علـــى دوامات الرمل الصغيرة المنتشرة بسبب الرياح، ومن ثم يعاود اتجاهـــه نحـــو حافـــة المـــاء. قفز الكلب للخلف، نابحاً بغضب، عندما رأى ســـلطعوناً، فـــضحكت الفـــتاة الـــصغيرة. كان من الواضح أن الطفلة والكلب صـــديقان حميمان. أوحت طريقة مشيهما سويةً بحياة منعزلة، وكان لمن ينظر إلـــيهما أن يخمّن أنهما قد سلكا هذا الطريق مرات كثيرةً من قبل. كان يمشيان جنباً إلى جنب لوقت طويل.

في بعض الأيام يكون الطقس حاراً ومشمساً على الشاطئ، لدرجة يعتقد المـــرء أنه في شهر تموز، ولكن هذا لا يحصل دائماً. فعندما يتكون الضباب،

يبدو الطقس شتوياً وبارداً على الدوام. وعندها يمكن رؤية الضباب يمتد فوق الأمواج، منتشراً على قمم البوابة الذهبية[1]. وفي بعض الأحيان يمكنك رؤية الجسر من الشاطئ. يقع مرفأ الأمان (سيف هاربر)[2] على بعد خمس وثلاثين دقيقة شمال سان فرانسيسكو، وأكثر من نصفه كان مجمعاً ذا بوابات، حيث كانت المنازل تقع خلف كثبان الرمال مباشرة، على طول الشاطئ. وكان هناك كشك حراسة يمنع غير المرحب بهم من الدخول. لم تكن هناك طريقة للوصول إلى الشاطئ نفسه إلا عن طريق المنازل التي تحده. في الجهة الأخرى، يوجد الشاطئ الشعبي، وصفٌ من المنازل البسيطة الشبيهة بالأكواخ والتي يمكن الوصول إلى الشاطئ عبرها أيضاً. في الأيام المشمسة الحارة، يكون الشاطئ الشعبي مزدحماً ومليئاً بالناس. ولكن في معظم الأحيان، يكون الازدحام في الشاطئ الشعبي قليلاً جداً، وفي نهاية الشاطئ، كان من النادر رؤية أحد على الإطلاق.

وصلت الطفلة إلى الشاطئ الشعبي حيث المنازل الأبسط، وهناك رأت رجلاً يجلس على كرسيّ قابل للطي، يرسم لوحة مائية وقد أسندها على حمالة. توقفت وأخذت تراقبه من مسافة بعيدة، بينما كان الكلب يقفز على الرمل مطارداً رائحة أثارت فضوله، وقد بدا أنه قد اكتشفها في الريح. جلست الفتاة الصغيرة على الرمل بعيدةً عن الرسام، تشاهده وهو يعمل. كانت بعيدة عنه مسافة كافية بحيث لا يعلم بوجودها على الإطلاق. أرادت أن تراقبه فقط، فقد أحسّت بوجود شيء موثوق ومألوف فيه بينما كانت الرياح تداعب برفق شعره الأسود القصير. كانت تحب مراقبة الناس، وكانت تفعل الشيء نفسه مع صيادي الأسماك أحياناً، حيث تبقى بعيدة عنهم مسافة كافية، بحيث تتمكن من رؤية كل ما يفعلونه. جلست هناك لوقت طويل بينما كان الرسام يرسم.

---

(1) البوابة الذهبية: مضيق غربي كاليفورنيا، عند مدخل خليج سان فرانسيسكو، تفصل الخليج عن المحيط الهادى.

(2) Safe Harbour



ولاحظت أنه كان يرسم قوارب لم تكن موجودة حقيقةً في المشهد أمامهما. مرت فترة طويلة قبل أن يعود الكلب ويجلس بجانبها على الرمال. أخذت تمرر يدها على شعره بلطف، دون أن تنظر إليه، كانت تنظر بعيداً إلى البحر، ومن وقت لآخر إلى الرسام.

بعد برهة، نهضت واقتربت قليلاً، وقفت خلفه إلى الجانب، فبقي غير مدرك لوجودها، بحيث تمكنت من النظر إلى الرسم الذي ينجزه بوضوح. أحبت الألوان التي كان يستعملها، وأحبت غروب الشمس في لوحته أيضاً. في ذلك الوقت كان الكلب قد تعب، فوقف إلى جانبها، وبدا وكأنه ينتظر تلقي الأمر. بعد برهة، اقتربت مجدداً، ووقفت على بعد كافٍ بحيث يستطيع الرسام رؤيتها. أجفل الرجل ورفع رأسه لينظر، فوثب الكلب أمامه، وأرسل رذاذاً من الرمال. عندها فقط نظر الرجل فرأى الطفلة. لم يقل شيئاً، واستمر في الرسم. تفاجأ عندما لاحظ أنها لم تتحرك، وظلت تراقبه، فأدار رأسه ثانيةً، وخلط ألوانه ببعض الماء، وذلك بعد مرور نصف ساعة.

لم يقولا شيئاً لبعضهما البعض، ولكنها استمرت في مراقبته، وأخيراً جلست على الرمل. كان ذلك أكثر دفئاً، لأنها بقيت منخفضة عن الرياح. مثلها تماماً، كان الرسام يرتدي كنزة فضفاضة، وبنطال جينز، وينتعل زوجاً قديماً من الأحذية البالية جداً. كان وجهه لطيفاً وشديد السمرة، وقد لاحظت عندما كان يرسم أن له يدين جميلتين. كان بنفس عمر والدها تقريباً، في الأربعينيات. وعندما التفت ليرى فيما إذا كانت ما تزال هناك، التقت أعينهما، ولكنّ أيّاً منهما لم يبتسم. لم يكن قد تحدث مع طفلة منذ وقت طويل.

"هل تحبين الرسم؟" لم يتمكن من تخيل أي سبب آخر يدفعها للبقاء هناك، إلا إذا كانت فنانة طموحة. وإلا لكانت قد ملت البقاء. كانت في الحقيقة تحب الصحبة الصامتة التي تنتج عن الاقتراب من شخص ما، حتى ولو كان غريباً. بدا ذلك أمراً ودوداً بطريقة ما.

"أحـياناً". كانــت حــذرة منه. فهو، بالرغم من كل شيء غريب، وهي تعـرف القــواعد الخاصـــة بذلك. كانت والدتها تذكرها دائماً بألا تتحدث مع الغرباء.

"مــاذا تحبــين أن ترسمي؟" سألها، وهو ينظف فرشاة أخرى، وينظر إلــى الأسفل وهو يتحدث إليها. كان وجهه وسيماً واضح المعالم، مع ذقن مشقوقة. بدا عليه الهدوء والقوة، كان عريض المنكبين مع ساقين طويلتين. وبالـــرغم من جلوسه على كرسي الرسام، كان من السهل معرفة أنه رجل طويل.

"أحب أن أرسم كلبي. كيف ترسم القوارب إن لم تكن موجودة؟".

هــذه المــرة ابتسم الرجل ونظر باتجاهها، فالتقت أعينهما مرة أخرى.

"أتخـيلها. أتحبــين أن تجربــي؟" قدّم لها مجموعة أوراق رسم صغيرة وقلم رصـــاص، كـــان من الواضح أنها لم تكن ذاهبة لأي مكان. ترددت، ومن ثم نهضت، ومشت باتجاهه، وأخذت المجموعة والقلم.

"هــل يمكنني رسم كلبي؟" أصبح وجهها الناعم جاداً وهي تسأل. شعرت بالفخر لأنه قدّم لها مجموعة الأوراق.

"بالتأكــيد. يمكــنك رسم أي شيء تحبينه". لم يكونا قد تعرفا على اسمي بعــضهما، ولكــنهما جلــسا جنباً إلى جنب لفترة قصيرة، بينما كان كل منهما يرســم. بــدت مركزّة وهي تنجز لوحتها. "ما اسمه؟" سألها الرسام عندما كان الكلب يمشي أمامهما، يلاحق النوارس.

"موس[1]" قالت دون أن ترفع عينيها عن اللوحة.

"لا يــبدو مــثل الموظ[2] ولكنه اسم جيد"، قال لها وهو يصحح شيئاً في عمله، ويعبس من لحظة إلى أخرى بلوحته.

---

(1) Mousse: الموسية، حلوى من قشدة مخفوقة وهلام وشوكولا...

(2) حيوان ضخم من حيوانات أميركا الشماليّة، من عائلة الغزلان.



"إنه طبق حلوى، فرنسي وهو يصنع من الشوكولاته".

"أعــتقد أن هــذا جيد"، قال وهو يبدو راضياً مرة أخرى. كان ذلك كافياً تقــريباً لذلك اليوم. فقد تجاوزت الساعة الرابعة وقد مضى على وجوده هناك مــنذ الغداء. "هل تتحدثين الفرنسية؟" قال لها، بغرض البحث عن شيء يتحدث عــنه أكثر من أي اهتمام حقيقي، فتفاجأ عندما أومأت. لقد مضت سنوات منذ أن تحــدث مع طفلة بعمرها، ولم يكن واثقاً مما يجب عليه قوله. ولكنها كانت مــصرّة علــى حــضورها الصامت. لاحظ، وهو ينظر إليها، بأنها تشبه ابنته قلــيلاً، باســتثناء شعرها الأحمر. كان لفانيسا في ذلك السن شعر أشقر طويل مسترسل، ولكن هنالك تشابه فيما يتعلق بالسلوك والوقفة. فلو نظر جيداً إليها، لبدا له أنه ينظر إلى ابنته.

"أمي فرنسية"، أضافت وهي تجلس ممعنة النظر في رسمها. لقد واجهت المشكلة نفسها التي تواجهها في كل مرة ترسم بها موس؛ القائمتان الخلفيتان لم تكونا صحيحتين.

"دعينا نلقي نظرة"، قال وهو يمد يده ليأخذ مجموعة الأوراق، مدركاً قلقها.

"لا أتمكــن مــن رســم الجزء الخلفي على الإطلاق"، قالت وهي تسلمه الأوراق. بــدا ذلــك مثل الأستاذ والطالب، إذ إن اللوحة أنتجت بينهما علاقة فورية. وبدت مرتاحة معه بشكل غريب.

"ســأريك كيف... أتسمحين بذلك؟" طلب إذنها قبل أن يضيف شيئاً على جهــودها، فأومــأت له بالإيجاب. وبحركات دقيقة من قلم الرصاص، صحح المــشكلة. كانت في الواقع صورة جيدة للكلب، حتى قبل إصلاحها. "لقد قمتِ بعمــل جيد"، قال وهو يعطيها الورقة مرة أخرى ويعيد مجموعة أوراقه وقلم الرصاص.

"شكراً لإصلاحها. لم أعرف أبداً كيفية رسم ذلك الجزء".

"ستعرفين فــي المــرة القادمة"، قال لها وبدأ بوضع ألوانه جانباً. كان الطقس يزداد برودة، ولكن لم يلاحظ ذلك أيٌّ منهما.

"هل ستذهب إلى المنزل الآن؟" بدت مصابة بخيبة الأمل، وذهل عندما نظر إلى عينيها الأشبه بلون الشراب ورأى فيهما الوحدة، فأثر ذلك في قلبه. انتابه شيء ما حولها.

"إن الوقت يتأخر". وكان الضباب فوق الأمواج يزداد كثافة. "هل تعيشين هنا، أم جئت للزيارة وحسب؟" لم يعرف أحدهما اسم الآخر، ولكن لم يبدُ أن لذلك أية أهمية.

"أنا هنا لقضاء الصيف". لم تكن هناك أية إثارة في صوتها، ونادراً ما تبتسم. لم يتمكن من كبت تعجبه من أمرها. اقتربت منه خلسةً وقت الظهر، والآن بينهما صلة غريبة لا يمكن تفسيرها.

"عند النهاية ذات البوابات؟" افترض أنها قد قدمت من النهاية الشمالية للشاطئ، وأومأت بذلك.

سألته الفتاة: "هل تعيش هنا؟" فأشار برأسه باتجاه أحد البيوت خلفهما كإجابة على ذلك. "هل أنت رسام؟".

"أعتقد ذلك. وكذلك أنت". ابتسم ملقياً نظرة على لوحة موس التي كانت تمسكها بإحكام. لم يبدُ أن أحداً منهما كان يرغب بالمغادرة، ولكنهما عرفا أنه يتوجب عليهما ذلك. عليها أن تعود إلى المنزل قبل أن تصل والدتها، وإلا ستقع في مشكلة. كانت قد هربت من المربية التي كانت تتحدث لساعات على الهاتف مع صديقها. علمت الطفلة أن جليسة الأطفال التي في سن المراهقة لن تأبه إن ذهبت لتتجول قليلاً. فهي لا تلاحظ ذلك في معظم الأحيان، إلى أن تأتي والدتها وتسأل عنها.

"كان والدي يرسم أيضاً". لاحظ كلمة كان، ولكن لم يكن متأكداً فيما إذا كان والدها لم يعد يرسم أو أنه قد غادرهم. شكّ بصحة الجملة الأخيرة. ربما كانت فتاة من منزل منشقّ، متعطشةً للرعاية الذكرية. لم يكن ذلك غير مألوف بالنسبة له.

"هل هو فنان؟".



"لا، إنه مهندس. وقد اخترع بعض الأشياء". ومن ثم، بتنهد، نظرت إليه بحزن. "أعتقد أنه من الأفضل أن أذهب إلى المنزل الآن". ظهر موس، وكأنه على استعداد، ووقف إلى جانبها.

"ربما أراك ثانية يوماً ما". كان الوقت في بداية تموز، وما يزال هناك وقت طويل على انتهاء الصيف. ولكنه لم يرها من قبل، واعتقد بأنها لم تأتِ من هذا الطريق كثيراً، فهو يبعد مسافة لا بأس بها.

"شكراً لأنك تركتني أرسم معك"، قالت بلطف مع ابتسامة تتراقص في عينيها هذه المرة، ولكن الكآبة الحزينة التي رآها في عينيها أثرت فيه بشدة.

"أحببت ذلك"، قال بصدق، ومن ثم مدّ يده، وهو يشعر بالارتباك بعض الشيء. "بالمناسبة، اسمي ماثيو بولز".

صافحت يده بثبات، وكان معجباً باتزانها وسلوكها الجيد. كانت روحاً صغيرة فريدة من نوعها، وكان سعيداً لمقابلتها. "أنا بيب ماكنزي".

"هذا اسم رائع. بيب؟ هل هو اختصار لشيء ما؟".

"نعم، أكرهه"، قهقهت، فبدت متناسبة مع عمرها مرة أخرى. "فيليبا. تمت تسميتي على اسم جدي. أليس هذا فظيعاً؟" قطّبت حاجبيها مزدرية اسمها، فأثار ذلك ابتسامة على وجهه. كانت رائعة، وخاصة بذلك الشعر الأحمر المجعد ووجهها المنمش، كل ذلك أعجبه. لم يعد يعرف إن كان يحب الأطفال، فقد كان يتجنبهم على الأغلب، ولكن هذه مختلفة. هنالك شيء ساحر فيها.

"أحببته، في الحقيقة. فيليبا. ربما ستحبينه يوماً ما".

"لا أعتقد ذلك. إنه اسم غبي. أحب بيب أكثر".

"سأتذكر ذلك عندما أراك في المرة القادمة"، قال لها مبتسماً.

بدا الأمر وكأنهما يمشيان ببطء وهما يرفضان ترك بعضهما البعض.

"سأعود مرة أخرى، عندما تذهب أمي إلى المدينة. ربما يوم الخميس".

حدث عنده انطباع غريب، بالنظر لما قالته، أنها ربما قد هربت أو خرجت دون ملاحظة أحد، ولكن الكلب بصحبتها على الأقل. أحس فجأة، لسبب لا يمكنه معرفته، أنه مسؤول عنها.

عند ذلك طوى كرسيه، ثم أمسك العلبة البالية الرثة التي احتفظ بألوانه فيها. وضع الكرسي المطوي تحت إحدى يديه، ثم وقفا ينظران إلى بعضهما البعض لوقت طويل.

"شكراً لك ثانية، سيد بولز".

"نادني مات. شكراً لزيارتك. وداعاً، بيب"، قالها بحزن تقريباً.

"وداعاً"، قالت وهي تلوّح له، ومن ثم انطلقت بعيداً مثل ورقة شجر تحملها الرياح، وهي تلوّح مرة أخرى، وتركض عائدة إلى الشاطئ وموس خلفها.

وقف يراقبها لوقت طويل، وتساءل إن كان سيراها مرة أخرى، أو إن كان ذلك يهم. فهي طفلة على كل حال. وجّه رأسه باتجاه الرياح، ثم مشى على الرمال إلى كوخه. لم يكن يقفل الباب أبداً، وعندما دخل وضع أشياءه في المطبخ، شعر بكآبة لم يكن قد شعر بها منذ سنين، ولم يكن ليرحب بها. هذه هي مشكلة الأطفال، قال لنفسه، وهو يصب كأساً من الشراب. يزحفون إلى روحك مباشرة، مثل نسرة صغيرة تحت الظفر، تؤلمك بشدة عندما تتخلص منها. ولكن ربما يستحق الأمر العناء. كان هنالك شيء فريد فيها، وعندما أخذ يفكر بالفتاة الصغيرة على الشاطئ، انحرفت عيناه إلى الصورة التي كان قد رسمها من قَبل منذ سنوات للفتاة التي تشبهها بشكل ملحوظ. كانت تلك الصورة لابنته، فانيسا، عندما كانت في نفس عمرها تقريباً. وهو على هذه الحال، مشى إلى غرفة المعيشة، وجلس مثقلاً على كرسي جلدي قديم بالٍ، ونظر إلى الضباب المتدحرج فوق المحيط. وبينما كان يحدق به، كان كل ما تمكن من رؤيته في عقله تلك الفتاة الصغيرة ذات الشعر الأحمر اللامع المجعد والوجه المنمش، والعينين الآسرتين بلون الشراب.



# 2

سلكت أوفيلي ماكنزي آخر منعطف في الطريق، وقادت سيارتها الستايشن ببطء عبر البلدة الصغيرة المسماة بمرفأ الأمان (سيف هاربر). تتألف البلدة من مطعمين، ومكتبة، ومحل لألواح التزلج على الماء، ومحل بقالة، وصالة فنية. لقد كانت فترة ما بعد الظهر شاقة بالنسبة لها في المدينة. كرهت الذهاب إلى المجموعة مرتين في الأسبوع ولكنها تعرف بأن ذلك يساعدها. كانت تذهب إلى هناك منذ شهر أيار، وقد بقي أمامها شهران آخران. كانت قد وافقت أيضاً على حضور الاجتماعات خلال الصيف، وهذا هو سبب تركها لبيب مع ابنة الجيران. كانت آمي تبلغ السادسة عشر من العمر، تحب مجالسة الأطفال، أو تزعم ذلك، وتحتاج للمال لدعم مخصصاتها. احتاجت أوفيلي للمساعدة، وبدا أن بيب تحبها. كان ذلك ترتيباً مريحاً للجميع، بالرغم من أن أوفيلي تكره قيادة سيارتها إلى المدينة مرتين أسبوعياً، ولو كان ذلك يستغرق منها نصف ساعة فقط، أو أربعين دقيقة كحدٍّ أقصى. وباستثناء الأميال العشرة للمنعطفات الحادة بين الطريق السريع والشاطئ، كانت الرحلة سهلة. أراحتها قيادة السيارة على طول المنحدرات، على الطريق المنعطفة المطلة على الشاطئ. إلا أن ظهرها كان متعباً هذا اليوم. أحياناً، يكون الاستماع إلى الآخرين عملاً شاقاً، ومشاكلها الشخصية لم تتحسن كثيراً منذ شهر تشرين الأول. إن كان قد حصل أي شيء، فهو ازديادها صعوبة. ولكنها تمتلك دعم المجموعة على الأقل، فقد كانت المجموعة مؤلفة من أشخاص يمكن التحدث إليهم. وعندما تحتاج، بإمكانها إطلاق العنان لنفسها معهم، والاعتراف بمقدار

اليأس الذي كانت تشعر به. لا ترغب بأن ترهق بيب بمشاكلها. فذلك لا يبدو أمراً عادلاً لطفلة في الحادية عشرة.

قادت أوفيلي عبر البلدة، وبعد ذلك بفترة قصيرة أخذت المنعطف الأيسر باتجاه النهاية المغلقة للطريق المؤدي إلى القسم ذي البوابات في مرفأ الأمان (سيف هاربر). معظم الناس يتجاوزونه. فعلت ذلك بشكل انعكاسي الآن، وكأنه تصرف فطري. لقد كان ذلك قراراً صائباً، ومكاناً مناسباً لقضاء الصيف. كانت تحتاج للهدوء والأمن الذي يقدمه هذا المكان. كما كانت بحاجة للعزلة، وللصمت، وللامتداد الطويل الذي بدا أنه لا ينتهي للشاطئ والرمل الأبيض، والذي كان بارداً في بعض الأحيان وحاراً مشمساً في أحيان أخرى.

لم تكن تأبه لأيام البرد والضباب. فقد كانت تناسب مزاجها في بعض الأحيان أكثر من الشمس الساطعة والسماء الزرقاء التي كان يحن لها القاطنون الآخرون على الشاطئ. في بعض الأحيان لم تكن تغادر المنزل على الإطلاق. فقد كانت تبقى جالسة في السرير، أو تدسُّ نفسها في زاوية غرفة المعيشة، وتتظاهر بأنها تقرأ كتاباً، ولكنها في الواقع كانت تفكر وحسب، كانت تحلق بفكرها عائدة إلى زمان ومكان آخرين عندما كانت الأمور مختلفة... قبل شهر تشرين الأول. لقد مضى على ذلك تسعة أشهر، ولكنها بدت أشبه بالعمر كله.

قادت أوفيلي سيارتها ببطء عبر البوابة، وعندما لوّح الرجل في الكشك الأمني، أومأت هي. أطلقت تنهدة صغيرة عندما كانت تقود سيارتها باتجاه المنزل بحذر فوق المطبات. كان هنالك أطفال يركبون دراجاتهم على الطريق، والعديد من الكلاب، والقليل من الأشخاص الذين يتمشون. كان هذا أحد المجمّعات التي يعرف الأشخاص فيها بعضهم البعض، وبالرغم من ذلك يبقى كل واحد منهم في شأنه. لقد مضى شهرٌ على وجودها وابنتها هنا، ولم تلتقِ بأحد منهم، كما أنها لا ترغب بذلك. وبعد أن قادت سيارتها إلى الطريق الخاصة وأطفأت محركها، جلست بهدوء للحظة. كانت متعبة لدرجة لا ترغب فيها بالتحرك، أو برؤية بيب، أو بإعداد العشاء، ولكنها كانت تعلم أنه يتوجب





عليها ذلك. كان هذا جزءاً من المشكلة، البلادة التي لا تنتهي والتي تجعل من المستحيل القيام بأي شيء أكثر من تمشيط شعرها أو إجراء القليل من المكالمات الهاتفية.

في هذه اللحظة على الأقل شعرت وكأن حياتها قد انتهت. شعرت بأن عمرها مئة سنة، رغم أنها كانت تبلغ اثنين وأربعين عاماً، وتبدو وكأنها في الثلاثين. كان شعرها طويلاً أشقر، وناعماً مع بعض التجعيد، أما عيناها فكانتا تماماً كعيني ابنتها. كانت صغيرة وناعمة كابنتها بيب. عندما كانت في المدرسة، كانت راقصة. لقد حاولت أن تجعل بيب تهتم بالباليه في عمر مبكر، ولكن بيب لم تأبه لذلك. لقد وجدت بيب الباليه صعباً ومملاً، كرهت التمارين، وحواجز التمرين، والفتيات الأخريات اللواتي كنّ يهدفن للكمال. لم تكن تأبه لملابسها أو وثباتها أو قفزاتها أو حركات الباليه. استسلمت أوفيلي في النهاية من محاولة إقناعها، وتركت بيب تفعل ما ترغب به. حضرت دروس ركوب الخيل لمدة سنة بدلاً عن ذلك، وأخذت دروساً في الخزف في المدرسة، أما بقية الوقت فكانت تفضل أن ترسم. كانت بيب منعزلة في هواياتها، وكانت سعيدة في أن تُترك لرغباتها الخاصة، لكي تقرأ، أو ترسم، أو تحلم، أو تلعب مع موس. في بعض النواحي، كانت تشبه والدتها التي كانت منعزلة في طفولتها أيضاً. لم تكن أوفيلي واثقة فيما إذا كان أمراً صحياً أن تترك طفلتها منطوية على نفسها كما كانت هي. ولكن بيب بدت سعيدة بتلك الطريقة، وكانت دائماً قادرة على تسلية نفسها، حتى الآن، عندما أصبحت والدتها تهتم بها قليلاً. للمراقب الخارجي على الأقل، بدا أن بيب لا تمانع ذلك، بالرغم من أن والدتها تشعر بالذنب لقلة تفاعلهما معاً. كانت قد ذكرت ذلك للمجموعة عدة مرات. ولكن أوفيلي بدت غير قادرة على إنهاء فترة بَلادتها الخاصة. لا شيء سيبقى على حاله الآن.

وضعت أوفيلي مفاتيح سيارتها في حقيبتها، وخرجت من السيارة، وأغلقت الباب دون أن تقفله. فلا حاجة لإقفاله. وعندما مشت إلى داخل

المنزل، كل ما رأته كان آمي التي تملأ غسالة الصحون بجهد وتبدو منشغلة. هي دائماً منشغلة عندما تصل أوفيلي إلى المنزل، الأمر الذي يعني أنها لم تكن تفعل شيئاً طوال فترة ما بعد الظهر لذلك يتوجب عليها أن تعوض الوقت المهدور خلال الدقائق الأخيرة. كان هناك القليل لتفعله على أية حال، فهو منزل جميل ومُبهج ومعتنى به جيداً، بأثاث عصري نظيف المظهر، وأرضية خشبية فاتحة غير مفروشة، ونافذة كبيرة تمتد على طول المنزل لتقدم منظراً رائعاً للمحيط. كان هناك منصة طويلة ضيقة في الخارج، بأثاث خارجي عليها. كان المنزل يناسبهما تماماً. هادئ، سهل الترتيب، وممتع.

"مرحباً، آمي. أين بيب؟" سألت أوفيلي بعينين متعبتين. لم يكن ممكناً معرفة أصلها الفرنسي تقريباً، فلم تكن لغتها الإنكليزية طلقة وحسب، بل لكنتها كانت مثالية تقريباً. فقط عندما تكون متعبة جداً، أو غاضبة بشدة، تنزلق منها كلمة أو اثنتان فينفضح أمرها.

"لا أعلم". بدت آمي شاحبة فجأة، عندما نظرت إليها أوفيلي. كانتا قد تحدثتا عن ذلك من قبل. لم يبدُ أن آمي تعرف مكان بيب على الإطلاق. وشكّت أوفيلي بذلك على الفور، كالعادة، لقد كانت تتحدث مع صديقها على الهاتف الخلوي. هذا هو الشيء الوحيد الذي تعترض عليه أوفيلي في كل مرة تقريباً تجلس آمي عندها. فقد كانت تتوقع منها معرفة مكان بيب، خاصة عندما يكون المنزل قريباً جداً من المحيط. كانت أوفيلي تصاب بالذعر دائماً خوفاً من أن يكون مكروه قد أصاب ابنتها. "أعتقد أنها في غرفتها تقرأ. هناك كانت آخر مرة شاهدتها فيها". أجابت آمي. في الحقيقة، لم تكن بيب في غرفتها منذ أن غادرتها في الصباح. ذهبت أمها لتلقي نظرة، وبالتأكيد لم ترَ أحداً. في تلك اللحظة تماماً، كانت بيب تركض على الشاطئ باتجاه منزلها، برفقة موس الذي كان يثب بجانبها.

"هل نزلت إلى الشاطئ؟" سألت أوفيلي عندما وصلت إلى المطبخ وكان الغضب يبدو عليها. كانت أعصابها باردة منذ تشرين الأول، وقد كانت غير



ذلك من قبل. ولكن الآن كل شيء مختلف. كانت آمي قد شغلت للتو غسالة الصحون وتجهزت للمغادرة، باهتمام قليل أو معدوم. كانت تتمتع بثقة نفس الشباب. أما أوفيلي فهي أكثر علماً منها، وقد تعلمت الدرس المؤلم ومفاده أنه لا يمكن الوثوق بالحياة.

"لا أعتقد ذلك. ولو فعلت ذلك، فهي لم تخبرني". بدت الشابة التي تبلغ من العمر ست عشرة سنة مرتاحة وغير قلقة. أما أوفيلي فبدت قلقة، رغم أنه من المفترض أن يكون هذا المجمّع آمناً، ويبدو كذلك، ولكن الأمر ما يزال يغضبها ويروعها بأن آمي قد سمحت لبيب أن تتجول خارجاً دون أي مراقبة. إن أصيبت بأذى، أو تعرضت لمشكلة، أو صدمتها سيارة في الطريق، فلا أحد سيعرفها. كانت قد قالت لبيب أن تخبر آمي قبل أن تذهب لأي مكان، ولكن الطفلة والمراهقة لم تنفذا أوامرها. "أراكِ يوم الخميس!" صاحت آمي وهي تنطلق بسرعة خارج الباب، بينما كانت أوفيلي تخلع خفها بشدة، مشت إلى الخارج نحو المنصة، نظرت للأسفل إلى الشاطئ بتجهم قلق، فرأتها. كانت بيب آتية وهي تركض بسرعة، وتحمل شيئاً في يدها يرفرف في الهواء. بدا مثل قطعة من الورق، عندما كانت بيب تركض على الرمال، شعرت أوفيلي بالراحة تحيط بها، ومن ثم نزلت إلى الأسفل نحو الشاطئ لملاقاتها. كانت السيناريوهات الأسوأ هي دائماً ما يقفز إلى عقلها هذه الأيام، بدلاً عن التفسيرات الأبسط. كانت الساعة الخامسة تقريباً، والطقس يزداد برودة.

لوّحت أوفيلي لابنتها، التي توقفت لاهثة إلى جانبها، وهي تبتسم بسرور، وركض موس حولهما وهو ينبح. رأت بيب أن أمها تبدو قلقة.

"أين كنت؟" سألت أوفيلي وهي تقطب حاجبيها، فهي ما تزال غاضبة من آمي. إذ إنّ الأمل ميؤوس من الفتاة. ولكن أوفيلي لم تجد أحداً غيرها يجلس مع ابنتها. وهي تحتاج إلى شخص يجلس مع بيب كلما ذهبت إلى المدينة.

"ذهبت لأتمشى مع موس. لقد مشينا كل ذلك الطريق"، وأشارت باتجاه الشاطئ الشعبي، "واستغرقت العودة وقتاً أكثر مما اعتقدت. فقد كان يلاحق النورس". ابتسمت أوفيلي لطفلتها واستراحت أخيراً، فقد كانت طفلة لطيفة. فرؤيتها فقط كانت تذكر أوفيلي أحياناً بطفولتها في باريس، وأيام الصيف في بريتاني، لم يكن الجو مختلفاً عن هنا كثيراً. أحبت أيام الصيف هناك، وقد أخذت بيب إلى هناك عندما كانت صغيرة، لكي ترى ذلك وحسب.

"ما هذا؟" نظرت إلى قطعة الورق ورأت أنها رسم لشيء ما.

"رسمت صورة لموس. عرفت الآن كيفية رسم القائمتين الخلفيتين". ولكنها لم تقل كيف تعلمت ذلك. تعلم أن والدتها لا توافق على تجولها في الخارج وحدها على الشاطئ، والتحدث إلى رجل غريب، حتى وإن أصلح لها رسمها، ولم يكن ذلك مؤذياً. كانت أمها صارمة جداً بخصوص عدم تحدث بيب مع الغرباء. كانت تعلم جيداً كم أن طفلتها جميلة، حتى وإن كانت بيب لا تدرك ذلك بالكامل في هذه الأثناء.

"لا أستطيع تخيل أنه جلس ساكناً لرسم لوحته"، قالت أوفيلي مع ابتسامة ونظرة من الاندهاش. وعندما تبتسم، يدرك المرء على الفور مقدار جمالها وهي سعيدة. كانت جميلة، مع ملامح ناعمة منحوتة بشكل فاتن، وأسنان رائعة، وابتسامة لطيفة، وعينين ترقصان عندما تضحك. ولكن منذ شهر تشرين الأول، كان من النادر أن تضحك. وفي المساء، قلّ أن تتحدثا مع بعضهما، فكلٌ منهما تائهة في عالمها الخاص المنفصل. بالرغم من مقدار الحب الذي تكنه لطفلتها، لم تعد أوفيلي قادرة على التفكير بمواضيع للتحدث. كان ذلك جهداً كبيراً جداً، أكثر مما يمكنها التعايش معه. كل شيء أصبح صعباً جداً الآن، حتى التنفس أحياناً، وبشكل خاص التحدث. تأوي إلى غرفة نومها ليلةً بعد ليلة، تجلس على سريرها في الظلام. وتذهب بيب إلى غرفتها الخاصة وتغلق الباب، وإن أرادت صحبة معها، تأخذ الكلب. كان هو رفيقها الدائم.



"جلبت بعض الأصداف لك"، قالت بيب، وسحبت صدفتين جميلتين من جيب كنزتها وقدمتهما لأمها. "وجدت دولار الرمل[1] أيضاً، ولكنه كان مكسوراً".

"هو غالباً كذلك"، قالت أوفيلي وهي تحمل الصدفتين في يديها، ثم مشتا إلى المنزل سوية. لم تقبّل بيب قبلة الترحيب، كانت قد نسيت ذلك. ولكن بيب اعتادت على ذلك الآن. وكأن أي صيغة من اللمسة أو الاتصال الإنسانيين أمر مؤلم جداً بالنسبة لوالدتها. انسحبت خلف جدرانها، ولقد كانت الأم التي عرفتها بيب خلال الإحدى عشرة سنة الماضية قد تلاشت. أما المرأة التي احتلت مكانها، وبالرغم من أنها تشبهها من الخارج، فهي في الحقيقة هشة ومحطمة. شخص ما قد أخذ أوفيلي بعيداً في ظلام الليل وأبدلها برجل آلي. بدت كما هي، ملمسها، رائحتها، شكلها هو نفسه، لا شيء اختلف شكلياً فيها، ولكن كل شيء فيها قد تغيّر. جميع الأعمال والآليات الداخلية قد اختلفت بشكل لا يمكن إصلاحه، وكلتاهما تعرف ذلك. ليس لبيب أي خيار سوى القبول بذلك. وقد كانت رؤوفة بأمر والدتها.

بالنسبة لطفلة في عمرها، ازدادت بيب حكمةً في الأشهر التسعة الماضية، لقد أصبحت أكثر حكمة من معظم الفتيات اللواتي في عمرها. وقد طورت إحساساً حدسياً للأشخاص، وبخاصة لوالدتها.

"هل أنت جائعة؟" سألت أوفيلي، وقد بدا عليها القلق. فتحضير العشاء أصبح أمراً مؤلماً تكرهه، وطقساً لا ترغب به، أما تناول العشاء فأصبح أكثر إيلاماً أيضاً. لم تشعر بالجوع على الإطلاق، لم تعرفه لأشهر. أصبحت كل منهما أكثر نحفاً منذ تسعة أشهر بسبب وجبات العشاء التي لم تتمكنا من بلعها.

"ليس بعد. هل تريدينني أن أصنع البيتزا الليلة؟" عرضت بيب. كانت إحدى الوجبات التي لا تستمتع أي منهما بتناولها، رغم أن أوفيلي لم تلاحظ كيف أصبحت بيب تقلل من طعامها هذه الأيام.

(1) دولار الرمل: قنفذ بحريّ مدوّر مفلطح الشكل يألف الأعماق الرملية.

"ربما"، قالت أوفيلي دون وضوح. "يمكنني صنع شيء ما إذا أردت".

كان قد مضى على تناولهما البيتزا أربع ليالٍ متتالية. هناك أكوام منها في الثلاجة. ولكن كل شيء بدا أنه جهدٌ كبيرٌ لقاء مردود قليل. إن كانتا لا تريدان تناول الطعام على أية حال، تكون البيتزا أمراً سهلاً على الأقل.

"أنا لست جائعة حقاً"، قالت بيب بغموض. فهما تقولان نفس الحوار كل ليلة. وبالرغم من ذلك، تشوي أوفيلي الدجاج وتصنع السَلَطة في بعض الأحيان. ولكنهما لا تأكلان ذلك أيضاً، فذلك عناء كبير. كانت بيب تحافظ على بقائها بتناول زبدة الفول السوداني والبيتزا. أما أوفيلي فتكاد لا تأكل شيئاً، وكان ذلك يبدو عليها.

ذهبت أوفيلي إلى غرفتها وتمددت، بينما ذهبت بيب إلى غرفتها ووضعت لوحة موس على المصباح الموضوع فوق طاولة السرير. كانت الورقة المأخوذة من المجموعة قاسية بما يكفي لإسنادها على المصباح، وعندما نظرت بيب إليها، أخذت تفكر بماثيو. كانت متشوقة لرؤيته مرة أخرى يوم الخميس، فقد أحبته. وبدت اللوحة أفضل بكثير بفضل التغييرات التي صنعها للقائمتين الخلفيتين. بدا موس أشبه بكلب حقيقي في اللوحة، وليس كما لو أن نصفه كلب والنصف الآخر أرنب، مثل اللوحات السابقة التي رسمتها له. كان من الواضح أن ماثيو رسام محترف.

كان الظلام دامساً في الخارج عندما ذهبت بيب في النهاية إلى غرفة نوم أمها. وذلك لعرض خدماتها فيما يتعلق بإعداد العشاء، ولكن أوفيلي كانت نائمة. كانت تتمدد هناك ساكنةً تماماً لتجعل بيب قلقةً للحظة، ولكنها تمكنت من رؤيتها تتنفس عندما اقتربت. غطتها ببطانية كانت موضوعة عند نهاية السرير. كانت والدتها تشعر بالبرد دائماً، ربما بسبب الوزن الذي خسرته، أو بسبب الحزن وحسب. وكانت تنام كثيراً في هذه الفترة.

عادت بيب إلى المطبخ، وفتحت البراد. لم تكن ترغب بالبيتزا الليلة، ولكنها في العادة تأكل قطعة واحدة فقط على أية حال. بدلاً عن ذلك، صنعت



لنفسها شطيرة من زبدة الفول السوداني، وتناولتها وهي تُشغل التلفاز. شاهدته بهدوء لبرهة، بينما كان موس نائماً عند قدميها. كان متعباً من الركض على الشاطئ، ويغط بنوم هادئ، استيقظ موس فقط عندما أطفأت بيب التلفاز والأضواء في غرفة المعيشة، ومن ثم مشت بلطف إلى غرفة نومها. نظفت أسنانها وارتدت البيجاما، وذهبت إلى السرير بعد عدة دقائق ثم أطفأت الضوء. استلقت في سريرها بهدوء لبرهة، تفكر بماثيو بولز مرة ثانية، وتحاول ألا تفكر بكم تغيرت الحياة منذ تشرين الأول. بعد عدة دقائق، استغرقت في النوم. أما أوفيلي فلم تستيقظ حتى صباح اليوم التالي.

# 3

أشـــرق فجـــر يـــوم الأربعاء عن واحد من تلك الأيام المشرقة بشمسها وحـــرارتها، والتي نادراً ما تحدث في مرفأ الأمان (سيف هاربر)، مما يجعل الجمـــيع يندفعون نحو الشمس للاستمتاع بها لساعات شاعرين بكامل الامتنان لهـــا. عندما استيقظت بيب كان الطقس حاراً، مشت إلى المطبخ، وهي ترتدي البـــيجاما. كانـــت أوفيلـــي تجلس على طاولة المطبخ، ومعها كوب من الشاي الحـــار، وكـــان الإرهاق بادياً عليها. حتى عندما تنام، لم تكن تستيقظ مرتاحة على الإطلاق. فقد كانت كرة الواقع الحديدية لا تستغرق أكثر من لحظة واحدة قـــبل أن ترتطم بصدرها مرة أخرى. كان هناك دائماً لحظة واحدة من السعادة الـــرائعة تتـــبعها بالتأكـــيد ومباشرةً اللحظات البشعة، عندما تتذكر. وبين تلك اللحظتين، يقع المعبر المشؤوم حيث يمتلكها الإحساس الداخلي بأن شيئاً مريعاً كان قد حدث. وبينما تكون قد استيقظت، يكون تأثير ضربة الاستيقاظ قد تركها مرهقة ومنهكة القوى. لم يكن الصباح أمراً سهلاً بالنسبة لها.

"هل نمت جيداً؟" سألتها بيب بلطف، وهي تصبّ لنفسها كوباً من عصير البـــرتقال، وتضع شريحة من الخبز في المحمصة. لم تضع واحدة لأمها فهي تعلم أنها لن تأكلها. كان من النادر أن ترى بيب أمها تأكل هذه الأيام، وبخاصة طعام الفطور فهي لا تتناوله على الإطلاق.

لم تزعج أوفيلي نفسها بالإجابة على السؤال، فكلتاهما تعلم بأن ذلك أمر لا معنـــى لـــه. "متأسفة لأنني نمت باكراً ليلة أمس. كنت أنوي الاستيقاظ. هل تـــناولت العـــشاء؟" بدت قلقة. فهي على علم بقلة اهتمامها بطفلتها، ولكن بدت

غير قادرة على القيام بأي شيء حيال ذلك. بدت فاقدة القدرة على القيام بأي شيء لابنتها، باستثناء الشعور بالذنب. أومأت بيب فهي لا تمانع في إعداد طعامها بنفسها. فغالباً ما يحدث ذلك، وفي الواقع، كان ذلك يحدث بشكل دائم تقريباً. تناول الطعام بمفردها أمام شاشة التلفاز كان أفضل من الجلوس بصمت مع أمها على الطاولة. لقد استنفدا الحديث عن كل شيء منذ أشهر. كان الأمر أكثر سهولة في الشتاء، عندما كانت تقوم بواجباتها الدراسية، فهي ذريعة لمغادرة الطاولة بسرعة.

خرجت شريحة الخبز المحمص مصدرة صوتاً عالياً من المحمصة، أمسكتها بيب، وضعت زبدة الفول السوداني فوقها وتناولتها ولم تهتم لأمر وضعها فوق الطبق. إنها لا تحتاج له، فهي تعلم بأن موس سيهتم بالفتات الذي ستسقطه. المكنسة الكلبية. مشت بيب خارجاً إلى المنصة، وجلست على الأريكة تحت أشعة الشمس، وبعد لحظة، تبعتها أوفيلي.

"قالت أندريا بأنها ستأتي اليوم مع المولود". بدت بيب مسرورة لتلك الفكرة. كانت تحب ذلك المولود. ويليام، ابن أندريا، إنه يبلغ من العمر ثلاثة أشهر، وهو رمز لاستقلالية والدته وشجاعتها. في سن الرابعة والأربعين، فقدت الأمل للالتقاء أخيراً بالأمير الساحر والزواج به. حملت بالولد عن طريق حمل صناعي من معطٍ للنطاف، ولقد وضعت مولودها في شهر نيسان، إنه طفل جميل، ممتلئ الجسم، شعره أسود اللون، وعيناه زرقاوان ضاحكتان، وضحكته فاتنة. كانت أوفيلي عرابته، مثلما كانت أندريا عرابة بيب.

لقد تصادقت أندريا وأوفيلي منذ قدوم تلك الأخيرة إلى كاليفورنيا منذ ثماني عشرة سنة مع زوجها. لقد أقاما في في كامبردج، ماساتشوستس، لمدة سنتين قبل ذلك، عندما كان تيد يُدرّس الفيزياء في هارفارد. لم يشك أي شخص عاقل بأنه كان عبقرياً. كان ذكياً، هادئاً، صعب المراس، وقليل الكلام أحياناً، وكان في نفس الوقت وسيماً ولطيفاً، وفي أحد الأيام كان محباً. جعله الوقت وتحديات الحياة قاسياً في النهاية، بل زاداه مرارةً أيضاً. مضى عليه



سنوات قاسية عندما لم تجرِ الأمور كما يرغب، حيث كان يفتقد لأي نقود. وفي السنوات الخمس الأخيرة، حالفه الحظ. اثنان من اختراعاته أكسباه ثروة عظيمة، وبذلك أصبح كل شيء سهلاً. ولكنه لم يعد منفتح القلب أو الروح.

أحب أوفيلي وعائلته، إنهما يعلمان ذلك، أو لنقل لقد علما بذلك، ولكنه لم يعد يظهر مشاعره. أصبح تائهاً في صراعاته المستمرة لإخراج تصاميم جديدة، واختراعات، وحلول للمشاكل. وتمكن في النهاية من الحصول على الملايين من بيع رُخص براءات اختراعاته في مجال تقنية الطاقة. لم يعد معروفاً على نطاق العالم فحسب، بل مُبجلاً ومحترماً في الكون بأسره. لقد عثر على قِدر الذهب في الطرف الآخر من قوس القزح في النهاية، لكنه لم يعد يتذكر وجود قوس القزح أصلاً. تركز عالمه بالكامل على عمله، أما زوجته وأولاده فقد أصابهم كل النسيان. كان يتمتع بكل صفات العبقرية. ولكن لم يكن هناك أي شك بأن أوفيلي تحبه. بجميع مشاكله وخصوصياته، لم يكن أحدٌ يشبهه، وكان هناك دائماً اتصال قوي بينهما. وكما كانت أوفيلي قد قالت لأندريا في أحد الأيام بصبر وأناة: "لا أعتقد أن زوجة بيتهوفن قد وجدت الأمر سهلاً أيضاً". كانت شخصيته تتميز بسرعة الغضب كطبيعة الوحش، كما كانت جزءاً لا يتجزأ منه. لم تَلُمْ مزاجه أو شخصيته المنعزلة، ولكنها كانت تشتاق كثيراً للسنوات السابقة عندما كان كل شيء أكثر دفئاً وراحة بينهما. وبطريقة أو بأخرى، يعلم كلاهما أن تشاد هو الذي غيّر ذلك. مشاكل ابنهما هي التي غيّرت والده بشكل غير قابل للعودة. في الوقت الذي انسحب تيد من ابنه، انسحب من والدته أيضاً، وكأن ذلك كان خطأها. عانى ابنهما الوحيد من مشاكل عسيرة في طفولته، وبعد آلام لا تنتهي وطريق مليء بالعذاب، شُخّص بأنه مصاب بالاضطراب ثنائي القطب[1] وهو في عمر الرابعة عشر. ولكن بحلول ذلك الوقت، وبحثاً عن خلاصه وراحة باله، ابتعد تيد عنه بالكامل،

---

(1) اضطراب نفسي عاطفي يتميز بفترات متناوبة من الهوس والاكتئاب.

وأصبح الولد مشكلة أمه بالكامل. كان تيد قد بحث عن الحل ووجد الملجأ في الإنكار.

سألت بيب وهي تنهي شريحة الخبز "متى تأتي أندريا؟".

"حالما تنتهي من تهيئة طفلها. قالت بأن ذلك سيكون في وقت ما هذا الصباح". كانت أوفيلي سعيدةً لقدومها. كان الطفل تسلية رائعة، وبخاصة لبيب، التي كانت تحبه كثيراً. وبالرغم من عمرها وعدم خبرتها، كانت أندريا امرأة هادئة ومتحملة إلى حدٍّ ما. لم تكن تمانع بأن تتجول به بيب في كل مكان، فقد كانت تحمله، وتقبله، وتدغدغ أصابعه بينما ترضعه أمه. وكان الطفل يحبها. كان مزاجه المرح يجلب شعاعاً من نور الشمس إلى حياتهما، والذي كان يشعر أوفيلي بالدفء كلما رأته.

والشيء الذي أثار دهشة الجميع، كان السنة التي أخذتها كاستراحة من تدريبها الناجح كمحامية لتبقى مع طفلها. كانت تحب المكوث معه. قالت بأن وجود ويليام كان أفضل شيء فعلته، ولم تندم على ذلك لأية لحظة. أخبرها الجميع بأن وجوده سيحول دون إيجاد الرجل، ولكن لا يبدو أنها تأبه لذلك. كانت سعيدة بابنها، ومبتهجة به منذ البداية. كانت أوفيلي معها عند الولادة التي أثارت دموعهما. كانت الولادة سريعة وسهلة، وهي أول واحدة تشهدها أوفيلي باستثناء ولادة أولادها. في الواقع، لقد سلم الطبيب لأوفيلي الطفل لتقدمه لأندريا، بعد دقائق من ولادته، ومنذ تلك الولادة، شعرتا بعلاقة أبدية. كان ذلك حدثاً استثنائياً، قد أثار المشاعر بعمق، وذكرى تبقى في ذهنيهما. أظهرت تلك اللحظة فعلاً طبيعة صداقتهما.

جلست الأم والابنة في الشمس لبرهة دون الشعور بواجب التحدث عن أي شيء، وبعد برهة، دخلت أوفيلي إلى المنزل لتجيب على الهاتف. كانت أندريا، قد أنهت للتو إرضاع طفلها، وهي تتجه نحو الشاطئ. ذهبت أوفيلي لتأخذ حماماً، وارتدت بيب ثوب السباحة، ثم أخبرت والدتها بأنها ذاهبة إلى الشاطئ مع موس. وعندما وصلت أندريا بعد خمس وأربعين دقيقة كانت بيب



لا تزال تخوض في المياه. وكعادتها، كانت أندريا تدخل المنزل مثل ريح الأعاصير، وبعد دقائق من وصولها، تنتشر أكياس الحفاضات، والبطانيات، والألعاب، والأرجوحة في جميع أرجاء غرفة المعيشة. ذهبت أوفيلي إلى قمة كثيب الرمل ولوحت لبيب بأن تأتي، وبعد فترة قصيرة من وصولها، كانت تلعب مع الطفل، أما موس فكان ينبح بابتهاج. كانت تلك هي الحالة العادية لزيارات أندريا. وبعد ساعتين قامت أندريا بإرضاع الطفل ثانيةً، ثم استقرت الأشياء في النهاية. كانت بيب قد تناولت شطيرة بحلول ذلك الوقت، وذهبت إلى الشاطئ. أما أندريا فكانت ترتشف كأساً من عصير البرتقال، وهي تجلس بهدوء على الأريكة فيما كانت أوفيلي تبتسم لها.

"إنه جميل جداً... أنت محظوظة جداً به". قالت أوفيلي بحسد. لقد كان وجود الطفل بينهما يبعث على الهدوء والبهجة. الأمر يتعلق بالبدايات وليس بالنهايات، بالأمل بدلاً عن خيبة الأمل والفقدان والحزن. بين ليلة وضحاها، أصبحت حياة أندريا على نقيض حياتها. أما أوفيلي فتشعر في معظم الأحيان بأن حياتها قد انتهت.

"كيف حالك إذاً؟ كيف تشعرين وأنت هنا؟" كانت أندريا قلقة عليها دائماً، وهذا حالها خلال الأشهر التسعة الماضية. مددت ساقيها الطويلتين للخارج باسترخاء وهي تجلس على الأريكة ووضعت الطفل على صدرها، ولم تأبه لتغطية نفسها. كانت فخورة بدورها الجديد في الحياة الآن. كانت امرأة جميلة، بعينين سوداوين ثاقبتين، وشعر أسود طويل جعلته على شكل ضفيرة. اختفت فجأة تصرفاتها الجدّية وبذلات قاعة المحكمة. كانت ترتدي صدرية نسائية وردية اللون وبنطالاً قصيراً أبيض، حافية القدمين، لقد كانت أطول من أوفيلي بمقدار رأس كامل. عندما ترتدي الحذاء ذا الكعب، يظهر طولها بأنه أكثر من ستة أقدام وهي امرأة ملفتة للنظر. وبرغم طولها، كان من الواضح أنها مفعمة بالأحاسيس.

"الوضع هنا أفضل"، أجابت أوفيلي، لم تكن صادقة بالكامل، رغم أنها كانت كذلك في بعض الأيام. إنها تقطن على الأقل في منزل لا يوجد فيه أية

ذكريات ملموسة، باستثناء تلك التي حملتها في رأسها. "أعتقد أحياناً بأن المجموعة تصيبني بالكآبة، وفي أحيان أخرى، أعتقد بأنها تساعدني. ولكن في معظم الوقت، ماذا تقدمه لي تلك المجموعة".

"ربما الاثنان معاً. كحال جميع أمور الحياة، خليط من الشيئين. على الأقل، أنت تشتركين مع أشخاص آخرين بالشيء نفسه. ربما لا يفهم معظمنا ما تشعرون به". كان أمراً مريحاً أن تعترف أندريا بذلك، فقد كانت أوفيلي تكره سماع الناس يقولون بأنهم يفهمون شعورها، وهم ليسوا كذلك. وكيف بإمكانهم؟ على الأقل تعلم أندريا ذلك.

"ربما لا. أتمنى ألا تعرفي على الإطلاق". ابتسمت أوفيلي بحزن، عندما كانت أندريا تنقل الطفل من ثدي إلى آخر. كان ما يزال يأكل بشراهة، ولكنها تعلم أنه خلال بضع دقائق، سيشبع وينام. "أشعر بحزن كبير على بيب. لا أبدو أنني أتواصل معها. أشعر وكأنني أحلق في مكان ما في الفضاء". ولا يهم كم من الصعب محاولة العودة إلى الأرض، أو الرغبة بذلك، فهي لا تستطيع.

"بالرغم من كل شيء، يبدو أنها بخير. يجب أن تتدبري الاتصال معها من فترة لأخرى. إنها طفلة متماسكة بعض الشيء، فقد عانت الكثير، كلتاكما عانت". كان تشاد قد شارك العائلة بكاملها بتوتره في السنوات الأخيرة الماضية. وبالتأكيد كان لتيد مزاجه الخاص. كانت بيب متوازنة بشكل ملحوظ بالرغم من كل شيء، وحتى شهر تشرين الأول، كانت أوفيلي كذلك. كانت اللاصق الذي جمع العائلة سويةً، رغم الصدمات والمآسي التي لا تحصى. ولكنها منذ شهر تشرين الأول استسلمت. وأندريا تعلم بأنها ستسترجع قواها في النهاية. أرادت أن تفعل كل ما بوسعها لتساعدها في هذه الفترة.

مضى على صحبتهما عقدان من الزمن تقريباً. كانتا قد تعرفتا على بعضهما بواسطة مجموعة من الأصدقاء المقربين، فأحبتا بعضهما على الفور، رغم أنهما مختلفتان تماماً، ولكن بعض من ذلك الاختلاف كان سبب انجذابهما القوي. كانت أوفيلي هادئة وناعمة، بينما كانت أندريا جريئة وحازمة، وفي



بعض الأحيان تميل إلى الذكورة تقريباً في وجهات نظرها. إلا أنها دون شك كانت سوية التوجه الجنسي، تقوم ببعض العلاقات الجنسية غير الشرعية أحياناً، ولم تدع رجلاً على الإطلاق يملي عليها ما تفعل. أما أوفيلي فكانت أنثوية بكل ما للكلمة من معنى، أوروبية في قيمها وآرائها، وكانت مطيعة لزوجها طيلة فترة زواجهما، ولم تشعر بالنقص بسبب ذلك. كانت أندريا تشجعها دائماً لتكون أكثر استقلاليةً، وأكثر أميركية في تصرفاتها. كانتا تشتركان بشغفهما للفن، والموسيقى، والمسرح الرائع، وقد سافرتا مرةً أو اثنتين إلى نيويورك سويةً لتشهدا افتتاح إحدى المسرحيات. حتى أن أندريا قد ذهبت معها إلى فرنسا في إحدى السنوات. كانت هي وتيد منسجمين بشكل ممتاز أيضاً، وهكذا كانت تلك إحدى الثلاثيات النادرة التي يحب فيها كل شخص الآخر بشكلٍ متساوٍ. كانت تتخصص بالفيزياء في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT) قبل ذهابها إلى كلية القانون في ستانفورد، الأمر الذي جاء بها إلى كاليفورنيا وجعلها تبقى هناك دائماً. لم تستطع أن تحتمل فكرة العودة إلى ثلوج الشتاء في بوسطن، المكان الذي جاءت منه وذهبت إلى الكلية فيه. كانت قد جاءت إلى كاليفورنيا قبل ثلاث سنوات فقط من مجيء أوفيلي وتيد، وكانت مصممةً على البقاء والعمل هناك مثلهما. أحب تيد ثقافتها الفيزيائية وكان يتحدث معها لساعات عن آخر مشاريعه. كانت تفهم ما يفعله أكثر بكثير من أوفيلي، وكان يسعدها أن صديقتها ذات معرفة واسعة. حتى أن تيد، رغم عسره، كان عليه الاعتراف بأنه أعجب كثيراً بفهم أندريا الواسع لمجاله.

مثلت أندريا شركات كبيرة في دعاوى قضائية ضد الحكومة الفيدرالية، وكانت تمثل المدعين فقط، الأمر الذي يناسب إلى حدٍّ ما شخصيتها الهجومية. ذلك الجانب في شخصيتها هو الذي سمح لها بمواجهة تيد بشكل نِدّي في بعض الأحيان، وهذا ما جعله يعجب بها. بمعنى آخر، كانت تجيد معاملته أكثر بكثير من زوجته. ولكن أندريا كانت تتحمل ذلك، فليس لديها شيء تخسره. ما كانت أوفيلي لتجرؤ أن تقول نصف الأشياء التي كانت أندريا تقولها له. ولكن في الوقت نفسه،




dodyadodo www.rewity.com

لم يكن ليتوجب على أندريا العيش معه. كان تيد يتصرف مثل العبقري المتأصل، وبذلك اكتسب الكثير من الاحترام من الجميع، باستثناء تشاد بالتأكيد، الذي قال إنه يكــره والده منذ كان في العاشرة من عمره. كان يكره تصرفاته المستبدة، وشعور الحقوقية والفوقية عنده لأنه كان ذكياً جداً. كان تشاد ذكياً مثله تماماً، ولكن تركيبة دارته العقلية قد أخفقت بطريقةٍ ما، لذلك لم يتطابق أيٌّ من التوصيلات بين أجزاء الدارة، أو على الأقل لم تتطابق التوصيلات الهامة فيها.

لــم يكن تيد ليقبل على الإطلاق أن يكون ولده أقل من الكمال في شيء، ورغم جميع محاولات أوفيلي لتلطيف الموقف، كان تيد يستعرّ منه. وكان تشاد على علم بذلك تماماً. وقد تسبب ذلك ببعض المشاهد البشعة بينهما. وقد علمت أنــدريا بــذلك أيضاً. أما بيب فقد كانت الوحيدة التي تدبرت الابتعاد عن ذلك بعــض الــشيء، ولم تتأثر بالنزاع الذي دمر عائلتهم تقريباً في النهاية. رغم كــونها طفلة صغيرة، أصبحت بيب الجنية الصغيرة التي كانت تُحلّق فوق كل ذلــك، تلمــس كل واحد منهم بلطف، وتحاول نشر السلام بينهم. كانت أندريا تحب ذلك فيها. كانت طفلة سحرية، وبدا أنها تبارك أي شيء تلمسه، تماماً كما تفعل الآن مع أوفيلي. كان ذلك سبب تحمل بيب وفهمها لحقيقة أن أمها لم تعد قــادرة الآن علـــى منح بيب أي شيء، حتى وجبات الطعام. لقد سامحت بيب أمها على تصرفاتها، أكثر مما كان ليفعله تيد أو تشاد. لم يكن أحد منهما قادراً علـــى تحمـــل أي نقصٍ من أوفيلي، حتى ولو كانا السبب فيه. كانا لا يزالان يلــومانها. أو علـــى الأقل كان تيد ليفعل ذلك. لم تكن أوفيلي لترى الأمر بتلك الطــريقة، فلم يحدث ذلك على الإطلاق. كانت تبجله دائماً، مهما فعل، وتختلق الأعذار له. كانت أوفيلي الزوجة المثالية له، سواء لاحظ ذلك أم لا. مخلصة، عطوفة، صبورة، متفهمة ومتحملة للعناء. كانت تدعمه دون حدود، حتى أثناء السنوات العجاف المليئة بالقلق وعديمة المال.

"مــا الذي تفعلينه إذاً لإلهاء نفسك هنا؟" سألتها أندريا بتأكيد مقصود، بعد أن غط الطفل في نومه.



"ليس كثيراً. أقرأ... أنام. أتمشى على الشاطئ".

"إنــك تهــربين"، قالت أندريا، متوجهة إلى لب الموضوع كعادتها دائماً. كان من المستحيل خداعها.

"هل في ذلك عيب؟ ربما هذا ما أحتاجه تماماً الآن".

"ربمــا. ولكن بعد فترة سيكون قد مضى سنة. عليك العودة إلى العالم فـــي وقــت مـــا، أوفيلـــي. لا يمكنك الاختباء للأبد". حتى اسم المكان الذي استأجرت المنزل فيه خلال الصيف كان رمزاً لما تريده. مرفأ الأمان (سيف هاربر). من العواصف التي هاجمتها منذ شهر تشرين الأول الماضي، وقبل ذلك بكثير.

"لِمَ لا؟" بدت أوفيلي فاقدةً للأمل وهي تقول ذلك، وقلب صديقتها قد انشد نحوها، كحاله مدة سنة تقريباً. فقد تعرضت أوفيلي للكثير.

"الاختباء ليس أمراً حسناً، بالنسبة لك أو لبيب. إنها تحتاجك في الصف الأمامـــي، عـــاجلاً أم آجلاً. لا يمكنك الانسحاب للأبد. هذا ليس عدلاً على الإطـــلاق. عليك البدء بحياتك ثانيةً. أنت بحاجة للخروج، لرؤية الناس، أو ربما إنشاء علاقة مع شخص ما. لا يمكنك البقاء وحيدةً للأبد". فكّرت أندريا بأنـــه يتوجب عليها الحصول على عمل، ولكنها لم تجرؤ على قول ذلك لها حتى الآن. وأوفيلي لم تكن في حالة تسمح لها بالبدء في أي عمل، أو العيش حتى.

"لا يمكنني تخيل الأمر". بدت أوفيلي مروعة. لم تتمكن من رؤية نفسها مع أحد سوى تيد. في عقلها، ما تزال زوجة له، وستكون دائماً كذلك. لم تكن لتـــتحمل شخـــصاً آخـــر تقضي حياتها معه. لا أحد سيرتقي لمستوى تيد في عينيها، مهما كان العيش معه صعباً.

"هناك أشياء أخرى عليك القيام بها لتسترجعي نفسك ثانية. تمشيط شعرك ســـيكون أمـــراً جـــيداً، بين فترة وأخرى على الأقل". في معظم الوقت الذي

تـشاهدها فيه أندريا هذه الأيام، تبدو غير مرتبة، وفي معظم الأيام لم تكن قد بدلت ثيابها منذ أيام. تستحم، ثم تلبس بنطال الجينز وكنزة قديمة، وتمرر يدها علـى شـعرها بـدلاً مـن تمشيطه، إلا عندما تكون ذاهبة إلى مكان ما، إلى المجمـوعة مثلاً. ولكنها نادراً ما تذهب لأي مكان، فليس لديها سبب لذلك. إلا عندما تقوم بإيصال بيب إلى المدرسة. ولكنها لم تكن تمشط شعرها عندما تقوم بـذلك أيضاً. كانت أندريا تعتقد بأن ما مضى فترة كافية، حان الوقت لتستعيد نفـسها. كانـت فكرتها بأن يجيئوا إلى مرفأ الأمان (سيف هاربر)، حتى أنها عثـرت على المنزل لهما بواسطة سمسار تعرفه. كانت سعيدة بذلك، فبإمكانها أن تـرى مـن خلال النظر إلى بيب فقط، وحتى والدتها، أن ذلك كان قراراً جيداً. بدت أوفيلي أكثر صحةً مما كانت عليه خلال فترة السنة الماضية تقريباً. ولمـرة واحدة، كان شعرها مرتباً، أو متراصاً على الأقل. دون إرادتها، بدت جميلة ومسمرة نتيجة تعرّضها للشمس.

"ما الذي ستفعلينه عندما تعودين إلى المدينة؟ لا يمكنك حبس نفسك طوال فترة الشتاء؟".

"بـل بإمكانـي". ضحكت أوفيلي دون ارتباك. "يمكنني القيام بأي شيء أرغب به الآن". وكانت كل من الصديقتين على علم بأن ذلك صحيح. لقد ترك لها تيد ثروة ضخمة، مع أنها لم تكن متأثرة بها كثيراً. كان ذلك تناقضاً ساخراً لـسنوات الضيق الكئيبة التي شهداها خلال السنوات الأولى. في فترة ما، كانا يقطـنان فـي شقة بغرفتين في منطقة فقيرة. اشترك الأطفال بغرفة النوم، أما أوفيلي وتيد فكانا ينامان على أريكة يمكن فتحها في غرفة الجلوس. كان تيد قد حوّل المرآب إلى مختبر له. وبشكل غريب تماماً، وبالرغم من الحرمان والقلق حول الحالة المادية، فقد كانت تلك أسعد سنوات حياتهم. أصبحت الأمور أكثر تعقيداً عندما وصل تيد إلى القمة في اختصاصه. لقد سبب النجاح ضغطاً أكبر عليه.

"سـأقوم بـسحبك للخـارج إن عـدت إلى انعزالك عندما تعودين إلى



منـزلك"، هـددتها أندريا. "سأجعلك تأتين إلى الحديقة معي ومع وليام. ربما يجـب أن نذهب إلى نيويورك لنشهد افتتاح دار الأوبرا في العاصمة". كانتا تحـبان الأوبرا، وقد ذهبتا إلى هناك من قبل عدة مرات. "سأقوم بسحبك من شعرك لو اقتضى الأمر"، قالت ذلك بوعيد، عندما كان الطفل يتحرك ثم هدأ ثانـيةً، مطلقـاً الأصوات المبهجة التي يطلقها الأطفال عادةً. ابتسمتا وهما تنظـران إلـيه، وتركته أمه ينام عند صدرها، حيث كان أكثر سعادة بذلك، وهي أيضاً.

"أنـا متأكدة من أنك ستفعلين"، قالت أوفيلي كإجابة على تهديدها، وبعد بضع دقائـق، دخلـت بيب مع موس. كانت تحمل بيدها مجموعة من أحجار الصخور والأصداف، وضعتها بعناية على طاولة القهوة، مع ما بدا وكأنه غالون من الرمل. ولكن أوفيلي لم تقل شيئاً، عندما أشارت بيب بفخر إلى مجموعتها.

"إنها لك، أندريا. يمكنك أخذها معك إلى المنزل".

"أرغـب بـذلك. هل يمكنني أخذ الرمل أيضاً؟" قالت بسخرية. "ما الذي كنت تفعلينه؟ هل التقيت بالأطفال هنا؟" كانت أندريا قلقة على بيب أيضاً.

هزّت بيب كتفيها غير مبالية، ولم تظهر أي موقف تجاه ذلك. لم تكن قد قابلـت أحـداً في الحقيقة. فهي نادراً ما ترى أشخاصاً آخرين على الشاطئ، وكانت والدتها منعزلة كثيراً، فلم تلتقِ بأي عائلات أخرى.

"سأزيد من عدد مرات قدومي إلى هنا وسأقوم بتحريك الأمور. لا بد من وجود بعض الأطفال في مكان ما هنا. علينا أن نعثر عليهم من أجلك".

"أنـا بخيـر"، قالت بيب، كما تقول دائماً. لم تتذمر على الإطلاق. فليس هـناك فائـدة من التذمر، فهو لن يغير شيئاً. لم تكن والدتها قادرة على القيام بأكثـر ممـا تفعله في الوقت الحالي. هكذا تمشي الأمور الآن. ربما سيتحسن الوضع في يوم ما، ولكن ليس الآن كما هو واضح، لقد قبلت بيب بذلك. كانت حكـيمة أكثـر ممـا يجـب أن تكون في عمرها. والأشهر التسع الماضية قد أجبرتها على القفز إلى مرحلة البلوغ.

بقيت أندريا حتى وقت متأخر بعد الظهر، وغادرت قبل العشاء. أرادت الوصول إلى المنزل قبل حلول الضباب. إلى أن حان وقت ذهابها، كنّ قد ضحكن وتحدثن، ولعبت بيب مع الطفل وداعبته. جلسن على المنصة، وأشبعن أنفسهن بالشمس، وعموماً، كان كل شيء رائعاً وحميماً في ظهيرة ذلك اليوم. ولكن في الدقيقة التي غادرت بها أندريا والطفل، بدا المنزل حزيناً وفارغاً على الفور. كان حضورها قوياً لدرجة أن غيابها جعل الأمور تبدو في الحقيقة أكثر سوءاً مما كانت عليه قبل قدومها. أحبت بيب قوة الحياة فيها. كانت دائماً تجد متعة بالمكوث قربها، وكان الأمر كذلك أيضاً بالنسبة لأوفيلي. لم يكن لديها القوة لكي تتقدم للأمام، ولكن أندريا كانت تمتلك ما يكفي للجميع.

"هل ترغبين بأن أستأجر فيلماً لك؟" اقترحت أوفيلي كمساعدة لها. لم تكن قد فكّرت بأشياء كهذه منذ أشهر، ولكن زيارة أندريا لها زودتها بالحيوية.

"لا بأس في ذلك أمي، سأشاهد التلفاز وحسب". قالت بيب بهدوء.

"هل أنت متأكدة؟" أومأت لها، ثم تحدثتا عن معضلة الأكل المعتادة، ولكن عرضت أوفيلي هذه الليلة إعداد الهامبرغر والسلطة. كانت الهامبرغر مطهوة أكثر مما تفضلها بيب، ولكنها لم تقل شيئاً. فهي لا ترغب بتثبيط همة والدتها، وكان ذلك أفضل من البيتزا المجمدة التي كلتاهما لا تأكلانها. تناولت بيب كامل قطعة الهامبرغر الخاصة بها، بينما تناولت والدتها القليل، ولكنها تناولت كامل السلطة وعلى الأقل نصف قطعة من الهامبرغر لأول مرة. لا بد أن الأشياء قد تحسنت بتأثير أندريا الجيد عليهما.

وعندما ذهبت بيب إلى السرير تلك الليلة، تمنت أن تأتي والدتها لتغطيتها. ولكنها كانت تطلب الكثير جداً بالنظر إلى وضعها الحالي، ولكن من الجيد التفكير بالأمر على أية حال. تذكرت أن والدها كان معتاداً على القيام بذلك عندما كانت صغيرة، رغم أنه لم يفعل ذلك منذ فترة طويلة. لم



يقم أحد بذلك. كان من النادر أن يتواجد في المنزل، وكانت والدتها منشغلة بتشاد معظم الوقت. كان هناك دائماً حدث ما. والآن، عندما انتهت كل الأحداث، بدا أن أوفيلي قد ذهبت هي الأخرى. كانت بيب تذهب إلى سريرها بمفردها. ولا يأتي أحد ويتمنى لها ليلة طيبة، أو ليتلو الأدعية، أو ليغني لها أغنية، أو ليغطيها. كانت معتادة على ذلك. لو حصل ذلك، فسيكون جيداً على أية حال، في حياة أخرى، في عالم غير هذا الذي تعيش فيه. تلك الليلة كانت والدتها قد ذهبت إلى السرير مباشرة بعد العشاء، بينما كانت هي ما تزال تشاهد التلفاز. لعق موس وجهها وهي متمددة في السرير، ومن ثم تمدد على الأرض بجانبها وهو يتثاءب، عندما مدت يدها خارج السرير وداعبت أذنه.

ابتسمت بيب لنفسها وهي تميل لتنام. كانت تعلم أن والدتها ستتجه إلى المدينة في اليوم التالي، وهذا يعني أن بإمكانها المشي على الشاطئ وزيارة ماثيو بولز مرة ثانية. ابتسمت وهي تفكر بذلك. غطت في نوم سريع تقريباً، وحلمت بأندريا والطفل.

# 4

انبثق فجر يوم الخميس وكان مليئاً بالضباب، كانت بيب ما تزال نصف نائمة عندما غادرت والدتها إلى المدينة. كان لدى أوفيلي موعد مع المحامي قبل ذهابها إلى المجموعة ذلك اليوم، وكان يتوجب عليها الوصول إلى المدينة قبل الساعة التاسعة. حضرّت آمي الفطور لبيب، ثم انصرفت تتحدث على الهاتف كعادتها، بينما شاهدت بيب أفلام الكرتون على التلفاز. كان وقت الغداء عندما قررت أن تتمشى على الشاطئ. كانت ترغب بالذهاب طيلة فترة الصباح، ولكنها كانت خائفة من الذهاب في وقت باكر، إذ أنها قد لا تجده. فكّرت بأن احتمال تواجد ماثيو هناك أكثر في فترة ما بعد الظهر.

"إلى أين أنت ذاهبة؟" سألت آمي وقد حملت المسؤولية لمرة واحدة، عندما رأت بيب تنزل من المنصة إلى الرمال، فالتفتت بيب لتنظر إليها ببراءة.

"إلى الشاطئ مع موس".

"هل ترغبين أن آتي معك؟".

"لا، سأكون بخير. شكراً". قالت بيب، ثم عادت آمي إلى مكالمتها، وهي تشعر بأنها قد قامت بواجبها تجاه أوفيلي. وبعد لحظة، كانت الطفلة والكلب يثبان إلى الشاطئ.

كانت قد ركضت لفترة طويلة جداً إلى أن رأته أخيراً. كان في نفس المكان، يجلس على كرسيه القابل للطي، يعمل على حامل اللوحة. سمع نباح موس من بعيد، فالتفت لينظر إليها. كان قد اشتاق إليها في اليوم السابق، بشكل مفاجئ، فارتاح لرؤية وجهها الأسمر الصغير يبتسم له.

"مرحباً"، قالت له وكأنها ترحب بصديق قديم.

"أهلاً بك. كيف حالك وحال موس؟".

"نحن بخير. كنت سآتي في وقت أبكر، ولكن خشيت من أنك لن تكون هنا".

"أنا هنا منذ الساعة العاشرة". كان يخشى من أن يفوته لقاؤها. كان يتطلع إلى هذا اللقاء مثلها تماماً، رغم أنه لم يعد أحدٌ منهما الآخر بالتواجد هنا. أرادا ذلك وحسب، وتلك كانت الطريقة الأمثل.

"أضفت قارباً آخر"، علّقت بيب، وهي تتفحص اللوحة بعناية. "أحبه. إنه جميل". كان قارب صيد أحمر اللون صغير الحجم في الأفق، بالقرب من الشمس الغاربة، وقد أضاف الكثير إلى اللوحة. أحبته بشكل غريزي، وكان مسروراً لذلك. "كيف تتخيلها بشكل جيد؟" سألت بإعجاب بعد اختفاء موس عند بعض الأعشاب المتواجدة على الرمال.

"لقد رأيت الكثير من القوارب". ابتسم بحنان لها. لقد أحبت بيب ماثيو... في الحقيقة، كثيراً، ولم يكن هنالك شك في عقلها بأنه صديقها. "لدي قارب إبحار صغير أبقيه في البحيرة الضحلة. سأريك إياه يوماً ما". كان صغيراً وقديماً، ولكنه يحبه. كان قارباً خشبياً قديماً يذهب فيه لوحده كلما استطاع. كان يحب الإبحار منذ كان في عمر بيب. "ماذا فعلتِ البارحة؟" أحب سماع ما يتعلق بها، والنظر إليها. كان يرغب كثيراً برسم صورة لها، ولكنه كان يحب الحديث معها أيضاً، الأمر الذي كان نادراً بالنسبة له.

"جاءت عرابتي لزيارتنا، مع طفلها. إنه يبلغ من العمر ثلاثة أشهر. اسمه وليام وهو جميل جداً. إنها تسمح لي بحمله، وهو يضحك كثيراً. ليس لديه أب"، قالت وهي تبدو جدية.

"هذا سيئ جداً"، قال ماثيو باهتمام، وأخذ استراحة قصيرة من عمله وراح يستمتع معها. "كيف حدث هذا؟".

"إنها ليست متزوجة. حصلت عليه من بنك أو ما شابه. لا أعلم... يبدو



الأمر معقداً جداً. تقول والدتي بأن هذا ليس مهماً. المهم أنه ليس له أب وحسب هذا كل ما في الأمر".

فهم ذلك أكثر منها وتأثر بالأمر. بدا ذلك عصرياً بشكل مفرط بالنسبة له. فهو ما يزال يؤمن بالزواج التقليدي، بالوالدين، رغم أنه يدرك تماماً بأن الحياة لا تتم دائماً بتلك الطريقة. ولكن ذلك على العموم انطلاقة جيدة للبدء. سأل نفسه مجدداً ما الذي قد حدث لوالد بيب، إن كان قد حدث شيء أصلاً، ولكنه لم يشعر بأنها تعيش معه، وكان خائفاً من سؤالها عنه. فهو لا يريد إزعاجها دون حاجة، كما أنه لا يريد التطفل عليها. فقد بدت صداقتهما الناشئة تعتمد على الحذر والكياسة، وتلك هي طبيعة كل منهما.

"هل تريدين أن ترسمي اليوم؟" سألها وهو يراقبها. كانت مثل قزم صغير يقفز على الشاطئ. بدت خفيفة ورشيقة جداً، وفي بعض الأحيان كانت قدماها قليلاً ما تلمس الرمل.

"نعم، من فضلك"، قالت له بكل لطف. وبذلك، قدّم لها مجموعة الأوراق وقلم رصاص.

"ماذا سترسمين اليوم؟ موس ثانيةً؟ الآن وبعد أن عرفتِ كيفية رسم القوائم الخلفية، يجب أن يكون الأمر أكثر سهولة". قال بصورة عملية، أما هي فقد بدت مستغرقة في أفكارها وهي تحدق للأعلى إلى عمله.

"هل تعتقد أنه بإمكاني رسم قارب؟" بدا ذلك تحدياً في نظرها.

"لا أرى مانعاً. هل ترغبين بالمحاولة ونسخ رسمي؟ أم تفضلين رسم قارب إبحار؟ يمكنني رسم التخطيط لك، إن أحببتِ".

"يمكنني نسخ ذلك الذي في لوحتك، إن كان لا بأس في ذلك". لم ترغب بإزعاجه، تلك كانت طبيعتها. كانت معتادة على الحذر بألا تسبب الإزعاج أو المشاكل. كانت دائماً حذرة مع والدها، وقد خدمها ذلك جيداً. لم يكن يغضب منها على الإطلاق كما كان يفعل مع تشاد. رغم أنه في معظم الوقت، منذ أن انتقلوا إلى بيت أكبر، لم يكن يوليها الكثير من الاهتمام. كان يذهب إلى

المكتب، ثم يعود إلى المنزل في وقت متأخر، ويسافر كثيراً. كما كان قد تعلم أيضاً كيفية التحليق بطائرته وحده. وقد أخذها معه فيها عدة مرات عندما حصل عليها في بادئ الأمر، كما سمح لها بإحضار الكلب، بعد استئذان تشاد. وتصرف موس بشكل لبق عندها.

"هل يمكنك الرؤية من الأسفل؟" سأل ماثيو وأومأت هي، من المكان الذي كانت تجلس فيه قرب قدميه. كان قد أحضر شطيرة معه إلى الشاطئ، وأخذ يفتح غلافها. لقد قرر تناول الغداء على الشاطئ ذلك اليوم، في حال جاءت وقت الغداء. لم يكن يرغب أن تفوته رؤيتها، وعرض عليها نصف الشطيرة، من مكان جلوسه على الكرسي. "هل أنت جائعة؟".

"لا، شكراً سيد بولز. ونعم، يمكنني الرؤية بشكل جيد".

"يكفي أن تناديني مات". ابتسم لأدبها ورسميتها. "هل تناولت الغداء؟".

"لا، ولكنني لست جائعة، شكراً لك". وبعد لحظة، وهي ترسم، من دون أي سبب، صدرت معلومة فاجأته. كان من الأسهل الحديث معه وهي لا تنظر إليه، وهي منكبة على لوحة القارب. "لا تتناول أمي طعامها على الإطلاق، أو إنها لا تقوم بذلك كثيراً. لقد أصبحت نحيلة جداً". كان من الواضح أن بيب قلقة عليها، فأثار ذلك فضول مات.

"لماذا؟ هل هي مريضة؟".

"لا. إنها حزينة فقط". تابعا الرسم لبرهة، ورفض هو التدخل. فقد اكتشف أنها ستخبره بما ترغب هي به، عندما تكون جاهزة. ولم يكن في عجلة من أمره للضغط عليها. فعلاقتهما كانت عائمة في الفضاء، دون أي تحديد للزمن. شعر وكأنه يعرفها منذ وقت طويل.

وأخيراً، خطر في باله سؤالها عن شيء واضح. "هل أنت حزينة أيضاً؟" أومأت بصمت، ولم ترفع عينيها عن الرسم. هذه المرة لم يسألها عن السبب قصداً. أحس بوجود ذكريات مؤلمة تحوم حولها، وكان يقاوم إلحاحاً يدفعه لمد يده إليها وتلمس شعرها أو يدها. لم يرغب بإخافتها، أو الظهور بمظهر غير



لائق من صداقة مفرطة. "كيف حالك الآن؟" بدا ذلك سؤالاً مطمئناً أكثر من أي احتمالات أخرى، فنظرت إليه هذه المرة.

"أنا أفضل حالاً. كانت الأيام جيدة هنا على الشاطئ. أعتقد أن أمي أفضل أيضاً".

"أنا سعيد لسماع هذا. ربما ستبدأ بالأكل قريباً".

"هذا ما قالته عرابتي. هي الأخرى تقلق على أمي كثيراً".

"هل لديك أخوة أو أخوات، بيب؟" سألها مات. بدا سؤالاً آمناً له، وكان غير مستعد على الإطلاق للنظرة التي في عينيها وهي ترفع وجهها إليه. لسعت نظرة الألم في عينيها روحه، وكادت أن توقعه من كرسيه.

"أنا... نعم..." ترددت غير قادرة على التكلم للحظة، ومن ثم تابعت، وهي ما تزال تنظر إليه بعينيها الحزينتين الكهرمانيتين وقد بدتا تشدانه إلى عالمها. "لا... أقصد نوعاً ما... حسناً، يصعبُ الشرح. اسم أخي تشاد. إنه في الخامسة عشر من عمره. حسناً... كان كذلك... تعرض لحادث في شهر تشرين الأول الماضي..." أوه، يا الله، كره نفسه لسؤالها، وهو يفهم الآن سبب تدمّر أمها وعدم تناولها الطعام. لم يكن يفهم ذلك حتى، ولكن ليس هناك أسوأ من فقدان الأولاد.

"أنا متأسف جداً، بيب..." لم يعلم أي شيء آخر يقوله.

"لا بأس. كان ذكياً جداً، كوالدي". ما قالته قضى عليه تقريباً وفسر كل شيء. "تحطمت طائرة والدي، وكلاهما توفيا. لقد انفجرت الطائرة". قالت وكأن كتلة مسموعة ترتفع في حنجرتها، ولكنها كانت مسرورة لأنها قالت له. أرادته أن يعرف.

نظر مات إليها للحظة لا تنتهي قبل أن ينبس ببنت شفة، أو يتمكن من ذلك. "كم كان ذلك فظيعاً لكما. أنا حزين لسماع ذلك حقاً، بيب. كم هي محظوظة والدتك لوجودك الآن".

"أظن ذلك"، قالت بيب وهي مستغرقة بالتفكير، وتبدو غير مقتنعة. "لقد مضى عليها وقت طويل في الحزن. فهي تبقى في غرفتها كثيراً". في بعض الأحيان، كانت بيب تتساءل: هل أمها حزينة أكثر لأن تشاد توفي وليس بيب. كان من المستحيل معرفة ذلك، ولكن السؤال خطر على بالها دون شك. كانت قريبة جداً من تشاد وهي تتألم جداً لوفاته.

"سأكون كذلك لو كنت مكانها أيضاً". كانت خساراته هو قد أوشكت على إنهاكه، ولكنها لم تكن بحجم خساراتها. كانت أكثر اعتيادية، ذلك النوع من الأمور التي بإمكانك العيش معها وتقبلها. خسارة الزوج والابن هي تحديات أكبر بكثير مما أصابه، ولا يمكنه إلا أن يتخيل الكارثة التي أصابت بيب، وخاصة أن أمها محطمة ومنطوية على نفسها كما بدا أنه الحال مما قالته بيب.

"تذهب إلى مجموعة في المدينة لتتحدث عن ذلك. ولكنني لست واثقة من أن ذلك يساعدها. تقول بأن الجميع حزين جداً". بدا ذلك كئيباً بالنسبة له، ولكنه يعلم بأن هذا هو الأمر الذي يقوم به الناس هذه الأيام، يذهبون إلى مجموعات بحسب المصائب التي حلت بهم. ولكنّ مجموعةً من الأشخاص الذين يعانون من الفقدان والشعور بالأسى، ويقاومون فقدانهم، بدا أمراً كئيباً جداً بالنسبة له، وليس بالشيء الصحيح لإثارة البهجة.

"كان والدي مخترعاً، نوعاً ما. كان يفعل الأشياء بحيوية. لا أعلم ما كان يفعله، ولكن كان بارعاً بذلك. كنا فقراء، وعندما كنت في السادسة من عمري، حصلنا على منزل أكبر واشترى طائرة". اختصرت له كل شيء بإيجاز، رغم أنها لم توضح له تماماً ما كانت مهنة والدها، ولكنها كانت معلومات كافية له. "كان تشاد ذكياً حقاً كوالدي. أما أنا فأشبه والدتي أكثر".

"ماذا يعني هذا؟" لم يتفق مات مع المعنى المتضمن لما قالته. كانت ذكيةً بشكل استثنائي، فتاة صغيرة متحدثة. "أنت ذكية أيضاً، بيب. ذكية جداً. لا بد أن والديك كذلك. وأنت كذلك بالتأكيد". بدا أنها قد نُحّيت جانباً لوجود أخ أكبر ذكي، والذي ربما كان مهتماً أكثر منها في مجال والده، مهما يكن ذلك. بدا



ذلك مثل الشوفينية الطبقية بالنسبة له، كما أنه لم يحب الانطباع الذي ألحقه بها، أن تكون الثانية بعد الأفضل مباشرةً، أو الأسوأ، أن تكون من الدرجة الثانية.

"كان والدي وأخي يتشاجران كثيراً". قالت دون مبرر. بدا أنها بحاجة للتحدث معه، ولكن بما أن والدتها مكتئبة، فربما ليس لديها أحد آخر تفضي إليه، باستثناء العرابة مع طفلها. "قال تشاد إنه يكرهه، ولكنه ليس كذلك حقاً. قال ذلك فقط عندما كان غاضباً من والدي".

"هذا هو حال من هم في الخامسة عشر من العمر"، قال مات بابتسامة لطيفة، رغم أنه لم يكن قد شهد ذلك حقيقةً. فهو لم يرَ ولده منذ ست سنوات. فآخر مرة رأى فيها روبرت، كان في الثانية عشرة من عمره، وكانت فانيسا في العاشرة.

"هل لديك أطفال؟" سألته بيب، وكأنها تقرأ أفكاره وتراها. إنه دوره الآن ليتكلم.

"نعم..." لم يخبرها أنه لم يرَهما منذ ست سنوات. سيكون من الصعب جداً تفسير السبب. "فانيسا وروبرت. إنهما في السادسة عشر والثامنة عشر، يعيشان في نيوزيلندا". مضى على وجودهما هناك أكثر من تسع سنوات. استغرق الأمر منه ثلاث سنوات تقريباً ليستسلم في النهاية. كان صمتهم قد أقنعه.

"وأين تقع؟" بدت بيب محتارة. لم تكن قد سمعت بنيوزيلندا من قبل. أو ربما سمعت بها مرة من قبل، فكّرت بذلك، ولكنها لا تذكر أين هي. اعتقدت أنها ربما تكون في أفريقيا، أو في مكان كهذا، ولكنها لم ترغب بأن تبدو جاهلة أمام مات.

"إنها بعيدة جداً. يستغرق الوصول إلى نيوزيلندا حوالى عشرين ساعة بالطائرة. إنهما يعيشان في مكان يدعى أوكلاند. أظن أنهما سعيدان هناك". أكثر سعادة مما تحمل، أو مما رغب بالاعتراف لها.

"لا بـد أنه أمر محزن بالنسبة لك، أن يكونا بعيدين جداً عنك. لا بد أنك تـشتاق إليهما. فأنا أشتاق لوالدي ولتشاد". قالت له، ومسحت دمعة من عينها، والتي كانت على وشك أن تمزق قلبه. كانا قد تحدثا عن الكثير في فترة ما بعد الظهـر لـيومهما الثاني، ولم يرسم أي منهما شيئاً لأكثر من ساعة. لم يخطر علـى بالهـا أن تسأله كم مرة قد رآهما، فقد افترضت أنه يفعل ذلك وحسب. ولكنها كانت حزينة عليه بأية حال، لأنهما بعيدان جداً عنه.

"أشـتاق لهما أيضاً". نزل عن كرسيه، وأتى ليجلس بجانبها على الرمل. كانت قدماها الصغيرتان مقحمتين في الرمل، ونظرت إليه بابتسامة حزينة.

"كـيف يـبدوان؟" كانت تشعر بالفضول لأمرهما، تماماً كما كان يشعر حيالها. كان سؤالاً معقولاً.

"لروبرت شعر أسود وعينان بنيتان مثلي. أما شعر فانيسا فأشقر وعيناها زرقاوان كبيرتان. تبدو كوالدتها تماماً. هل لأحد في عائلتك شعر أحمر مثلك؟" هزت بيب رأسها بابتسامة خجلة لسؤاله.

"لوالدي شعر غامق مثلك، وعينان زرقاوان، ولتشاد أيضاً. أما أمي فشعرها أشقر. كان أخي يلقبني بعود الجزر، لأن ساقيّ نحيلتان وشعري أحمر".

"هـذا لطـف منه"، قال مات وهو يلعب بلطف بشعرها الأحمر المجعد القصير. "أما أنا فلا أراك تشبهين عود الجزر".

"بلـى، أنـا كذلك"، قالت بفخر. أحبّت ذلك الاسم الآن، لأنه يذكرها به. كانت تشتاق لإهاناته ولمزاجه الآن لأنه قد رحل، كما كانت أوفيلي تشتاق حتى لأيـام تـيد السوداء. كانت غريبة تلك الأشياء التي تشتاق لها في الأشخاص عندما يرحلون.

"هـل سنرسـم الـيوم؟" سـألها، بعد أن رأى أنهما تبادلا ما يكفي من الاعتـرافات المؤلمة واحتاج كل منهما لاستراحة، لقد بدت مرتاحة عندما قال ذلـك. كانـت تـرغب في إخباره، ولكن الحديث عن ذلك كثيراً جعلها حزينة ثانيةً.



"نعـم، أرغب بذلك". قالت وهي تمسك بمجموعة الأوراق، فيما عاد هو إلـى كرسـيه. ولـساعة أخـرى أو ساعتين تبادلا أحاديث غير ذات صلة، وملاحظات لم تثر أياً منهما. كانا مرتاحين لأنهما بجانب بعضهما البعض فقط، وخاصـة بعـد أن عـرفا أكثـر عن ماضيهما الشخصي. خاصة وأن بعض المعلومات كانت هامة.

بيـنما جلـست وبـدأت تعمل على رسوماتها، وهو على لوحته، رحلت الغـيوم، وخـرجت الشمس، وهدأت الرياح. بدا أن فترة ما بعد الظهر جميلةً اليوم. لدرجة أنّ الساعة قد أصبحت الخامسة قبل أن يدرك أي منهما أن الوقت قـد تأخـر. لقد انتهى الوقت الذي أمضياه معاً بسرعة. وبدت بيب قلقة فجأة عندما أخبرها مات أن الساعة قد تجاوزت الخامسة.

"هل تكون والدتك قد عادت بحلول هذا الوقت؟" سألها وقد بدا القلق عليه. لـم يـرغب في إيقاعها بالمشاكل بسبب يوم بريء ولكنه مثمر. كان مسروراً لأنهما تحدثا. تأمل أن ذلك قد ساعدها نوعاً ما.

"ربما. من الأفضل أن أذهب. ربما ستصاب بالغضب".

"أو بالقلـق"، قـال لهـا، وتساءل إن كان يتوجب عليه الذهاب معها لطمأنة والدتها، إلا أنه عاد وفكّر ربما سيكون ذلك أسوأ بأن تعود بيب إلى المنزل برفقة رجل غريب. نظر إلى اللوحة التي كانت تعمل عليها، وكان متأثراً. "تبدو رائعةً، بيب. قمت بعمل جيد. اذهبي إلى المنزل الآن. سأراكِ قريباً".

"ربما سأعود غداً، إن نامت والدتي قليلاً وقت القيلولة. هل ستكون هنا، مات؟" لقد نمّت الطريقة التي تتحدث بها معه عن علاقة حميمة بينهما، وكأنهما كانـا صـديقين قديمين حقاً. وكانا يشعران بصدق ذلك حقاً، بعد الأسرار التي تبادلاها. كل ما تبادلاه جعلهما أكثر قرباً، وكأنه قد قُدّر لذلك مسبقاً.

"أنـا هـنا بعـد ظهـر كل يوم. لا توقعي نفسك بالمشاكل الآن، أيتها الصغيرة".

"لن أفعل". توقفت للحظة وابتسمت له، مثل طائر صغير معلق في الهواء، ومن ثم كالموجة، ممسكة بلوحتها، وبرفقة موس عند قدميها، انطلقت باتجاه المنزل. وخلال لحظات، كانت بعيدة على الشاطئ. التفتت للخلف، ولوّحت له ثانيةً، فوقف لوقت طويل يراقبها، حتى أصبحت صورة صغيرة جداً بعيدة على الشاطئ، وكل ما رآه أخيراً كان كلبها يركض جيئة وذهاباً.

كانت تلهث عندما وصلت إلى المنزل. كانت قد ركضت طوال الطريق. جلست والدتها على المنصة، تقرأ، وكانت آمي بمنأى عن النظر. نظرت أوفيلي إليها بعبوس.

"قالت آمي أنك ذهبتِ إلى الشاطئ. لم أتمكن من رؤيتك في أي مكان، بيب. أين كنتِ؟ هل وجدت صديقاً؟" لم تكن غاضبة من الطفلة، ولكنها كانت قلقة، كانت قد أجبرت نفسها على البقاء هادئة. لم تكن تريدها أن تذهب إلى منازل الغرباء، وكانت تلك قاعدة تعرفها بيب حقاً، وتطبقها أيضاً. ولكن بيب تعلم أن أمها تقلق الآن أكثر مما كانت عليه في الماضي.

"كنتُ هناك بعيداً"، أشارت بغموض إلى الاتجاه الذي أتت منه. "كنت أرسم قارباً، ولم أكن أعلم الوقت. أنا آسفة، أمي".

"لا تفعلي ذلك ثانيةً، بيب. لا أريدك أن تتجولي بعيداً. ولا أريدك أن تذهبي لأي مكان بالقرب من الشاطئ الشعبي. فأنتِ لا تعرفين من هم أولئك الأشخاص". رغبت أن تقول لوالدتها بأن أحدهم كان لطيفاً، أو بأنه مات على الأقل. ولكنها كانت خائفة من إخبار والدتها عن صديقها الجديد. أحست غريزياً بأن والدتها لن تفهمها، وكانت محقة. "ابقي قريبة من هنا في المرة القادمة". كانت مدركة بأن طفلتها مغامرة. فربما قد ملّت من المكوث بالقرب من المنزل طوال اليوم، أو البقاء وحيدة على الشاطئ مع الكلب. ولكن بالرغم من ذلك، كانت أوفيلي قلقة. لم تطلب رؤية اللوحة، حتى أن ذلك لم يخطر على بالها إطلاقاً، ما لبثت بيب أن ذهبت إلى غرفتها ووضعت لوحتها على الطاولة بجانب لوحة الكلب. كانتا تذكارين لأوقات ثمينة بالنسبة لها، وذكرتاها



بمات. لم تكن واقعة في حبه، ولكن من دون شك، كانا قد شكلا علاقة خاصة.

"كيف كان يومك؟" سألت بيب والدتها عندما عادت إلى المنصة، ولكنها عرفت كيف كان. بدت أوفيلي متعبة. كانت تشعر بذلك عادةً بعد عودتها من المجموعة.

"لا بأس به". كانت قد ذهبت إلى المحامي من أجل ممتلكات تيد. كان عليها بعض الضرائب التي يتوجب دفعها، وقد أتت آخر أموال التأمين. لقد مضت فترة قبل إنهاء جمع الممتلكات، وربما وقت طويل أيضاً. ترك تيد كل شيء مرتباً بصورة جيدة، وهي الآن تمتلك أموالاً أكثر مما تحتاج لصرفه. وبصورة موحية بالأمل، معظمه سيعود لبيب يوماً ما. لم تكن أوفيلي مسرفة على الإطلاق. وفي الحقيقة، شعرت دائماً بأنهم كانوا أسعد وهم فقراء. بطريقة ما، جلب نجاحه آلاماً في الرأس، والكثير من التوتر الذي لم يكن موجوداً من قبل. وذلك دون التطرق إلى الطائرة التي تسببت بموته مع تشاد.

أمضت أوفيلي ساعات كل يوم تقاوم الذكريات، وبخاصة ذكريات اليوم الأخير. تلك المكالمة البشعة التي غيّرت حياتها للأبد. وحقيقة أنها قد أجبرت تيد على أخذ تشاد معه. كان لديه اجتماعات في لوس أنجلوس، وأراد الذهاب وحده، ولكنها اعتقدت أنه من الجيد أن يمضيا بعض الوقت سوياً. كان تشاد أفضل حالاً مما كان عليه لفترة، وفكّرت أن بإمكانهما تدبّر الأمر معاً. ولكن لم يكن أي منهما متحمساً لمشاركة الآخر بالرحلة. لامت نفسها أيضاً لحوافزها الأنانية. كان ولدهما يتطلب الكثير من الاهتمام، وكان في حالة خطرة لمدة أشهر، وأرادت الاستراحة منه قليلاً، وقضاء يوم هادئ مع بيب. فبسبب كامل التركيز المنصب على تشاد دائماً، لم يبدُ أنها تقضي وقتاً كافياً معها. كانت تلك هي أول فرصة لهما منذ وقت طويل. والآن هذا هو ما تمتلكان: بعضهما البعض. حياتهما، عائلتهما، سعادتهما قد تحطمت. والثروة التي تركها تيد لم تعنِ شيئاً لأوفيلي. كانت لتتخلص منها بكاملها مقابل قضاء بقية حياتها مع تيد، وتشاد.

كانت قد مرت أوقات صعبة بينها وبين تيد، ومع ذلك، لم يتزعزع حبها له. ولكن مما لا شك فيه أن الأمور أصبحت صعبة بينهما في فترة ما، وأكثر من مرة كان السبب هو تشاد. ولكن ذلك انتهى بكامله الآن. أصبح ولدهم المريض بسلام في النهاية. وتيد مع كل ذكائه، وصعوبته، وسحره، ومدى الانجذاب له، قد اختفى من حياتها. قضت ساعات في المساء تعيد تكرار فيلم حياتها في رأسها، محاولة الوصول إلى نتيجة، محاولة أن تتذكر كيف كانت حياتها في الحقيقة، وكيف كانت تتمتع بالأوقات الجيدة، وذلك في محاولة منها لتسريع مرور الأوقات السيئة. وبينما هي تفعل ذلك، كانت تقوم بعناية ببعض الحذف. ما بقي في النهاية، كان ذكرى الرجل الذي كانت تحبه بصدق، مهما كانت أخطاؤه. لم يكن حبها له مشروطاً، ولم يعد ذلك يهم الآن.

تمّ حل مشكلة العشاء بالشطائر، رغم أن بيب كانت قد تناولت القليل من الطعام، فالصمت الذي يسود المنزل كان مزعجاً جداً. لم تشغلا الموسيقى على الإطلاق، ونادراً ما تحدثتا. بينما جلست بيب تتناول شطيرة الديك الرومي التي صنعتها لها والدتها، كانت تُفكّر بمات. وسألت نفسها مرة أخرى أين تقع نيوزيلندا، وشعرت بالأسف عليه، لأنه يعيش بعيداً عن أولاده. تمكنت من تخيل صعوبة ذلك. وكانت سعيدة لأنها أخبرته عن والدها وعن تشاد، رغم أنها لم تشرح له كم كان تشاد مريضاً. بدا إخباره بذلك وكأنه خيانة. كان مرض تشاد سراً يبقونه لأنفسهم. ولا فائدة من إخباره عنه الآن. فقد رحل تشاد.

لقد ترك مرضه أثراً كبيراً عليها، بل على الجميع. كان العيش معه مصدراً للتوتر والصعوبة، وبالقدر الذي عرف فيه تشاد كم استاء منه والده ومن مرضه العقلي الذي رفض تسميته، كانت بيب مدركة لذلك تماماً. كانت قد ذكرت ذلك لوالدها مرة، عندما كان تشاد في المستشفى، وقد صاح عليها وأخبرها أنها لا تعلم ما الذي تتحدث عنه، ولكنها علمت ذلك تماماً. فهمت كم كان تشاد مريضاً، وربما أكثر منه. وعلمت أوفيلي ذلك أيضاً. أما تيد فهو



وحده الذي تعلق بفكرة الإنكار... كان ذلك من أساسياته. كان مسألة فخر بالنسبة لتيد ألا يعترف بمرض ابنه. مهما قال عن ذلك أي شخص، أو مهما قال له الأطباء، أصر تيد على أنه لو تعامل أوفيلي تشاد بشكل مختلف، فلن يكون هناك أي مشاكل على الإطلاق. كان دائماً يلوم أوفيلي، وتمسك بفكرة أن تشاد ليس مريضاً على الإطلاق. لا يهم كم كان الدليل واضحاً، إلا أن عيني تيد بقيتا مغلقتين بشدة.

مرت عطلة نهاية الأسبوع بهدوء. كانت أندريا قد وعدت بالقدوم إلى الشاطئ مرة أخرى، ولكن في النهاية، لم تفعل. اتصلت وقالت إن الطفل مصاب بالرشح. وبحلول عصر يوم الأحد، كانت بيب تتوق لرؤية مات. نامت والدتها على المنصة طوال فترة ما بعد الظهر، وبعد مراقبتها بهدوء لمدة ساعة، ذهبت بيب إلى الشاطئ مع موس. لم تكن تنوي المشي إلى الشاطئ الشعبي، ولكنها كانت تتوجه إلى ذلك الطريق وحسب وقبل أن تعلم، كانت قد وصلت إلى مقربة من الشاطئ، ومن ثم بدأت بالركض، على أمل رؤيته. كان في المكان الذي تواجد فيه في المرتين السابقتين، يرسم بهدوء، وفي هذه المرة، كان يرسم لوحة مائية جديدة. كانت لوحة أخرى لغروب الشمس، فيها طفلةٌ هذه المرة. كان لها شعر أحمر وكانت صغيرة جداً، ترتدي بنطالاً أبيض قصيراً وقميصاً وردي اللون. وفي النهاية البعيدة، كان هناك كلب بني داكن.

"هل هذا أنا وموس؟" سألت بهدوء فروّعته. لم يكن قد رآها تقترب، وعندما التفت لينظر إليها، ابتسم لها. لم يكن يتوقع قدومها إلى ما بعد عطلة نهاية الأسبوع، عندما تذهب والدتها إلى المدينة مرة أخرى. ولكن ظهورها أسرّه بشكل واضح.

"يمكن ذلك، يا صديقتي. يا لها من مفاجأة جميلة". ابتسم لها.

"أمي نائمة، ولم يكن أمامي شيء أفعله، لذا فكّرت بالزيارة".

"أنا سعيد لأنك فعلت ذلك. هل ستقلق عندما تصحو؟".

هزت بيب رأسها بالنفي. يعلم ما يكفي ليفهم الآن. "إنها تنام طوال اليوم في بعض الأحيان. أظن أنها تفضل ذلك". لم يكن هناك شك بأن والدة بيب مصابة بالاكتئاب، ولكنه لم يعد متفاجئاً. ومن لن يكون كذلك، فقد فقدت زوجها وابنها معاً. ولكن المشكلة الوحيدة التي يمكنه رؤيتها، وهي أعظم من تلك حتى، هو أن يأسها قد ترك بيب وحيدة دون أي شخص تتحدث معه سوى كلبها.

جلست على الرمل بجانبه، وراقبت رسمه لفترة قصيرة. ومن ثم ذهبت إلى الماء لتبحث عن الأصداف. تبعها موس، عندها توقف مات عن الرسم وأخذ ينظر إليها. استمتع بالنظر إليها وحسب، كانت لطيفة جداً، وبدت وكأنها من عالم آخر أحياناً، مثل جنية صغيرة خشبية تتراقص على الشاطئ. كان هنالك طبيعة جنية فيها، وكان يركز على مراقبتها لدرجة أنه لم يشاهد امرأةً تقترب. كانت تقف على بعد بضعة أقدام منه، وعلى وجهها تعبير جدي، عندها التفت وتفاجأ. لم يكن لديه أية فكرة عمن تكون.

"لماذا تراقب طفلتي؟ ولماذا هي موجودة في لوحتك؟" كانت أوفيلي قد ربطت فوراً بين الفنان والرسومات التي أحضرتها بيب إلى المنزل. كانت قد نزلت إلى الشاطئ الشعبي لتبحث عن بيب وترى ما الذي تفعله عند ذهابها الطويل. لم تعلم كيف أو لماذا، ولكنها عرفت بأن هذا الرجل هو السبب نوعاً ما، وزال كل الشك عندما وجدت الطفلة والكلب في لوحته.

"لديك طفلة رائعة، سيدة ماكنزي. لا بد أنك فخورة جداً بها". قال بهدوء. أكثر هدوءاً مما كان يشعر في الحقيقة. فتحديقها الحاد أشعره باستياء كبير. كان يشعر تقريباً بما تفكر به، وأراد أن يطمئنها، ولكنه خشي من أن القيام بذلك يمكن أن يثير شكوكاً أكثر.

"هل تدرك أنها تبلغ إحدى عشرة سنة فقط؟" كان من الصعب الشك بأنها أكبر. ولو كان كذلك، لبدا أنها أصغر سناً. ولكن أوفيلي لم تكن تتخيل ما الذي يريده منها هذا الرجل، وشكّت على الفور بنوايا سيئة. ولوحته التي بدت



بريئة، كانت في عقلها، غطاءً لشيء مخيف. يمكن أن يكون مختطفاً، أو أسوأ، وبيب كانت بريئة جدا لتشك بذلك.

"نعم"، قال بهدوء. "لقد أخبرتني".

"لماذا كنت تتكلم معها؟... وترسم معها؟" أراد إخبارها بأن طفلتها تشعر بالوحدة بشدة، ولكنه لم يفعل. وعندها، رأت بيب والدتها تقف، وتتحدث مع ذلك الرجل، فاقتربت بسرعة، بيد مملوءة بأصداف البحر. بحثت في عيني والدتها على الفور لترى إن كانت في مأزق. وعندها أدركت على الفور أنها ليست كذلك، ولكنه مات. بدت والدتها خائفة وغاضبة، وأرادت بيب حمايته على الفور.

"ماما، هذا مات"، قالت بيب وكأنها تحاول منح بعض الرسمية والاحترام للموقف بتلك المقدمة.

"ماثيو بولز". قال لها وهو يمد يده إلى أوفيلي، ولكنها لم تصافحه، وبدلاً من ذلك، نظرت مباشرة إلى طفلتها، بنيران تشتعل في عينيها الكهرمانيتين. علمت بيب ما الذي يعنيه هذا. كان من النادر لوالدتها أن تغضب منها، وبخاصة في الفترة الأخيرة. ولكنها كذلك الآن.

"لقد أخبرتك ألا تتحدثي مع الغرباء على الإطلاق. أبداً! هل تفهمين؟" وبعدها التفتت إلى مات، بعينين مشتعلتين. "هنالك صفات لهذا النوع من الأمور"، قالت له، "ولا واحد منها جيد. لا شأن لك بأن تلتقي بطفلة على الشاطئ وتصبح صديقاً لها، باستخدام ما يفترض أنه عملك الفني كحيلة لإغوائها. إن اقتربت منها ثانيةً، سأتصل بالشرطة. وأنا أعني ما أقول!" صرخت بوجهه، وبدا هو مجروحاً. بدت بيب غاضبة، وأسرعت للدفاع عنه.

"إنه صديقي! وكل ما فعلناه هو الرسم سويةً. لم يحاول أخذي إلى أي مكان. أنا جئت إلى الشاطئ لرؤيته". ولكن أوفيلي تعلم أكثر منها، أو اعتقدت ذلك. تعلم أن رجلاً مثله، سيطمئن بيب لتشعر بالارتياح معه، ومن ثم الله وحده يعلم ما الذي سيفعله بها، أو إلى أين سيأخذها.

"لن تأتي إلى هنا مرة أخرى، هل تسمعينني؟" ثم صاحت عليها بالفرنسية: "أمنعك!" عندما تغضب أمها، يخونها لسانها. بدت فرنسية تماماً عندما ثار غضبها عليهما. كان غضبها وليد الخوف، وفهم مات ذلك.

"أمك محقة، بيب. لا يجب أن تتحدثي مع الغرباء". ومن ثم التفتت إلى والدتها. "أعتذر. لم أقصد إغضابك. أؤكد لك، كانت علاقة محترمة تماماً بيننا. أفهم قلقك، لدي أطفال أكبر منها بقليل".

"وأين هم؟" أطلقت أوفيلي غضبها عليه ثانيةً، وهي تشك بأمره. لم تصدقه.

"في نيوزيلندا"، أكملت بيب بدلاً عنه، وهذا لم يساعد الموقف. تمكن مات من رؤية أنها لا تصدقه.

"لا أعلم من أنت، أو لماذا كنت تتحدث مع ابنتي، ولكنني آمل أن تفهم بأنني جادة. سأتصل بالسلطات وأخبر عنك إن قمت بتشجيعها على المجيء إليك ورؤيتك مرة أخرى".

"لقد أوضحت نفسك تماماً"، قال لها وقد نفد صبره. في ظروف غير هذه، كان ليقول لها شيئاً أكثر إزعاجاً. كانت تهينه أكثر من اللازم، ولكنه لم يرغب بإزعاج بيب بمخاطبة والدتها بعنف. وهي تستحق القليل من التسامح بالنظر إلى ما مرت به، ولكنها قد استنفدت كل ذلك بكلماتها الأخيرة له. لم يتهمه أحد من قبل بمثل هذه الدوافع الشنيعة. كانت امرأة غاضبة جداً.

أشارت باتجاه الشاطئ إلى بيب، فالتفتت الطفلة لتنظر إليه وهي حزينة جداً. كانت الدموع تتدفق من عينيها وتسيل على خديها، وكل ما رغب به مات أن يعانقها، ولكنه لم يتمكن.

"حسناً، بيب. إنني أتفهم الأمر". قال بلطف.

"أنا آسفة"، قالت له وهي تنشج، بينما استمرت والدتها بالإشارة، حتى موس بدا ساكناً، وكأنه أحس بأن شيئاً بشعاً قد حدث. وبذلك، أمسكت أوفيلي



بيد بيب، وقادتها بقوة عائدة من الشاطئ، بينما كان مات يراقبهما. كاد قلبه أن يخرج من مكانه مع الطفلة التي تعلق بها سريعاً، وللحظة، أراد أن يزعج والدتها. تمكن من فهم مخاوفها، ولكنها لم تكن مبررة، وكان من الواضح جداً أن بيب تحتاج للتكلم مع شخص ما. ربما لم تكن والدتها تتناول الكثير من الطعام في الأشهر التسع الماضية، ولكن بيب كانت تتضور جوعاً.

وضع ألوانه ولوحته جانباً، وأغلق كرسيه وحامل لوحته، ويرأس مطأطأ للأسفل وتعابير متجهمة، عاد ماشياً إلى كوخه ليرميها. بعد خمس دقائق، كان في طريقه إلى قاربه، ليخرج مبحراً. علم أنه يحتاج للإبحار ليريح رأسه. كان الإبحار مسؤولاً عن ذلك طوال حياته.

وفي طريق عودتهما إلى الجزء الخاص من المجمّع ذي البوابات، استجوبت أوفيلي ابنتها. "هل هذا ما كنت تفعلينه في كل مرة تختفين بها؟ كيف التقيت به؟".

"رأيته يرسم فقط". قالت لها وهي ما تزال تبكي. "إنه شخص طيب. أنا أعرف ذلك".

"لا تعرفين شيئاً عنه. إنه شخص غريب. لا تعلمين إن كان ما قاله لك حقيقياً. لا تعلمين شيئاً. هل طلب منك الذهاب إلى منزله؟" سألتها والدتها بنظرة من الخوف.

"بالطبع لا. لم يكن يحاول قتلي. علمني كيف أرسم القوائم الخلفية لموس. هذا كل شيء، ورسم قارباً في إحدى المرات". قتلها لم يكن ما تقلق عليه أوفيلي. كانت طفلة بريئة يمكن بسهولة اغتصابها، أو خطفها، أو تعذيبها. حالما تثق به بيب، يمكن له أن يقوم بأي شيء يريده. أرعبتها الفكرة. وجميع اعتراضات بيب لم تعنِ شيئاً لها. كانت طفلة في الحادية عشرة من العمر، ولا تفهم المخاطر الممكنة لمصاحبة رجل غريب لا تعرف عنه شيئاً.

"أريدك أن تبتعدي عنه"، قالت أوفيلي مرة أخرى. "أمنعك من مغادرة المنزل دون شخص ناضج معك. وإن لم تفهمي ذلك، سنعود إلى المدينة".

"كنت فظة مع صديقي". غضبت بيب فجأة، لم تعد محطمة الفؤاد وحسب. لقد فقدت الكثير من الأشخاص الذين تهتم بهم، وهي تفقده الآن أيضاً. كان الصديق الوحيد الذي رافقته خلال الصيف، أو منذ وقت طويل جداً.

"إنه ليس صديقك. إنه شخص غريب. لا تنسي ذلك. ولا تجادليني". مشتا بقية الطريق بصمت، وحال دخولهما المنزل، قامت أوفيلي بإرسال بيب إلى غرفتها والاتصال بأندريا. بدت منزعجة بشدة بينما أصغت صديقتها لها. سمعت أندريا القصة بكاملها، ومن ثم أخذت تسأل الأسئلة، وقد بدت كالمحامية تماماً.

"هل ستتصلين بالشرطة؟".

"لا أعلم. أيتوجب عليّ ذلك؟ بدا محترماً نوعاً ما. كان يرتدي ملابس أنيقة، ولكن هذا لا يعني شيئاً. يمكن أن يكون مجرماً ينوي شيئاً ما. هل يمكنني الحصول على أمر اعتقال ضده؟".

"ليس لديك أدلة للقيام بذلك. لم يهددها، أو يتحرش بها، أو يحاول أخذها إلى أي مكان، أليس كذلك؟".

"قالت بأنه لم يفعل ذلك. ولكنه ربما كان يحاول التجهيز للقيام بشيء مريع لاحقاً". كانت أوفيلي تعاني من مشكلة في تصديق أن نواياه كانت بريئة. بالرغم من كل ما قالته بيب، أو بسبب ذلك ربما، أحست بالخطر. لماذا يصاحب طفلة؟

"أمل عكس ذلك"، قالت أندريا وقد بدا أنها مستغرقة في التفكير. "ما الذي يجعلك تعتقدين أن ذلك ليس بريئاً. هل بدا شاذاً؟".

"كيف يبدو الشاذ؟ لا.. بدا طبيعياً بصورة نسبية. وقال إن لديه أولاداً. ولكن يمكن أن يكون كاذباً". كانت أوفيلي مقتنعة بأنه شخص يتحرش بالأطفال.

"ربما يكون صديقاً وحسب".



"لا شأن له بأن يكون صديقاً لطفلة بعمرها، وخاصة أنها طفلة صغيرة. إنها تماماً في العمر المناسب للرجال من أمثاله. إنها بريئة تماماً، هذا ما يحبونه".

"هذا صحيح، بالطبع. ولكن، ربما لا يكون مصاباً بعشق الأطفال. هل كان جميلاً؟" ابتسمت أندريا، وبدت أوفيلي غاضبة جداً.

"أنت مثيرة للاشمئزاز!".

"أهم من ذلك، هل كان يرتدي خاتم زواج؟ ربما يكون عازباً (وحيداً)".

"لا أريد سماع هذا. كان الرجل يقيم علاقة صداقة مع ابنتي. إنه أكبر سناً منها بأربع مرات، وليس له شأن بها. وإن كان رجلاً لائقاً، لكان أفضل حكمة، وبخاصة إن كان لديه أطفال. كيف سيشعر لو أن رجلاً ما كان يثرثر مع ابنته؟".

"لا أعلم. لم لا تعودين لتسأليه؟ في الحقيقة، يبدو أنه ممتع. ربما تكون بيب قد أسدت لك خدمة".

"لم تقم بشيء من هذا النوع. لقد وضعت نفسها في خطر كبير، ولن أدعها تخرج من المنزل من دوني. وأقصد ذلك فعلاً".

"أخبريها فقط ألا تعود إليه. ستصغي إليك".

"فعلت ذلك. وقلت له إنني سأستدعي الشرطة إن اقترب منها".

"إن لم يكن ممن يغتصبون الفتيات، وكان شخصاً طيباً، فلا بد أنه أحب ذلك حقاً. ربما نحتاج إلى بَرْد مخالبك قليلاً. لستُ متأكدة من أنك جاهزة لدخول جديد". بدأت تشعر بأن مات ليس سيئاً. لم تكن واثقة من السبب، ولكن غريزتها أخبرتها بأن ذلك الشخص ربما يكون طيباً في الحقيقة. إن كان كذلك، فلا بد أن تقريع أوفيلي المطول لم يكن مرحبّاً به.

"أنا لست مهتمة 'بالدخول من جديد'. لا أنوي ذلك. أنا أخطط للبقاء في الخارج. ولكنني لا أرغب بحدوث أي شيء سيئ لبيب. لا أتحمل ذلك".

ارتعش صوتها وهي تتكلم، وانهمرت دموع الخوف من عينيها.

"أفهــم ذلك"، قالت أندريا بلطف. "راقبيها فقط. ربما تشعر بالوحدة". بعد ما قالته، ساد الصمت، فقد سكتت أوفيلي وأخذت تبكي.

"أعلــم ذلــك. ولكن لا يبدو أنني قادرة على فعل شيء. لقد رحل تشاد، وكــذلك والــدها، وأنا في حالة مزرية. أنا بالكاد أتحرك. حتى أننا لا نتحدث سويةً". إنها تعلم ذلك، ولكنها لا تتمكن من الخروج من الحفرة السوداء لتتمكن من التغيير.

"ربمــا تملكين الإجابة الآن عن السبب الذي دفعها للحديث مع الغرباء". قالت أندريا بلطف.

"كمــا هــو واضــح، كانا يرسمان سويةً". قالت أوفيلي وقد بدت يائسة. الأحداث بكاملها قد أغضبتها بشدة.

"هناك أشياء أسوأ. ربما يتوجب عليك دعوته إلى المنزل لتناول الشراب والــتأكد مــنه. ربما يكون رجلاً طيباً في الحقيقة. ربما تحبينه أيضاً". وبينما كانت أوفيلي تستمع، هزت رأسها بالنفي.

"لا أعتقد أنه سيتحدث معي بعد كل ما قلته له". ولكنها لم تكن متأسفة لما فعلته. فليس لديها أية فكرة عمن يكون.

"يمكــنك العــودة والاعــتذار منه غداً. أخبريه أنك تَمُرين بوقت صعب وكنت عصبية بعض الشيء".

"لا تكوني سخيفة. لا يمكنني القيام بذلك. وفضلاً عن ذلك، ماذا إن كنت محقة؟ ربما يكون شخصاً يتحرش بالأطفال، حقاً".

"في تلك الحالة، لا تعودي ولا تعتذري. ولكنني أعتقد أنه مجرد شخص كــان يرســم علــى الشاطئ ويحب الأطفال. ويبدو لي أكثر بأن بيب هي من حاولت التكلم معه".

"ولهذا السبب بالتحديد أرسلتها إلى غرفتها".



"يا للطفلة المسكينة. لم تقصد أي إساءة، ربما كانت تستمتع بوقتها فقط".

"حــسناً، مــن الآن وصــاعداً عليها أن تبقى قريبة من المنزل وتستمتع بوقــتها هــنا". ولكــن بعد أن أغلقت السماعة، أدركت أوفيلي قلة المتعة التي تقدمها لها. ليس هناك أطفال تلعب معهم، ولا أية نشاطات، وهما لا تفعلان أي شيء معاً. آخر يوم ذهبتا فيه للخارج معاً كان اليوم الذي توفي فيه تيد وتشاد. ومنذ ذلك الحين، لم تأخذها أوفيلي إلى أي مكان.

بعد التحدث إلى أندريا، ذهبت أوفيلي وطرقت على باب غرفة بيب. كان الباب مغلقاً، وعندما حاولت فتحه، وجدت أنه مقفل من الداخل.

"بــيب؟" لم يكن هناك أي إجابة، وطرقت مرة أخرى: "بيب؟ هل يمكنني الدخول؟" ساد صمت طويل وفي النهاية أجاب صوت غارق بالدموع.

"لقــد أزعجــتِ صــديقي. كنت فظيعة. أكرهك. اذهبي من هنا". وقفت أوفيلي عند الجهة الأخرى من الباب، تشعر بالعجز، ولكن ليس بالذنب. عليها واجب حماية ابنتها، حتى ولو لم توافق بيب أو تفهم.

"أنا آسفة. أنت لا تعلمين من هو". قالت بحزم.

"بلى أعلم. إنه رجل لطيف. ولديه أولاد في نيوزيلندا".

"ربما كان يكذب"، أصرت أوفيلي على موقفها، ولكنها بدأت تشعر بغباء محاولــة إقــناعها من خلف باب مغلق. وكان من الواضح أن بيب لن تدعها تدخل، ولن تخرج هي أيضاً. "اخرجي وتحدثي معي".

"لا أريد التكلم معك. أكرهك".

"هــيا نتناول العشاء ونتحدث عن الأمر. يمكننا الخروج إلى مكان ما إذا أردت". كــان هناك مطعمان في البلدة حيث لم تذهبا إليهما على الإطلاق من قبل.

"لا أريد الذهاب معك إلى أي مكان. أبداً على الإطلاق". لم تقلها أوفيلي، ولكنها كانت ترغب بتذكير بيب أن أمها هي كل ما تمتلكه الآن. تماماً كما أن

بيب هي كل ما تمتلك. كل ما تبقى لهما في العالم هو بعضهما البعض. لا يمكنهما تحمل أن تكونا عدوتين أو منغصتين لبعضهما البعض. تحتاجان لبعضهما كثيراً جداً.

"لماذا لا تفتحين قفل الباب؟ لن أدخل إن لم ترغبي. لا داعي لإبقائه مقفلاً".

"بل سأبقيه"، قالت بيب بعناد. كانت تحمل صورة موس التي رسمتها مع مات، فيما لا تزال تبكي. لقد اشتاقت إليه منذ ذلك الحين. ولم تكن لتسمح لوالدتها بمنعها عنه. ستذهب للقائه في الأيام التي تكون فيها مع آمي. وقد كرهت الأشياء التي قالتها والدتها لها. كانت حزينة لأجله.

استمرت أوفيلي في محاولة إخراجها بالملاطفة لفترة أطول، ومن ثم استسلمت في النهاية، وعادت إلى غرفة نومها. لم تتناول أي منهما العشاء في تلك الليلة، ومن ثم قاد الجوع بيب أخيراً خارج غرفتها في صباح اليوم التالي. خرجت لتتناول قطعة من الخبز المحمص وزبدية من حبوب الإفطار ومن ثم عادت إلى غرفتها. لم تتحدث بأي كلمة مع والدتها عندما كانت تحضّر إفطارها، ثم غادرت.

وفي منزله، بقي مات يقظاً طوال الليل، يفكر بها، قلقاً عليها. هو لا يعلم حتى المكان الذي تعيشان فيه، ليتمكن من القيام باعتذار رسمي لوالدتها، على أمل تلطيف موقفه. كره أن يدع بيب تخرج من حياته. فهو لا يعرفها جيداً، ولكنه يشتاق إليها كثيراً.

استمرت الحرب بين بيب ووالدتها حتى وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم. ومن ثم جلستا لتتناولا عشاءً صامتاً مؤلماً. كانت تلك النظرة على وجه بيب هي التي جعلت والدتها غاضبة في النهاية.

"بحق الله، بيب، ما هو الأمر المميز فيه؟ أنت لا تعرفينه حتى".

"بل أعرفه. وأحب أن أرسم معه. لقد تركني أجلس هناك. نتحدث أحياناً، وأحياناً لا. أحب مصاحبته فقط".



"هذا ما يخيفني، بيب. إنه كبير في السن، بعمر والدك. لماذا تريدين أن تكوني معه. هذا ليس طبيعياً".

"ربما يشتاق لأولاده... لا أعلم. ربما يحبني. أعتقد أنه وحيد أو شيء كهذا". تماماً كحالها، ولكنها لم تقل ذلك. كانت عنيدة بشكل واضح، وجاهزة للدفاع عن قضيتها.

"ربما يمكنني الذهاب معك في وقت ما، إن كنت حقاً ترغبين بالرسم معه. لا أعتقد أنه سيكون سعيداً لرؤيتي". بعد كل ما قالته، ستكون معجزة إن لم يرمِ كرسيه بوجهها. ولم تكن متأكدة من لومها له. بدأت تتساءل إن كانت متطرفة قليلاً برأيها، أو بتعبيرها عنه. لقد اتهمته تقريباً بأنه متحرش أطفال. ولكنها في ذلك الوقت، ارتعبت لرؤيتهما سويةً، وخافت على طفلتها. كان ذلك ردّ فعل عادي نوعاً ما، رغم أنها عبّرت عنه بفظاظة بعض الشيء.

"هل يمكنني العودة لرؤيته، ماما؟" بدت بيب مهتاجة ومفعمة بالأمل.

"أعدك أنني لن أذهب إلى المنزل معه، كما أنه لم يطلب مني ذلك على الإطلاق". وأحست بصدق أنه لن يفعل. لن يضعها في ذلك الموقف على الإطلاق، أو يضع نفسه فيه.

"سنرى. امنحيني بعض الوقت لأفكر بالأمر. ربما لا يرغب بوجودي هناك الآن"، قالت أوفيلي بصورة منطقية، "بعد كل شيء قلته له. أنا واثقة من أنه لم يستمتع بذلك".

"سأخبره أنك متأسفة". ابتسمت بيب لأمها.

"ربما يتوجب عليك أخذ آمي معك. سأنزل معك إلى الشاطئ وأعتذر منه فيما بعد. آمل أن يستحق ذلك".

"شكراً لك أمي"، قالت بيب بعينين مليئتين بالأمل ثانيةً. لقد ربحت انتصاراً كبيراً، الحق بزيارة صديقها الوحيد.

نزلتا سوية إلى الشاطئ في وقت متأخر من بعد الظهر، وتمكنت بيب

بصعوبة من السيطرة على نفسها وهي تركض بقرب الماء مع موس. كانت أوفيلي تمشي بتثاقل خلفها، كانت تحاول التفكير بما ستقوله له. إنها تفعل ذلك من أجل بيب.

ولكن عندما وصلتا إلى المكان الذي كانت بيب دائماً تشاهده فيه، لم يكن هناك أحد هذه المرة. لم يكن هناك أية إشارة لمات، أو للكرسي أو لحامل اللوحة. لقد ثبطت همته بسبب أحداث اليوم السابق، لذا بقي في الداخل، رغم لون السماء الأزرق الرائع، وكان يقرأ كتاباً بهدوء. لم يكن حتى في مزاج للإبحار، الأمر الذي كان نادراً ما يحدث بالنسبة له. جلست أوفيلي وبيب على الرمل سويةً لوقت طويل، تتحدثان عنه، وفي النهاية عادتا إلى الشاطئ، يداً بيد. لأول مرة منذ وقت طويل، شعرت بيب بأنها أكثر قرباً من والدتها ثانيةً. وكانت سعيدة لأنها قد حاولت على الأقل الاعتذار من مات.

من غرفة معيشته، وقف مات وحدّق إلى الخارج من النافذة لوقت طويل. شاهد الطيور، وقارب صيد، وبعض قطع الخشب المنجرفة على الشاطئ. لم يرَ بيب وأمها تجلسان هناك، أو تمشيان يداً بيد. كانتا قد ذهبتا بحلول الوقت الذي نظر فيه، وكان الشاطئ فارغاً ومهجوراً، كحياته تماماً.



# 5

قبل حلول ظهر اليوم التالي بقليل، قالت بيب لآمي أنها ستنزل إلى الشاطئ لرؤية صديق لها. أخذت معها شطائر وتفاحة هذه المرة، كمحاولة لإصلاح سلوك أمها. فكّرت آمي أن تسأل بيب إن كانت أمها توافق على ذهابها، إلا أن بيب طمأنتها بأنه لا مانع لدى أمها. ذهبت مع هديتها إليه بحقيبة بنية صغيرة، وأملت أن يكون قد عاد إلى موقعه المعتاد بعد غيابه في اليوم السابق. تساءلت ما الذي حدث له، فقد قال إنه يذهب إلى هناك كل يوم، وتمنت بأن غيابه لم يكن بسبب خطأ أمها. ولكن حالما رأته ونظرت إلى عينيه، قبل أن ينطق كلمة، عرفت الأمر. حتى بعد يومين، بدا وحيداً ومتألماً. تحدثت عن الموضوع مباشرة.

"أنا آسفة، مات. أتت والدتي للاعتذار أمس، ولكنك لم تكن هنا".

"كان هذا لطفاً منها"، قالها بتجرد، متسائلاً ما الذي دفعها للقدوم. لا بد أنها بيب. كانت لتزعزع الجبال من أجله، وقد فعلت. وكان متأثراً لذلك. "إنني آسف لجعلها تنزعج. هل كانت غاضبة جداً منك عندما غادرتِ؟".

"لبرهة"، قالت بيب بصدق، وكانت مرتاحة عندما شاهدته قد استرخى مجدداً. "قالت إنه بإمكاني المجيء لرؤيتك اليوم، ومتى شئت. ولكن لا يمكنني الذهاب إلى منزلك وحسب".

"يبدو هذا معقولاً. كيف جعلتها توافق على ذلك؟" سأل باهتمام، وهو يجلس مسترخياً على كرسيه، مسروراً لرؤيتها مجدداً. لقد كان محطماً طوال الليلة الفائتة، لفكرة أنها لم تعد قادرة على الرسم معه. كان مشتاقاً لحديثها

وجرأتها. لقد أصبحت تعني الكثير له، خلال وقت قصير ملفت للنظر. لقد حطت مثل عصفور صغير ساطع، على قلبه مباشرةً. ولكن كان هنالك أيضاً حفر عاطفية عميقة ملأها كل منهما للآخر. لقد فقدت أباً وأخاً، وهو فقد ولديه. فملأ كل من مات وبيب حاجة الآخر.

"حبست نفسي في غرفتي، ورفضت الخروج"، قالت بيب بابتسامة عريضة. "أظن أنها شعرت بسوء بعد ذلك. كانت فظة جداً معك. أنا آسفة... لقد اختلفت عما كانت عليه. أصبحت تقلق من كل شيء، وتغضب لأتفه الأسباب، وبسبب أشياء صغيرة جداً أحياناً. وفي أحيان أخرى، يبدو أنها لا تهتم لشيء. أعتقد أنها مضطربة".

"أو تعاني من توتر ما بعد الحادث[1]"، قال لها متعاطفاً. لم ترق له كثيراً ذلك اليوم، لأسباب واضحة. ولكنه تمكن من فهم وجهة نظرها. اعتقد فقط أنها قد عبّرت عنه بحدة شديدة بعض الشيء. كان هناك شيء هستيري خفيف في نبرة صوتها.

"ما هذا؟" سألت بيب، وهي تفتح حقيبة الشطائر وتقدم له واحدة. كان أمراً مريحاً جداً أن ترافقه ثانيةً. أحبت الحديث معه ومراقبته وهو يرسم. "ذلك الأمر الذي تحدثت عنه... ما هو؟".

"شكراً لك"، شكرها على الشطيرة الملفوفة بعناية، ومن ثم تناول قضمة منها. "توتر ما بعد الحادث. إنه مجموعة الأمور التي تلي حدوث شيء فظيع لشخص ما، وكأنه في صدمة. ربما ما تزال والدتك بتلك الحالة. لقد أصابتها صدمةٌ مروعةٌ عندما توفي والدك وأخوك؟".

"هل يتحسن الناس بعد ذلك؟ هل يمكن إصلاحهم؟" كانت قلقة على والدتها منذ تسعة أشهر ولم يكن لديها أحد تسأله. لم تشعر بتلك الراحة لتتحدث

---

(1) Post-traumatic stress: حالة نفسية يمكن أن تصيب الأشخاص الذين عانوا من حادث عاطفي مؤلم، وتسبب اضطرابات في النوم، قلق، تعب شديد، واكتئاب.



مع أندريا، كما شعرتها مع مات. كان صديقها، أما أندريا فكانت صديقة أمها.

"أعتقد ذلك. يستغرق وقتاً. هل تحسنت قليلاً عما كانت عليه عندما حدث الأمر في البداية؟".

"نوعاً ما"، قالت بيب بكآبة ولكنها لم تبدُ مقتنعة. "إنها تنام أكثر هذه الأيام، ولا تتحدث كثيراً كما كانت في السابق. حتى أنها نادراً ما تبتسم. ولكنها لا تبكي طوال الوقت أيضاً، كما كانت في السابق". ومن ثم بدت مرتبكة. "أنا أيضاً...".

"سأفعل ذلك إن كنت مكانك. إنّ الأمر سيبدو غير اعتيادي إن لم تفعلي، بيب. لقد اختفت نصف عائلتك". وما تبقى لا يبدو أنه يشكل شخصاً واحداً حتى، ولكن حفاظاً على كرامة أمها، لم تقل شيئاً.

"كانت أمي متأسفة بصدق عن الأشياء التي قالتها ذلك اليوم". كانت بيب ما تزال محرجة من الطريقة التي تصرفت بها أمها.

"لا بأس"، قال بهدوء. "كانت محقة نوعاً ما. أنا غريب بالفعل، ولا تعرفين الكثير عني. لربما كنت أحاول خداعك أو القيام بشيء سيئ تجاهك، تماماً كما قالت. كانت محقة عند شكّها بي، وكان يجدر بك الشك مثلها يا صغيرتي".

"لماذا؟ كنت لطيفاً معي، وساعدتني في رسم القائمتين الخلفيتين لموس. كان هذا شيئاً لطيفاً منك. ما زلت أحتفظ بصورته في غرفتي".

"كيف تبدو؟" قالها مداعباً.

"جيدة إلى حدٍّ ما". ضحكت. وعندما انتهى من شطيرته، قدمت له التفاحة. قسمها إلى نصفين، وأعطاها النصف الجيد. "أحسست أنك رجل طيب، وذلك منذ المرة الأولى التي رأيتك فيها".

"كيف عرفت؟" بدا مستمتعاً.

"عرفت فقط. فأنت تمتلك عينين لطيفتين". لم تخبره أنها كانت متأثرة

عــندما بدا حزيناً، وهو يتحدث عن ولديه البعيدين عنه. أحبت فيه ذلك أيضاً. كان الأمر سيبدو سيئاً إن لم يهتم لأمرهما.

"أنــت تمتلكين عينين لطيفتين أيضاً. أرغب بأن أرسمك يوماً ما. وربما بالألوان أيضاً. ما رأيك بذلك؟" كان يفكر بالأمر منذ أن التقى بها.

"أعــتقد أن أمــي ســتحب ذلــك كثيراً. ربما سأعطيها اللوحة يوم عيد ميلادها".

"ومتى يكون؟" لم يكن معجباً بأمها كثيراً بعد، ولكنه سيفعل ذلك من أجل بيب. فضلاً عن ذلك، هو من أراد رسم صورة لها. هي طفلة صغيرة رائعة، وصديقته الآن.

"العاشر من كانون الأول". قالت بكآبة.

"ومتــى عــيد مــيلادك؟" سأل باهتمام. كان دائماً يرغب بمعرفة المزيد عــنها. فقد كانت تذكره كثيراً بابنته فانيسا. وفضلاً عن ذلك، كان معجباً بها، فهي طفلة صغيرة جريئة. إنها كذلك أكثر مما اعتقد في البداية، فقد تمكنت من إقــناع والدتها لتدعها تنزل إلى الشاطئ لرؤيته، حتى أنها جعلتها تأتي لتعتذر فــي الــيوم السابق. كان ذلك عملاً بطولياً بحدّ ذاته. فالمرأة التي شاهدها يوم الأحد، بدت كامرأة لا تعتذر على الإطلاق، إلا عندما تكون تحت تهديد مسدس مــصوب علــى رأســها علــى الأرجح. في هذه الحالة، بيب هي من حملت المسدس.

"عــيد مــيلادي في تشرين الأول". ليس بعد فترة طويلة من موت أخيها ووالدها.

"كيف كان الأخير؟" سأل ليكمل الحديث.

"ذهبت ووالدتي لتناول العشاء في الخارج". لم تخبره أنه كان فظيعاً، وأن والــدتها كــادت تنساه تقريباً، ولم يكن هناك أي كعك أو حفلة. كان أول عيد ميلاد لها بعد وفاة والدها وأخيها، وكان كريهاً جداً. فقد كانت تتوق لانتهائه.



"هل تخرجين مع والدتك كثيراً؟".

"لا. كــنا كذلك من قبل. كان يحب والدي أخذنا إلى المطاعم. ولكن ذلك كان يستغرق وقتاً طويلاً، فأصاب بالملل". اعترفت بذلك بسهولة.

"من الصعب تصديق هذا. لا يبدو أنك تصابين بالملل".

"ليس وأنا معك". قالت بلطف. "إنني أحب الرسم معك".

"وأنــا أحب الرسم معكِ أيضاً". وبذلك، قدّم لها قلم رصاص ومجموعة الأوراق، وقررت أن ترسم طيراً، أحد النوارس الجريئة الذي كان ينقض إلى جانــبهما كلمــا سنحت له الفرصة، ومن ثم يطير على الفور عندما يبدأ موس بملاحقته. اكتشفت بعد ذلك، أنه من الصعب رسم النورس. وبعد برهة، انتقلت لرسم قارب مرة أخرى. لقد تحسن رسمها بعد المرات القليلة التي رافقته فيها. كانت تحسن الرسم، عندما ترسم الأشياء التي تحبها، وكان هذا صحيحاً بالنسبة له أيضاً.

جلــسا لــساعات تحت أشعة الشمس، فقد كان يوماً ذهبياً آخرَ في مرفأ الأمان (سيف هاربر). ولم تكن في عجلة من أمرها للذهاب إلى المنزل. كانت ســعيدة لأنهــا لن تكذب بعد الآن. يمكنها قول الحقيقة، بأنها كانت ترسم معه علــى الشاطئ. كانت الساعة الرابعة والنصف عندما وقفت أخيراً. كان موس يتمدد بهدوء إلى جانبها لأول مرة، فنهض هو الآخر.

"هــل ســتعودان؟" ســألها مات بابتسامة رقيقة، وبينما كانت تنظر إليه، أدركت أنه يشبه والدها أكثر عندما يبتسم، رغم أن والدها لم يكن يبتسم كثيراً. كــان رجــلاً جدياً، ربما لأنه ذكي جداً. قال الجميع إنه عبقري، وشكت بيب بصحة ذلك. إن ذكاء والدها جعل الناس يقبلون أي طريقة يتصرف بها، وهذا كــان جــيداً بالنسبة له. بدا لها أحياناً، أنه يُسمح لوالدها بقول وفعل أي شيء يريده.

"تعود أمي للمنزل بمثل هذا الوقت تقريباً. تكون متعبة جداً عادة بعد ذهابها إلى المجموعة. كما أنها أحياناً تمشي إلى الداخل، وتقع نائمة على سريرها".

"لا بد أن ذلك شاق عليها".

"لا أعلم. إنها لا تتحدث عنه. ربما يبكي الناس كثيراً". كانت تلك فكرة كئيبة. "سآتي غداً أو يوم الخميس، إن كان ذلك يناسبك". لم تكن قد سألته من قبل، ولكن هناك تساهل كبير بينهما الآن.

"أحب ذلك، بيب... متى شئت. انقلي تحياتي لأمك". أومأت وشكرته، ثم لوّحت له، وكالفراشة طارت بعيداً ورحلت. وأخذ مات يراقب اختفاءها والكلب بعيداً، كعادته دائماً. كانت مثل هبة نادرة تدخل إلى حياته. طائر صغير يأتي ويرحل، بأجنحة ترفرف وعينين كبيرتين مليئتين بالألغاز. أثرت محادثاتهما به كثيراً وجعلته يبتسم. لم يكفّ عن التساؤل وهو يفكر بها، كيف هي والدتها في الحقيقة. والأب الذي قالت بأنه عبقري. بدا عسيراً، من الأشياء التي قالتها، وغامضاً بعض الشيء. وبدا الصبي غير طبيعي أيضاً. ليست هذه بالعائلة العادية. وهي بالتأكيد لم تكن بالطفلة العادية، ولا ولداه أيضاً. كانا ولدين رائعين. كان الوضع كذلك في آخر مرة شاهدهما فيها... منذ زمن بعيد. ولكنه لم يترك نفسه تتعمق بالتفكير في ذلك.

خطر في باله وهو يصعد فوق الرمال إلى كوخه أنه يرغب بالإبحار معها، وتعليمها كيفية الإبحار أيضاً، تماماً كما فعل مع ولديه. كانت فانيسا قد أحبت ذلك على عكس روبرت. ولكن احتراماً لوالدة بيب، يعلم مات أنه ليس بإمكانه أخذها على متن القارب. فهي لا تعرفه بشكل كافٍ لتثق به في الماء، وهناك دائماً احتمال ولو ضئيل بحصول شيء ما. لا يريد المخاطرة بذلك.

عندما عادت بيب إلى المنزل، وجدت أمها تدخل للتو عبر الباب. كعادتها، بدت مستنزفة القوى، ثم سألت أين كانت بيب.

"ذهبت لرؤية مات. بعث لك بتحياته. رسمت قوارباً اليوم. لم أتمكن من رسم الطيور، كانت صعبة جداً". وضعت مجموعة من الأوراق على طاولة المطبخ، وبينما كانت تحدق بها، رأت أوفيلي أن الرسوم كانت جيدة. كانت متفاجئة لتحسن بيب الملحوظ. لقد كان تشاد فناناً أيضاً، ولكنها حاولت ألا تفكر



بذلك. "سأحضر العشاء الليلة، إن رغبت". عرضت بيب، ولأول مرة، ابتسمت أوفيلي.

"دعينا نذهب للخارج".

"لا حاجة لذلك". فبيب تعلم كم أمها متعبة، ولكنها بدت أحسن حالاً الليلة.

"ربما يكون ذلك ممتعاً. ما رأيك؟ لم لا نذهب الآن؟" كانت تلك خطوة عظيمة لأوفيلي، عرفتها بيب وقدرتها.

"حسناً". بدت بيب سعيدة ومتفاجئة. وبعد نصف ساعة، جلستا على طاولة لشخصين في مقهى ميرميد، أحد المطعمين المتواجدين في البلدة. تناولتا الهامبرغر، وتحدثتا بطريقة ودودة. كانت تلك أول ليلة لهما في الخارج. وعندما عادتا إلى المنزل، كانتا سعيدتين لأقصى الحدود، ومتعبتين أيضاً.

ذهبت بيب إلى سريرها باكراً تلك الليلة، وعادت لرؤية مات في اليوم التالي. لم تعترض والدتها عند ذهابها، وبدت مرتاحة عندما عادت بيب. كعادتها، وضعت رسومها على الطاولة. وفي نهاية الأسبوع التالي، كانت هنالك مجموعة كبيرة من الرسوم، ومعظمها جيد إلى حدٍّ ما. كانت تتعلم الكثير من مات.

في صباح أحد أيام الجمعة وبعد أن أحضرت طعام الغداء معها، ذهبت مع موس لبضع دقائق لتبحث عن الأصداف، كما تفعل عادةً، ثم رآها تقفز عن حافة الماء. ابتسم، معتقداً أنها قد رأت قنديل بحر أو سلطعون، وانتظر سماع نباح موس. ولكن هذه المرة سمع موس يئن ورأى بيب تجلس على الرمل ممسكة بقدمها.

"هل أنت بخير؟" صاح متسائلاً إن سمعته، حيث كانت بعيدة عنه مسافة لا بأس بها. ولكنها هزت رأسها، فوضع فرشاته ونظر إليها لدقيقة. لم تتحرك أو تقف. جلست هناك فقط وأمسكت قدمها. ولم يتمكن من رؤية وجهها. كان رأسها منحنياً وهي تنظر للأسفل إلى قدمها، واستمر الكلب في الأنين. مشى مات إليها لرؤية ما حدث، وتمنى ألا تكون قد داست على مسمار. فكان هناك

الكثير من المسامير الصدئة على الشاطئ، ضائعة في الرمل أو ناتئة من قطع الخشب التي انجرفت على الشاطئ.

ولكن حالما وصل إليها، رأى أن الذي داست عليه لم يكن مسماراً، ولكن قطعة زجاج مُثلّمة، وكان هناك جرح عميق بشع في أسفل قدمها.

"كيف حدث هذا؟" سأل وهو يجلس إلى جانبها، كان هناك الكثير من الدم على الرمل، وكانت قدمها ما تزال تنزف بشدة.

"كانت تحت طحلب بحري مشيت عليه". قالت بشجاعة، ولكنه رأى على الفور بأن وجهها قد أصبح شاحباً.

"هل تؤلمك كثيراً؟" سأل بقلق، وهو يمد يده بلطف ليمسك بقدمها.

"ليس كثيراً"، كذبت بقولها.

"أراهن أنها تؤلمك. دعيني أنظر إليها". أراد أن يتأكد أنه لا وجود لزجاج فيها. بدت مثل جرح نظيف، ولكنها كانت عميقة. ونظرت إليه بعينين قلقتين.

"هل هي بخير؟".

"ستكون كذلك، بعد أن أقطع قدمك. لن تفتقدي إليها كثيراً". رغم ألمها الشديد، ضحكت. ولكنها بدت خائفة أيضاً. "لا زال بإمكانك الرسم بقدم واحدة"، قال وهو يحملها بلطف للأعلى. كانت خفيفة كالريش، وصغيرة أكثر مما بدت. لم يرغب أن يصل الرمل إلى داخل الجرح، وكان خائفاً من أنه قد دخل مسبقاً. وتذكر على الفور طلبات أمها بألا تذهب معه إلى المنزل. ولكنه لن يدعها تمشي إلى المنزل بجرح في قدمها. وكان متأكداً تقريباً من أن الجرح يحتاج إلى التقطيب، رغم أنه لم يذكر ذلك لبيب. "ربما ستصاب أمك بالجنون منا، ولكنني سأدخلك، وأنظف لك هذا قليلاً".

"هل ستؤلم؟" بدت قلقة، فابتسم لها مطمئناً. وهو يحملها باتجاه منزله، ويتبعهما موس. ترك جميع معدات رسمه على الشاطئ دون أي اهتمام.





"بالطبع لن تؤلم بنفس القدر الذي ستصيح به أمك علينا". قال لها ليصرف انتباهها. ولكن كل منهما لاحظ أنهما يتركان أثراً من الدم على طول الرمل فيما كان مات يحملها بين ذراعيه. وبقليل من الخطوات، وصل إلى باب منزله الأمامي، واتجه مباشرة إلى المطبخ وهو ما يزال يحملها. وتركا أثراً من الدم على الأرض أيضاً. أجلسها على كرسي المطبخ، ورفع قدمها بلطف لتستند على المغسلة. وخلال ثوانٍ، بدا أن الدماء موجودة في كل مكان، وعليه أيضاً.

"هل يجب أن أذهب إلى المستشفى؟" سألت بخوف. بدت عيناها كبيرتين في وجهها الشاحب. "لقد جرح تشاد رأسه في إحدى المرات، ونزف دماً في كل مكان، واستدعى الأمر الكثير من القطب". لم تخبره أن ذلك كان بسبب نوبة غضب، فقد كان يطرق رأسه بالحائط. كان يبلغ العاشرة من العمر في ذلك الحين، وكانت هي في السادسة، ولكنها تتذكر الحادث تماماً. صاح والدها على أمها بسبب ذلك، وعلى تشاد أيضاً. وبكت أمها... كان ذلك مشهداً مريعاً.

"دعينا نلقي نظرة". لم تبدُ أحسن مما كانت عليه على الشاطئ. رفعها وأجلسها على طرف المغسلة، وأجرى بعض المياه الباردة على الجرح، الأمر الذي جعلها تتحسن، ولكن المياه بدت حمراء فاتحة اللون وهي تجري من أسفل الجرح. "حسناً، صديقتي، دعيني ألفها بمنشفة". أخذ منشفة نظيفة من الحامل، ولاحظت أن لديه مطبخاً مريحاً ودافئاً رغم أن كل شيء فيه بدا قديماً وبالياً. ولكنه بدا جيداً بتلك الطريقة. "وبعد أن ألفها، أعتقد أنه يتوجب عليّ أخذك إلى المنزل عند والدتك. هل هي في المنزل اليوم؟".

"نعم".

"جيد. سأقود السيارة إلى منزلك، لكي لا تمشي. كيف يبدو ذلك بالنسبة لك؟".

"جيد جداً. ومن ثم نذهب إلى المستشفى؟".

"لنرَ ما تقوله والدتك. إلا إن كنت ترغبين بأن أقطع ساقك هنا. سيستغرق الأمر دقيقة واحدة، إن لم يتدخل موس". كان يجلس موس مطيعاً في الزاوية، يراقبهما بهدوء. وضحكت بيب مما قاله، ولكنها ما زالت تبدو شاحبة، واعتقد بأن قدمها تؤلمها كثيراً. كان محقاً، ولكنها لم ترغب بالاعتراف له. كانت تحاول جاهدة أن تكون شجاعة.

لفَّ قدمها بالمنشفة، كما وعدها، وحملها ثانية، أمسك بمفاتيح السيارة وهو في طريقه، وتبعهما موس خارجاً من المنزل، ومن ثم دخل إلى الستايشن حالما فتح مات الباب. وبينما أجلسها على الكرسي الأمامي بجانبه، كانت هناك بقعة كبيرة من الدم الأحمر الفاتح تتشربها المنشفة.

"هل هي سيئة جداً، مات؟" سألت في طريقها إلى المنزل، وحاول هو أن يبدو غير قلق.

"لا، ولكنها ليست جيدة. لا يجب أن يترك الناس الزجاج على الشاطئ هكذا". لقد جرح الزجاج قدمها مثل السكين وقد أحست بيب بذلك أيضاً.

وصلا إلى منزلها بأقل من خمس دقائق، وعندما وصلا هناك، حملها إلى الداخل، برفقة موس إلى جانبه. كانت والدتها في غرفة المعيشة، وكانت متفاجئة عندما نظرت للأعلى وشاهدتهما، وشاهدت بيب بين ذراعي مات.

"ماذا حصل؟ بيب، هل أنت بخير؟" بدت أوفيلي قلقة على الفور عندما اقتربت باتجاههما.

"أنا بخير، ماما. لقد جرحت قدمي". التقت عينا مات بعينيها. كانت تلك أول مرة يشاهدها فيها بعد اليوم الذي لمّحت به أنه متحرش أطفال عندما التقيا على الشاطئ.

"هل هي بخير؟" سألت أوفيلي، ملاحظةً كم أجلسها في الأسفل بلطف، وفتح لفة القدم بعناية.

"أعتقد ذلك. ولكن أظن أن علينا إلقاء نظرة". لم يرغب بإخبارها أمام



بيب أنه اعتقد بوجوب إجراء بعض القطب، ولكن حالما رأته، توصلت إلى النتيجة نفسها.

"من الأفضل أن نذهب إلى الطبيب. أعتقد أنك بحاجة للقطب، بيب". قالت والدتها بهدوء، عندما امتلأت عينا بيب بالدموع وربت مات على كتفها.

"ربما واحدة أو اثنتان"، قال لها، وهو يلمس بلطف رأس الطفلة، ويحس بالشعر الحريري المجعد. ولكن الحادث المزعج استنفد أفضل ما لديها، وبدأت بالبكاء، رغم أنها أرادت أن تكون شجاعة من أجله. لم ترغب بأن يظن بأنها جبانة. "سيخدرونها في البداية. قمت بالشيء نفسه السنة الماضية. ولا أعتقد أنها آلمتني حتى".

"بل ستؤلم!" صاحت بهما، وقد بدت في الحادية عشرة من العمر لأول مرة. لديها الحق بذلك. لقد كان جرحاً خطيراً وكان ينزف كثيراً. "لا أريد القطب!" قالت وهي تغمر وجهها بأمها.

"سنقوم بشيء مسلٍ بعد ذلك، أعدك"، قال مات، ناظراً إلى أوفيلي ومتسائلاً إن كان يتوجب عليه المغادرة. لم يرغب بالتدخل. ولكنها بدت ممتنة لوجوده هنا، وكذلك بيب. كان له تأثير مهدئ على كلتيهما. كان صبوراً، سمحاً، وبدا ذلك جلياً في أوقات كهذه.

"هل يوجد طبيب هنا؟" سألت أوفيلي وقد بدت قلقة.

"هناك عيادة خلف محل البقالة. فيها ممرضة. كانت بارعة في تقطيب جرحي السنة الماضية. ما رأيك بذلك؟ أو يمكننا القيادة إلى المدينة. لا أمانع بإيصالكما إن أحببتِ".

"لم لا نأخذها إلى العيادة، ونرى ما تقوله الممرضة".

أنّت بيب قليلاً في طريقهم إلى هناك، وأخبرها مات قصصاً مضحكة وصرف انتباه كلتيهما، وكان ذلك أمراً مريحاً. وما إن رأت الممرضة الجرح، اتفقت مع مات وأوفيلي. وفعلت تماماً كما قال مات. حقنت بيب لتخدر

القدم، ومن ثم قطبت الجرح بعناية. قامت بسبع قطب، ووضعت ضمادة كبيرة لتغطــيها، وقالــت أنه لا يجب على بيب أن تدوس على قدمها لعدة أيام، وبعد أســبوع تأتي لتفك القطب. حملها مات عائداً بها إلى السيارة بعد ذلك، وبدت مرهقة من تلك المحنة.

"هــل يمكنني دعوتكما إلى الغداء؟" عرض مات وهو يقود سيارته عبر الــبلدة الصغيرة، ولكن بيب قالت بضعف أنها تشعر بنوع من الغثيان، فقرروا الذهاب للمنزل. وحال وصولهم إلى هناك، مددها بلطف على الأريكة. شغّلت والدتها لها التلفاز، وبعد خمس دقائق، غطت في النوم.

"يــا للطفلة المسكينة، كان ذلك مزعجاً جداً. علمت ذلك منذ اللحظة التي رأيتها بها. كانت شجاعة جداً".

"شكراً لكونك طيباً معنا جداً". قالت أوفيلي بامتنان، عندما فكّر مات بأنه مــن الصعب التصديق بأنها نفس المرأة التي كانت توبخه على الشاطئ. هذه كانــت روحاً لطيفة، ورأى مات أن عينيها هما أكثر العيون حزناً، تماماً مثل بــيب. كانــت تمتلك نفس صفة الحزن، وهذا جعله يرغب بوضع يديه حولها أيضاً. كل ما مرت به وعانت منه كان في عينيها وعلى وجهها. ولكن بالرغم مــن ذلك، لم يستطع أن يمنع نفسه من ملاحظة أنها امرأة جميلة، وبدت شابة بالنسبة لعمرها بشكل مثير للغرابة.

"علــيّ أن أعترف لك"، قال بنظرة من القلق، ولكنه أراد إخبارها الحقيقة أولاً ومن ثم تحمل عبء غضبها، إن كان موجوداً. "أخذتها إلى منزلي لأنظف لهــا قــدمها. بقينا هناك خمس دقائق فقط، ومن ثم أحضرتها إلى هنا. لم أكن لأفعل ذلك، ولكنني رغبت بغسل القدم ببعض الماء، كما أن الجرح كان ينزف في كل مكان، لذا احتجت إلى شيء ألفّ قدمها به".

"من حسن حظها أنك كنت هناك. أفهم ذلك. شكراً لإخباري".

"فكّــرت بأن أجلبها إلى هنا مباشرة، لمعرفتي بما ستشعرين به، ولكنني أردت إلقاء نظرة جيدة على الجرح. كان أكثر سوءاً مما اعتقدت".



"نعــم، كان كذلك". شعرت بالغثيان هي الأخرى وهي تشاهد الممرضة تخــيط لها الجرح. كانت قد شعرت بذلك أيضاً عندما جرح تشاد رأسه. وكان ذلك يوماً مزعجاً جداً. أما هذا فهو أبسط بكثير، والفضل لمات، فقد أخذها إلى العــيادة بسرعة، وألهى بيب، وصرف نظرها طوال الطريق. تمكنت الآن من معرفة ما رأت بيب فيه. كان شخصاً طيباً بشكل ملحوظ. "شكراً للطفك. جعلت الأمر أكثر سهولة بالنسبة لها. وبالنسبة لي أيضاً".

"أنــا متأسف لحدوث ذلك. من الخطير جداً ترك الزجاج على الشاطئ. أقوم دائماً بالتقاط الزجاج عندما أجده. إنه يؤدي لأشياء كهذه". نظر إلى بيب، وابتسم عندما شاهدها نائمة.

"هل يمكنني تقديم شيء تتناوله؟" سألت بلطف، وتردد هو. لقد مرّ عليهما ما يكفي هذا الصباح.

"لا بــد أنــك متعبة. من الصعب دائماً مشاهدة الأطفال عندما يصابون". شعر بالتعب هو الآخر، فقد كان صباحاً مثيراً للعواطف.

"أنا بخير. ما رأيك ببعض الشطائر؟ تستغرق دقيقة فقط".

"هل أنت متأكدة؟".

"تمامــاً. هــل تــرغب بكأس من الشراب؟" رفض واختار الكولا، وفي غــضون دقائق وضعت أمامه طبقاً من الشطائر. بالرغم من كسلها الدائم هذه الأيــام، بــدت هادئــة وفعّالة. وجلسا مواجهين لبعضهما البعض عند طاولة المطبخ.

"أخبرتنــي بــيب أنــك فرنسية، بالرغم من أنه ليس بإمكان أي شخص معرفة ذلك على الإطلاق. إنك تتحدثين الإنكليزية بطلاقة تثير الإعجاب".

"تعلمــتها عندما كنت طفلة في المدرسة، ومضى على وجودي هنا أكثر من نصف حياتي. أتيت إلى هنا إلى الكلية، كطالبة أجنبية، وتزوجت أستاذي".

"ماذا أتيت تدرسين؟".

"كنت طالبة أُحضّر لدراسة الطب. ولكني لم أذهب إلى كلية الطب على الإطلاق. تزوجت بعد التخرج مباشرة". لم تذكر له بأنها دخلت جامعة رادكليف، لكي لا تظهر بمظهر المتباهية.

"هل أنت نادمة لأنك لم تدخلي كلية الطب؟" سأل باهتمام. كانت كابنتها، امرأة غامضة.

"أبداً. لا أعتقد أني سأكون طبيبة جيدة. لقد كدت أصاب بالغثيان وأنا أشاهد الممرضة تخيط قدم بيب".

"يختلف الأمر عندما يحدث ذلك لولدك. شعرت بالشيء نفسه عندما كنت أشاهدها، وهي ليست ابنتي حتى".

ذكرها ذلك بواحدة من الحقائق القليلة التي تعرفها عنه. "قالت لي بيب بأن لديك ولدين في نيوزيلندا"، ولكن في الوقت الذي قالت فيه ذلك، عرفت أنه موضوع مؤلم. بدت عيناه متألمتين. "كم عمرهما؟".

"ست عشرة وثماني عشرة".

"كان ليصبح ولدي في السادسة عشر بحلول نيسان". قالت بحزن، ومن ثم لأجلهما هما الاثنان، غيّر الموضوع.

"درست في معهد (بو آرتس) في باريس مدة سنة عندما كنت في الجامعة"، قال لها. "يا لها من مدينة رائعة. لم أذهب إلى هناك منذ بضع سنين، ولكنني أذهب كلما سنحت لي الفرصة. متحف اللوفر هو أفضل مكان في العالم".

"أخذت بيب إلى هناك السنة الماضية ولكنها لم تحبه. إنه ضخم جداً عليها. ولكنها أحبت المقهى الدولي في الدور السفلي. أحبته أكثر من مطاعم ماكدونالد". ضحكا على التناقض الثقافي والمطبخي للأطفال.

"هل تذهبين إلى هناك كثيراً؟" كان فضولياً ليعرف عنها. وكذلك كانت هي بالنسبة له.



"عادةً، كل صيف. ولكنني لم أرغب بذلك هذه السنة. بدا الوضع هنا أكثر سهولة وهدوءاً. اعتدت على الذهاب إلى بريتاني عندما كنت طفلة، والمكان هنا يذكرني كثيراً ببريتاني". كان مات متفاجئاً من الاعتراف لنفسه بأنها أعجبته وهو يتحدث معها، ولكنه فعل ذلك حقاً. بدت بسيطة، وحنونة، وصادقة، وليست كزوجة رجل قد جمع ثروة ضخمة وامتلك طيارته الخاصة. بدت أكثر واقعية وتواضعاً. رغم أنه لم يتمكن من منع نفسه من النظر إلى شعرها الأشقر الطويل حيث يتثبت الألماس الصغير على أذنيها، وكانت ترتدي كنزة كشميرية سوداء جميلة. ولكن الرفاهية تلك بدت غير متناسبة وغير ذات قيمة أمام لطفها وجمالها. كانت امرأة جميلة جداً. ولاحظ أنها ما تزال ترتدي خاتم الزواج الذهبي البسيط، وسحره ذلك كثيراً. أما سالي فقد أخبرته أنها قد رمت خاتمها منذ اليوم الذي تركته فيه. في ذلك الوقت، كادت تلك المعلومة أن تقتله. أعجب بحقيقة أن أوفيلي ما تزال ترتدي خاتمها. بدا ذلك كإشارة عن حب والاحترام لزوجها الراحل. وأُعجب بها كثيراً لذلك.

تحدثا بهدوء وهما يكملان غداءهما، تفاجآ لطول المدة التي مضت عليهما وهما يتحدثان عندما سمعا بيب تتحرك في النهاية. ولكنها أنّت قليلاً، والتفتت لتستلقي على جنبها على الأريكة، بينما تمدد موس على الأرض بجانبها.

"يحبها الكلب كثيراً، أليس كذلك؟" علّق مات، فأومأت.

"كان لابني في السابق، ولكن بيب تبنته الآن. إنها تحبه".

بعد فترة قصيرة، نهض مات ليغادر، شكرها على الغداء، واقترح عليها أن تنزل إلى الشاطئ مع بيب يوماً ما. أخبرها عن قارب إبحاره أيضاً، وعرض عليها الإبحار عندما أخبرته أوفيلي أنها تحب البحر كثيراً.

"لا أعتقد أنها ستتمكن من المشي إلى أي مكان طوال الأسبوع القادم"، قال وهو حزين تقريباً. سيشتاق لها.

"يمكنك القدوم وزيارتها هنا، إن أحببت. أعلم أنها تحب رؤيتك".
صعب عليه التصديق – وهو ينظر إليها – أنها نفس المرأة التي حرّمت على ابنتها رؤيته قبل أسبوعين تقريباً. ولكن الأشياء تغيرت في الوقت الحاضر. بسبب إخلاص بيب القوي له، أصبحت أوفيلي تثق به. خاصة بعد ذلك الصباح الذي أمضياه سويةً، بل أكثر من ذلك، كانت ممتنة له، وأحبته أيضاً. تمكنت من معرفة سبب مصاحبة بيب له. كل شيء فيه أشار إلى أنه رجل لطيف، ولاحظت، كما لاحظت بيب قبلها، بأنه يشبه زوجها قليلاً. كان التشابه في الحجم، والشكل، والطريقة التي يتحرك بها واللون أكثر من مجرد تشابه كبير في الملامح، ولكن هناك شيء ما جعل أوفيلي تشعر بالارتياح معه.

"شكراً للغداء". قال بلطف. أعطته رقم الهاتف، ووعد أن يتصل قبل قدومه. قال إنه سيمنح بيب بعض الأيام لتسترد صحتها قبل أن يأتي.

وكانت بيب محبطة بشدة عندما استيقظت ووجدت أنه قد رحل وفاتتها مشاهدته. كانت قد نامت مدة تقارب الأربع ساعات، وكان قد انتهى مفعول المخدر بحلول ذلك الوقت. آلمتها قدمها كثيراً، وكانت الممرضة قد أخبرتها بأن قدمها ستؤلمها مدة يوم أو يومين. أعطتها أوفيلي الأسبرين وغطتها ببطانية وهي أمام التلفاز، وغطت بيب بنومها ثانية قبل العشاء.

كانت ما تزال نائمة عندما اتصلت أندريا، وأخبرتها أوفيلي بما حدث. وعلّقت على اشتراك مات بالأمر.

"لا يبدو كمتحرش أطفال بالنسبة لي، ربما يجب عليك أنتِ التحرش به"، اقترحت عليها أندريا ضاحكة بخفوت. "وإن لم تفعلي، سأفعل أنا". لم تكن قد قامت بأي علاقة منذ حصولها على الطفل، وكانت قد ملت ذلك. كانت أندريا تستمتع بالصحبة الذكرية، وكانت قد وضعت عينها على والد من دون زوجة في الملعب. كانت دائماً ما تتواعد مع الرجال في مكتبها، ومعظمهم من المتزوجين. "لم لا تدعينه على العشاء؟".



"سأرى". قالت أوفيلي بغموض. كانت قد استمتعت بتناول الغداء معه، ولكن ليس لها أية رغبة بإقامة علاقة معه، أو مع أي شخص آخر، لهذا السبب. حتى الآن، إنها لا تزال تشعر بأنها متزوجة. كانت قد تحدثت عن ذلك للمجموعة عدة مرات، ولم تكن تتخيل أن بإمكانها أن تشعر بغير ذلك. فكرة أنها وحيدة ثانيةً جعلتها ترتجف. وقعت في حب تيد لأكثر من عشرين سنة، وحتى الموت لم يغير ذلك. رغم كل ما حدث، لم يترنح حبها له على الإطلاق.

"سآتي لزيارتك هذا الأسبوع"، وعدت أندريا. "لم لا تدعينه على العشاء عندما آتي؟ أرغب برؤيته".

"أنت مثيرة للاشمئزاز". ضحكت أوفيلي على صديقتها القديمة. تحدثتا لبضع دقائق، وبعد أن أنهتا المكالمة، حملت بيب إلى غرفتها وغطتها. وبينما كانت تفعل ذلك، أدركت أنها لم تفعل شيئاً كهذا منذ فترة طويلة جداً. شعرت وكأنها تنهض ببطء من نوم عميق. لقد مضى على رحيل تيد وتشاد عشرة أشهر الآن. كان من الصعب تصديق ذلك. مضت سنة تقريباً على تحطم حياتها بالكامل. لم تكن قد جمعت أجزاءها بعد، ولكن ببطء شديد كانت تجدها هنا وهناك، وربما في يوم ما، ستجمع أجزاء حياتها ثانيةً. ولكنها لم تكن موجودة بعد، وتعلم أن أمامها طريقاً طويلاً قبل أن تصل إلى هناك. كان من اللطيف التصادق مع مات ظهر هذا اليوم والتحدث معه. ولكنها ما تزال تشعر بأنها امرأة متزوجة تقوم بتسلية ضيفها. لا يمكن تخيل فكرة إقامة علاقة معه على الإطلاق، على عكس أندريا.

ولكن ذلك ما أثر بمات وهو يجلس معها إلى الطاولة. أحب وقارها، ولباقتها، ولطفها. لم يكن هناك شيء صارخ أو غير محتشم بها. أصابته نفس المشاعر التي أصابت أوفيلي بخصوص العلاقة في البداية. استغرق الأمر منه سنوات وسنوات وسنوات ليتمكن من التخلص من سالي. أما الآن حيثما كانت هذه المشاعر، لم يعد يأبه أخيراً. لم يعد يحبها، ولم يعد يكرهها.

لا يشعر بشيء تجاهها. وحيثما كان قلبه، كانت هنالك مساحة فارغة. كل ما تمكن من فعله، بعقله على الأقل، هو مصاحبة فتاة بالحادية عشرة من عمرها.



# 6

كان أسبوع نقاهة بيب كئيباً جداً بالنسبة لها. كانت تجلس على الأريكة في غرفة المعيشة تشاهد التلفاز وتقرأ الكتب، بينما شعرت أوفيلي بأنها قادرة على فعل شيء ما، وهو اللعب بأوراق الشدة. ولكن في معظم الوقت، كانت أوفيلي ما تزال بعيدة جداً عن الاستمتاع باللعب معها. قامت بيب برسم بعض الرسوم على مجموعة عشوائية من الأوراق التي وجدتها، ولكن الشيء الذي أضجرها كثيراً هو عدم تمكنها من النزول إلى الشاطئ، أو زيارة مات، فلا يفترض بها أن تُعرّض الجرح والقطب للرمل. ومنذ اليوم الذي جرحت قدمها فيه، كان الطقس على الشاطئ رائعاً جداً، وهذا ما جعل حبسها أكثر سوءاً.

مضى على جلوس بيب في المنزل ثلاثة أيام، عندما قررت أوفيلي المشي إلى الشاطئ، وانتهى بها المطاف دون أن تدرك باتجاه الشاطئ الشعبي. استمرت في المشي، وبعد برهة، ولدهشتها، رأت مات على كرسيه، منهمكاً في عمله، مستغرقاً بعمق بما كان يفعله. ترددت، كما فعلت بيب من قبل، بقيت على مسافة بعيدة. وبعد برهة، أحسّ مات بوجودها، التفت، فرآها. كانت تقف بتردد، وبدت كابنتها بتشابه مذهل. وعندما ابتسم لها، اقتربت منه أخيراً.

"مرحباً، كيف حالك؟ لم أرغب بمقاطعتك"، قالت له، وهي تبتسم بخجل.

"لا مشكلة"، ابتسم مطمئناً، "أرحب بالمقاطعات". كان يرتدي قميصاً وبنطالاً من الجينز، وتمكنت من رؤية أن له جسماً متناسقاً. كان له ذراعان قويتان، وكتفان عريضتان، وشخصية رائعة. "كيف حال بيب؟".

"مـصابة بالملل، يا حسرة عليها. منعها من الوقوف على قدمها، يقودها للجنون. إنها مشتاقة للقدوم ورؤيتك".

"يـتوجب علـيّ زيارتها، إن كان لا بأس بذلك"، سأل بحذر. لم يرغب بالتطفل على الطفلة أو على أمها.

"ستحب ذلك".

"ربما سأعطيها بعض الواجبات".

لاحظـت أوفيلـي أنـه كان يعمل على منظر للبحر، مع أمواج طويلة متدحرجة في يوم عاصف، وقارب إبحار صغير يقاومها. كانت اللوحة رائعة ومؤثرة نوعاً ما. أعطت الشعور بالوحدة والانعزال، وقسوة المحيط.

"أحب عملك". وعنت ذلك بقولها. كانت اللوحة جميلة وجيدة جداً.

"شكراً لك".

"هل تستخدم الألوان المائية دائماً؟".

"لا، أفـضل الزيتية. وأستمتع برسم الشخصيات". ذكره ذلك بأحد وعوده لبـيب برسم صورة لها لعيد ميلاد أمها. أراد البدء قبل أن تغادر مرفأ الأمان (سـيف هاربر)، ولكن منذ الحادث، لم يكن لديه الوقت الكافي للقيام بالخطوط الأولـية لهـا، رغـم أنـه يمتلك صورة واضحة في عقله عن الطريقة التي سيرسمها بها.

"هل تعيش هنا على مدار العام؟" سألت باهتمام.

"نعم. مضى على وجودي هنا عشر سنين تقريباً".

"لا بد أن المكان يصبح موحشاً في الشتاء"، قالت بهدوء، غير متأكدة إن كـان علـيها الجلوس على الرمل، أو الوقوف إلى جانبه وحسب. شعرت بأن عليها الانتظار لتتلقى دعوة لذلك، وكأن هذا الجزء من المحيط هو مكان عمله الخاص... كالمكتب مثلاً.

"أحب الهدوء هنا. إنه يناسبني". معظم سكان مجمع الشاطئ تقريباً هم زوار



في الصيف فقط. كان هناك القليل من الأشخاص الذين يعيشون على مدار العام في القسم الموجود بين الشاطئ الشعبي والمجمع ذي البوابات. الشاطئ والبلدة يهجران تقـريباً فـي الشتاء. بدا رجلاً وحيداً لأوفيلي، أو منعزلاً على الأقل، ولكنه لم يبدُ غير سعيد. بدا مسالماً وسعيداً بشخصيته، تماماً كما يقول الفرنسيون.

"هل تذهب إلى المدينة كثيراً؟" ثرثرت معه، وهي تشعر بالفضول حياله. كان من السهل معرفة سبب حب بيب له. لم يكن ثرثاراً كثيراً، ويمتلك طريقة تجعل الأشخاص يشعرون بالراحة معه.

"تقـريباً لا. لم يعد لديّ سبب لفعل ذلك. بعت تجارتي منذ عشر سنوات عندما انتقلت إلى هنا. اعتقدت أنني أقوم بإجازة فقط قبل البدء من جديد، ولكن انتهـى بي الحال إلى البقاء هنا". إن بيع وكالة الإعلانات الأفضل في السوق، سـمح له بالقيام بذلك، حتى بعد تقاسم عائدات البيع مع سالي. أيضاً، الميراث الصغير الذي حصل عليه من والديه بعد ذلك، سمح له بالبقاء هنا. كل ما أراده فـي الـبداية هـو إجازة لعام واحد قبل البدء بشيء جديد، ولكنها انتقلت إلى نيوزيلندا، وكان يحاول الاتصال بها لرؤية الولدين. وفي الوقت الذي توقف فيه عـن القيام بذلك، فقد الاهتمام في البدء بعمل جديد. وكل ما أراد القيام به الآن هو الرسم. قام ببعض المعارض منفرداً، ولكنه لم يعد يفعل ذلك على الإطلاق. لم يعد بحاجة لعرض أعماله، يحتاج للقيام بها فقط.

"أحـب المكـان هنا"، قالت أوفيلي بهدوء، وهي تنزل للأسفل إلى الرمل علـى بعد ثمانية أو عشرة أقدام عنه. كانت المسافة كافية لرؤية ما كان يفعله ولـلتكلم معه، ولكنها ليست كافية لأي منهما ليشعر بأنه ينتهك أو يتعدى على حـرمة الآخر. كانا منتبهين لاحترام مساحة بعضهما البعض، وكما كانت بيب تفعل أحياناً، جلست أوفيلي تراقبه بصمت، حتى بدأ حديثه ثانيةً.

"إنه مكان جميل للأطفال"، قال لها، وهو يحدق في عمله، ومن ثم ينظر إلى الأفق. "إنه مكان آمن إلى حدٍّ ما. وبإمكان الأطفال التجول على الشاطئ. إن الحياة هنا أبسط بكثير من المدينة".

"أحب موقعه القريب. يمكنني الذهاب والقدوم بسهولة، وترك بيب هنا. لا يتوجب علينا الذهاب إلى أي مكان، نكون هنا فقط".

"أحب ذلك أيضاً". ابتسم لها. ومن ثم قرر الاستفسار أكثر عنها. كان فضولياً، رغم كل ما عرفه عنها، كانت ساحرة بشكل واضح، ولكن في الوقت نفسه، قلقة جداً وهادئة. "هل تعملين؟" لم يعتقد ذلك. لم تكن قد ذكرت ذلك على الغداء، ولم تقل بيب شيئاً عن هذا.

"لا. كنت أعمل منذ وقت طويل، عندما كنا نعيش في كامبردج، قبل انتقالنا إلى هنا وقبل ولادة الولدين. وبعدها لم أعد أعمل، لأنني مهما تلقيت من أجر، لم يكن كافياً لدفع أجرة جليسة الأطفال، لذا لم يكن هناك داعٍ لذلك. عملت كمدرسة مساعدة في مخبر الكيمياء الحيوية في هارفارد. أحببت ذلك حقاً". كان تيد قد حصل لها على العمل، وكان ملائماً لما تخطط إليه من دراسة في كلية الطب، إلى أن أحلامها تلاشت بالكامل. في النهاية، ومنذ البداية تقريباً، كان تيد هو الحلم الوحيد الذي أرادته أو احتاجت إليه. هو والطفلان كانوا عالمها بكامله.

"يبدو لي شيئاً رفيع المستوى. هل تعتقدين أنك ستعودين إليه يوماً ما؟ أقصد كلية الطب". ضحكت أوفيلي كإجابة على سؤاله.

"لقد كبرت في العمر كثيراً. حتى أنهي كلية الطب، والإقامة، والتحضير للبورد، والشهادة سأكون قد بلغت الخمسين عندما أصبح طبيبة". وهي في عمر الثانية والأربعين، تلاشت أحلامها بكلية الطب منذ زمن بعيد.

"يقوم بعض الأشخاص بذلك. ربما يكون أمراً ممتعاً".

"أعتقد أنني لو فعلته مسبقاً لكان كذلك. ولكنني كنت سعيدة في الوقوف إلى جانب زوجي". كانت ما تزال فرنسية في كثير من الأمور، وكانت سعيدة لتلعب الدور الثانوي معه. لم تكن ترى الأمور كذلك، كانت تعتبر نفسها نظام دعم له، وفريق إبهاج لتشجيعه خلال الأوقات العصيبة، وكانت كذلك. وهذا هو السبب الرئيسي لاستمرار زواجهما. احتاج تيد لها كوسيلة اتصال مع العالم



الواقعي. كانت الشيء الوحيد الذي جعله يستمر عندما كانت الأشياء تصبح أصعب من حولهما. أما الآن، فلا يوجد أحد يفعل الشيء نفسه لها، باستثناء طفلتها. "كنت أفكر في الحصول على عمل ما مؤخراً. أو لأكون صريحة، كان هناك أشخاص آخرون يفكرون بذلك عني. إنهم أعضاء المجموعة وصديقتي القريبة مني جداً. يعتقدون أنني بحاجة إلى شيء يشغلني. فبيب تكون في المدرسة طوال اليوم، وليس أمامي الكثير لأفعله". بذهاب تيد وتشاد، بدا أن عملها قد انتهى تقريباً. كان تشاد يجعلها دائماً مشغولة، بمطالبه ومشاكله. وتطلّب تيد أيضاً مقداراً لا بأس به من الاهتمام. أما بيب فلم تكن كذلك، كانت مشغولة خلال اليوم، وبعد المدرسة ومع أصدقائها أيام العطل. كانت تشغل وقتها بشكل جيد ومثير للاستغراب كما أنها تتمتع باكتفاء ذاتي. وشعرت أوفيلي وكأنها لم تفقد نصف عائلتها وحسب ولكن عملها أيضاً. "ولكنني لا أعرف ما الذي سأقوم به. ليس لدي تدريب رسمي على شيء معين".

"ماذا تحبين أن تفعلي؟" سأل باهتمام ملقياً نظرة عليها بين الحين والآخر. كان يتكلم معظم الوقت وهو يرسم، وأحبت أوفيلي ذلك. كان بإمكانهما التكلم مع بعضهما البعض دون الشعور بأن أحداً منهما يمعن النظر في الآخر أو يحدق به. كان ذلك كعلاج لها تقريباً بأن تتحدث معه بصراحة، تماماً كما فعلت بيب.

"أعلم أن ذلك محرج، ولكنني غير واثقة. لم أقم بفعل أي شيء لنفسي من قبل، حتى أنني لم أرد فعل شيء، منذ وقت طويل. كنت دائماً مشغولة مع أطفالي وزوجي. ويبدو أن بيب تحتاجني أقل مما كان يحتاجني تيد وتشاد".

"لا تكوني واثقة جداً من ذلك"، قال مات بهدوء. أراد إخبارها بأن طفلتها تشعر بالوحدة بشكل واضح، ولكنه لم يفعل. "ماذا عن نوع من الأعمال التطوعية؟" كان واضحاً من المنزل الذي تقطن فيه ومن حقيقة أن زوجها كان يستقل طائرته الخاصة، بأنها ليست بحاجة إلى المال.

"كنت أفكر بذلك"، قالت وقد بدت الكآبة عليها.

"كنت أدرس الرسم في مستشفى للأمراض العقلية. كان ذلك رائعاً... أحد أفضل الأشياء التي قمت بها في حياتي. علموني أكثر مما علمتهم، عن الحياة، والصبر، والشجاعة. كانوا أشخاصاً رائعين. توقفت عن فعل ذلك عندما انتقلت إلى هنا". كان الأمر أكثر تعقيداً من ذلك، كان قد توقف عندما شعر بأنه اكتفى من جلب الكآبة لنفسه، عندما انقطع عن رؤيته لولديه. وفي الوقت الذي تخلص فيه من ذلك، أو شعر بحال أفضل على الأقل، كان سعيداً أكثر بالجلوس هنا وحيداً، ومن النادر أن يذهب إلى المدينة.

"الأشخاص المصابون بأمراض عقلية هم أحياناً أشخاص خارقون". قالت بنعومة، وطريقة قولها لذلك جعلته يلتفت لينظر إليها. علم على الفور من عينيها أنها تعرف الكثير عما تقوله. التقت أعينهما، فالتفت إلى لوحته بسرعة. أصابه الخوف فجأة من أن يسألها عن السبب الذي قالت ذلك لأجله، ولكنها أحست بسؤاله.

"كان ولدي مصاباً بالاكتئاب الهوسي... ثنائي القطب... كان ذلك أمراً صعباً عليه، ولكنه كان شجاعاً جداً. حاول الانتحار مرتين في السنة التي سبقت موته". كانت تلك إشارة كبيرة للثقة التي تشاركت بها مع مات، ولكنها عرفت مما فعل مع بيب أنه رجل عطوف ومتفهم.

"هل تعلم بيب ذلك؟" بدا مصدوماً.

"نعم. كان ذلك صعباً جداً عليها. وجدته أنا في المرة الأولى، ووجدته هي في الثانية. كان ذلك مخيفاً جداً".

"يا للطفلة المسكينة... كلاهما... كيف فعل ذلك؟" شعر بأن قلبه قد يخرج من مكانه وهو يراقبها ويستمع إليها.

"في أول مرة جرح معصمه، وأخذ يعبث بالجرح، الحمد لله. وفي الثانية حاول شنق نفسه، وكانت بيب قد ذهبت إلى غرفته لتسأله عن شيء ما، ووجدته هناك. كان أزرق اللون، وكاد أن ينتهي تقريباً. ولكنها قدمت وجلبتني



إليه، أنزلناه للأسفل، وتوقف قلبه. أجريت له الإنعاش القلبي التنفسي حتى وصول رجال الإسعاف، وأنقذوه. استخدموا الصدمة الكهربائية، وقد نجا بأعجوبة، نجا بأعجوبة حقاً. كان ذلك مروعاً". بدت غير قادرة على التنفس وهي تتحدث عن ذلك. ما تزال ذكريات ذلك الحادث تنتابها. حتى أنها الآن تحلم بذلك أحياناً. "كان أفضل حالاً عندما توفي، ولهذا السبب أرسلته إلى لوس أنجلوس مع والده في ذلك اليوم. كان لتيد اجتماعات هناك، واعتقدت أنه من الممتع لتشاد أن يذهب معه. كانا لا يقضيان الكثير من الوقت سويةً. كان تيد مشغولاً جداً". وكان منكراً بالكامل تقريباً لمشاكل تشاد، رغم أنها لم تقل شيئاً عن ذلك. حتى بعد محاولات الانتحار، أصر تيد بشدة أنها كانت مجرد لعبة لكسب الانتباه، وليست شيئاً أسوأ من ذلك.

ولكن مات يعرف الرجال والأطفال. "كيف كانت علاقته مع ابنك؟ هل كان من الصعب عليه قبول مرضه؟".

ترددت، ومن ثم أومأت. "كثيراً. كان تيد دائم الاعتقاد بأنه سيتغلب على ذلك. رفض قبول مرض تشاد، مهما قال الأطباء. وفي كل مرة تتحسن الأمور، يعتقد أن الحرب قد انتهت... وكذلك أنا، في البداية. حتى أن تيد لم يعتقد بوجود حرب، كان دائماً يقول بأن ذلك هو ألم متزايد، أو أنني أنا من يفسده، أو أنه بحاجة إلى صديقة. أعتقد أنه من الصعب على الوالدين أحياناً الاعتراف بأن لديهما طفلاً مريضاً، وأن ذلك لن ينتهي على الإطلاق، أو يتحسن. تحسن ذلك لفترة قصيرة فقط، بفضل العلاج الصحيح، والكثير من العمل والجهد، ولكنه لم يتلاشَ. سيبقى موجوداً للأبد". بدت مدركة تماماً لذلك، ولكنها كانت قد تعلمت دروسها لقاء ثمن باهظ، ولم تكن تنكر ذلك على الإطلاق. كانت تؤمن منذ أن كان تشاد صغيراً بأن لديه مشاكل خطيرة، مهما كان بارعاً وساحراً. كان ذكياً، كوالده، ولكنه مريض جداً. كانت أوفيلي مصرة على اكتشاف المشكلة، وفي النهاية شخصت مشكلة ولدها. وحتى بعد ذلك، رفض تيد التصديق. قال إن أطباء النفس هم رجال مشعوذون، وأن

الفحوصات غير حاسمة. لم يكن هناك شيء حاسم بمحاولات انتحار تشاد، ونوبات الهوس، والليالي بلا نوم، أو بنوبات الاكتئاب الخطيرة. ومن وجهة نظره، فإن الأدوية والمعالجة قد خففت المشكلة، ولكنها لم تقم بحلها بنحو كاف على الإطلاق. وعندما توفي تشاد، كانت أوفيلي قد قبلت بأن تشاد سيبقى مريضاً للأبد. أما تيد فلم يقبل بذلك. كان قد قاوم مواجهة الموقف للنهاية. كان امتلاك ولد مريض عقلياً أمراً غير مقبول بالنسبة له.

كانت الطامة الكبرى والخطأ الأعظم بالنسبة لها، إرساله إلى لوس أنجلوس مع والده. أرادت الحصول على استراحة، وقضاء بعض الوقت الهادئ مع بيب دون أن تكون قلقة عليه، فعندما يكون تشاد موجوداً كان الاهتمام به يستغرق وقتاً طويلاً، فقد كان يحتاج للكثير من الاهتمام. كانت تعلم فقط أنها قد أرسلت الصبي ليومين، ليس بهدف تعزيز العلاقة بين تيد وتشاد وحسب، بل لتجد لنفسها متنفساً. ومع ذلك فهي تعلم أنها مهما كانت المدة التي ستعيشها أو المجموعات التي ستذهب إليها، لن تسامح نفسها على ذلك. ولكنها لم تقل شيئاً من هذا لمات. عليها أن تتعايش مع ذلك الآن، مهما كلفها.

"لقد مررت بالكثير، وليس مأساة الحادث وحسب. لا بد أنه من الصعب بشكل خاص معرفة أنك قد أنقذت حياة الطفل مرتين، ومن ثم فقدته بحادث مثل ذلك".

"إنه القدر"، قالت بهدوء. "جميعنا في أيدي القدر، ولا يمكننا فعل شيء للسيطرة عليه. أحمد الله أنني لم أرسل بيب أيضاً"، رغم أن ذلك لم يكن مطروحاً حتى. لم يكن تيد يرغب في أخذ تشاد، فقد كان الصبي يزعجه دائماً ويغضبه، ولم يكن تشاد متحمساً لتلك الرحلة أيضاً. ولكنهما وافقا في النهاية، بإصرار من أوفيلي. ولكن تيد لم يكن ليأخذ بيب على الإطلاق، فقد كانت صغيرة جداً لتذهب في رحلة معه. فقد كان من النادر أن يعطيها أي انتباه. كان يفعل ذلك في أيام الفقر الأولى، ولكن بعدها، أصبح مشغولاً جداً. الحل الوحيد الأفضل لما قد حدث، بفرض أنه لم يحدث - وهذا أفضل شيء - كان



أن يذهبوا جميعا في تلك الرحلة، ويموتوا معاً. هناك الكثير والكثير من المرات التي تتمنى فيها أوفيلي الآن لو أن ذلك قد حدث. لكان الأمر أبسط بكثير.

"هل ترغبين القيام بالأعمال التطوعية مع الأطفال ذوي الأمراض العقلية؟" سأل مات بلطف، محاولاً صرف نظرها عن الموضوع الحالي المتعلق بفقدان طفلها وزوجها. وبصورة حتمية، تمكن من رؤية أن لذلك ألماً معذباً في عينيها.

"لا أعلم"، قالت أوفيلي، وهي تنظر بعيداً إلى البحر وتفكر بالأمر، وهي تمدد ساقيها على الرمل. "قضيت سنوات كثيرة بذلك مع تشاد، وكانت مجهدة جداً أحياناً... بطريقة أخرى، أحب استخدام ما تعلمته، ربما مساعدة الآخرين، أو من الأفضل ربما القيام بشيء آخر. لا أرغب بالقتال في تلك المعركة للأبد. فقد انتهت بالنسبة لي على أية حال. ربما يكون من الأفضل فعل شيء آخر. أعتقد أن ذلك يبدو أنانياً، ولكنه صادق". بدت أنها تظهر رغم كل شيء بمظهر الحكيمة، والمهتمة، والمجروحة أيضاً. ومن لن يكون كذلك بالنظر لما مرت به؟ لم يكن لمات أي شعور سوى التعاطف والاحترام لها، وأكثر من ذلك لبيب الآن. لقد مرت بالكثير أيضاً، وخاصة بالنسبة لطفلة في عمرها.

"يمكن أن تكوني محقة. ربما تحتاجين إلى استراحة من كل ذلك، والقيام بشيء مبهج أكثر. ماذا عن نوع من الأعمال مع الأطفال؟ الأطفال الهاربون أو الأطفال والعائلات المشردة؟ يمكن القيام بالكثير من الأعمال الجيدة هناك".

"يبدو هذا ممتعاً. من المذهل عدد الأشخاص الضائعين الذين تجدهم في الشوارع الآن، حتى في فرنسا، وليس هنا فقط. إنها مشكلة تسود العالم بأسره". تحدثا عن التشرد لبرهة ثم عن القضايا السياسية والاقتصادية التي يشعران بأنها السبب وراء ذلك. وحتى هذه اللحظة على الأقل، بدت المشكلة غير قابلة للحل، ولكنها قدمت حواراً ممتعاً بينهما، وكانت أكثر رشداً من الأمور التي

تحدث فيها مع بيب، بينما كان يعلمها الرسم. لقد أحبهما، وشعر بأنه محظوظ لأن طريقهما قد التقى به فتعرف عليهما.

أخيراً، نهضت أوفيلي وقالت إنه يتوجب عليها العودة، فأخبرها أن تسلم له على بيب أيضاً، وهنا خطرت على بالها فكرة.

"لِمَ لا تقوم بذلك بنفسك؟" قالت مبتسمة. لقد استمتعت بالوقت الذي قضته في الحديث معه، ولم تكن آسفة لأنها أخبرته عن تشاد. كان ذلك أيضاً كتبصر بأمور بيب، فقد أحبته كثيراً، وبدا من الضروري لأوفيلي أن تُعلِمه بمقدار شجاعة ابنتها، وبما مرت به، وبما خسرته. عبء ثقيل لتحمله طفلة، وأوفيلي أيضاً، ولديه عبئه الخاص أيضاً، أكثر بكثير مما تعرفه. عند الوصول لسن محدد، مهما كان الشخص، فإنه يحمل أعباءً وجروحاً وندباً، وأشخاصاً قاموا بإيلامه أو تحطيمه أحياناً. لا أحد يمر دون خدش، حتى طفلة بعمر بيب أحياناً. أحبت أوفيلي التفكير بأن ذلك سيجعل بيب أكثر قوة في النهاية، وأكثر حذراً ربما، فهي لم تعد واثقة مما سيفعل ذلك بها. إن نوع الندب الباقية على روح كل شخص تحدد هويته. أحياناً تغني الروح، وأحياناً أخرى تحطمها. بدا سر الحياة بأن تنجو من الضرر، وتتعايش مع الندب بشكل جيد. ولكن في الحقيقة، لا يوجد قلب لم يصب بأي خدش. فالحياة بحدّ ذاتها واقع... ولكي تحب شخصاً ما، حبيباً كان أو صديقاً، لن يكون عندك أي خيار سوى أن تكون حقيقياً.

"سأتصل ببيب"، قال مات كإجابة على ما قالته. شعر بالحزن لأنه لم يتصل بها حتّى الآن، ولكنه لم يرغب بالتطفل على أوفيلي.

"لِمَ لا تأتي لتناول العشاء الليلة؟ سيكون الطعام رديئاً، ولكنني أعلم أنها ستستمتع برؤيتك، وكذلك أنا". كانت تلك أجمل دعوة تلقاها منذ سنين، فابتسم لها.

"أحب ذلك. هل أنت واثقة من عدم وجود أي مشكلة في ذلك؟".

"على العكس تماماً، نحب قدومك. في الحقيقة، سأترك ذلك مفاجأة لبيب، إن كان بإمكانك القدوم. ما رأيك في الساعة السابعة؟" كانت الدعوة بسيطة وصريحة. أحبت الحديث معه، تماماً كحال بيب.



"يبدو هذا رائعا. هل يمكنني إحضار شيء معي؟ أقلام؟ شراب؟ ممحاة؟" ضحكت له، ولكنها أحبت الفكرة.

"تعال أنت فقط. ستكون بيب مسرورة لذلك". لم يرغب بإضافة: "وأنا أيضاً"، ولكنه أراد ذلك، وشعر وكأنه طفل صغير. كانتا رائعتين، نجتا من الكثير من الأشياء التي لا تصدق من أوجاع القلب، والمآسي، والكوارث. كلما عرفهما أكثر كنّ لهما المزيد من الاحترام، وخاصة بعد اليوم. ما قالته عن ابنها بدا كمحنة من العذاب.

"أراك فيما بعد، إذاً"، قال لها بابتسامة، ولوحت له وهي تتوجه عائدة من الشاطئ، وبينما هو يراقبها، لم يستطع سوى التفكير ثانية بكم تذكره ببيب.

# 7

كانت بيب مستلقية على الأريكة وتضع قدمها على الوسادة وقد بدا عليها الملل، عندما رن جرس الباب. ذهبت أوفيلي لتفتح الباب، فقد كانت تعرف من في الخارج. حضر على الموعد تماماً، وعندما فتحت الباب، كان مات يقف هناك مرتدياً كنزة رمادية وبنطالاً من الجينز، ويحمل زجاجة من الشراب. وضعت أوفيلي إصبعها على فمها وأشارت إلى الأريكة. وبابتسامة عريضة، مشى إلى الداخل. وعندما رأته بيب، أطلقت صرخة طويلة من الفرح وقفزت من الأريكة على قدمها.

"مات!" حولت نظرها منه إلى والدتها، مسرورة بشكل لا يوصف، لا تعلم كيف حصلت تلك المفاجأة. "كيف... ماذا..." كانت مسرورة ومرتبكة.

"التقيت بوالدتك بالصدفة على الشاطئ اليوم، وكانت لطيفة في دعوتها لي لمشاركتكما العشاء. كيف حال قدمك؟".

"غبية حقاً. إنها قدم غبية، وقد مللت منها. اشتقت للرسم معك". كانت قد رسمت الكثير من الرسوم وحدها، ولكنها بدأت تصاب بالملل من ذلك أيضاً، وشعرت وكأن مهاراتها الجديدة قد تراجعت. كانت قد واجهت مشاكل برسم الجزء الخلفي من موس ما بعد ظهر ذلك اليوم. "نسيت كيفية رسم القائمتين الخلفيتين".

"سأعلمك ثانيةً"، وبينما كان يقول ذلك، سلمها مجموعة جديدة من أوراق الرسم وعلبة من أقلام الرصاص الملونة التي كان قد وجدها في الدرج. كانت مناسبة تماماً لما تحتاج إليه، فأخذتها منه بسعادة كبيرة.

وبينما كانا يتحدثان، أعدّت أوفيلي طاولة لثلاثة أشخاص، وفتحت زجاجة الشراب الفرنسي الرائع. كان من النادر أن تشرب الشراب الفرنسي، ولكنها كانت من الأنواع التي تحبها وتذكرها بفرنسا.

كانت قد وضعت دجاجة في الفرن، وخلال وقت قصير، طهت بعض الهليون والأرز الهندي والصلصة الهولندية. كان ذلك أفضل طهو متقن قامت به منذ سنة. وقد استمتعت بصنعه.

كان مات متأثراً وهم يجلسون لتناول العشاء، وكذلك بيب أيضاً. مزحت مع أمها.

"ألا يوجد بيتزا مجمدة الليلة؟".

"بيب، أرجوك! لا تفضحي جميع أسراري". ابتسمت أوفيلي لها.

"إنها أساس نظامي الغذائي أيضاً. هي والحساء السريع التحضير". ضحك مات. بدا وسيماً ومعتنياً بنفسه وهو يجلس معهما، وكانت تفوح منه رائحة خفيفة للعطر الرجالي، والأهم من ذلك، بدا مفعماً بالنشاط ومتمتعاً بالرشاقة وحقيقياً. كانت أوفيلي قد سرّحت شعرها من أجله، وارتدت كنزة كشميرية سوداء وبنطال جينز. لم تكن قد وضعت المكياج طوال السنة الماضية، ولم تضعه تلك الليلة. كانت دائماً ترتدي ثوب الحداد من أجل تيد وتشاد. ولكن لأول مرة، تساءلت إن كان عليها وضع أحمر الشفاه على الأقل. حتى أنها لم تحضر أياً منها إلى الشاطئ معها. كانت جميعها موجودة في درج ما في المنزل. خلال الأشهر العشرة الماضية، لم تكن تهتم بوضعها ثانيةً. كما أنها لم تكن ذات أهمية، أو كانت كذلك، حتى الليلة. لم يكن السبب لأنها ترغب بالتودد إليه، ولكن لأنها شعرت بالحاجة على الأقل لأن تبدو كامرأة من جديد. لقد كان الرجل الآلي الذي تحولت إليه في السنة الماضية يعود إلى الحياة ببطء.•

استمتعوا جميعاً بالحديث الرائع خلال العشاء. تحدثوا عن باريس، وعن الفن، وعن المدرسة. قالت بيب إنها لا تتطلع للعودة إليها. ستبلغ الثانية عشرة



في الخريف وتدخل الصف السابع. وعندما سألها مات، أخبرته بأن لديها الكثير من الأصدقاء، ولكنها تشعر بالغربة معهم الآن. كان الكثير من أهل أصدقائها مطلقين، ولكن لم يكن لديها أي صديق توفى والده. لم ترغب بأن يشعر الناس بالحزن عليها، وهي تعلم أن بعضهم يشعر بذلك. قالت إنها لا ترغب بأن يكونوا "لطفاء جداً"، لأن ذلك يجعلها حزينة. لا ترغب بأن تشعر وكأنها مختلفة. أما هو فقد علم بأن ذلك لا محالة منه. "لا يمكنني حتى الذهاب إلى عشاء الأب مع الابنة"، قالت بكآبة. "من سآخذ معي؟" كانت والدتها قد فكّرت بذلك أيضاً، ولم تجد حلاً للمشكلة. كانت قد أخذت تشاد مرة معها عندما لم يتمكن والدها من الذهاب. ولكنها لا تتمكن من أخذه الآن.

"يمكنك أخذي معك، إن أحببت"، عرض مات بصدق، ومن ثم نظر إلى أوفيلي. "إن لم تمانع والدتك. ليس هناك مانع من أخذ صديقٍ معك، إلا إن كان بإمكانك أخذ والدتك. يمكنك القيام بذلك، ليس عليك تطبيق القواعد بحذافيرها. الأم بمثابة الأب".

"لا يسمحون بالقيام بذلك، أحدهم حاول السنة الماضية"، وبهذا أصبح الوحيد الذي ترافقه والدته مما جعله مثيراً للشفقة. ولكن بيب بدت مسرورة لفكرة أخذ مات، وأومأت والدتها بالموافقة.

"هذا لطف منك، مات". قالت بهدوء، ومن ثم أحضرت حلوى ما بعد الطعام. كل ما تناولوه كان بوظة، وكانت قد أذابت بعض الشوكولاته ووضعتها على بوظة الفانيليا التي تحبها بيب. كانت المفضلة لتيد أيضاً... هي وتشاد كانا مدمنين على ماركة روكي رود. كان غريباً كيف أن محبة نكهات البوظة كانت أحياناً من فعل الجينات. لاحظت هذا من قبل.

"متى عشاء الأب مع الابنة؟" سأل مات.

"قبل مناسبة الشكر". بدت بيب متحمسة.

"أخبريني متى وسأكون هناك. سأرتدي بذلة رسمية أيضاً". لم يكن قد فعل هذا منذ سنوات. كان دائماً يرتدي بنطالاً من الجينز وكنزة قديمة، وحتى

الجاكيت الصوفي الذي كان من الأيام القديمة. لم يعد بحاجة للبذلات على الإطلاق. إنه لا يذهب لأي مكان، وليس لديه حياة اجتماعية منذ سنين. وفي بعض الأحيان النادرة يأتي صديق قديم من المدينة لتناول العشاء معه، ولكن ذلك يتضاءل ويتضاءل. لقد كان خارج سيطرة أي أحد منذ وقت طويل، لقد أحب طريقة الحياة هذه، واستمتع بحياة العزلة. ولا أحد يتجادل معه عنها بعد الآن. اكتشفوا أن تلك هي شخصيته، وقد أصبحت فعلاً.

بقيت بيب مستيقظة تثرثر معهما حتى وقت متأخر متجاوزة موعد نومها، وفي النهاية بدأت تتثاءب. قالت بأنها تتشوق لإزالة قطبها في نهاية الأسبوع، ولكنها منزعجة لأنه يتوجب عليها ارتداء حذاء على الشاطئ لأسبوع تال.

"ربما يمكنك الركوب على موس"، مزح مات، ثم عادت مرتدية البيجاما بعد عدة دقائق لتتمنى أمسية طيبة لهما. كانا يجلسان على الأريكة، وقد أشعل مات سيجارة. كان مشهداً دافئاً ومريحاً، وبدت بيب سعيدة عندما غادرتهما وذهبت إلى السرير، أكثر سعادة مما كانت عليه منذ وقت طويل. وكذلك كانت أوفيلي. كان هنالك شيء مريح جداً بوجود رجل في الجوار. بدا أن وجوده الرجولي قد ملأ المنزل بكامله. حتى موس كان يرفع رأسه بين الحين والآخر، ويهز ذيله وهو يتمدد بالقرب من المدفأة.

"أنت في نعمة كبيرة"، قال لأوفيلي بهدوء، بعد أن أغلقت الباب على بيب بلطف لكي تتمكن من النوم. فقد كان للمنزل غرفة معيشة كبيرة واحدة، ومطبخ مكشوف، وغرفة طعام، وغرفتا نوم. بدت جميعها مندمجة مع بعضها البعض، لا أحد يريد الخصوصية أو التميز بالقرب من الشاطئ. ولكن الديكور كان جميلاً جداً. فقد وضع المالكون أشياء رائعة، وبعض اللوحات الحديثة الجميلة، والتي قال مات إنه أحبها. "إنها طفلة رائعة". كان مجنوناً بحبها، وكانت تذكره دائماً بطفلته. ولكنه لم يكن واثقاً من أن ولديه قد بلغا حكمتها أو انفتاحها أو رشدها. وليس لديه أية فكرة عنهما الآن. لقد أصبحا من عائلة



هاميش الآن ولم يعودا ملكه. لقد حققت سالي ما ترغب به.

"نعم، نحن محظوظتان لأننا نملك بعضنا البعض". شكرت ربها ثانية لأن بيب لم تكن على متن تلك الطائرة أيضاً. "هي كل ما أملكه. توفي والداي منذ سنوات مضت، وكذلك والدا تيد. كنا كلانا بدون أخوة. كل ما أملكه هو بعض الأقارب في فرنسا، وخالة لم أكن أحبها على الإطلاق ولم أرَها منذ سنوات. أحب أن آخذ بيب إلى هناك، لأبقيها على اتصال مع جذورها الفرنسية، ولكن لا يوجد أحد قريب لنا حقاً هناك. نحن فقط".

"ربما يكون هذا كافياً"، قال بهدوء. أما هو فلا يملك أحداً حتى. ومثلها، كان طفلاً وحيداً، وقد أصبح منعزلاً تماماً مع مرور السنوات. ولم يعد له أصدقاء مقربون. خلال السنوات السيئة التي تلت طلاقه، أصبحت الصحبة أمراً يصعب المحافظة عليه، ومثل بيب، لم يرغب بأن يشعر الناس بالشفقة عليه. ما حصل من سالي كان صعباً جداً عليه. "هل لديك الكثير من الأصدقاء، أوفيلي؟ أقصد في سان فرانسيسكو".

"القليل. لم يكن تيد رجلاً اجتماعياً كثيراً. كان منعزلاً جداً، ومنغمساً بعمله بالكامل. وتوقع مني أن أكون إلى جانبه دائماً. وأنا أردت ذلك. ولكن ذلك جعل من الصعب عليّ المحافظة على أصدقائي. هو لم يكن يرغب على الإطلاق برؤية الناس، رغب بالعمل وحسب. لدي صديقة مقربة جداً، وفيما عدا ذلك، فقدت الاتصال بالكثير من الأشخاص مع مرور السنين، وذلك بسبب تيد. كما أصبح تشاد يتطلب كامل الاهتمام في السنوات القليلة الماضية. لم أكن أعلم ما سيحصل، إما أن يسيطر عليه النشاط والحيوية فجأة، أو يكون محبطاً جداً فلا أتمكن من تركه. وقد أصبح ذلك كعمل بدوام كامل في النهاية". كانت وقتها مشغولة تماماً به، وبتيد، وبيب. أما الآن فأصبحت لا تملك شيئاً تفعله، باستثناء بيب، والتي أصلاً لم تكن تحتاج للكثير. حتى القليل التي كانت بحاجة إليه، لم تكن أوفيلي قادرة على تقديمه لها. إنها تشعر بتحسن أكثر الآن، بعد قضاء الصيف على الشاطئ، وكانت تأمل بالتحسن أكثر في الأشهر العشرة

القادمة. شعرت بأنها منقطعة عن العالم الخارجي بالكامل خلال الأشهر العشر الماضية، ولكن العلاقات أصبحت تتشكل ببطء ثانية. أصبح الرجل الآلي الذي تحولت إليه بشرياً بعض الشيء، ولكن ليس تماماً. ولكن الأمر الواضح هو أن ظهور إشارات العودة إلى الحياة، وحقيقة أنها قد دعت مات إلى العشاء، وكانت راغبة بمد يد الصداقة إليه والقبول بيده، كلها إشارات جيدة.

"ماذا عنك؟" سألته بفضول. "هل ترى الكثير من الأصدقاء في البلدة؟".

"على الإطلاق"، قال بابتسامة صغيرة. "كنت سيئاً جداً بتلك الأمور، لعشر سنوات تقريباً. كنت أدير شركة للإعلانات في نيويورك مع زوجتي، ومن ثم تورطنا في طلاق شنيع. قمنا ببيع الشركة، وقررت الانتقال إلى هنا. سكنت في المدينة بعدها، واشتريت بيتاً صغيراً هنا لكي أرسم في أيام العطل. ومن ثم، عندما تعتقد بأنه لا يمكن للأشياء أن تزداد سوءاً، تزداد حقاً. كانت هي تعيش في نيوزيلندا، وكنت أحاول الذهاب إلى هناك لرؤية الولدين، الأمر الذي كان من الصعب القيام به. فليس لدي مكان أنزل فيه هناك. بقيت في الفنادق، حتى أنني استأجرت شقة في إحدى المرات، ولكن بدا وجودي غير ضروري على الإطلاق. لقد تزوجت منذ تسع سنين، من شخص رائع، صديق قديم لي، يحب ولديّ، وكانا معجبين به جداً. كان رجلاً بكل معنى الكلمة، الكثير من الأموال، والكثير من الألعاب. لديه أربعة أولاد، اثنان منه ومنها. انشغل ولداي بالكامل بأسرتهم المتحدة، وأحباها حقاً. لا يمكنني لومهما، فيبدو أن ذلك ممتع بعض الشيء".

"بعد فترة قصيرة، كلما ذهبت إلى أوكلاند، لم يكن لديهما الوقت لرؤيتي، أرادا البقاء مع أصدقائهما. وكما يقولون في وطنك، شعرت وكأني كالشعرة في صحن الحساء". ابتسمت لذلك التعبير المألوف، وفهمت شعوره. كانت تشعر أحياناً أنها كالشعرة في صحن الحساء في حياة تيد العلمية والمنشغلة. ليست في مكانها المناسب. حاجة زائدة غير ضرورية، باستثناء أنها مُمتلك يملكه، ولكن لا يحتاج إليه. شيء مهمل تماماً.



"لا بد أن ذلك كان صعباً عليك". قالت بتعاطف معه، متأثرة بنظرة الفقدان التي في عينيه. كان رجلاً قد شهد الألم، ونجا منه. لقد عقد سِلْماً معه، ولكن كالجميع، لقاء ثمن... ثمن باهظ.

"كان ذلك صعباً"، قال بصدق. "صعباً جداً. عملت على ذلك أربع سنوات. وفي المرات الأخيرة التي ذهبت بها، لم أكن أراهما إلا قليلاً، وأوضحت سالي بأنني أزعج حياتهما. اعتقدت بأنه عليّ المجيء عندما يريدان رؤيتي فقط، وهذا لا يحدث على الإطلاق تقريباً. اتصلت بهما كثيراً، ولكنهما كانا مشغولين. وفي النهاية، كتبت لهما ولكنهما لم يجيبا. كانا في السابعة والتاسعة عندما تزوجت مرة ثانية، وأنجبت أطفالاً في أول سنتين من زواجها. انجرف ولداي مع عائلتها الجديدة. شعرت وكأنني أصعّب الأشياء عليهما. أخذت أفكر بالأمور كثيراً، ولكن ربما كان ذلك غباءً، ولكنني كتبت وسألتهما عما يرغبان به. لم يجيبا أبداً. لم أسمع شيئاً عنهما لسنة كاملة، ولكنني استمريت في الكتابة. وجدت أنهما، لو كانا يرغبان برؤيتي، لطلبا مني ذلك. وعليّ الاعتراف بأنني ثملت كثيراً في ذلك العام. كتبت لهما مدة ثلاث سنوات، ولم أسمع منهما شيئاً. وأخبرتني سالي بوضوح تام أنهما لا يرغبان برؤيتي، ولكنهما يخشيان قول ذلك. كان هذا منذ ثلاث سنوات، ولم أكتب بعدها. استسلمت في النهاية. لم أرَهما أو أسمع عنهما منذ ست سنوات. اتصالي الوحيد بهما هو شيكات الإعالة التي أرسلها لسالي، ولم أرغب على الإطلاق بإجبارهما على رؤيتي. إنهما يعلمان مكاني إن رغبا بذلك. ولكني أعتقد أحياناً أنه يتوجب علي الذهاب ومناقشة الأمر معهما. ولكني لا أرغب بإثارة القلق... سالي متشددة جداً بأمر مشاعرهما. كانا في العاشرة والثانية عشرة من العمر في آخر مرة رأيتهما، تقريباً من عمر بيب، وهذا سن حرج لكي تمتلك الشجاعة لتخبر والدك أن يرحل. كان صمتهما كفيلاً لقول ذلك. كان ذلك كافياً. فقد فهمت، وانصرفت".

"كتبت لهما بعض الرسائل المثيرة للشفقة مدة سنوات قبل استسلامي.

ولكنهما لم يجيبا أبدا. وأحيانا أكتب لهما الآن، ولكن في النهاية، لا أرسل الرسائل أبداً. ليس عدلا أن أضيف المزيد من الضغط عليهما. أشتاق إليهما بجنون. أعتقد أنني لم أعد موجوداً بالنسبة لهما. لقد تحدثت مع والدتهما وقالت إن ذلك هو الأفضل. أخبرتني أنهما سعيدان ولا يرغبان بي في حياتهما. لم أفعل شيئاً خاطئاً على الإطلاق، من وجهة نظري، ولكنهما لم يعودا بحاجة لي. زوج أمهما رجل رائع. أنا نفسي أحبه، أو بالأصح كنت أحبه. كنا صديقين لسنوات قبل التقائه مع سالي. على أية حال، هذه هي قصة ولداي، والسنوات العشر الماضية، والست الأخيرة منها كانت بدونهما. ترسل لي سالي صوراً مع بطاقات الميلاد، لكي أتعرف على شكلهما. لست متأكداً أن ذلك سيكون أمراً جيداً أو سيئاً. أحياناً جيد، وأحياناً سيئ. أشعر وكأنني مثل النساء المسكينات اللواتي يضعن طفلاً، ومن ثم لأي سبب كان، يتخلين عنه. وكل ما يحصلن عليه هو صورة مرة في السنة. ترسل إليّ بطاقات عيد الميلاد مع صور الأطفال الثمانية، أطفاله، وطفلي، وأطفالهما. أحياناً أبكي وأنا أنظر إليهم"، قال لها، ولم يبدُ محرجاً كثيراً... فهما يعرفان الكثير عن بعضهما الآن. "ولكنني تنحيت للخلف من أجلهما. أعتقد أن هذا ما يحتاجان إليه، أو يرغبان به، أو ذلك ما قالته لي".

"روبرت في الثامنة عشر الآن. سيدخل إلى الجامعة قريباً، ربما تكون في مكان ما هناك. إنهما يعيشان حياة رائعة في أوكلاند. يمتلك هاميش أكبر وكالة إعلانات في ذلك الجزء من العالم. تديرها سالي معه، تماماً كما كانت تفعل معي. إنها امرأة كفوءة. لا تمتلك قلباً عطوفاً، ولكنها مبدعة بشكل هائل. وأعتقد أنها أم جيدة. تعرف ما يحتاجه الأولاد، ربما أكثر مني. لم أعد أعرفهما حتى. ولست واثقاً من أني سأميزهما إن التقيت بهما في الشارع، وهذا اعتراف مؤلم. هذا أسوأ ما في الأمر. أحاول ألا أفكر بذلك. ابتعدت من أجلهما. كتبت لي سالي منذ بضع سنوات وسألتني عن رأيي بتبني هاميش للولدين. وهذا ما كاد أن يقتلني. لا أهتم كثيراً لأنهما لا يرغبان بي في



حياتهما، ولكنهما لا يزالان ولديّ، وسيظلان كذلك دائماً. لم أكن لأوافق على ذلك. لم أسمع منها منذ ذلك الحين، إلا في الميلاد. قبل ذلك، كنا نتحدث بين الحين والآخر. أعتقد أنهما يأملان بأن أرحل بهدوء وأختفي في مكان ما، وأنا فعلت ذلك تقريباً... خرجت من حياتهما ومن حياة كل شخص آخر. أعيش حياة هادئة جداً هنا، وقد استغرق الأمر مني وقتاً طويلاً للتخلص من كل شيء جرى بيني وبين سالي، وخسارة ولديّ لهاميش". كانت تلك قصة مؤلمة، ولكن شرحت لها الكثير من الأمور وهي تستمع، كما وأنها كشفت الكثير عنه. مثلها تماماً، كان رجلاً قد خسر كل شيء مهم تقريباً: عمله، زوجته، وولداه. وانعزل في حياة كحياة الناسك. أما هي فتمتلك بيب على الأقل، وكانت ممتنة لذلك... حتى أنها لا تتمكن من تخيل حياتها دونها.

"لماذا تحطم زواجكما؟" عرفت أن ذلك سؤال وقح، ولكنه كان جزءاً لا تملكه عن الصورة الكاملة، وعرفت أنه لن يخبرها إن لم يرغب بذلك. فبعد كل شيء قالاه لبعضهما، أصبحا صديقين الآن.

تنهد للحظة قبل الإجابة. "إنها قصة تقليدية بعض الشيء. لقد دخلت وهاميش إلى نفس الجامعة. بعدها عاد هاميش إلى أوكلاند. وبقيت أنا في نيويورك. فتح كل منا وكالة إعلانات، وشكلنا نوعاً من التحالف الحرّ بيننا. تبادلنا بعض الزبائن ذوي الاهتمامات الدولية، وأرسلنا الأعمال لبعضنا البعض، واستشرنا بعضنا في بعض الحسابات الكبيرة. كان يأتي إلى نيويورك عدة مرات في السنة، وكنا نحن نذهب إلى هناك. كانت سالي هي المدير الإبداعي لوكالتنا، كانت عقل المؤسسة، وكانت هي من تولى الجانب التجاري، وأحضر معظم الزبائن. أما أنا فكنت المدير الفني. كنا كالاتحاد الذي لا يهزم، فكان عندنا أهم الزبائن في مجال العمل. بقيت وهاميش صديقين، وقضينا أنا وهو وزوجته وسالي عدداً من العطلات سوية، معظمها في أوروبا، ورحلة سفاري في إحدى المرات إلى بوتسوانا. استأجرنا قصراً في فرنسا في ذلك الصيف المشؤوم. كان يتوجب عليّ الرحيل باكراً، توفيت والدة زوجة هاميش

فجأة فعادت هي إلى أوكلاند. بينما بقي هو وسالي، مع أطفالنا. بأقل الكلمات الممكنة، وقع هاميش وسالي في الحب. بعد أربعة أسابيع، عادت إلى المنزل وأخبرتني أنها ستهجرني. كانت تحبه، وقالت إنها سترى ماذا سيحدث. أرادت الابتعاد عني لتكتشف ما سيحصل. أرادت المكان والزمان. أعتقد أن مثل هذه الأشياء قد تحدث، لبعض الأشخاص. أخبرتني أنها لم تعد تحبني على الإطلاق، ونحن فريق عمل وحسب، وأخذت الولدين معها لأن ذلك من حقها. وقالت أشياء فظيعة عن الولدين، وعني، ولكني أعتقد أنها قصدتها حقاً. فلم تُعرف باحترامها مشاعر الآخرين، وربما هذا هو سبب نجاحها".

"على أية حال، عاد هاميش إلى منزله، وأوصل الأخبار نفسها إلى زوجته، مارغريت، وما تبقى أشياء لا تذكر. غادرت سالي شقتنا في نيويورك مع الولدين، ونزلت في فندق. عرضت عليّ شراء نصف الوكالة، ولكنني لم أكن أرغب في إدارة الوكالة دونها، أو إيجاد شريك جديد. لم يكن قلبي قادراً على ذلك. أعجزتني عن عمل أي شيء، ولم أستطع استعادة الحياة إلا بعد وقت طويل. قمنا ببيع كل شيء بالكامل لمؤسسة كبيرة. كانت تلك صفقة رائعة لكلينا، ولكن كل ما تبقى لي بعد خمس عشرة سنة من الزواج هو الكثير من الأموال الكريهة، دون زوجة أو عمل، وولدان انتقلا مسافة تسعة آلاف ميل بعيداً إلى أوكلاند. تركتني في يوم عيد العمال، وانتقلت هي والولدان إلى أوكلاند بعد الميلاد بيوم واحد. تزوجا حالما جف حبر ورق طلاقنا. كنت آمل إن تركتها تذهب، ولم أضغط عليها، بأن تعود لي. أعتقد أنه جنون مني لأفكر بتلك الطريقة، ولكننا نصاب جميعاً بالغباء والجنون في بعض الأحيان.

"في الوقت الذي رحلت فيه، كنت ما أزال في دوامة. وأعتقد يا صديقتي أن هذا يجيب على سؤالك عن زواجي. وأسوأ ما في الأمر أنني ما زلت أعتقد أن هاميش جرين شخص رائع. إنه ليس بالصديق الرائع فحسب، وإنما هو رجل بارع، ومرح، وممتع بكل شيء. كما استنتجت من المعلومات التي استطعت جمعها أنهما سعيدان معاً، وعملهما مزدهر جداً". كل ما تمكنت



أوفيلي فهمه من المظهر الخارجي هو أنه قد تمّ خداع مات بشكل فظيع من زوجته، وصديقه المفضل، وربما ولديه حتى. كانت قد سمعت قصصاً كهذه مع مرور السنين، ولكنها ليست بهذه القسوة. لقد خسر كل شيء، إلا أمواله، والتي لا يبدو أنها تهمه كثيراً. لقد بدا أن جل ما يرغب به هو حياة هادئة في بيته الصغير على شاطئ مرفأ الأمان (سيف هاربر). وعدا ذلك وموهبته، لم يتبقَ له شيء. كان أمراً مخزياً ما فعلوه له. التفكير به جعلها تعجز عن الكلام وتحزن عليه جداً.

"هذه قصة رهيبة"، قالت له عابسةً، بغيضة من دون شك. لقد كرهتهما من مجرد سماعك، ولكن ليس الولدين. إنهما ضحية كل هذا، كحالك تماماً. لا بد أنهما خدعا لإبعادك ونسيانك. إنها مسؤولية زوجتك مساعدتهما في الحفاظ على علاقتهما بك"، قالت متعاطفة، ووافق على كلامها. وبشكل مذهل، لم يكن يلومهما على عملهما على الإطلاق، فهما صغيران جداً على معرفة ما يفعلان، وهو يعلم كيف بإمكان سالي إقناعهما. يمكنها تغيير رأي الشخص بدقيقة، وخلط الأمور عليهما للأبد.

"لم تكن سالي لتفعل ذلك. أرادت انفصالاً واضحاً عني، وحصلت عليه. تحصل دائماً على ما ترغب به، حتى من هاميش. ولست متأكداً من صاحب فكرة إنجاب أطفال لهما، ولكن بمعرفتي لسالي، لا بد أنها اعتقدت من أن هذا عمل ذكي لمنعه من تركها. أما هاميش فهو شخص بسيط بعض الشيء، وهذه إحدى الأشياء التي كنت أحبها فيه دائماً. أما سالي فهي عكس ذلك. إنها واضحة، وأنانية، وتفعل دائماً ما هو الأفضل لها".

"تبدو امرأة شريرة جداً"، قالت أوفيلي بوفاء، وأثر فيه ذلك. إخبارها عن حياته كان أمراً عاطفياً بعض الشيء، وبينما يزود النار بوقودها، بقيا صامتين للحظة.

"وما حصل منذ ذلك الحين؟ هل شدت إحداهن اهتمامك منذ ذلك الحين؟" بدا أن تلك هي المواساة الوحيدة، ولكن لا يوجد أي دليل على وجود امرأة في

حياته. بدا أنه يعيش حياة منعزلة، أو على الأقل تلك كانت فكرتها عنه. يمكن أن يكون هناك أحد، بالطبع، ولكنها لم تعتقد ذلك.

"ليس تماماً. لم أكن في حالة تسمح لي بالارتباط بأي امرأة أخرى في السنوات القليلة الأولى بعد رحيل سالي. كنت أعاني بشدة. وبعد ذلك، كنت أذهب إلى أوكلاند لرؤية الولدين، ولم أكن في مزاج جيد. لم أثق بأحد، ولم أرغب حتى بذلك. وأقسم أنني لن أفعل ثانية. كان هناك امرأة قد أحببتها منذ ثلاث سنوات، ولكنها كانت أصغر مني بكثير، وأرادت أن تتزوج وتنجب أطفالاً. ولكنني لم أتخيل نفسي أقوم بذلك ثانية، أو أثق بأحد لأضع نفسي بتلك الحالة. لم أرغب بالزواج، وإنجاب الأطفال، والمخاطرة بالطلاق ثانية وخسارتهم. لم أستطع أن أرى ما فائدة ذلك. كانت في الثانية والثلاثين وأنا في الرابعة والأربعين في ذلك الوقت، وقد أنذرتني. لا ألومها بالطبع، ولكنني لم أتمكن من منحها الالتزام. انصرفت بلباقة، وتزوجتْ بعد ستة أشهر من شخص طيب جداً. أنجبا طفلهما الثالث هذا الصيف. لم أتمكن من الذهاب إلى هناك. آمل أن أعاود اتصالي مع ولديّ ثانية بطريقة ما، عندما يكبران. ولكن ليست لدي رغبة في البدء بإنشاء عائلة أخرى، أو تعريض نفسي لمثل خيبة الأمل تلك. إن المرور بتلك التجربة مرة واحدة في حياتي يكفيني". كان على أوفيلي الاعتراف بأن قلة من الأشخاص يتحملون ما مرّ به، ولكن لم يتحمله هو أيضاً نوعاً ما. إنه يتمتع باللطف، والاهتمام بالآخرين ولكنه مغلق عاطفياً، ولا يرغب بالانفتاح مرة أخرى، ولكن لا يمكنها لومه حقاً. وهذا يفسر أيضاً سبب انفتاحه على بيب كثيراً وملاطفتها. كانت تقريباً بنفس عمر ولديه في آخر مرة شاهدهما فيها. ومن الواضح أنه متعطش لنوع من التواصل الإنساني حتى من طفلة صغيرة في الحادية عشرة من العمر. وكانت آمنة بالنسبة له. فليس له أي مصالح حقيقية معها، سوى الصداقة. ولا مشكلة في ذلك، كما أنه يوافق احتياجات بيب في هذه الأيام أيضاً. ولكنها لم تكن سنداً عاطفياً كافياً لرجل يبلغ السابعة والأربعين من العمر. فهو يستحق أكثر من ذلك بكثير، في



عيني أوفيلي على الأقل، ولكنه لم يكن شجاعاً بما يكفي لذلك الموضوع إلا بما قام به مع الطفلة على الشاطئ، حيث تمكن من تعليمها الرسم عدة مرات في الأسبوع. لرجل بقدراته ومؤهلاته، بدا أن ذلك شيء تافه... ولكن بشكل واضح، هذا كل ما يرغب به.

"ماذا عنك، أوفيلي؟ كيف تصفين زواجك؟ لدي شعور بأن زوجك لم يكن رجلاً سهلاً تماماً. هذه صفات العباقرة، أو كذلك يقولون". بدت أوفيلي لطيفة وحسنة التكيف معه. ومما قالته عن علاقة زوجها بابنه المريض، شعر بأن زوجها المتوفى لم يكن يمنحها أوقاتٍ جيدة. كان بعيداً جداً عن الصواب، رغم أنها لا تعترف بذلك لأحد، ولم تفعل على مرور السنين، حتى لنفسها أحياناً.

"كان رجلاً ذكياً، ويمتلك رؤيا لا تصدق. كان يعلم دائماً ما يرغب بفعله، منذ البداية. كان مخلصاً جداً لهدفه، ورفض أن يدع أحداً يوقفه. لا شيء على الإطلاق، حتى أنا أو الأطفال، فنحن لم نكن نرغب بالوقوف في طريقه أبداً. فعلنا كل ما بوسعنا لدعمه، أو أنا فعلت ذلك على الأقل. وحصل على ما رغب به في النهاية، وأحرز كل ما كان يحلم به دائماً. لقد أحرز نجاحاً عظيماً في السنوات الخمس الأخيرة من حياته. كان ذلك رائعاً بالنسبة له". ولكن ليس بالضرورة لها أو للولدين، إلا في ما يخص الأمور المادية.

"وكيف كان موقفه تجاهك في كل هذا؟" سأل مات مؤكداً على سؤاله. كان من الواضح أنه قد حظي بنجاح كبير، حتى من القليل الذي يعرفه مات عنه. كان قد وصل إلى العظمة في مجاله. ولكن السؤال الحقيقي، في عقل مات، عن وضعه كإنسان وكزوج؟ بدا أن أوفيلي قد راوغت لتفادي السؤال.

"لقد أحببته على الدوام... من أول لحظة التقيت به. كنت معجبة به جداً وأنا طالبة. معجبة دائماً به وبعقله الذكي، وبإصراره على هدفه. كان رجلاً لا يتوه عن أحلامه أبداً. لا بد أن تعجب بشخص يتمتع بتلك الصفات". سواء كان صعباً أو لا، لم يكن ذلك مشكلة بالنسبة لها. قبلت ذلك فيه. اعتقدت أنه يستحق ذلك.

"وماذا كانت أحلامك؟".

"الـــزواج منه فقط". ابتسمت بحزن لمات. "كان ذلك كل ما أريده. عندما تزوجني، اعتقدت أنني مت وذهبت إلى أفضل مكان. وكان ذلك صعباً بالتأكيد أحـــياناً. كان هناك سنوات، بل العديد من السنوات، التي لم يكن معنا فيها أي أموال. ناضلنا مدة خمس عشرة سنة، ومن ثم حصل على الكثير لدرجة أننا لم نعلم ماذا نفعل به. ولكن ذلك لم يكن مهماً لنا، أو لي على أية حال. فقد أحببته كثيـــراً عـــندما كنا فقيرين. لم أكترث لأمواله أبداً. أما هو فقد فعل". لقد كان شمسها وقمرها، وبرفقته الولدين.

"هل كان يقضي بعض الوقت معك ومع الولدين؟" سألها مات بهدوء.

"أحـــياناً. عندما كان يستطيع. كان دائماً مشغولاً بشدة، يقوم بأشياء أكثر أهمية". توضح الأمر لمات؛ أنها كانت تجله. ربما أكثر مما يستحق بكثير.

"ومـــا هو الشيء الأهم من الزوجة والأولاد؟" سأل مات ببساطة، ولكنه كان مختلفاً جداً عن تيد، بجوانب كثيرة. أما هي فكانت مختلفة جداً عن سالي. كانـــت أوفيلـــي تتمـــتع بكل شيء تفتقده سالي. لطيفة، حنونة، طيبة، صادقة، وعطوفة. كانت منغمسة بمآسيها في هذه الأثناء، ولكن بالرغم من ذلك، بإمكانه معـــرفة أنهـــا لم تكن بالشخص الأناني. كانت تائهة وحزينة، وهذا جعلها مختلفة. عـــرف ذلك جيداً، فقد عانى من ذلك في السابق. يمكن للحزن أن يغرقك معه إن كـــنت في وسطه، وربما لهذا السبب كانت قليلة الاهتمام تجاه بيب عما كانت عليه من قبل. ولكنها كانت تدرك ذلك تماماً لدرجة أنها كانت توبخ نفسها عليه.

"العلماء أشخاص مختلفون تماماً"، شرحت أوفيلي بتسامح. "لديهم حاجات مخـــتلفة، ووجهـــات نظر مختلفة، وقدرات عاطفية مختلفة عنا جميعاً. لم يكن شخـــصاً عاديـــاً". ولكن بالرغم من منحها الأعذار له، لم يكن مات معجباً بما يـــسمعه. شك بأن الدكتور ماكنزي كان شخصاً نرجسياً وأنانياً، ومن المحتمل أن يكـــون والداً فظيعاً. ولم يعتقد على الإطلاق أنه كان زوجاً طيباً معها. وإن يكـــن ذلـــك، بدا أن أوفيلي لم تكن مستعدة لرؤية ذلك، أو الاعتراف بذلك له. فالموت يختلف عن الطلاق، ومات يعلم ذلك أيضاً، فبوجود زوج متوفى تلوح



بـــدايات القداسة. بدا أنه من الصعب تذكر مصاعب ومشاكل أي شخص كنت تحـــبه وتوفى. أما في حالات الطلاق، فإنك لا تتذكر إلا الأخطاء. ومع مرور الـــوقت تتعاظم الأخطاء المتذكرة وتزداد سوءاً. أما عند الوفاة، كل ما تتذكره هـــو الجزء الجيد، ومن ثم تقوم بتحسينه. وهذا ما يجعل غياب الزوج المتوفى يبدو أكثر إيلاماً. فشعر مات بالأسف العميق عليها.

تحدثا لوقت طويل تلك الليلة، عن طفولتهما، وزواجهما، وأطفالهما. كان يـــزداد قلـــبها ألماً عندما تفكر بابتعاد مات عن ولديه، وهو يتحدث عن الأمر، رأت بـــسهولة مـــن النظرة التي في عينيه الثمن الذي دفعه. ربما عقلانيته في الـــبداية، وأخيـــراً، ثقـــته بالجنس البشري، ورغبته بالبقاء مع الناس، والنساء خاصـــة. كـــان ذلـــك ثمناً باهظاً يدفعه من أجل ولدين وزواج فشل منذ عشر ســـنوات. اعتقدت أوفيلي بأن زوجته السابقة قد سرقت ولديها منه، ربما عبر نـــوع مـــن الاحتيال. كان من الصعب التصديق أنه من دون ذريعة أو ضرر أصـــابهما، أن يقرر ولدان بعمرهما عدم رؤية والدهما. لا بد من وجود خدعة ماكـــرة، رغـــم أن مات لم يتحدث عن ذلك كثيراً، ولم يبدُ أنه يرغب بإضرام الحرب معها. من وجهة نظره، لقد خسر حربه معها، وللآن على الأقل، انتهى كل شيء. كل ما يأمل به هو رؤية ولديه مرة أخرى يوماً ما. أمنية بعيدة يفكر بهـــا أحياناً، ولكنه لم يعد يعيش من أجلها. يعيش يوماً بيوم، إنه راضٍ بوجوده النائي على الشاطئ. كان مرفأ الأمان (سيف هاربر) بمثابة الملجأ له.

كان مات على وشك المغادرة عندما خطر بباله أن يسألها عن شيء ما. كان ينوي ذكره طوال المساء.

"هـــل تحبين الإبحار، أوفيلي؟" سألها بحذر، وبدا متفائلاً. كان ذلك إحدى هواياته بالإضافة للفن. وكان يناسب طبيعته المنعزلة.

"لـــم أبحـــر منذ سنوات، ولكنني كنت أحب الإبحار. أبحرت عندما كنت طفلة، عندما ذهبنا إلى بريتاني في الصيف. وفي جزيرة كيب كود، عندما كنت في الجامعة".

لدي قارب إبحار صغير في البحيرة أستخدمه بين الحين والأخر. سأكون سعيداً إن أخذتك معي، إن كنت تحبين ذلك. إنه بسيط جداً، قارب من الخشب القديم، رممته بنفسي عندما انتقلت إلى هنا في البداية".

"أتشوق لرؤيته، وأعتقد بأنه سيكون من الممتع الخروج معك في وقت ما"، قالت أوفيلي وقد بدا عليها الحماس لذلك.

"سأتصل بك في المرة القادمة التي أذهب فيها للإبحار"، قال لها، لقد كان سعيداً لسماع أنها تحب الإبحار. كان ذلك شيئاً إضافياً مشتركاً بينهما، وتمكن بسهولة من تخيل أن الإبحار برفقتها سيكون ممتعاً. كانت لطيفة وذكية ومفعمة بالنشاط، وتلألأت عيناها عندما ذكر لها قاربه. كانت قد ذهبت وتيد إلى الخليج عدة مرات مع الأصدقاء ولكنها لم تستمتع بذلك على الإطلاق. كان يتذمر بمرارة من البرد والرطوبة، ويصاب بدوار البحر دائماً. أما هي فلم تكن كذلك، حتى أنها لم تقل لمات أنها بحارة جيدة.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما غادر، وكانت أمسية جيدة لكليهما. كان ذلك هو الاتصال الإنساني الدافئ الذي احتاجه كل منهما بشدة، بالرغم من عدم إدراكهما لذلك. احتاج كل منهما لصديق، ووجدا ذلك. فذلك هو الشيء الوحيد الذي ما يزال كل منهما يثق به: الصداقة. لقد قدمت بيب لهما معروفاً كبيراً بجمعهما مع بعضهما.

أطفأت أوفيلي الأضواء بعد ذهابه، ومشت بلطف إلى غرفة نوم بيب، وابتسمت عندما رأتها هناك. كان موس نائماً عند حافة سريرها، ولم يتحرك عندما اقتربت أوفيلي منهما. لمست خصلات شعر بيب الملتفة الناعمة الحمراء وانحنت لتقبلها. تحرر جزء آخر من الرجل الآلي في تلك الليلة، وشيئاً فشيئاً، انبثقت المرأة التي كانت هي ذات مرة.



# 8

عندما ذهبت أوفيلي إلى المجموعة مرة أخرى في ذلك الأسبوع، ذكرت لهم كيف رأت مات، وكم كانت تلك أمسية جميلة، وهذا ما أثار قضية إقامة العلاقات بين البعض. كان هناك اثنا عشر شخصاً في المجموعة، تتراوح أعمارهم بين السادسة والعشرين إلى الثالثة والثمانين. القاسم المشترك بينهم هو فقدانهم لشخص عزيز. أصغر عضوة في المجموعة كانت قد فقدت أخاها في حادث سيارة، وأكبرهم قد فقد زوجته عن عمر يبلغ الواحدة والستين. كانت المجموعة تضم أزواجاً وزوجات وأخوات وأطفال. وبالنظر إلى الأعمار، تقع أوفيلي في الوسط. كانت بعض قصصهم توجع القلب بحق. امرأة شابة فقدت زوجها لإصابته بسكتة دماغية في الثانية والثلاثين من العمر، بعد ثمانية أشهر من زواجهما، وكانت وقتها حاملاً. وقد أنجبت طفلها للتو، وتقضي معظم وقتها في المجموعة وهي تبكي. وقد شاهدت أخرى ولدها وهو يختنق بشطيرة من زبدة الفول السوداني أمام عينيها، ولم تكن قادرة على فعل أي شيء لمعالجة الوضع. كانت حشوة زبدة الفول طرية جداً فلم تستجب لمناورة هيمليك لكي تُلفظ خارجاً، وكذلك بعيدة جداً في أسفل حلقه لتتمكن من الوصول إليها. رافق حزنها الشديد شعور بالذنب لأنها لم تتمكن من إنقاذه. كل القصص كانت مؤثرة جداً. ولم تكن قصة أوفيلي مختلفة عنها، ولم تكن قصتها هي الوحيدة التي تحتوي على خسارة مزدوجة. امرأة في العقد السادس كانت قد فقدت ابنيها بسبب السرطان، بفارق ثلاثة أسابيع بينهما، وليس عندها أولاد غيرهما. كان هناك امرأة قد فقدت حفيداً في عمر الخمس سنوات عندما توفي في بركة سباحة والديه. كانت تعتني به خلال غيابهما ومن ثم وجدته هناك. لامت نفسها

لما حدث، كما أن ابنتها وصهرها لم يتحدثا معها منذ الجنازة. المآسي متعددة. أرواح حقيقية كانت موجودة وفُقدت. لم يكن ذلك سهلاً على أيٍّ منهم. كان القاسم المشترك هو الحزن العميق، والخسارة، والشفقة المتبادلة.

كانت أوفيلي قد تحدثت، خلال الشهر الماضي، عن خسارتها لتيد وتشاد، ولكنها لم تقل إلا القليل عن زواجها، والذي كان مثالياً من وجهة نظرها. وكانت قد تحدثت قليلاً عن مرض تشاد العقلي، والضغط الذي وضعه على الجميع، وبخاصة تيد، الذي كان غير قادر على تقبله. لم تكن لتلاحظ الضغط الذي سببه إنكاره عليها، محاولةً إغلاق الفجوة بين الأب والابن، والمحافظة على بيب سعيدة في الوقت نفسه.

لقد وجدت موضوع إقامة علاقة مع شخص ما أمراً غير مهم بالنسبة لها عند مناقشتهم للأمر. كانت قد قالت في الشهر الماضي أنها غير مهتمة بالزواج مرة أخرى، أو حتى إقامة أي علاقة.

علّق الرجل البالغ ثلاث وثمانين سنة من العمر أنها صغيرة جداً للتخلي عن الحياة العاطفية، ورغم ألمه الشديد على زوجته، قال بأنه يأمل بالخروج يوماً ما مع امرأة أخرى، حالما يقابل امرأة تعجب به. لم يكن محرجاً من الاعتراف بأنه يبحث عن واحدة.

"ماذا إن عشت حتى الخامسة والتسعين، أو حتى الثامنة والتسعين؟" قال بتفاؤل. "لا أرغب بالعيش وحيداً حتى ذلك الحين. أريد أن أتزوج". جميع المشاعر هنا كانت أهدافاً منطقية. لم يكن أحدها محرماً أو مثيراً للصدمة. كان الصدق صفة مشتركة بين أعضاء المجموعة، بنفس درجة صدقهم مع أنفسهم على الأقل. واعترف بعضهم بأنهم كانوا غاضبين من أحبابهم لأنهم توفوا، وهو جزء طبيعي من عملية الحزن[1]. كان على كل فرد مواجهة جانب

(1) Grief Process: مجموعة المراحل التي تشكل الاستجابة الطبيعية للفقد (إنكار، مساومة... وفي النهاية قبول).





الحزن الذي يعاني منه في تلك الأثناء. وحتى ذلك الحين، كانت أوفيلي حبيسة الاكتئاب. ولكن الجميع لاحظ بأنها أفضل حالاً هذا الأسبوع. وقالت بأنها تعتقد ذلك، ولكنها كانت تخشى من عودة ذلك ثانية. لقد تحدثت عن رغبتها في إيجاد عمل بانتهاء الصيف، والذي اعتقدت بأنه سيساعدها.

عندما ذكرت أوفيلي ذلك، سألها بليك، قائد المجموعة، أي نوع من الأعمال تريدين، واعترفت بأنها لا تعرف بعد. كانت أوفيلي قد أُحيلت للمجموعة من قبل طبيبها، عندما أخبرته بأنها لا تتمكن من النوم في الليل منذ وفاة تيد وتشاد. كانت مترددة في الذهاب في البداية، واستغرق الأمر منها ثمانية أشهر لتتمكن من المجيء. وبحلول ذلك الوقت، كانت تنام كثيراً، ولا تأكل إلا القليل. حتى أنها كانت تعلم بأنها مكتئبة بشكل خطير، ومن غير المحتمل أن تتحسن دون القيام بشيء ما. كان من الصعب عليها في البداية أن تتغلب على إحساسها بأنها قد فشلت نوعاً ما لأنها لم تتمكن من حل مشاكلها بنفسها. ولكن لم يتمكن أحد في المجموعة من ذلك، كما معظم الناس لا يتمكنون. حاول الأذكياء منهم طلب المساعدة على الأقل، ولكن بالرغم من شكوكها الداخلية، كان على أوفيلي الاعتراف بأن ذلك حقق بعض التغيير الخفيف في حياتها، حتى بعد شهر واحد. فلديها على الأقل أشخاص آخرون مصيبتهم مشابهة لمصيبتها لتتحدث معهم. جعل ذلك العملية أقل شعوراً بالوحدة، كما قل شعورها بأنها غريبة بسبب الأمور التي كانت تعيشها وتفكر بها. كانت قادرة على إخبارهم، دون خجل، بشعورها بالابتعاد عن بيب، وبأنها تتسلل إلى غرفة تشاد أكثر مما يجب، فقط لتتمدد على سريره وتشم وسادته. كان الجميع قد قام بأشياء مشابهة أيضاً، وعانوا ولا يزالون من درجات مختلفة من المشاكل نفسها، مع أزواجهم، أو أطفالهم، أو حتى آبائهم. واعترفت إحدى الزوجات بأنها لم تقم بعلاقة جنسية مع زوجها لسنة بعد وفاة ابنها، فهي لم تتمكن من ذلك. كانت أوفيلي دائمة التأثر بالأشياء التي يتمكنون من إخبارها لبعضهم البعض، دون خجل. شعرت بالأمان بينهم.

كان هدف المجموعة شفاء الجروح، وتضميد القلوب المحطمة، والتعامل مع القضايا العملية للحياة اليومية. الأسئلة الأولى التي كان يسألها بليك لكل منهم كل أسبوع هي: "هل تأكل؟ هل تنام؟" وبحالة أوفيلي، كان يسألها عادة إن غيرت ثياب نومها منذ آخر لقاء. أحياناً، كان تقدمهم ضئيلاً جداً لدرجة أنه لا يمكن لأحد من خارج المجموعة أن يلاحظه. ولكن يعلم كل منهم كم هي صعبةٌ خطواتُ الطفل الأولى، وكم هو الاختلاف الحاصل عندما تحقق أحدها في النهاية. كانوا يحتفلون بانتصارات بعضهم البعض، ويتعاطفون مع آلام بعضهم أيضاً. ويمكنك منذ البداية معرفة الناجحين منهم، أولئك المصممون على اجتياز ألمهم والتقدم للأمام. لم تكن تلك العملية بالسهلة على الإطلاق، وحتى القدرة على الالتزام بالتواجد هناك كانت تعني شيئاً مهماً. لقد كانت الجروح التي يلمسونها غير ملتئمة بعد، فتجعلهم يشعرون بعد انتهاء اللقاء أحياناً بألمٍ أكثر مما يشعرون بالتحسن. ولكن مجرد التعامل معها هو جزء من عملية الشفاء. قول شيء بالعلن يكون منعشاً أحياناً، وفي أحيان أخرى يكون منهكاً. كانت أوفيلي قد شهدت نهايتي الطيف خلال الشهر الماضي، وفي معظم الوقت، كانت تبدو متعبة بعد ذلك، ولكنها ممتنة أيضاً. وعندما تفكر بالأمر، تعلم أنه قد ساعدها، أكثر بكثير مما كانت تأمل.

كان طبيبها قد رشح لها تلك المجموعة بالتحديد لأن أوفيلي قد رفضت فكرة مضادات الاكتئاب، وكانت تلك المجموعة أقل رسمية من غيرها. كما كان الطبيب يكنّ احتراماً عميقاً للرجل الذي يديرها، بليك تومبسون. فهو حائز على شهادة الدكتوراه في علم النفس السريري، وقد مضى على عمله في مشاكل الأحزان أكثر من عشرين سنة، وهو في منتصف العقد الخامس من العمر. كان رجلاً دافئاً، عملياً، منفتحاً لتجربة كل شيء يمكن أن يجدي نفعاً، ودائماً ما يذكر المجموعة بأنه لا وجود لطريقة واحدة مباشرة لاجتياز عملية الحزن. وطالما أنهم يفعلون كل شيء يجدي نفعاً معهم، كان سعيداً جداً بدعمهم. وعندما لا ينفع ذلك، كان يواصل جهوده، وتشجيعاته، واقتراحاته



المبدعة. وعندما يغادر الأشخاص المجموعة، كان عادةً ما يشعر بأنهم قد تمكنوا من توسيع حياتهم بشكل أفضل مما كانوا عليه قبل فقدانهم لأحبائهم... لدرجة أنه كان قد اقترح دروساً في الغناء لامرأة كانت قد فقدت زوجها، ودروساً في الغطس لرجل كان قد خسر زوجته في حادث سيارة. كل ما كان يريده لأفراد المجموعة هو أن تتحسن حياتهم أكثر مما كانت عليه قبل الالتقاء به. وطوال عشرين سنة، كانت نتائجه مذهلة بشكل رائع. كانت المجموعة تشكل تحدياً وألماً أحياناً، ولكنها أدهشت الجميع، فهي لم تكن تبعث على الاكتئاب. كل ما كان يطلبه بليك منهم عند البدء هو التمتع بعقل منفتح، وملاطفة أنفسهم، واحترام بعضهم البعض. ما يتم مناقشته في المجموعة يجب أن يبقى بينهم فقط. وكان يؤكد على الالتزام لمدة أربعة أشهر.

رغم أن بعض الأشخاص في مجموعاته قد انتقوا أزواجهم منها، كان لا يشجعهم أبداً على إقامة أية علاقة خلال فترة الانضمام للمجموعة. فهو لم يكن يرغب أن يتعمد المشاركون لفت الانتباه، أو إخفاء أي شيء بغية التأثير ببعضهم البعض. كان قد اقتبس ذلك الطلب وموضوع خصوصية المجموعة من برنامج الشفاء من الإدمان، وقد وجد ذلك مفيداً، رغم أنه بين الحين والآخر، كان هناك أشخاص في المجموعة يعجبون ببعضهم أكثر فأكثر ويبدؤون بإقامة علاقة قبل انتهاء فترة المجموعة. وحتى هناك، كان يذكر الأشخاص بأنه لا وجود 'لنموذج مثالي' للعلاقات الجديدة أو حتى الزواج.

انتظر بعض الأشخاص سنوات حتى وجدوا رفيقاً جديداً، وآخرون لم يجدوه أبداً، أو لا يريدون ذلك. أحس بعضهم بأنه يحتاج لسنة قبل إقامة أي علاقة أو حتى الزواج ثانية، فيما تزوج البعض الآخر عملياً بعد أسابيع من فقدان الشريك. من وجهة نظره، لا يعني ذلك أنك لم تكن تحب زوجك أو زوجتك المتوفاة، بل يعني أنك تشعر بالاستعداد للاستمرار والبدء بالتزام آخر. ولا أحد غيرك لديه الحق بالحكم على صحة ذلك أو خطئه. "لسنا شرطة الأحزان هنا"، كان يذكر المجموعة بذلك من وقت لآخر. "نحن هنا لمساعدة

ودعم بعضنا البعض، وليس الحكم على بعضنا". وكان دائماً يُحدث كل مجموعة بأنه قد بدأ بهذا النوع من العمل عندما فقد زوجته، وابنته، وابنه وكانا طفليه الوحيدين في ذلك الوقت، بحادث سيارة في ليلة شتاء ماطر وقد اعتقد حينها أن حياته قد انتهت. وبعد حدوث ذلك، تمنى حقاً حدوثه من قبل. فقد تزوج ثانية بعد خمس سنوات بامرأة رائعة، وأنجبا ثلاثة أطفال. "كنت لأتزوج أبكر من ذلك لو أنني قابلتها، ولكنها تستحق الانتظار"، كان دائماً يخبرهم بابتسامة لم تخفق أبداً بالتأثير بالأشخاص المستمعين للقصة. لم يكن تركيز المجموعة على الزواج ثانية، ولكنها كانت إحدى القضايا المذكورة، وقضية أساسية للبعض، وآخرين لا تثير اهتمامهم على الإطلاق، معظمهم ممن فقد أشقاءه، أو والديه، أو أطفاله، وكانوا متزوجين. ولكن جميعهم متفقون على أن خسارة حبيب، وبخاصة طفل، يضغط كثيراً على الزواج. وفي بعض الحالات، كان هناك أزواج في المجموعة، ولكن على الأغلب، كان أحد الزوجين أكثر استعداداً للوصول بوقت أبكر من الآخر، وكان من النادر حقيقةً أن يحضرا سويةً، رغم أن بليك كان دائماً يتمنى بأن يقوم الأفراد بذلك لمرات أكثر.

لسبب ما، كانت قضية إقامة العلاقة تُذكر كثيراً ذلك اليوم، ولذلك لم يتمكن بليك من مناقشة رغبة أوفيلي في إيجاد العمل. كانت تلك هي المرة الثانية التي تذكرها فيها، فتوقف للتحدث معها بعد الانتهاء. كان لديه فكرة يريد عرضها عليها... لم يعرف السبب، ولكن تملكه الشعور بأنها قد تناسبها. كانت تتقدم بشكل جيد في المجموعة حتى ذلك الحين، رغم أنه كان يعتقد أن لديها انطباعاً مخالفاً. كانت غارقة بالذنب بسبب عدم قدرتها على فعل شيء لابنتها، وربما لن تتمكن من فعله لوقت طويل. وأكثر من أي شيء، لم يكن يريدها أن تظلم نفسها لذلك. ما كانت تعاني منه، بابتعادها عن جميع أحبابها، كان طبيعياً تماماً بالنسبة له. لو أنها تركت نفسها تنسجم معهم، أو مع ابنتها في تلك الحالة، فإن مشاعرها ستكون معرضة للخطر، وجميع آلام الفقدان التي تشعر بها ستندفع بسرعة لإغراقها. إنّ الطريقة الوحيدة التي يمكن لنفسيتها من



خلالها التغلب على الألم هي أن تضع نفسها في وضعية الإطفاء لفترة، لكي لا تشعر بشيء تجاه أحد على الإطلاق. المشكلة الوحيدة هي أنها قد تركت طفلة مُهملة في تلك الأثناء. كانت تلك مشكلة نموذجية، ولكنها تكون أكثر تمزيقاً عندما يحدث الأمر مع الأزواج، وهذا ما يحدث غالباً. كانت نسبة الطلاق مرتفعة عند الأفراد الذين فقدوا أولادهم... فغالباً، عندما يتمكنون من التغلب على الأمر بدرجة جيدة، يكونون قد فقدوا بعضهم البعض وزواجهم أيضاً.

عندما تحدث بليك مع أوفيلي بعد الانتهاء، سألها إن كانت مهتمة بالأعمال التطوعية في ملجأ للمشردين. كان مات قد اقترح شيئاً مماثلاً لذلك أيضاً، واعتقدت أن ذلك ربما يكون نافعاً لها، وأقل إثارة لعواطفها من التطوع في مجال الأمراض العقلية. كان لديها دائماً اهتمام بمساعدة المشردين، ولكن لم يكن لديها الوقت الكافي عندما كان تيد وتشاد على قيد الحياة. أما الآن فلديها الكثير من الوقت، دون وجود الزوج وبوجود طفلة واحدة في المنزل فقط.

أجابت باهتمام وقبول كبيرين، ووعدها بليك أنه سيحصل لها على بعض الإحالات المتعلقة بالأعمال التطوعية المهتمة بالمشردين. وكان هذا تماماً ما يبرع فيه. كانت تفكر بذلك وهي تقود سيارتها عائدةً إلى مرفأ الأمان (سيف هاربر). كان عليها أن تأخذ بيب لفك القطب عصر ذلك اليوم. وفي الوقت الذي انتهت فيه من ذلك، ضحكت بيب بمرح، وارتدت زوجاً من الأحذية الخفيفة وهي عائدة للمنزل.

"كيف تشعرين؟" سألتها أوفيلي وهي تراقبها. كانت قد بدأت تستمتع بوجودها ثانيةً، وبدا أنهما تتحدثان أكثر مما فعلتا منذ وقت طويل. ليس كما اعتادتا من قبل، ولكن الأشياء كانت أحسن بشكل مؤكد. حتى أنها تساءلت إن كان التحدث مع مات قد ساعدها. فقد كان شخصاً لطيفاً، وصادقاً، ومهتماً أيضاً. لقد مرّ بالكثير لدرجة أنه أصبح مشبعاً بالتعاطف مع الآخرين، دون الإحساس بالسخافة. ولم يكن هناك شك بأن المجموعة تساعدها أيضاً، وقد أحبت الأشخاص فيها.

"أشعر بأنها جيدة جداً. إنها تؤلمني قليلاً فقط".

"حسناً، لا تجهديها". كانت تعلم ما تفكر به بيب. كانت متلهفة للنزول إلى الشاطئ لرؤية مات. فلديها حمولة كبيرة من الرسوم الجديدة تريده أن يراها. "لم لا تنتظرين حتى الغد. ربما يكون الوقت قد تأخر اليوم على أية حال". قالت أوفيلي بعقلانية. يمكنها قراءة عقل بيب أحياناً. والمشكلة هي أنها لمدة أشهر تقريباً لم تكن تحاول فعل ذلك. بدأت بالاهتمام ثانيةً، وأحبت بيب ذلك.

في اليوم التالي، انطلقت بيب برحلتها مع مجموعة الأوراق وأقلام الرصاص التي أهداها إياها، وشطيرتين في حقيبتها البنية. كانت أوفيلي تتمنى الذهاب معها، ولكنها لا ترغب بالتطفل عليهما... صداقتهما هي الأساس، أما التقائها به فكان فرعاً لها وأتى فيما بعد. لوّحت لها عندما كانت بيب تنطلق إلى الشاطئ مرتدية حذاءها لتحمي جرح قدمها الملتئم حديثاً. ولكنها لم تركض، كعادتها. كانت أكثر احتراساً، وأكثر احتراماً لقدمها، ونتيجة لذلك، استغرقت وقتاً أطول للوصول إليه. وعندما وصلت، توقف عن الرسم وابتسم بابتهاج لها.

"كنت أتوقع أنك ستأتين اليوم. ولو لم تفعلي ذلك، كنت سأتصل بك الليلة. كيف حال قدمك؟".

"أفضل". كانت تؤلمها قليلاً بعد المشي طويلاً على الشاطئ، ولكنها كانت مستعدة لتمشي على المسامير والزجاج لتراه. كانت سعيدة جداً بوجودها هناك، وبدا أنه مسرور لرؤيتها بنفس الدرجة.

"لقد اشتقت إليكِ حقاً". قال بسرور.

"وأنا أيضاً. كرهت البقاء في المنزل طوال الأسبوع. حتى موس لم يحب ذلك".

"يا للفتى المسكين، ربما كان يحتاج للتمرين. قضيت وقتاً جميلاً معك، ومع والدتك في تلك الليلة على أية حال. كان ذلك عشاءً لذيذاً".



"أفضل بكثير من البيتزا!" ابتسمت له. كان قد أخرج أفضل ما في والدتها، بل أكثر منذ ذلك الحين. كانت قد رأت والدتها في اليوم السابق تبحث في حقيبتها، ومن ثم أخرجت منها أحمر شفاه قديم، ووضعت القليل منه قبل الذهاب إلى المدينة. أدركت بيب أنه قد مرّ على والدتها وقت طويل منذ آخر مرة وضعت فيها شيئاً كهذا. وشعرت بالسعادة لرؤية والدتها تتحسن. لقد كان صيفاً جميلاً في مرفأ الأمان (سيف هاربر). "أحب لوحتك الجديدة"، علّقت لمات. كان قد وضع بعض الخطوط الأولية لامرأة على الشاطئ، يبدو عليها هواجس القلق. كانت تنظر إلى الشاطئ، وكأنها قد فقدت شخصاً ما هناك. بدت اللوحة قلقة ومضطربة، وكانت أقرب إلى أن تكون مفجعة. "تبدو حزينة جداً، ولكنها جميلة. هل تلك هي أمي؟".

"ربما. لربما ألهمتني لرسمها، ولكنها مجرد امرأة. إنها تعبر أكثر عن الفكرة والمشاعر، أكثر مما تعبر عن شخص ما... تتأثر قليلاً بروح رسام يدعى وايث". أومأت بيب بوقار، مدركة تماماً ما يتحدث عنه. فلطالما استمتعت بالتحدث معه، وخاصة عن رسومه. وبعد عدة دقائق، جلست حاملة مجموعة أوراقها الخاصة وأقلام الرصاص بالقرب منه. أحبت المكوث إلى جانبه.

مرّت الساعات سريعاً كما حدث من قبل، وكانا حزينين لمغادرة بعضهما البعض عند العصر. كان يرغب بالجلوس معها للأبد.

"ماذا تفعلين أنت ووالدتك الليلة؟" سألها دون تكلف. "أرغب بالاتصال بها، وسؤالها إن كانت ترغب بالذهاب إلى البلدة لتناول الهمبرغر. كنت لأطهو بنفسي، ولكنني طاهٍ رديء وقد نفدت البيتزا المجمدة من عندي". ضحكت بيب لتشابه قائمتي طعامهما.

"سأسأل والدتي عند وصولي للمنزل، وأخبرها أن تتصل بك".

"سأمنحك وقتاً كافياً للوصول، ومن ثم أتصل بها". ولكنها عندما نهضت، وبدأت المشي على الشاطئ، رأى أنها تعرج، فصاح: "بيب!" التفتت عندما

سمعته، ولوّح لها لتعود. كان طريقاً طويلاً لشخص قد أخرج القطب لتوه، وكان الحذاء يحتك بمكان الندبة. مشت ببطء عائدة إليه وهو يومئ لها. "سأوصلك للمنزل. لا تبدو قدمك جيدة".

"أنا بخير"، قالت بشجاعة، أما هو فلم يعد قلقاً عما ستقوله والدتها.

"لا تجهديها، وإلا لن تتمكني من المجيء إلى هنا غداً".

كانت تلك فكرة جيدة، فتبعته بطواعية فوق الرمال، إلى سيارته المركونة خلف كوخه. أوصلها للمنزل بعد خمس دقائق. لم يخرج من السيارة، ولكن أوفيلي رأته من نافذة المطبخ وأتت لتحييه.

"كانت تعرج"، قال شارحاً ما حدث. "وعلمت أنكِ لن تمانعي إن أوصلتها". ابتسم بلطف لها.

"بالطبع لا. كان هذا لطفاً منك. شكراً جزيلاً مات. كيف حالك؟".

"بخير. كنت سأتصل بكِ. هل يمكن أن أغويكما بتناول العشاء في البلدة الليلة؟ لتناول الهمبرغر فنصاب بسوء الهضم... أو ربما لا، إن كنا محظوظين".

"يبدو هذا لطيفاً". لم تكن قد فكرت بعد بما ستطهوه، رغم أن نفسيتها قد تحسنت بعض الشيء، ولكن اهتماماتها في الطهو لم تعد بعد. كانت قد قدّمت أفضل ما لديها في الليلة التي جاء بها لتناول العشاء. "هل أنت واثق من أنه لا مشكلة في ذلك؟" كانت الحياة بسيطة جداً على الشاطئ، وغير متكلفة، ولم تكن وجبات الطعام رسمية أبداً، ولم تكن تبدو مهمة بشدة. كان معظم الناس يقومون بالشواء، إلا أن أوفيلي لم تكن جيدة بذلك.

"سأستمتع بذلك"، قال مات، "ما رأيك في الساعة السابعة؟".

"رائع. شكراً لك". انطلق بسيارته ملوّحاً، وعاد في موعده تماماً بعد ساعتين. كانت بيب قد غسلت شعرها بالشامبو بإلحاح من والدتها لإخراج الرمل منه، وبدا شعر أوفيلي جميلاً أيضاً. كان على شكل أمواج طويلة ناعمة



مع بعض التجاعيد الجميلة الممتدة حتى أسفل كتفيها. وكرمز على روحها المستعيدة للحياة ببطء، وضعت أحمر الشفاه. لقد أحبت بيب ذلك.

تناولوا العشاء في أحد المطعمين المحليين، المسمى "لوبستر بوت"، وتناولوا جميعهم حساء الشودر والسرطان البحري. قرر جميعهم تناول مأدبة حقيقية، ونسوا أمر الهمبرغر، واشتكوا جميعاً وهم في طريق الخروج بأنهم لا يتمكنون من الحركة. ولكنها كانت أمسية جميلة. لا وجود لمواضيع جادة للحديث عنها، بل مجرد تبادل قصص مسلية ونكت سيئة، والكثير من الضحك. سألته أوفيلي إن كان يرغب بالدخول إلى المنزل بعد ذلك، ولكنه بقي فقط لبضع دقائق. قال إن لديه بعض الأعمال التي يرغب بإنجازها. وبعد أن غادر، علّقت أوفيلي لبيب كم هو لطيف، والتفتت إلى والدتها بابتسامة ماكرة.

"هل تحبينه، أمي؟ تعلمين... أعني كرجل". بدت أوفيلي مندهشة للسؤال، ومن ثم ابتسمت وهي تهز رأسها بالنفي.

"والدك هو رجلي الوحيد. لا أتخيل نفسي أبداً مع رجل آخر". كانت قد قالت ذلك كثيراً للمجموعة، والعديد منهم قد تحداها، ولكن بيب لم تجرؤ. خاب أملها لسماع ذلك. فقد أحبت مات، ولم ترغب بإثارة غضب أمها، ولكن والدها لم يكن لطيفاً معها دائماً. كان يصيح عليها، وأحياناً يزعجها، خاصة عند التشاجر بخصوص تشاد، أو أمور أخرى. أحبت والدها، وستفعل ذلك دائماً، ولكنها اعتقدت بأن البقاء مع مات سيكون أكثر وداً وسهولة.

"ولكن مات شخص طيب حقاً، ألا تعتقدين ذلك؟" سألتها بتلهف.

"نعم، أعتقد ذلك". ابتسمت أوفيلي ثانية، مسرورةً بابنتها التي تحاول تزويجها، ولكن كان من الواضح أن بيب متعلقة به جداً، أو أنه على الأقل يمثل البطل بالنسبة لها. "آمل أنه سيكون صديقاً حميماً لنا. سيكون من اللطيف رؤيته بعد مغادرتنا للشاطئ".

"قال إنه سيأتي لزيارتنا. وسيرافقني إلى عشاء الأب والابنة. أتذكرين؟".

"نعم، أذكر". أملت أنه سيفعل ذلك. لم يكن تيد جيداً بتلك الأمور على الإطلاق. كان يكره الذهاب إلى مناسبات الأطفال الرياضية أو أي شيء يتعلق بمدارسهم. لم تكن تلك الأشياء من اهتماماته، رغم أنه كان يفعل ذلك عندما لا يكون أمامه خيار آخر. "إنه مشغول جداً، بيب". كانت تلك هي الأعذار نفسها التي كانت تختلقها لتيد، ويكره الأطفال سماعها. كانت هنالك دائماً أعذار لعدم تواجده معهم.

"قال إنه سيحضر بالتأكيد"، قالت بيب بثبات، وهي تنظر إلى والدتها بعينين كبيرتين واثقتين، وأملت أوفيلي ألا تصاب بيب بخيبة أمل. كان من المستحيل في تلك الفترة معرفة إن كانت صداقتهم ستستمر، ولكنها أملت ذلك.



# 9

جاءت أندريا لزيارتهما ثانيةً قبل أسبوعين من مغادرتهما للشاطئ. كان الرضيع مضطرباً ومصاباً بالزكام ثانيةً، وقالت إنه قد بدأ مرحلة التسنين. كان في هذه المرة يبكي في كل مرة تحمله بيب فيها. أراد المكوث مع والدته، وليس مع أي شخص آخر. لهذا السبب وبعد فترة، انطلقت بيب إلى الشاطئ. كان عليها المكوث أمام مات في ذلك اليوم. أراد أن يضع ما يكفي من الخطوط الأولية للوحتها التي كان قد وعد برسمها، كهدية لأوفيلي.

"ما الجديد؟ هل هناك أي شيء؟" سألت أندريا عندما نام الطفل أخيراً.

"ليس الكثير". قالت أوفيلي، وقد بدا عليهما الارتياح وهما تجلسان تحت أشعة الشمس. كانت الأيام الذهبية الأخيرة للصيف قد بدأت، وكانتا تستمتعان بآخر أيامهما على الشاطئ. واعتقدت أندريا بأن أوفيلي تبدو أفضل مما كانت عليه خلال أشهر. الأشهر الثلاثة التي قضتها في مرفأ الأمان (سيف هاربر) قد فتحت أمامها عالماً من الخير. كرهت أن تراها تعود إلى المدينة، وإلى ذكرياتها الحزينة في المنزل.

"كيف حال متحرش الأطفال؟" سألت أندريا بعفوية، كانت تعلم أنهما تصاحبا في النهاية، ولكنها كانت ما تزال تشعر بالفضول. لم يلتقيا. ومن الوصف الذي قدمته بيب، بدا رجلاً قوي الجسم. كانت أوفيلي قد قالت القليل، ولذلك شكّت أندريا، ولكنها لم ترَ شيئاً سرياً في عينيها. لا وجود لأي سحر، أو أي حدث مخبأ بعناية، أو أي ذنب. بدت مرتاحة جداً.

"إنه لطيف جداً مع بيب. تناولنا العشاء معه في إحدى الليالي".

"هذا غريب بالنسبة لرجل لا يملك أطفالاً"، علّقت أندريا.

"لديه ولدان".

"يبدو هذا معقولاً إذاً. هل التقيت بهما؟".

"إنهما يعيشان في نيوزيلندا، مع زوجته السابقة".

"أوه. كيف هذا؟ هل يكرهها؟ كم هو مقدار الضرر؟" كانت مختصة بهذا المجال، وقد رأت الكثير. الرجال الذين تم خداعهم، وانتهازهم، وهجرهم، والكذب عليهم، وتركهم، يكرهون كل امرأة في حياتهم بعد ذلك. ولا حاجة لذكر أولئك الرجال المضطربين جنسياً، وما يزالون على علاقة، وقد فقدوا زوجاتهم اللواتي كن رائعات بشكل لا يوصف، والرجال الذين لم يتزوجوا أبداً وكانوا في منتصف أعمارهم، وأولئك الذين ينسون ذكر أنهم متزوجون. سواء كانوا أكبر، أو أصغر، أو في نفس العمر. كانت أندريا تكرههم جميعاً. كانت جاهزة لاجتياز الكثير من الحدود، عندما تجد رجلاً تعجب به. رغم أنهم محطمون أحياناً، يكونون ممتعين لبرهة، ولكنها كانت تفضل معرفة ما هو ضررهم.

"يمكنني القول بأن هنالك الكثير من الضرر"، قالت أوفيلي بصدق، "وأشعر بالحزن عليه. ولكن ذلك ليس شأني. لقد تمت خيانته بصورة سيئة من قبل زوجته السابقة. تركته وذهبت مع صديقه المفضل، وتزوجته. أجبرت مات على بيع وكالتهما، وبدا أنها تبعده عن ولديه".

"أوه، يا إلهي، ماذا فعلت أيضاً؟ شقت الإطارات وأضرمت النار في سيارته؟ ماذا بقي أيضاً؟".

"ليس الكثير، كما يبدو. أظن أنه يملك الكثير من المال من وكالة الإعلانات، ولكنني لا أعتقد بأنه يهتم حقاً لذلك".

"هذا يشرح على الأقل سبب كونه لطيفاً جداً مع بيب. لا بد أنه يشتاق لولديه".



"نعم، فعلاً"، قالت أوفيلي، وهي تفكر بالأشياء التي تحدثا عنها في الليلة التي أتى بها لتناول العشاء. كانت قد أثرت، ومن دون شك بقلبها كثيراً.

"كم مضى على الطلاق؟" كانت هنالك نظرة تحليلية على وجه أندريا، فضحكت أوفيلي.

"أعتقد قرابة عشر سنوات. أكثر أو أقل. لكنه لم يرَ ولديه أو يسمع عنهما شيئاً منذ ست سنوات. لقد ابتعدا عنه بالكامل".

"ربما يكون متحرش أطفال. أو تكون زوجته امرأة غير عادية. وهذا هو الاحتمال الأكبر. هل أقام أية علاقة جادة بعد ذلك؟".

"مرة واحدة. أرادت الزواج وإنجاب الأطفال، أما هو فلم يرغب بذلك. أعتقد أن جرحه خطير جداً ليتمكن من المحاولة ثانية، ولا يمكنني لومه، فما وصفه سيئ بشكل لا يطاق".

"انسي أمره"، قالت أندريا بنبرة صوت واقعية، وهي تهز رأسها بالنفي. "ثقي بي. الكثير من المتاعب. هذا الرجل مصيبة".

"ليس كصديق"، قالت أوفيلي بهدوء. هي لا تريد شيئاً من مات، إلا صحبته. حتى أنها لا ترغب بأية علاقة. لديها تيد، في قلبها وعقلها. لا تريد أحداً غيره.

"أنتِ لا تحتاجين إلى صديق"، قالت أندريا بشكل واقعي. "فأنا صديقتك. تحتاجين إلى رجل في حياتك. وهذا مصاب بالكثير من الضرر. شاهدت أشخاصاً مثله. لا يمكنهم جمع أشلائهم ثانيةً. كم عمره؟".

"في السابعة والأربعين".

"سيئ جداً. ولكنني أحذرك، ستضيعين وقتك معه".

"أنا لا أضيع شيئاً". قالت أوفيلي مصرةً. "لا أريد رجلاً في حياتي. من الآن وإلى الأبد. لدي تيد. لا أريد أحداً غيره".

"كان لديك مشاكل معه، أوفيلي، وتعلمين ذلك. لا أريد جلب الذكريات

القبيحة، ولكن حدث شيء ما قبل عشر سنوات، إن كنت تذكرين..." التقت أعينهما فنظرت أوفيلي بعيداً.

"حدث هذا مرة واحدة فقط... كان مجرد حادث. خطأ. لم يفعلها ثانيةً".

"لا تعلمين صحة ذلك. لربما فعلها. وسواء فعلها أو لا فإن ذلك لا علاقة له بالموضوع. لم يكن قديساً، كان رجلاً صعباً جداً، قضيت معه أوقات صعبة جداً أحياناً، تماماً مثل تشاد. كل شيء كان له. أنت المرأة الوحيدة التي أعرفها والتي كان بإمكانها تحمله طوال تلك الفترة التي عشتها معه. كان عبقرياً، أعترف بذلك، ولكن بغض النظر عن مقدار إعجابي به، وحبك له، كان جحيماً أحياناً. الشخص الوحيد الذي يهتم به فقط هو نفسه. لم يكن نعمة أبداً".

"كان كذلك بالنسبة لي"، قالت أوفيلي بعناد، غاضبة مما قالته أندريا، سواء كان صحيحاً أم لا. كان صعباً، ولكن الرجال بعقله وعبقريته يحق لهم ذلك، أو أنها اعتقدت ذلك على أية حال. أما أندريا فلا تتفق معها. "أحببته عشرين سنة. لن يتغير ذلك بين ليلة وضحاها، أو طوال الدهر".

"ربما لا. وأعلم أنه أحبك أيضاً، بطريقته الخاصة"، قالت أندريا ذلك بلطف، خشية أن تكون قد تمادت كثيراً. لا تريد أندريا من ذلك أية غاية من صديقتها، ولم تكن كذلك على الإطلاق. شعرت أندريا بأن أوفيلي بحاجة إلى تحرير نفسها من تيد الآن، ومن أوهامها حوله، لكي تعيش حياتها. كان لأوفيلي وتيد اختلافاتهما على مرّ السنين، والحادث الذي كانت تشير إليه، والذي قالت أوفيلي بأنه "خطأ"، كان علاقةً أقامها في إحدى فصول الصيف عندما كانت أوفيلي والطفلان في فرنسا. وسبّب ذلك مأزقاً كبيراً. كاد أن يهجر أوفيلي بعدها، وقد حطم قلبها. ولم تكن أندريا متأكدة من أن الأشياء بقيت على حالها بعد ذلك. كان من الصعب معرفة ذلك. فبعدها مرض تشاد، وازدادت الأحوال سوءاً على أية حال. ولكن العلاقة التي حدثت لم تكن لتساعد. رغم حقيقة أن أوفيلي كانت مستعدة للصفح عنه... كان ذلك امتيازاً لم ينتهزه وحسب، بل سمح لنفسه به أيضاً. كان تيد يملك إحساساً بالأحقية في جميع النواحي.



"القضية الحقيقية الآن هي ليست مقدار حسنه أو سوءه، ولكنها حقيقة أنه قد رحل. لن يعود على الإطلاق. أنتِ هنا، وهو ليس كذلك. يمكنك إعطاء نفسك كل ما تحتاجه من الوقت لتعود، ولكن لا يمكنك البقاء وحيدةً للأبد".

"لِمَ لا؟" بدت أوفيلي حزينة وهي تسأل. لم تكن تريد رجلاً آخر في حياتها. لقد اعتادت على تيد. كانت الألفة جزءاً من المشكلة. لا يمكنها حتى تخيل نفسها مع رجل آخر. عاشت معه منذ كانت في الثانية والعشرين من عمرها، وتزوجته وهي في الرابعة والعشرين. في الثانية والأربعين، لا يمكنها حتى تخيل نفسها تبدأ كل شيء من جديد. لا تريد ذلك. من الأسهل لها أن تبقى وحيدة، وكان هذا استنتاج مات أيضاً. كل منهما كان يتألم بشدة، وهذا شيء مشترك آخر بينهما.

"أنتِ صغيرة جداً للبقاء وحيدة"، قالت أندريا بهدوء. كانت صوت العقل، والمستقبل. أما أوفيلي فكانت ملتصقة بالماضي. وبمعنى آخر، بماضٍ لم يكن موجوداً، إلا في قلبها وخيالها. "عليكِ التوقف عن ذلك في النهاية. ربما ليس الآن. ولكن عاجلاً أم آجلاً. أنتِ في منتصف حياتك. لا يمكنك حتى البدء بتخيل نفسك وحيدة للأبد. هذا سخيف... وخسارة كبيرة".

"إنه ليس سخفاً إن كنت أنا من يريد ذلك". قالت أوفيلي بعناد.

"إنكِ تريدين ذلك. ولا أحد يريده. في الحقيقة، أنتِ لا تريدين ألم الاكتشاف وحسب. ولا ألومك. الأشياء رديئة في هذا العالم. عشت هناك طوال فترة شبابي. كرهتها. ولكن لا بد من ظهور أحد في النهاية... شخص جيد... وربما أفضل من تيد". لم يكن هناك أحد أفضل منه في تقدير أوفيلي، ولكنها لم تتجادل بتلك الفكرة مع أندريا. "ولكنني لا أعتقد أن متحرش الأطفال هو الحل لذلك. يبدو أنه محطم، أو ربما مغلوب على أمره فقط. ولكن على أية حال، لا أعتقد أنه الرجل الذي تريدينه، باستثناء كونه صديقاً. أعتقد أنك محقة بذلك. ولكن هذا يعني، أنك في النهاية بحاجة لإيجاد شخص آخر".

"سأخبرك عندما أكون مستعدة، ويمكنك ترك اسمي على جدران الحمامات، أو طبع بعض المنشورات. تذكرت، هناك رجل في المجموعة يتلهف ليتزوج. ربما يكون هو الشيء المناسب".

"لقد حدثت أشياء أغرب من ذلك. تلتقي الأرامل بالرجال خلال الرحلات، أو في دروس الرسم، أو في مجموعات الأحزان. لديكما الكثير من الأشياء المشتركة على الأقل. من هو؟".

"إنه السيد فيكينبوم. إنه لحام متقاعد، ويحب الأوبرا والمسرح، وهو طاهٍ خبير، ولديه أربعة أولاد كبار، وفي الثالثة والثمانين من عمره".

"رائع". ضحكت أندريا. "سآخذه أنا. يمكنني القول بأنك لا تأخذين الأمر على محمل الجد".

"لا، على الإطلاق. ولكنني أقدر لك اهتمامك".

"لم تري شيئاً بعد. أنوي المكوث على ظهرك".

"هكذا"، قالت أوفيلي رافعة حاجبين فرنسيين. "أعتقد بذلك". وعندها، استيقظ الطفل مطلقاً صراخه.

وبينما كانتا تتحدثان على المنصة في الخارج، هناك بعيداً عند الشاطئ، كان مات يضع خطوطه الأولية للوحة بيب، كما التقط لها مجموعة من الصور بالأسود والأبيض. كان متلهفاً لرسمها، ووعدها أن تكون جاهزة في الوقت المناسب، وربما قبل ذلك بوقت طويل.

"سأشتاق إليك عندما نغادر"، قالت بيب بحزن بعد التقاطه لصورها. أحبت المجيء إلى الشاطئ والجلوس معه، والتحدث والرسم لساعات. لقد أصبح صديقها المفضل.

"أنا أيضاً سأشتاق إليك". كان صادقاً معها. "سآتي لزيارتك وأمك في المدينة. ولكنكِ ستكونين مشغولة مع أصدقائك حالما تعودين إلى المدرسة". فهو يعلم أن حياتها ستكون أكثر انشغالاً من حياته. وأثار دهشته إدراكه لمدى



اعتماده على رؤيتها كل يوم تقريباً. كانت رفيقته معظم أيام الصيف.

"ليس هذا الشيء نفسه"، وبخته بيب. كانت صداقتهما مميزة، فهي تعتمد عليه أيضاً. كان قد أصبح صديقها الحميم والمفضل، وبمعنى آخر، بديلاً عن والدها. كان الوالد الذي لم يكُنه تيد أبداً. في كثير من الأحيان، شعرت بيب بأنه ألطف مما كان والدها. لم يكن والدها يقضي معها الوقت نفسه الذي كان مات يقضيه معها، ولم يكن بنفس اللطف معها أيضاً... أو مع والدتها. كان منفعلاً دائماً، ويغضب بسهولة، وبخاصة من والدتها أو من تشاد، إلا أنه لم يكن يغضب منها كثيراً. لأنها كانت دائماً حذرة معه، فقد كان يخيفها بعض الشيء. رغم أنه كان أكثر لطفاً معها عندما كانت أصغر سناً، ولديها ذكريات جميلة عن ذلك، ولكن القليل منها فقط في السنوات الأخيرة. "سأشتاق لك كثيراً"، قالت، وكأنها تبكي وهي تفكر بالأمر. ستكره مغادرته عند الشاطئ، وكره مات رؤيتها ترحل أيضاً.

"أعدكِ أنني سآتي كلما أردتِ. يمكننا الذهاب لمشاهدة الأفلام، أو تناول الغداء، أو كل شيء تحبينه، طالما أن والدتك لا تمانع".

"إنها تحبك أيضاً"، قالت بيب بارتياح، فهي لم تكن تكشف أية أسرار. فقد قالت والدتها ذلك بصراحة، ووافقتها أنه رجل لطيف جداً.

للحظة جنونية، كان متلهفاً ليسألها عن حقيقة كيف كان والدها. فبالرغم من كل شيء كانت أوفيلي قد قالته، لم يتمكن من الحصول على الصورة الواضحة لتيد. فالصورة الوحيدة التي تمكّن من رسمها له في عقله هو أنه مستبد، صعب الشخصية، وربما أناني... قد يكون عبقرياً، ولكن على الأغلب، لم يكن لطيفاً مع زوجته. ومع ذلك كان من الواضح أن أوفيلي معجبة به جداً، وتجعله يبدو كالقديس الآن. ولكن لم يبدُ أن أجزاء الأحجية متناسبة مع بعضها، وخاصة في علاقته مع ابنه. لم يشعر مات بأنه كان يقضي الكثير من الوقت مع بيب، وكأنها قد قالت ذلك تقريباً، في مناسبات تحدثت فيها عنه، وفي القصص التي أخبرته إياها. ولا يبدو أيضاً أنه كان يقضي الكثير من

الـوقت مـــع زوجته أيضا. كان من الصعب الحصول على صورة واضحة. وخـــصوصاً الآن، بعدما رحل، نظراً للميل الطبيعي لنسيان الأجزاء المؤلمة، وتحسين ما تبقى. ولكنه لم يكن يرغب بالضغط على بيب.

"متى تعودين إلى المدرسة؟" قال أخيراً.

"بعد أسبوعين. في اليوم التالي لعودتنا".

"ستكونين مشغولة عندها"، قال مطمئناً، ولكنها بدت حزينة على أي حال.

"هل يمكنني الاتصال بك أحياناً؟" سألت بيب، فابتسم لها.

"سأحب ذلك كثيراً". كانت نعمة بالنسبة له، وقد شغلت مكاناً فيه كان خامداً منذ وقت طويل. قامت بشيء كالسحر لتملأ الفجوة التي تركها ولداه. وقام بالشيء نفسه معها. كان، نوعاً ما، الوالد الذي لم تملكه على الإطلاق، وتمنت لو أنه كان موجودا. كان تيد وحشاً مختلفاً تماماً.

تركته بعد أن حزم أغراضه، ومشت عائدة إلى الشاطئ. كانت أندريا تغادر لتوها عندما وصلت هي للمنزل.

"كيف حال مات؟" سألتها أمها بسرور، عندما كانت بيب تودع أندريا ومولودها.

"بخير. طلب أن أسلم عليك".

"تذكري ما قلته"، ذكّرتها أندريا فضحكت أوفيلي.

"أخبرتك. السيد فيكينبوم هو الحل".

"لا تثقي بذلك. الرجال مثله يتزوجون أخوات زوجاتهم أو صديقاتهن المفضلات بعد ستة أشهر. وما يزال لديك الكثير لتجربي القيام به بعد زواجه ثانية بفترة طويلة. يا خسارة... إنه كبير في السن جداً".

"أنت مثيرة للاشمئزاز"، قالت أوفيلي وهي تعانق صديقتها وتقبل الطفل، ومن ثم غادرا.





"من هو السيد فيكينبوم؟" سألت بيب بفضول. لم تكن قد سمعت اسمه من قبل أبداً.

"رجل في المجموعة. إنه في الثالثة والثمانين من العمر ويبحث عن زوجة جديدة".

اتسعت عينا بيب. "هل يريد الزواج منك؟".

"لا، أبداً. ولا أريد الزواج منه. كل شيء بخير". شعرت بيب باندفاع مفاجئ لسؤالها إن كانت ترغب بالزواج من مات. تمنت أن تفعل ذلك يوماً ما، ولكن بعد ما قالته والدتها مؤخراً، علمت أن فرصة حصول ذلك ليست كبيرة. ربما أبداً. ولكنه قال على الأقل بأنه سيزورهما في المدينة، وكانت تأمل حقاً أن يفعل ذلك.

تناولت بيب ووالدتها عشاءً هادئاً تلك الليلة، وذكرت بيب لوالدتها أن مات قد قال بأنه ربما سيتصل أحياناً.

"أراد معرفة إن كان لا مانع لديك".

"لا أرى مانعاً لذلك"، قالت أوفيلي بهدوء. بدا جديراً بالثقة وقد أثبت نفسه كصديق. لم تكن تشعر بالارتياب منه الآن، رغم أن أندريا ما تزال تصفه "بمتحرش الأطفال"، ولكنها ليست قلقة من ذلك أبداً. "أعتقد أن ذلك سيكون لطيفاً. ربما يرغب بتناول العشاء معنا في وقت ما".

"قال إنه سيأخذنا لتناول العشاء في الخارج ومشاهدة فيلم عندما يأتي إلى المدينة".

"يبدو ذلك ممتعاً"، قالت أوفيلي، لم تفكر بذلك كثيراً وهي تضع الأطباق في غسالة الصحون، بينما كانت بيب تشغل التلفاز. صداقة مات لم تكن ما تريده أندريا منها، ولكنه كان مناسباً لأوفيلي. كان صيفهم في مرفأ الأمان (سيف هاربر) نجاحاً رائعاً، فقد حصلت هي وبيب على صديق جديد.

# 10

فـــي بداية أسبوعهم الأخير على الشاطئ قام مات بدعوة أوفيلي للإبحار معــه في يوم مشمس مشرق. كانوا قد أمضوا يومين في الضباب، فشعر كل واحــد منهم بالارتياح عند رؤية آخر بروز للصيف. وكما تبيّن فيما بعد، كان ذلك أكثر أيام السنة حرارة. حار جداً لدرجة أن بيب وأوفيلي شعرتا بالحرارة جــداً، فدخلــتا لتــناول الغداء في الداخل. كانتا على وشك الانتهاء من تناول الشطائر التي أعدتها أوفيلي عندما اتصل مات. وبدت بيب ناعسة قليلاً بسبب الحــرارة. كانــت تفكــر بالــذهاب لرؤيته، إلا أن الجو الحار جداً منعها من الــذهاب، وكانــت الشمس تلتهب فوق رؤوسهم. كان سيصبح هذا اليوم الأول الــذي تفــوتها رؤيــته فيه منذ وقت طويل. كما أنها اعتقدت أنه لن يكون في الخــارج. كان يوماً مناسباً للسباحة، أو الإبحار، هذا ما قاله مات بنفسه عندما اتصل بأوفيلي.

قــال مات معتذراً "كنت أنوي دعوتكِ منذ أسابيع". إلا أنه لم يتمكن من تفــسير عدم قيامه بذلك فقد كان منشغلاً برسم لوحة بيب. "ولأن الطقس حار جــداً، رأيت أنه من المناسب الإبحار في القارب ظهرَ هذا اليوم. هل يمكنني إثــارة اهــتمامك بالإبحــار معي؟" بدا الأمر لها رائعاً. كان الطقس حاراً جداً بحــيث لا يمكــنها الجلوس على المنصة في الخارج أو على الشاطئ، أما في المحيط فسيكون النسيم عليلاً. بدأت الرياح تهب منذ ساعة فقط، ولهذا خطرت تلــك الفكــرة بــباله. مكث في المنزل طوال اليوم وهو يرسم لوحة بيب من ذاكرته، ومن الصور، ومن الخطوط الأولية التي رسمها لها على الشاطئ.

قالت أوفيلي بحماسة، "يبدو هذا رائعاً"، فهي لم ترَ قاربه بعد، رغم أنها عرفت كم هو معجب به، ووعدها أن يأخذها للإبحار قبل مغادرتها. "أين تتركه؟".

"إنه يرسو في حوض سفن خاص، بالقرب منكم. إن أصحاب الحوض لا يأتون دائماً، وهم لا يمانعون بترك القارب هناك. يقولون بأنه يضيف بعض السحر على المكان عندما يكونون هناك، لقد انتقلوا إلى واشنطن في العام الماضي. وقد استفدت من ذلك". أعطى مات أوفيلي رقم المنزل، وأخبرها أنه سيلتقي بها هناك بعد عشر دقائق. أخبرت أوفيلي بيب بما ينوون فعله، وتفاجأت عندما بدت بيب منزعجة.

"هل ستكونين بخير، ماما؟" سألت بيب بقلق. "هل هو آمن؟ كم حجم القارب؟" تأثرت أوفيلي عند الاستماع لها ورؤية النظرة في عينيها. كان كلامها يعبر عما تشعر به تجاهها. كل شيء بدا أكثر خطراً الآن، ولهذا السبب كانت غاضبة جداً في بداية الصيف عندما اختفت بيب عند الشاطئ. كل ما تملكانه الآن هو بعضهما البعض. ولم يعد الخطر مجرد مفهوم غامض بالنسبة لهما. كان حقيقةً، والمأساة كانت احتمالاً تعرفه كل منهما. لقد تغيرت حياتهما للأبد. "لا أريدك أن تذهبي"، قالت بيب بصوت خائف، عندما كانت أوفيلي تحاول تقرير ما ستفعله. لا يمكنهما العيش في خوف للأبد. ربما كانت تلك فكرة جيدة تظهر فيها أن بإمكانهما العيش حياة طبيعية، ولن يحدث أي شيء خطير. لم تشعر بأي خطر من أي نوع في ذهابها على القارب مع مات. وكانت واثقة من أنه بحار كفوء تماماً. كانا قد تحدثا كثيراً عن الإبحار. لقد قام مات بالكثير منذ أن كان صغيراً، وبالطبع أكثر منها، فهي لم تبحر بنفسها منذ اثنتي عشرة سنة.

"حبيبتي، أعتقد حقاً بأن كل شيء سيكون على ما يرام. يمكنكِ مراقبتنا من المنصة". لم تبدُ بيب مطمئنة، كما بدت وكأنها على وشك البكاء. "هل تريدينني ألا أذهب حقاً؟" كان ذلك أمراً لم تفكر به حتى، عندما أخبرته بأنها



تقبل بذلك. وكانت ستطلب من آمي المجيء، فلقد رأتها تدخل للتو إلى منزلها، لذلك تعرف بأنها موجودة. أو يمكن حتى لبيب الذهاب إلى هناك لساعات قليلة، إن كان هناك أشياء ترغب آمي بفعلها.

"ماذا لو غرقتِ؟" سألت بيب بصوت مكبوت، فجلست أوفيلي وسحبتها بلطف إلى حضنها.

"لن أغرق. أنا سباحة ماهرة. وكذلك مات. سأطلب منه إعطائي صدارة نجاة إن أردت". فكرت بيب بذلك للحظة ثم أومأت بالموافقة، وهي مطمئنة.

"حسناً". بدت هادئة بعض الشيء ومن ثم ذعرت بوضوح ثانيةً. "ولكن ماذا لو هاجم قرش القارب؟" لم تتمكن أوفيلي من إنكار مشاهدة القروش في تلك المياه بين الحين والآخر، ولكن لم يتواجد أيّ منها طوال الصيف.

"إنك تشاهدين التلفاز كثيراً في الفترة الأخيرة. أعدك، لن يحدث شيء. يمكنكِ مراقبتنا. أريد فقط الذهاب معه لفترة قصيرة جداً. هل تريدين المجيء معنا؟" لم ترغب أوفيلي بأخذها معها، للأسباب نفسها، والتي بدت غبية الآن. لم تكن بيب معجبة كثيراً بالمياه، ولم ترد إخافتها. كانت أوفيلي تهتم بقوارب الإبحار إلا أن الأمر لم يكن يعني شيئاً لابنتها. هزت بيب رأسها كتعبير عن رفض فكرة الذهاب معهما في اللحظة التي سألتها فيها أمها. "سأخبرك شيئاً. سأقول لمات أنني أرغب بالعودة بعد ساعة. إنه يوم جميل، وسنعود قبل أن تلاحظي غيابنا حتى. كيف يبدو هذا؟".

"جيد، على ما أعتقد". بدت بائسة وهي تقول ذلك، وشعرت أوفيلي بالذنب. ولكنها أرادت الإبحار معه حقاً، ورؤية قاربه، حتى ولو لدقائق قليلة. كانت محتارة، ولكن بدا من المهم أن تثبت لبيب أن بإمكانها الذهاب والعودة بسلامة. كان ذلك جزءاً من عملية شفائها.

ذهبت لترتدي بنطالاً قصيراً فوق ثوب السباحة، واتصلت بآمي لتأتي وتجلس مع بيب. كانت المراهقة قد وعدتها بالقدوم بعد بضع دقائق، وفي الوقت الذي كانت أوفيلي جاهزة فيه للمغادرة، وصلت آمي. ولكن قبل أن

تغادر، عانقت بيب أمّها وأمسكتها بقوة. علمت أوفيلي عندها مقدار التأثير الكبير الذي أحدثه موت والدها وأخيها. لم تكن تتصرف بتلك الطريقة من قبل أبداً. ولكن أوفيلي أيضاً لم تكن قد ذهبت إلى أي مكان. كانت قد قضت معظم الأشهر العشرة الأخيرة وهي تبكي في سريرها.

"سأعود قريباً، أعدك بذلك. إن لم يكن الجو حاراً جداً عليك، يمكنك مراقبتنا من المنصة. حسناً؟" قبلت بيب، وسارت إلى الخارج بكل ما لديها من رشاقة وهدوء، بينما وقف موس بجانبها وهز ذنبه. كانت أوفيلي كئيبة وهي تسير باتجاه المنزل حيث يضع مات قاربه. كانت سيارته هناك. ووجدته بعد دقيقة، يضع بعض الأشياء في القارب. كان قارب إبحار صغير جميل وبحالة جيدة. وكان من السهل معرفة كم يحبه... بمقدار ما كان يبقيه جميلاً. كل شيء على ظهر المركب كان يلمع نتيجة طلائه بدهان نحاسي اللون لامع، أما جسم المركب فكان مدهوناً حديثاً بالأبيض اللامع. كان له صارية واحدة، ارتفعت أربعين قدماً في الهواء، مع شراع رئيسي وشراع صارية أمامي، وكمية كافية من الأشرعة بالنسبة لحجمه. كان يمتلك عموداً أفقياً يمتد من مقدمته بحيث يجعله يبدو أطول بثلاثين قدماً، ومحركاً صغيراً، وحجرة للبحار صغيرة جداً ذات سقف منخفض لا يتمكن مات من الوقوف تحته. كان القارب يدعى نيمي II، مثل اسم ابنته التي لم يشاهدها منذ ست سنوات. إنّه قارب إبحار صغير بالغ الجمال والأناقة، وقفت أوفيلي في الخلف عند الرصيف وأظهرت إعجابها به من خلال ابتسامة. "يا له من قارب صغير وجميل، مات". كانت تعني كل كلمة مما قالته، وكانت تتشوق للإبحار على متنه.

"أليس كذلك؟" بدا مسروراً. "أردتكِ أن تشاهديه قبل أن تغادري. وأن تبحري على متنه أيضاً". كان متلهفاً للبدء. خلعت أوفيلي حذاءها، وساعدها في الصعود إلى القارب. أدار المحرك، وساعدته في نزع الحبال عن الرصيف. وبعد لحظة، كانا يتحركان بسرعة لا بأس بها عند نهاية البحيرة باتجاه المحيط. كان يوماً مناسباً جداً للإبحار.



"يا له من قارب رائع!" قالت أوفيلي ثانيةً، معجبة بجميع تفاصيله الصغيرة التي أضافها إليه في وقت فراغه. كان القارب الصغير واحداً من متع حياته، وكان سعيداً لإبحارهما معاً على متنه. "متى تم صنعه؟" سألت أوفيلي باهتمام عند وصولهما إلى مخرج البحيرة، فتحرك إلى المحيط وأطفأ المحرك، وهما يشعران بالنسيم يزداد. للحظة، استمتعت أوفيلي بالصمت اللذيذ لقارب الإبحار، وهما يشعران بالمحيط أسفلهما، والرياح فوقهما بينما هو يثبت الأشرعة. كان من السهل عليه تدبر ذلك بنفسه، ولكن أوفيلي بدأت تساعده دون أن يطلب منها ذلك.

"لقد تم بناؤه في العام 1936"، قال بفخر. "اشتريته منذ ثماني سنوات. من رجل كان يملكه منذ انتهاء الحرب. كان بحالة رائعة، ولكنني أجريت عليه بعض الترميمات بنفسي".

"إنه جوهرة ثمينة"، قالت أوفيلي، ومن ثم تذكرت وعدها لبيب. أدخلت رأسها في حجرة البحار وأمسكت بصدارة نجاة كانت معلقة على الوتد. بدا مات متفاجئاً بعض الشيء عندما رآها ترتديها. كانت قد أخبرته من قبل أنها سباحة ماهرة وتحب الإبحار. أجابت عن السؤال الذي بدا في عينيه، "وعدت بيب بذلك". أومأ لها، وعندما دفعت الرياح أشرعته بدأ طريقهما. أحسّا بشعور رائع عند مرور القارب فوق المياه بخفة لذيذة. تبادلا الابتسامات الطويلة والبطيئة لبحارين يستمتعان بلذة القارب في يوم رائع.

"هل تمانعين إن أبحرنا أكثر قليلاً؟" سأل فهزت أوفيلي رأسها، وقد بدت سعيدة تماماً. لم تمانع أبداً، وهما يتركان الشاطئ ومنازله التي أصبحت بعيدة جداً. تساءلت إن كانت بيب تشاهدهما، وتمنت أن تكون كذلك. لقد شكلا منظراً رائعاً. ومن ثم، بعد أن جلست بجانبه عند ذراع الدفة، أخبرته عن ردّ فعل بيب قبل أن تتركها.

"أعتقد أنني لم أدرك مدى القلق الذي أصابها منذ..." لم تنهِ جملتها، إلا أنه فهم ما تريد قوله. عندما جلست أوفيلي ووجهها للأعلى نحو الشمس

وأغلقت عينيها، لم يكن متأكداً أي المنظرين هو الأجمل، قارب الإبحار الذي أحبه، أو المرأة الجالسة إلى جانبه.

أبحرا لوقت طويل بصمت حتى اختفى الشاطئ بأكمله خلفهما. كانت قد وعدت بيب بأنها لن تبقى لوقت طويل، ولكن الإبحار كان شديد الإغواء لدرجة أنها رغبت بالإبحار بعيداً، وترك العالم بأكمله خلفها. كادت أن تنسى كم هو مريح أن تبحر على متن قارب رائع. كان ذلك أكثر الأشياء سكوناً بالنسبة لها. ولم تمانع ازدياد شدة الرياح على الإطلاق. كان مسروراً لمعرفة أنها بحارة حقيقية، وكانت تستمتع بذلك تماماً كما تمنى. للحظة، تمنت أن يكون بإمكانهما الإبحار بعيداً للأبد وألا يعودا أبداً. كان شعوراً فريداً من نوعه للحرية والسكون. لم تكن قد شعرت بمثل هذه السعادة والرضا لسنوات، وكان من الرائع مشاركة ذلك معه.

مرا بالقرب من عدد من قوارب الصيد، ولوحا للصيادين، وبعيداً في الأفق كانت هناك سفينة شحن تقترب. كانا يتجهان نحو فارالونز، عندما انحنى مات إلى الجانب وبدا أنه ينظر إلى شيء ما. نظرت أوفيلي بالاتجاه نفسه ولكنها لم ترَ شيئاً. تساءلت إن كان ما رآه هو فقمة أو سمكة كبيرة، على أمل ألا يكون قرشاً. سلمها دفّة القيادة، ونزل للأسفل، أمسك بمنظار ثم صعد. نظر من خلاله وهو يعبس.

"ما الأمر؟" لم تكن قلقة، بل تشعر بالفضول، وتمنت لو أن بإمكانها خلع تلك الصدارة المثقلة، ولكنها كانت قد وعدت بيب، وتريد الحفاظ على وعدها، وفقاً للمبدأ وليس لأي حاجة أخرى.

"اعتقدت أنني رأيت شيئاً ما منذ لحظة"، أجابها، "أعتقد أنني مخطئ". علت الأمواج قليلاً، ولم تأبه لذلك، ولكنها جعلت الرؤية أكثر صعوبةً. لم تكن قد أصيبت بدوار البحر في حياتها، أحبت حركة القارب، ولا يهمها كم كانت شديدة.

"ماذا تعتقد أنك رأيت؟" سألت باهتمام، وهي تجلس بجانبه. كان يفكر بالالتفاف للعودة، فقد ابتعدا كثيراً، ومضى على إبحارهما أكثر من ساعة، وتقريباً ساعتين، فالرياح أصبحت جيدة خلفهما.



"أنا لست متأكداً... بدا وكأنه لوح تزلج، ولكن لا يمكنه التزلج على مسافة بعيدة كهذه، إلا إن كان قد سقط من قارب ما". أومأت له بالإيجاب، وعدّل الأشرعة، وعند التفافهما تماماً، رأته هذه المرة وصاحت له من بعيد، وأشارت إليه. أمسكت المنظار، وفي هذه المرة لم تشاهد اللوح فقط، بل رجلاً يتمسك به أيضاً. لوّحت بجنون لمات، فأخذ المنظار منها بسرعة، وأومأ، ثم قاما سوية بالمناورة لإنزال الأشرعة، وأدار المحرك وتوجّها نحو ما شاهداه بأسرع ما يمكنهما. إنزال الأشرعة في تلك الرياح السريعة كان أصعب مما بدا عليه.

استغرق الأمر منهما عدة دقائق ليصلا إلى اللوح، وعندما وصلا، شاهدا أن الرجل المتشبث به ليس أكثر من صبي صغير، كان فاقداً للوعي تقريباً، وكان وجهه رمادياً ولون شفتيه أزرق غامقاً. كان من المستحيل معرفة المكان الذي أتى منه أو الفترة التي قضاها هنا. كان على بعد أميال وأميال عن الشاطئ. قامت أوفيلي بمساعدة مات على تثبيت القارب عندما اختفى في الحجرة بحثاً عن حبل قوي. كانت المياه تزداد عنفاً، وشعرت أوفيلي بأن حنجرتها تضيق وقد أدركت المهمة المستحيلة التي يتوجب القيام بها لإحضار الصبي إلى القارب. سحبه من المياه كان أشبه بعمل بطولي، ولف الحبل حوله سيكون أصعب من ذلك أيضاً. وهما يقتربان منه، تمكنا من رؤيته وهو يرتجف بشدة، ونظر إليهما بعينين تفتقدان للأمل.

"اصمد!" صاح مات به مدركاً، أنه طالما تمسك باللوح لن يتمكنا من لف الحبل حوله، وإن تركه، ربما يغرق. كان يرتدي بذلة سباحة قصيرة، وربما هي التي أنقذت حياته حتى ذلك الوقت، ونظرت أوفيلي إليه وعلمت أنه في السادسة عشر من عمره تقريباً، وكانت الغصة في حلقها بحجم القبضة، إنه بنفس عمر تشاد. كل ما تمكنت التفكير به هو أنه في مكان ما، هناك امرأة على وشك أن تخسر ابنها وتعاني الحزن الكثير. لم تتمكن من معرفة كيف يمكنهما إنقاذه. كان مات يحمل جهاز إرسال صغير على متن القارب، ولكن باستثناء سفينة الشحن التي كانت على بعد أميال، لم يتمكنا من رؤية أي

قوارب في الجوار، وحتى خفر السواحل سيستغرق وصولهم وقتاً طويلاً. إن كان سيعيش، فيجب عليهما إنقاذه بمفردهما. ولم يكن من الممكن معرفة المسافة التي قطعهما أو الزمن الذي قضاه في الماء. كان من الواضح لكل منهما أنه ليس أمامهما الكثير من الوقت. ذهب مات إلى الحجرة وأحضر صدارة نجاة، وسأل أوفيلي سؤالاً قبل أن يغطس: "هل يمكنك العودة بالقارب وحدك إن توجب عليك ذلك؟" أومأت بالإيجاب دون تردد. كانت قد أبحرت وحدها في بريتاني لسنوات عندما كانت صغيرة، وغالباً في طقس قاس، وبظروف أكثر صعوبة من هذه. ولكنه أراد معرفة ذلك قبل تركها وحيدة على متنه. عقد مات حلقة في الحبل، وأخذها معه عندما غاص، وغريزياً، تمسك الصبي به وتشبث به، وكاد مات أن يغرق وهو يناضل لجعل الحبل حوله. تدبر الالتفاف حوله بطريقة ما، بينما جعل الولد يضرب بيديه بضعف، وكانت أوفيلي تشاهد ذلك المشهد المروع. بدا أن الأمر سيستغرق الدهر كله للف الحبل من تحت ذراعيه، لكي يتمكن مات من سحبه عائداً به إلى القارب. تمكنت عندها من معرفة مقدار قوة مات، كان جهداً يفوق القدرات البشرية، وعندما اقترب من القارب مع الصبي، صاح لها، ففهمت. رمى نهاية الحبل لها، فأمسكت به بمعجزة، وربطته بالرافعة. علمت ما يتوجب عليها فعله. السؤال الوحيد الآن هو هل ستتمكن من القيام بذلك وإنقاذ حياتهما. استغرق منها الأمر خمس محاولات وقد بدأت ترتعد وأخيراً علق الحبل، وتمكنت الرافعة من رفع الصبي للأعلى قليلاً. لم يكن يملك القوة الكافية ليتمسك، ولكن لم يكن ذلك يهم، فقد كان الحبل يمسكه من تحت ذراعيه، أمسكته أوفيلي وهو يسقط فاقداً الوعي تقريباً على ظهر المركب. كان يرتجف بشدة، ثم نظرت إلى مات، أخذت الحبل من حول الصبي، وألقت به إلى مات.

بالرغم من حركة المياه، أمسك به من دون جهد كبير، وتكفلت الرافعة برفعه. بدا الأمر أشبه بمعجزة أن كلاً منهما تمكن من الخروج من المياه والصعود إلى القارب. وعندما قيّم مات الموقف، قرر الإسراع في الإبحار. فقد



عادت الرياح وازدادت قوةً، وفكّر بأنه سيتمكن من الوصول إلى الشاطئ بشكل أسرع بواسطة الأشرعة. رفع الأشرعة، بينما جلبت أوفيلي بطانية من الحجرة وغطت الصبي، وهو ينظر إليها بعينين قد أوشكتا على الموت. عرفت تلك النظرة، فقد رأتها مرتين في تشاد عندما حاول الانتحار. ولكن بكل إمكانيتها، أقسمت أن تنقذ هذا الصبي. كان من الواضح أنه قد خرج على لوح التزلج ولكنه انجرف بعيداً، ربما بسبب تيار قوي، ووصل لبعد كبير جداً فلم يكن هناك أي أمل من عودته. ولكن القدر جعلهما يأتيان إلى المكان المناسب في الوقت المناسب. وبدا مات مركزاً وهو يبحر باتجاه الشاطئ، وبعد لحظة، صاح لها بأن هناك زجاجة من الشراب في الكبينة، وأخبرها أن تعطي الصبي بعضاً منها. ولكن أوفيلي هزت رأسها بالنفي فوراً، ولم يفهم قصدها. صاح مرة ثانيةً، معتقداً أنها لم تسمعه. دون معرفة أي شيء آخر تقوم به، كانت أوفيلي قد نزلت تحت البطانية مع الصبي المرتجف وعانقته على أمل أن دفء جسدها ربما يساعده على البقاء حياً حتى وصولهم إلى الشاطئ. وجّه مات ذراع القيادة، ومن ثم نزل إلى حيث جهاز الإرسال. تمكن من الاتصال بخفر السواحل بوقت أقل مما كان يعتقد، وأخبرهم أن لديه حالة إسعافية على القارب، وطلب منهم تجهيز المسعفين على الشاطئ، أو محاولة الوصول إليه على قارب إن كان بالإمكان.

كانوا في منتصف طريق العودة عندما بدأت الرياح تهدأ، فأنزل الأشرعة ثانيةً وأدار المحرك. سبب ذلك انطلاقة مستقيمة إلى الشاطئ، وأصبحت اليابسة على مرأى النظر، عندها بدا مات منهمكاً، وقد أبقى نظره على أوفيلي والصبي بين ذراعيها. كان قد فقد وعيه خلال العشرين دقيقة الماضية وبدا ميتاً تقريباً، كان وجه أوفيلي شاحباً.

"هل أنت بخير؟" صاح مات، أومأت له بالإيجاب، ولكن ذلك كان مشهداً صعباً قد اعتادت عليه، وذكرها بعذابها الشديد مع تشاد. كل ما أرادته الآن هو إنقاذ هذا الصبي، لكي لا يتوجب على أمه المرور بكل ما مرت به هي. "كيف حاله؟".

"ما يزال على قيد الحياة". كانت تعانقه بشدة، وكانت مشبعة بالعرق تحت البطانية، ولكنها لم تأبه لذلك أو تلاحظ حتى. كانت الشمس تلتهب فوقهم، ومتعة إبحارهم البطيئة قد تحولت إلى سباق ضد الموت.

"لماذا لم تعطه الشراب؟" سأل مات محاولاً جعل المحرك يدور بشكل أسرع. لم يكن قد قاد قاربه بهذه السرعة من قبل، ولم يتوجب عليه ذلك أبداً، ولكنه لم يخذله حتى الآن.

"سيقتله الشراب". قالت وقد بدت شديدة الاهتياج، كان ضعيفاً جداً وبارداً بين يديها، ولكنها ما زالت تحس بالنبضات الخفيفة. لم يرحل بعد. "كانت ستتحول دورته الدموية بكاملها لأطرافه، وهو يحتاج إلى الدم في جذعه، من أجل قلبه". بالرغم من أن جسده أصبح كالثلج الآن، ولكن مهما كانت الدورة الدموية التي تجري داخله الآن فهو يحتاجها بشدة.

"شكراً لله أنك تعرفين ذلك"، قال مات وهو يصلي بصمت ليتمكن من إيصال الصبي في الوقت المناسب. كانا عند بداية البحيرة في ذلك الوقت. كانا على بعد دقائق فقط عن المساعدة، وعندما كانا يخرجان من المحيط إلى البحيرة، تمكنا من سماع صفارات الإنذار ورؤية الأضواء عند نهاية الشاطئ بالقرب منهم. دون تردد، سحب مات القارب إلى رصيف شخص غريب. كان هنالك بعض الأشخاص المجتمعين يشاهدون المنظر، عندما قفز ستة من المسعفين على المركب، أجبرت أوفيلي على الابتعاد وجاهدت للوقوف. كانت تبكي بشدة وهي تشاهدهم يفحصونه ومن ثم يأخذونه على النقالة، عندها نظر إليها أحد المسعفين ومن ثم رفع إشارة النصر في الهواء مع ابتسامة على وجهه. ما يزال على قيد الحياة. كانت ترتجف بشدة عندما خطى مات بقربها على القارب وأمسكها بين ذراعيه. كانت تبكي وهو يمسكها، بعدها أتى رجلان من سيارة الإطفاء وصعدا إلى القارب بحذر شديد.

"لقد أنقذتما حياة الصبي"، قال الضابط بإعجاب. "هل تعرفتما على اسمه؟" كل ما تمكنت أوفيلي القيام به هو هز رأسها بالنفي، بينما شرح مات





لهما ما كان قد حدث ودونا تقريراً بذلك، وهنأهما ثانيةً. بعد نصف ساعة، غادرت سيارات الإطفاء، وأدار مات المحرك ثانيةً، وانطلق ببطء نحو رصيفه. كانت أوفيلي ترتجف بشدة لم تتمكن بسببها من التحدث حتى، وجلست بجانبه ترتجف، بينما أبقى ذراعه حول كتفيها بثبات.

"أنا آسف، أوفيلي". علم دون بذل أي جهد بما ذكرها ذلك، وما سبّب لها. "اعتقدت فقط أننا سنحظى بإبحار جميل".

"حصلنا على ذلك. أنقذنا حياته، وقلب أمه". إن عاش. فلم يكونا متأكدين من ذلك، ولكن لديه الفرصة على الأقل. لم يكن لديه أية فرصة لذلك في المكان الذي وجداه فيه، متشبثاً بلوحه الذي تركوه هناك. لم يرغب مات بإضاعة الوقت في محاولة رفعه إلى القارب.

كانا منهكين تعباً عندما ربطا نيسي II، ووضعا كل شيء في مكانه، وأقفلا الحجرة، وغادرا القارب. ما يزال يحتاج لغسل أرض المركب لإخراج الملح منه، ولكنه سيأتي لفعل ذلك لاحقاً. في الوقت الذي انتهى به كل شيء، كان قد مرّ عليهما خمس ساعات. لم تكن تملك القوة الكافية لتمشي عندما غادرا الرصيف، فأوصلها مات إلى المنزل بالسيارة. ولكن لم يكن أيٌّ منهما مستعداً لما وجداه هناك. كانت بيب تبكي بشدة في سريرها، وأمي بدت مهتاجة وهي تحاول تهدئتها. كانت قد شاهدتهما يبحران بعيداً، وعندما لم يأتيا بعد ساعة أو ساعتين، كانت بيب مقتنعة بأن الأسوأ قد حدث، وفكرت بأن القارب قد غرق أو أمها على الأقل. كانت متوترة جداً عندما دخلت أوفيلي إلى غرفتها لدرجة أنها لم تتمكن من مواساتها، أما مات فقد وقف عند المدخل مذعوراً وهو ينظر إليها.

"حسناً بيب، ... حسناً... لقد عدت..." قالت بلطف وحنان، خائفة من رؤيتها بتلك الحالة، وفجأة شعرت بالذنب الشديد لتركها. اختلف كل شيء تماماً عما توقعاه، ولكن تم إنقاذ حياة إنسان. بدا أنه القدر هو من جعلهما يخرجان في ذلك اليوم على متن قارب مات.

"قلتِ إنكِ ستعودين بعد ساعة!" صاحت بوجه أمها وهي تلتفت لتنظر إليها بعينين مليئتين بالاتهام والذعر. تماماً كما كانت أوفيلي مهتاجة عند رؤيتها منظر الصبي وهو على وشك فقدان الحياة وقد ذكرها بتشاد، خوف بيب كان قد أقنعها بأنها قد فقدت والدتها.

"آسفة جداً... لم أعلم... حدث شيء ما هناك".

"هل انقلب القارب؟" بدت بيب أكثر خوفاً، سار مات إلى الغرفة وشاركهما الجلسة، أما أمي فقد رحلت دون لفت أي انتباه. كانت قد فقدت كل ما لديها لتقوله لطمأنة بيب منذ ساعات مضت، وقد شعرت بالامتنان لمجرد رؤيتها أم الطفلة تظهر.

"كلا، لم ينقلب القارب"، قالت أوفيلي بلطف، وهي تعانق بيب وتدنيها منها. كان ذلك فقط ما تحتاج إليه. لم تعد الكلمات كافية. "كما أنني ارتديت صدارة النجاة، تماماً كما وعدتك".

"وأنا أيضاً"، قال مات، لم يكن واثقاً من أنه مرحب بوجوده، أو أنه متطفل في مشهد يخص الأم والطفلة الحزينة.

"وجدنا صبياً في المياه بعيداً عن الشاطئ، على لوح تزلج، ومات أنقذ حياته". اتسعت عينا بيب عندما أخبرتها ذلك.

"كلانا فعل ذلك"، صحح مات قولها. "كانت والدتك مذهلة". عندما فكّر بالأمر الآن، تأثر أكثر مما كان عليه عندما حصل الأمر. كانت هادئة وكفوءة وفعّالة أيضاً. لم يكن ليتمكن من إنقاذ الصبي لولا مساعدتها.

أخبرا بيب عن كل ما حدث، وتمكنت أوفيلي من تنظيم قواها لطمأنتها. وبعد فترة قصيرة، بينما كانوا جميعهم يرتشفون الشاي الساخن، اتصل مات بالمستشفى، وأخبروه أن حالة الصبي خطيرة، ولكنها مستقرة الآن. سيظل وضعه حرجاً لفترة قصيرة، ولكن بدا أن بإمكانه تجاوز الأزمة، وكانت عائلته معه في مستشفى مارين جنرال. امتلأت عينا مات بالدموع وهو يخبرهما، وأغلقت أوفيلي عينيها لفترة طويلة. كل ما تمكنت من التفكير به هو الكارثة



التي تمّ تجنبها، وكانت ممتنة لذلك من أعماقها. امرأة لا تعرفها أبداً قد جُنّبت المأساة وتحطم القلب. كانت أوفيلي سعيدة جداً لتمكنهما من إنقاذ الصبي.

عندما رحل مات بعد ساعة تقريباً، كانت بيب قد هدأت بشكل ملحوظ، ولكنها قالت إنها لا تريد أمها أن تخرج للإبحار ثانيةً، طوال العمر. كان واضحاً للجميع كم كان عصر ذلك اليوم مؤلماً لبيب، دون معرفة ما قد حدث. قالت إنها قد سمعت صفارات سيارات الإسعاف والإطفاء وقد مرّت بالقرب من المنزل، في طريقها إلى نهاية الشاطئ، واقتنعت عندها أن والدتها ومات قد فارقا الحياة. كان يوماً شنيعاً بالنسبة لها. اعتذر مات ثانيةً منهما عن المصاعب التي سببها. لم يكن الأمر سهلاً عليه أيضاً، وعلمت أوفيلي تمام المعرفة كم كان من السهل أن يغرق وهو يحاول إنقاذ الصبي من الغرق. ربما توفي كل منهما، ولن تكون قادرة على فعل أي شيء لإنقاذه. كانت فرصة النجاة من الكارثة ضئيلة جداً، ضئيلة جداً لتثير قلق الجميع. وبعد وصول مات إلى منزله بقليل، اتصل بها.

"كيف حالها؟" سألها وقد بدا عليه الاهتمام والإرهاق. كان قد عاد ليغسل القارب، وتمكن بصعوبة من رفع يديه للقيام بذلك، وبعدها عاد إلى المنزل ونقع نفسه بحوض الاستحمام الساخن لساعة. حتى أنه لم يكن قد لاحظ حتى ذلك الوقت كم كان يشعر بالبرد أو بالارتجاف الشديد.

"إنها بخير الآن"، قالت أوفيلي بهدوء. كانت قد أخذت حماماً ساخناً هي أيضاً، وشعرت بتحسن، فقد كانت منهكة تماماً مثله. "أعتقد أنني لست الشخص الوحيد هنا الذي يقلق أكثر من اللازم". بالنسبة لبيب، كان الخوف لفقدان والدتها قد أصبح من أسوأ الكوابيس، وهي تعرف أكثر من أي شخص كم من السهل حدوث ذلك. لن تشعر بالأمان بشكل كامل ثانيةً على الإطلاق. وبمعنى أدق، لقد انتهت براءة طفولتها منذ عشرة أشهر.

"كنتِ مذهلة"، قال مات بلطف.

"وأنت أيضاً"، قالت وهي ما تزال تشعر بروعة ما فعله، وتصميمه عليه. لم يتردد للحظة بالمخاطرة بحياته من أجل صبي لا يعرفه.

"إن خططت مرة للسقوط من فوق المركب، سأصطحبكِ معي"، قال بإعجاب. "وأشكر الله أنك كنت تعرفين بأمر الشراب، كنت سأقتله. كنت سأسكبه في حنجرته مباشرة".

"لولا الكثير من الإسعافات الأولية، والقليل من التحضير لكلية الطب، لما كنت لأعرف ذلك. انتهى الأمر بخير، هذا كل ما يهم". كان عملهما هو من أنقذه في النهاية.

اتصل مات ثانيةً في تلك الليلة ليطمئن عليه، ومن ثم اتصل بأوفيلي ليخبرها أن الصبي يتحسن، وبحلول الصباح التالي كان في حالة مُرْضية، وكان والداه قد اتصلا بمات وأوفيلي ليشكراهما بشدة على عملهما البطولي. كانا مذعورين لما قد حدث، وغرقت والدته بدموعها عندما كانت تشكر أوفيلي. لم تكن لديها فكرة عن اعتياد أوفيلي على المأساة التي تجنبتها... أكثر منها.

نشرت الصحف خبراً عما حصل، وقامت بيب بقراءته لأمها عندما كانتا تتناولان الفطور. ومن ثم نظرت إلى أوفيلي بعينين كبيرتين اخترقتاها كالسكاكين.

"عديني أنك لن تفعلي شيئاً كهذا ثانيةً... لا يمكنني... لم أتمكن... إن كنت..." لم تتمكن من إنهاء الجملة، وامتلأت عينا أوفيلي بالدموع وهي تنظر إلى ابنتها وتومئ بالإيجاب.

"أعدكِ. لن أتمكن من العيش دونك أيضاً". قالت برقة. طوت الصحيفة بعدها، وعانقت بيب، وبعد برهة، خرجت بيب إلى المنصة، وجلست بالقرب من موس، تائهة في أفكارها، ومحدقة إلى الشاطئ بصمت. كان اليوم السابق مروعاً جداً بحيث إنها لا تتمكن من التفكير به حتى. وقفت أوفيلي في غرفة الجلوس تبكي برقة وهي تنظر إليها، وشكرت الله على أن كل شيء قد ظل على ما يرام.



# 11

اصطحب مات بيب وأوفيلي إلى العشاء في ليلتهما الأخيرة في مرفأ الأمان (سيف هاربر). كان الجميع قد شفي من صدمة إنقاذ الصبي، وبدا أن الثلاثة يشعرون بالراحة. كان الصبي قد غادر المستشفى إلى المنزل في اليوم السابق واتصل بأوفيلي ومات ليشكرهما بنفسه. كانت أوفيلي محقة بتخمين كيف حدث الأمر. كان قد انجرف بعيداً لأميال بسبب المدّ.

قصدوا مطعم لوبستر بوت لتناول العشاء، وأمضوا وقتاً رائعاً. ولكنّ، بيب بدت حزينة معظم المساء. كرهت وداع صديقها. كانت قد حزمت هي وأمها أمتعتهما عند الظهر، وستعودان لمنزلهما في الصباح التالي. يتوجب على بيب القيام ببعض الأمور في المنزل قبل البدء بالمدرسة.

"سيكون المكان هادئاً بشكل مزعج هنا من دونكما"، قال مات بسرور وهم ينهون الحلوى. معظم المصطافين كانوا سيغادرون في عطلة نهاية الأسبوع تلك. كان اليوم التالي هو عيد العمال. وستبدأ بيب المدرسة يوم الثلاثاء.

"سنستأجر منزلاً هنا في السنة القادمة"، قالت بيب بتأكيد. كانت قد حصلت مسبقاً على وعد من والدتها، بالرغم من أن أوفيلي اعتقدت بأنه في الصيف القادم يتوجب عليهما العودة إلى فرنسا ثانيةً، أو على الأقل لبضعة أسابيع. ولكنها أحبت فكرة استئجار منزل في مرفأ الأمان (سيف هاربر) مرة أخرى، وإن كان ممكناً ترغب بالمنزل نفسه، أو منزل آخر. فقد ناسبهما المنزل تماماً، رغم أنه كان صغيراً جداً على الآخرين، ولكنه ناسبهما.

"يمكنني تفحص السوق لكما إن أردتما، فالأسعار ترتفع. أنا هنا على أي حال، في حال كنتما ترغبان بمنزل أكبر في السنة القادمة".

"أعتقد أننا أحببنا المنزل الذي حصلنا عليه"، قالت له وهي تبتسم. "إن رغبوا بتأجيره لنا ثانيةً. لست واثقة من أنهم مجانين حتى يسمحوا لنا بإحضار موس ثانية". ولكنه لم يسبب أي ضرر لحسن الحظ. كان يتصرف بشكل لائق. كل ما فعله هو التوسيخ فقط. ولكن خدمة التنظيف كانت ستأتي لتنظف المكان في اليوم التالي. أما هي وبيب فكانتا مرتبتين بشكل ملائم.

"سأتوقع رؤية الكثير من اللوحات عندما آتي إلى المدينة للزيارة. ولا تنسي رقصة الابنة والأب"، ذكّر بيب، فضحكت. أحبت تذكّره للأمر، ووثقت حقاً من أنه سيأتي. والدها الحقيقي لم يفعل ذلك أبداً... كان عليه أن يعمل. كانت قد أخذت أخاها مرة معها، وصديق أندريا مرة أخرى. كان تيد يكره المناسبات في مدارسهم، ولذلك كان يتشاجر هو ووالدتها كثيراً. كانا يتشاجران حول الكثير من الأشياء، بالرغم من أن والدتها لا تحب أن يذكرها أحد بذلك الآن. ولكنه كان صحيحاً على أية حال، سواء اعترفت بذلك أم لا. ولكن بيب كانت مقتنعة بأن مات سيحافظ على وعده بشأن الرقصة، وسيجعل الأمر ممتعاً لها.

"يتوجب عليك ارتداء ربطة عنق"، قالت بيب محذرةً، على أمل أن ذلك لن يجعله يغير رأيه، فابتسم لها.

"أعتقد أن لدي واحدة معلقة في مكان ما... ربما استعملتها لربط الستائر". في الواقع، كان لديه الكثير منها، ولكن لم يكن لديه الكثير من المناسبات لارتدائها، ولو أراد ذلك لكان هنالك العديد منها. ولكنه لم يرغب بذلك. الزيارات الوحيدة التي كان يقوم بها في المدينة هي زيارة طبيب الأسنان، أو رؤية المصرفي أو المحامي. ولكنه ينوي حقاً زيارة أوفيلي وبيب. كانتا مهمتين بالنسبة له كثيراً. وبعد المأساة التي تشارك بها هو وأوفيلي في ذلك الأسبوع، شعر بأنه قريب منها جداً.



أوصلهما إلى المنزل، فدعته أوفيلي لتناول كأس من الشراب، فقبل ذلك بسرور. صبت له كأساً من الشراب الأحمر، بينما ذهبت بيب لترتدي البيجاما. أحب حياتهما العائلية، وسأل أوفيلي إن كانت ترغب بأن يشعل لها المدفئة. كان المساء بارداً، كعادته دائماً، بالرغم من أنهم في شهر أيلول المعروف بنهاراته الحارة، فقد جلبت الأمسيات معها رائحة الخريف.

"هذا لطف منك"، قالت له، بينما أتت بيب لتودعه قبل أن تخلد للنوم، ووعدته بأن تتصل به قريباً. كان سابقاً قد أعطاها رقم هاتفه، وفعل الأمر عينه مع أوفيلي أيضاً، في حال ضيعته بيب. عانق بيب، ومن ثم انحنى ليشعل المدفئة، بينما كان موس يراقبهم، وأدرك عندها أنه سيشتاق للكلب أيضاً. كان قد نسي ما يعنيه وجود العائلة حوله، وكره الاعتراف بمحبته ذلك حتى لنفسه.

كانت النار تتوهج في الوقت الذي عادت فيه أوفيلي بعد أن وضعت بيب في سريرها. كان تقليداً أحيته خلال الأسابيع القليلة الماضية. وبينما جلست تنظر إلى النار، أدركت مقدار التغييرات التي حدثت خلال الأشهر الثلاثة الماضية منذ قدومهما إلى هنا. شعرت بأنها إنسانة تقريباً، بالرغم من أنها ما تزال تفتقد ولدها وزوجها. ولكن ألم غيابهما أصبح محتملاً أكثر مما كان عليه قبل ثلاثة أشهر. يمكن للوقت أن يحقق اختلافاً، وإن كان صغيراً.

"تبدين غارقة بالتفكير"، قال لها وهو يجلس بجانبها ويرتشف الشراب الذي صبته له. كان ذلك آخر ما في الزجاجة التي كان قد أحضرها لها. لم تكن مدمنة على الشرب، وخاصة بالنسبة لامرأة فرنسية.

"كنت أفكر للتو كم أصبحت أفضل مما كنت عليه عند وصولي إلى هنا. تحسنا نحن الاثنتين. بدت بيب أكثر سعادة أيضاً. وهذا يعود بجزء كبير منه لك. لقد جعلت الصيف جميلاً بالنسبة لها". ابتسمت له بامتنان.

"وكذلك فعلت معي، وكذلك أنت. جميعنا يحتاج للأصدقاء. أنسى ذلك أحياناً".

"تعيش حياة وحيدة هنا، مات". قالت وأومأ هو. خلال السنوات العشر الماضية كان ذلك هو ما يرغب به. ولكن الآن، ولأول مرة منذ سنوات، أصبح يشعر بالوحدة.

"إنه يجدي نفعاً بالنسبة لعملي، أو لشيء كهذا. هذا ما أقوله لنفسي على الأقل. وهو قريب جداً من المدينة. يمكنني الذهاب إلى المدينة ساعة أرغب". وهذا ما كان يرغب بالقيام به، ليراهما، ولكنه انذهل عندما أدرك الأمر، فعلى الرغم من قربه، مضت سنة كاملة منذ ذهابه إلى هناك. آخر مرة يمضي الوقت سريعاً أحياناً، ولا يدرك المرء ذلك، تماماً كما تمضي السنوات.

"آمل أن تأتي كثيراً لنراك، بالرغم من طبخي"، ضحكت.

"سأصطحبكما لتناول العشاء في الخارج"، مزح معها، ولكنه عنى ذلك حقاً. كان يستمتع بتلك الفكرة. كانت شيئاً يتطلع للقيام به فيخفف عليه مصيبة رحيلهما، الأمر الذي يعلم بأنه سيصدمه كالمطرقة الكبيرة في الصباح التالي.
"ماذا ستفعلين عندما تذهب بيب إلى المدرسة؟" سألها وبدا عليه القلق لأمرها. علم أن ذلك سيشعرها بالوحدة. لم تعتد على امتلاك الكثير من الوقت بوجود بيب وحدها لتعتني بها. كانت معتادة على وجود ولدين وزوج.

"ربما سأعمل بنصيحتك وأبحث عن عمل تطوعي في ملجأ للمتشردين". كانت مستمتعة بقراءة المعلومات التي قدمها لها بليك تومبسون، مدير المجموعة. بدت ممتعة وراقت لها.

"سيكون هذا جيداً لك. ويمكنك دائماً المجيء إلى هنا وتناول الغداء معي، إن لم يكن لديك شيئ آخر تفعلينه. إن المكان جميل هنا في الشتاء". أحبت ذلك أيضاً. إنها تحب الشاطئ في كل فصول السنة، وكانت تلك دعوة مغرية. أحبت فكرة المحافظة على صداقتهما. ومهما فكرت أندريا، فقد كانت تناسبهما، وهذا ما يريدانه.

"أحب ذلك". ابتسمت له أوفيلي.



"هل أنتِ سعيدة بعودتك؟" سألها، حدقت إلى النار وبدت كئيبة وهي تفكر بالأمر.

"لا، لست كذلك. أكره العودة إلى المنزل، ولكنني لطالما أحببته... حتى الآن. ولكنه فارغ جداً الآن. إنه كبير جداً علينا، ولكنه مألوف لنا. في السنة الماضية، لم أرغب بالقيام بأي قرارات سريعة أندم عليها فيما بعد". لم تخبره بأن خزانة غرفة نومها ما تزال مليئة بملابس تيد، وأشياء تشاد ما تزال كما هي في غرفة نومه. لم تلمس شيئاً، ومعرفة أنها هناك كانت تجعلها حزينة، ولكنها لم تتمكن من الانفصال عنها. كانت أندريا قد أخبرتها مسبقاً أن هذا غير صحي أبداً، ولكن حتى الآن على الأقل، كان هذا ما ترغب به أوفيلي. لم تكن جاهزة للقيام بالتغييرات، أو لم ترغب بذلك. تساءلت إن كانت ستشعر بأي اختلاف الآن، بعد انتهاء الصيف. إلا أنها لم تكن تعلم.
"أعتقد أنك ذكية كفاية لعدم القيام بأي شيء بسرعة. يمكنك دائماً بيع المنزل، إن أردت ذلك حقاً. ربما يكون من الجيد لبيب عدم مواجهة صدمة الانتقال. لربما سبب ذلك تغييراً كبيراً لها، إن كنتم قد عشتم هناك لفترة طويلة".

"منذ أن كانت في السادسة من العمر. إنها تحبه جداً، أكثر مني".

جلسا بهدوء لفترة، واستمتعا بصحبة بعضهما البعض، حتى خلال الصمت. وعندما أنهى شرابه، نهض، وكذلك فعلت هي. بحلول ذلك الوقت، كانت النار تخمد ببطء".

"سأتصل بكِ الأسبوع القادم"، قال لها، فطمأنها ذلك. كان له وجود ذكري يمكن الاعتماد عليه في حياتها، مثل أخٍ لها. "اتصلي إن احتجت أي شيء، أو إن كان هناك أي شيء يمكنني القيام به لك أو لبيب". علم أنه سيقلق عليهما.

"شكراً لك، مات". قالت بلطف. "على كل شيء. كنتَ صديقاً رائعاً، لكلتينا".

"أنـوي الـبقاء كـذلك"، قال، ثم وضع يده حولها وهي تمشي معه إلى سيارته.

"وكذلك نحن. اعتنِ بنفسك. لا تجعل نفسك وحيداً جداً هنا، هذا ليس جيداً لك. تعال لزيارتنا في المدينة، سيلهيك ذلك". الآن، وبعد أن عرفت الكثير عن حياته، تمكنت من معرفة مقدار الوحدة التي يشعر بها أحياناً، تماماً كما شعرت هي. الكثير من الأشخاص الذين أحباهما واهتما بهما غادروا حياتهما، بالموت أو الطـلاق، وبظـروف لم يكن أي منهما يريدها. إنها تيارات الحياة تجرف الأشـخاص، والأماكن، واللحظات الغالية سريعاً جداً، تماماً كما جرف المحيط الصبيَّ الذي أنقذا حياته منذ أيام.

"تصبحين على خير"، قال بلطف، فلم يعرف ما يقوله لها سوى ذلك. لوّح لهـا وهو يقود سيارته بعيداً، وشاهدها وهي تمشي عائدة إلى المنزل، ومن ثم قـاد سـيارته إلى بيته الصغير عند الشاطئ، متمنياً لو كان أكثر شجاعة، ولو كانت الحياة مختلفة عما كانت عليه.



# 12

"وداعاً أيها المنزل". قالت بيب بكآبة وهما تغادران. أقفلت أوفيلي الباب، وأسقطت المفاتيح في شق الرسائل عند السمسار وهي في طريقها إلى الخارج. لقـد انتهى الصيف. وها هي تقود سيارتها عبر المنعطف الضيق للشارع الذي يعيش فيه مات، صمتت بيب بشكل غريب. لم تنبس ببنت شفة حتى وصلتا إلى الجـسر، ومـن ثـم التفتت إلى والدتها. "لمَ لم تحببيه؟" قالت لها وهي غاضبة تقريباً. كان الاتهام مرافقاً نبرة صوتها. لم يكن لأوفيلي أية فكرة عن الشخص الذي تتحدث عنه.

"أحبّ من؟".

"مات. أعتقد أنه يحبك". كانت بيب تحدق بأمها، مربكة إياها تماماً.

"أحبه أيضاً. عمّ تتحدثين؟".

"أعني كرجل... تعرفين قصدي... كرفيق".

كانتـا عند كبينة الدفع تقريباً، وكانت أوفيلي تتلمس بحثاً عن النقود، ومن ثم حدقت بابنتها. "لا أريد رفيقاً. أنا امرأة متزوجة"، قالت بقوة، وقد وجدت النقود.

"لا، لستِ كذلك. أنتِ أرملة".

"إنـه نفس الشيء تقريباً. مهما كان سبب ذلك؟ ولا، لا أعتقد أنه أحبني كـرفيقة. وإن فعـل، فلن يشكل ذلك أي اختلاف. إنه صديقنا، بيب. دعينا لا نفسد ذلك".

"ولمَ سيفسد ذلك؟" بدت عنيدة. كانت تفكر بالأمر طوال الصباح. وكانت قد بدأت تشعر بالاشتياق له.

"سيحـصل ذلـك. ثقـي بي. أنا كبيرة، وأعرف. إن ارتبط بنا، فأحدنا سينزعج أو يغضب من شيء ما، ومن ثم ينتهي الأمر بأكمله".

"هـل يجـب أن ينزعج أحد دائماً؟" بدت بيب خائبة الأمل. لم تكن تلك معلومة مشجعة.

"بـصورة دائمـة تقريباً. ومن ثم نتوقف عن حب بعضنا البعض، ولن تتمكني من الاحتفاظ بصحبته. ولن يراك بعدها. فكّري كم ذلك محزن". كانت أوفيلي محقة برأيها في ذلك الموضوع.

"وماذا إن تزوجتما؟ عندها لن يحصل أي من هذا".

"لا أريـد الـزواج ثانـيةً. وكـذلك هو. لقد تضرر كثيراً عندما تركته زوجته".

"هـل أخبـرك بـذلك؟ بأنه لا يرغب بالزواج ثانيةً؟" بدت بيب مشككة بالأمر. لم يبدُ ذلك محتملاً بالنسبة لها.

"شيء من هذا القبيل. تحدثنا عن زواجه وطلاقه. وبدا أن ذلك يؤلمه كثيراً".

"هل طلب يدك للزواج منه؟" بدت مفعمة بالأمل فجأة.

"بالطـبع لا. لا تكوني سخيفة". كانت تلك محادثة سخيفة من وجهة نظر أوفيلي.

"إذاً كيف تعرفين بأن هذه هي حقيقة مشاعره؟".

"أعـرف ذلك وحسب. بالإضافة إلى أنني لا أريد الزواج ثانية. إنني لا أزال متـزوجة من والدك". بدا ذلك نبلاً في نظرها، ولكنه أغضب بيب، وهذا ما فاجأ والدتها.

"حـسناً، إنه ميت، ولن يعود. أعتقد أنه يتوجب عليك الزواج من مات، وبذلك يمكننا الاحتفاظ به".

"ربما لا يرغب بأن يحتفظ به أحد، ولن يبالي بما أشعر. لمَ لا تتزوجينه أنت؟ أعتقد أنه يناسبك". كانت تسخر منها بهدف إنهاء تلك اللحظة المربكة. لم



تكـن ترغب بأن يخبرها أحد أن تيد ميت ولن يعود. كان ذلك كل ما تفكر به، وقـد فكّـرت بـه خلال الأحد عشر شهراً الماضية. كان من الصعب عليها تـصديق أنه انقضى عام تقريباً. أحياناً كانت تشعر بأنها سنين طويلة، وأحياناً دقائق فقط.

"أعـتقد أنه يناسبني أيضاً"، قالت بيب بعقلانية، "ولهذا السبب أريدك أن تتزوجيه".

"ربمـا سيعجب بأندريا"، قالت أوفيلي لتشتت انتباهها، ولكن حدثت أشياء أكثر جنوناً. تساءلت فجأة إن كان عليها أن تجمعهما سويةً، ولكن بيب كان لها رأي فـوري معارض. فضلاً عن ذلك، هي لا ترغب بخسارته. أرادت مات لهما فقط.

"لا، لـن يفعـل ذلك"، قالت بيب بتأكيد. "سيكرهها. إنها قوية جداً عليه. تحـب أن تملـي على الجميع ما يجب فعله، بما في ذلك الرجال. لهذا السبب يتـركونها دائماً". كان ذلك تقييماً ممتعاً، وتعلم أوفيلي أن بيب لم تكن مخطئة تمامـاً. كانت قد سمعت الكثير من المحادثات بين والديها عن أندريا على مرّ السنين، واستنتجت ذلك بنفسها. كان لأندريا طريقة في إضعاف الرجال، ولها شخـصية مـستقلة بشكل مفرط، ولهذا السبب ذهبت إلى بنك النطاف لتنجب طفـلاً. لم يرغب أي رجل حتى الآن بالارتباط بها لتلك الدرجة. ولكنها كانت وجهة نظر مذهلة لطفلة في عمر بيب، ولم تخالفها أوفيلي الرأي، رغم أنها لم تخبرها ذلك. ولكنها كانت متأثرة بحكمتها. "سيكون أكثر سعادة معك، ومعي"، قالت بيب بتواضعٍ ومن ثم قهقهت. "ربما يجب أن نسأله في المرة القادمة التي نراه فيها".

"أنـا واثقة من أنه سيحب ذلك. لم لا تخبرينه فوراً، أو تأمرينه بالزواج منا. سيفي ذلك بالغرض". ابتسمت أوفيلي أيضاً.

"نعـم"، ضـحكت بـيب، "أحـب ذلك". حدقت بعينين نصف مغمضتين بالشمس، تفكر بالأمر. بدت مسرورة.

"أنـتِ وحـشٌ صغير". سخرت منها أمها، وبعد بضع دقائق وصلتا إلى المنـزل، وفتحت أوفيلي قفل الباب. لم تأتِ إلى المنزل منذ ثلاثة أشهر. كانت تتجنبه عمداً كلما أتت إلى المدينة، وكانت قد حولت رسائلها لتأتي طوال فترة الصيف إلى مرفأ الأمان (سيف هاربر). كانت تلك هي المرة الأولى التي تأتي فـيها إلـيه منذ مغادرته. صدمتها حقيقة الموقف كقطار سريع وهما تدخلان. كانـت قـد سمحت لنفسها، بطريقة ما في باطن عقلها، بالاعتقاد بأنها عندما تعـود، سيكون هناك تشاد وتيد... ينتظرانهما. وكأنها كانت في رحلة، وكأن آلام السنة الماضية كانت مجرد مزحة سيئة. سينزل تشاد على الدرج، مبتسماً لها، وسيكون تيد واقفاً عند مدخل غرفة نومهما، ينتظرها بتلك النظرة التي ما تزال تقلب لها معدتها وتجعل ركبتيها غير قادرتين على الوقوف. كانت العلاقة بيـنهما قـوية طوال فترة زواجهما. ولكن المنزل فارغ، ولا مفر من الحقيقة. كانت هي وبيب وحيدتين للأبد.

وقفـتا عـند المـدخل، وقد صدمتهما الحقيقة في الوقت نفسه، وامتلأت عيناهما بالدموع وهما تعانقان بعضهما.

"أكره هذا المكان"، قالت بيب برقة، وهي ممسكة بأمها.

"وأنا أيضاً"، همست أمها.

لم ترغب أي منهما بالصعود للأعلى أو إلى غرفتي نومهما الشخصيتين. واقعـية الأمـر كانـت شنيعة جداً. وللحظة، نسيتا مات. لديه حياته الخاصة، وعالمه الخاص. ولديهما حياتهما. لا مهرب من ذلك.

خرجت أوفيلي إلى السيارة وأحضرت الأمتعة، وساعدتها بيب في سحبها للأعلـى. حتى ذلك كان صعباً عليهما. كانتا صغيرتين والحقائب ثقيلة، وليس هناك أحد يساعدهما. كانت أوفيلي عاجزة عن التنفس وهي تضع حقيبتي بيب في غرفة نومها.

"سـأرتب لـك أغراضـك بعد دقيقة"، قالت أوفيلي، محاولة الاستمرار بالخطوات التي أنجزتها خلال الصيف، ولكنها شعرت بالمأزق الأسود ثانيةً في



اللحظـة التي عادت بها إلى المنزل الذي اشتركت فيه يوماً مع ابنها وزوجها. وكأن أشهر العلاج في مرفأ الأمان (سيف هاربر) لم تكن أبداً.

"يمكنني القيام بذلك بنفسي، ماما". قالت بيب بحزن. شعرت بذلك أيضاً. مـن بعض النواحي، كان الأمر أكثر سوءاً. ومن ناحية أخرى، عادت أوفيلي لحيويتها ثانيةً، ولمشاعرها. لقد تحسنت سنة الرجل الآلي.

بعـد ذلـك، سـحبت أوفيلي حقائبها للأعلى، وتحطم قلبها عندما فتحت الخـزانة. كل شيء ما يزال هناك. كل سترة، كل بذلة، كل قميص، كل ربطة عـنق، كـل حذاء انتعله، حتى الأحذية البالية القديمة التي كان ينتعلها في أيام العطـل، مـنذ أيام هارفارد. كان ذلك أشبه بمشاهدة الكابوس ثانيةً. ولم تجرؤ حتى على الدخول إلى غرفة تشاد، عرفت أن ذلك سيقتلها. كان هذا سيئاً بشكلٍ كـافٍ لها، وبينما كانت ترتب أغراضها، شعرت بنفسها تهوي ثانيةً. كان ذلك مخيفاً.

وعند حلول وقت العشاء، كانتا صامتتين وشاحبتين ومنهكتين، ووثبتا من مكانهمـا عـندما رنّ الهاتـف. كانتا قد قررتا للتو عدم تناول العشاء في هذه الأثـناء، بالرغم من أن أوفيلي تعلم بأنه يتوجب على الطفلة تناول طعامها في وقـت ما، سواء كانت جائعة أم لا. أما في حالتها، فلم تكن تتردد في الإغفال عن تناول إحدى الوجبات.

لم تتحرك أوفيلي، لم يكن هناك أحد ترغب بالتحدث معه، لذا أجابت بيب على الهاتف. أشّع وجهها ببطء عندما سمعت صوته.

"أهـلاً مات، بخير". قالت كإجابة على سؤاله، ولكنه تمكن من تبيان أن الأمـر ليس بخير من خلال صوتها، ومن ثم وبينما تراقبها أمها، بدأت تبكي. "كـلا، لـيس كـذلك. إنه مريع... إنه بغيض هنا... نكرهه". شملت أمها في عـبارتها، وفكّرت أوفيلي في إيقافها، إلا أنها لم تفعل. إن كان صديقهما حقاً، فربما يعرف جيداً كم الأمر سيئ.

اسـتمعت بيب لوقت طويل وكانت تومئ برأسها، ولكن دموعها توقفت

على الأقل. جلست على كرسي المطبخ وهي تستمع. "حسناً، سأجرب. سأخبر أمي... لا يمكنني ذلك... يتوجب عليّ الذهاب إلى المدرسة غداً. متى ستأتي؟" مهما كان ما يقوله، رأت أوفيلي أنها مسرورة وهي تجيبه. "حسناً... سأسأل أمي..." التفتت إلى أوفيلي ثم وضعت يدها بتحفظ على فتحة السماعة. "هل تريدين التكلم معه؟" ولكن أوفيلي هزت رأسها بالنفي وهمست.

"أخبريه أنني مشغولة". لم تكن ترغب بالتكلم مع أحد. كانت حزينة جداً. وتعلم أنها لن تتمكن من التظاهر بالابتهاج. يكفي أن بيب بكت على كتفيه، ولكنها لن تتمكن من فعل ذلك. لم يبدُ ملائماً أن تفعل ذلك، ولا تريد ذلك أيضاً.

"حسناً"، قالت بيب لمات ثانيةً، "سأخبرها. سأتصل بك غداً". بدأت أوفيلي تتساءل إن كان من الحكمة التواصل اليومي مع مات، ولكن ربما لا ضير في ذلك، طالما أنه يريح بيب. وحالما أغلقت السماعة، نقلت بيب المحادثة لها. "قال إنه من الطبيعي أن نشعر بتلك الطريقة لأننا عشنا هنا مع أخي وأبي، وقريباً سنشعر بتحسن. قال بأن نقوم بفعل أشياء ممتعة الليلة، كطلب الأكل الصيني، أو البيتزا، أو الذهاب للخارج. وأن نستمع إلى الموسيقى، موسيقى سارة، بصوتٍ عالٍ. وإن كنا نشعر بالحزن الشديد، يتوجب علينا النوم سويةً. قال إنه يتوجب علينا الذهاب للتسوق غداً وشراء شيء سخيف، ولكنني أخبرته أنه يتوجب عليّ الذهاب إلى المدرسة. أفكاره الأخرى بدت جيدة بعض الشيء. هل تريدين طلب الطعام الصيني، أمي؟" لم تفعلا ذلك طوال الصيف، وأحبتا الفكرة. كان شيئاً مختلفاً على الأقل، وهي فكرة مات.

"ليس كثيراً، ولكن لطفاً منه أن يقترح ذلك". أحبت بيب على وجه الخصوص فكرة الاستماع إلى الموسيقى. ومن ثم فكّرت أوفيلي فجأة بالأمر. لِمَ لا؟ ففي النهاية، ربما سيساعد. "هل تريدين طعاماً صينياً، بيب؟" بدا ذلك غباءً فلم تكونا تشعران بالجوع.

"بالتأكيد، لِمَ لا نطلب فطيرة البيض؟ والوانتون المقلي".



"أفضل وجبة الطعام الصيني"، قالت أوفيلي، وبدأت تبحث عن الرقم الذي يتصلون به لطلب الطعام الصيني، ووجدته.

"وأريد الأرز المقلي مع القريدس أيضاً"، قالت بيب، بينما كانت أمها تتصل وتطلب الطعام. وبعد نصف ساعة، رن الجرس، ووصل كل شيء، فجلستا في المطبخ وتناولتاه. بحلول ذلك الوقت، كانت بيب قد وضعت بعض الموسيقى المزعجة تماماً، بأعلى صوت يمكنهما تحمله. ولكنهما اعترفتا بأنهما شعرتا بتحسن أكثر مما كانتا عليه قبل ساعة.

"كانت تلك فكرة سخيفة نوعاً ما"، قالت أمها مبتسمة لها بخجل، "ولكن كان لطفاً منه اقتراحها". وقد أجدت نفعاً، أكثر مما ترغب بالاعتراف به. كان مخجلاً أن بعض الطعام الصيني وإحدى أسطوانات بيب أمكنهما تهدئة بعض الألم من الحزن المروع الذي توجب عليهما العيش معه. ولكن حتى من بعيد، تمكن من إبهاجهما.

"هل يمكنني النوم معك الليلة؟" سألت بيب بتردد، وهما تصعدان إلى الأعلى، بعد أن قامتا بتنظيف المطبخ، ووضعتا ما تبقى في الثلاجة. كانت أليس، مدبرة المنزل، قد وضعت لهما ما يكفي من الحاجات لفطور اليوم التالي، وكانت أوفيلي ستذهب لشراء المزيد في الصباح. وبدت مندهلة لطلب بيب. طوال العام الماضي، لم تطلب منها أبداً ولو مرة واحدة إن كان بإمكانها النوم معها. كانت خائفة من التطفل على أمها، وبسبب ألمها الشديد، لم تعرض عليها أوفيلي ذلك أبداً.

"أعتقد ذلك. هل تريدين حقاً القيام بذلك؟" كانت تلك فكرة مات، ولكن اعتقدت بيب أن تلك فكرة جيدة أيضاً.

"أحب ذلك". أخذت كل منهما حماماً، ومن ثم أتت بيب إلى غرفة نوم أمها مرتدية البيجاما. بدت أشبه بحفلة لقضاء الأمسية عند إحدى الفتيات، وقهقهت بيب وهي تدخل إلى سرير أمها. بطريقة ما، وعن بعد، كان مات قد غير لهما التركيبة الكاملة لأمسيتهما. وبدت بيب مسرورة وهي تدنو من أمها

في السرير الكبير لتلتمس الدفء، وغطت في النوم خلال دقائق. وكانت أوفيلي منذهلة من مقدار الراحة التي شعرت بها وهي تعانق الجسد الصغير بالقرب منها. تساءلت لماذا لم تفعل ذلك في السابق. لا يمكنهما القيام بذلك كل ليلة، ولكنه كان خياراً رائعاً في ليالٍ كهذه. وخلال دقائق، كانت تغطُ بنوم هادئ كابنتها.

استيقظتا فجأة عندما سمعتا صوت المنبه. كانتا قد نسيتا أين هما، ولماذا تنامان سويةً، ومن ثم تذكرتا. ولكن ليس لديهما الوقت للإصابة بالكآبة ثانية، عليهما الإسراع للتجهز. ذهبت بيب لتنظف أسنانها، بينما ركضت أوفيلي على السلالم لتحضير طعام الفطور. رأت الطعام الصيني في الثلاجة، وبابتسامة، فتحت بسكويت الحظ[1] وتناولته.

"ستلقين السعادة والحظ الجيد طوال السنة"، هذا ما قاله حظها، وابتسمت أوفيلي بينها وبين نفسها. "شكراً لك. أحتاجها حقاً". صبت الحليب فوق حبوب إفطار بيب، وعصير البرتقال لكلتيهما، ووضعت شريحة من الخبز في المحمصة. ومن ثم صنعت لنفسها فنجاناً من القهوة. بعد خمس دقائق نزلت بيب بثياب المدرسة، عندما كانت أوفيلي قد خرجت لتحضر جريدة الصباح. كانت تقرأها بصعوبة طوال الصيف، وقليلاً ما تفوت قراءتها. لم يكن هناك شيء مثير يحدث، ولكنها نظرت إليها على أية حال، ومن ثم صعدت إلى الأعلى لترتدي ملابسها لتوصل بيب إلى المدرسة. كان الصباح دائماً مفعماً بالسرعة والانشغال، ولكنها تحب ذلك، فهو يمنعها من التفكير.

بعد عشرين دقيقة، كانت في السيارة، مع موس، توصل بيب إلى المدرسة، وكانت الطفلة تبتسم وهي تنظر خارج النافذة ومن ثم إلى أمها.

(1) بسكويت الحظ: بسكويت صيني يحتوي على رسالة مكتوبة على ورقة صغيرة تلف بها البسكويت، يقدم في المطاعم الصينية.



"تعرفين، تلك الأشياء التي اقترحها مات قد أجدت نفعاً حقاً الليلة الماضية. أحببت النوم بجانبك".

"وأنا أيضاً". اعترفت أوفيلي. أكثر مما توقعت. كان أقل وحدة من النوم في سريرها الكبير وحدها، تندب زوجها.

"هل يمكننا تكرار ذلك ثانيةً لاحقاً؟" بدت بيب مليئة بالأمل.

"أحب ذلك". ابتسمت أوفيلي لها عندما اقتربتا من المدرسة.

"يتوجب عليّ الاتصال به وشكره"، قالت بيب، وبذلك، توقفت السيارة، وقبلتها أوفيلي بسرعة، وتمنت لها حظاً طيباً في المدرسة، وهي تلوح بيديها لها، ذهبت بيب إلى أصدقائها، وإلى يومها، وأساتذتها. كانت أوفيلي ما تزال تبتسم بينها وبين نفسها وهي تقود سيارتها إلى المنزل الكبير جداً في شارع كلاي. كانت سعيدة جداً عندما انتقلوا إليه، أما الآن فهو يجعلها حزينة جداً. ولكن عليها الاعتراف، بأن ليلة الأمس قد تحولت لأفضل مما توقعت. وكانت ممتنة لمعلومات مات، ولأفكاره المبدعة.

صعدت ببطء على السلالم مع موس، وتنهدت وهي تفتح الباب الأمامي. ما يزال يتوجب عليها ترتيب بعض الأشياء، وطلب الحاجيات من البقالة، وتريد بعد ظهر هذا اليوم المرور بملجأ المتشردين. كان ذلك كافياً بأن يتركها مشغولة حتى ذهابها لأخذ بيب من المدرسة في الثالثة والنصف. ولكن فيما كانت تمشي أمام غرفة تشاد، لم تتمكن من منع نفسها. فتحت الباب ونظرت إلى الداخل. كانت الأباجورات مغلقة والغرفة معتمة، وفارغة وحزينة جداً، كاد ذلك أن يحطم قلبها. ملصقاته ما زالت هناك، وجميع ممتلكاته. صوره مع أصدقائه، الميداليات التي حصل عليها عندما كان يلعب الرياضة وهو في سن أصغر. ولكن الغرفة بدت مختلفة عن آخر مرة رأتها فيها. كانت جافة، كورقة سقطت وتموت ببطء، ولها رائحة عفنة. وكما تفعل دائماً، ذهبت إلى سريره، ووضعت رأسها على وسادته. كانت ما تزال تستطيع شم رائحته فيها، بالرغم من أنها أصبحت خفيفة أكثر الآن. ومن ثم غمرتها الدموع، كما يحدث دائماً

عندما تدخل غرفته. ولن ينفع أي طعام صيني أو موسيقى عالية لتغيير ذلك. هذه الأمور أجّلت الحزن الذي لا مفر منه وحسب، عندما أدركت ثانيةً أن تشاد لن يعود إلى المنزل أبداً.

توجب عليها الابتعاد أخيراً، والذهاب إلى غرفتها، وهي تشعر بالتعب الشديد والإرهاق. ولكنها رفضت الاستسلام. رأت ملابس تيد معلقة هناك، وكان ذلك كثيراً جداً عليها. رفعت الكم إلى وجهها، وشعرت بألفة لا تصدق تجاه القماش. إنها لا تزال تستطيع شم عطره وسماع صوته تقريباً. لن تتمكن من تحمل ذلك. ولكنها أجبرت نفسها على عدم الاستسلام. لن تتمكن... اعتادت على ذلك. لا يمكنها الرجوع لتصبح رجلاً آلياً ثانيةً، أو أن تسمح لمشاعرها بأن تدمرها. عليها أن تتعلم العيش مع الألم، أن تستمر بالرغم من وجوده. وإن لم يكن هناك سبب يدفعها لذلك، فعليها أن تستمر من أجل بيب. كانت سعيدة لأنها ستذهب إلى المجموعة في ذلك اليوم، ويمكنها التحدث عن ذلك. كانت المجموعة على وشك الانتهاء قريباً، ولم تكن واثقةً مما ستفعله من دونهم، ومن دون دعمهم.

عندما ذهبت إلى المجموعة، أخبرتهم عن الليلة السابقة، وعن الطعام الصيني والموسيقى العالية، وعن بيب التي نامت في سريرها. ولم يروا ضرراً في ذلك. لم يروا ضرراً في أي شيء، حتى إقامة العلاقة، بالرغم من إصرارها على أنها ليست مستعدةً لذلك بعد، ولا تريده. كانوا جميعهم في مراحل مختلفة من الحزن. ولكن على الأقل كان من المريح مشاركتهم بذلك.

"إذاً، هل وجدت رفيقتك، سيد فيكينبوم؟" داعبته فيما كانا يغادران المبنى سويةً. كانت معجبة به. كان صادقاً ومنفتحاً ولطيفاً، وقادراً على بذل الجهود الجبارة لتخطي الأمر، أكثر من الأغلبية.

"ليس بعد، ولكنني أعمل على ذلك. ماذا عنك؟" كان رجلاً سميناً ودافئاً وكبيراً في السن مع خدين ورديي اللون، وكثير من الشعر الأبيض. بدا كواحد من مساعدي سانتا كلوز.



"لا أريد رفيقاً. تتحدث كابنتي". ضحكت معه.

"إنها طفلة ذكية. لو كنت أصغر بأربعين سنة، أيتها السيدة، لن أتركك. ماذا عن أمك؟ هل هي وحيدة؟" ضحكت أوفيلي ثانيةً، ولوحا لبعضهما وهما يغادران.

وبعد ذلك، توقفت أوفيلي عند الملجأ. كان يقع في شارع خلفي ضيق في جنوب السوق، في منطقة محفوفة بالمخاطر، ولكنها أخبرت نفسها أنها لا تتوقع أن يكون في الباسيفيك هايتس. ولكن الأشخاص الذين رأتهم عند الاستقبال والذين يتجولون في القاعات كانوا ودودين جداً. أخبرتهم أنها تريد موعداً لتنضم إليهم كمتطوعة، وطلبوا منها المجيء في صباح اليوم التالي. كان بإمكانها الاتصال هاتفياً لحجز الموعد، ولكنها أرادت رؤية المكان. وهي تغادر، كان هناك عجوزان يقفان في الخارج مع عربتي تسوق مليئتين بكل شيء يملكانه، وعندما قدمت لهما متطوعة فنجانين مليئين بالقهوة الحارة. تمكنت من تخيل نفسها تفعل ذلك. لم يبدُ ذلك معقداً جداً، وربما يكون أمراً جيداً لها أن تشعر بأنها ذات فائدة. أفضل من الجلوس في المنزل وهي تبكي، وتشم رائحة بذلات تيد ووسادة تشاد. لن تسمح لنفسها بالقيام بذلك، وهي تعرف ذلك حقاً. ليس ثانيةً... وليس لعام آخر. كانت سنة الحداد الماضية كابوساً وكادت أن تقتلها. يتوجب عليها أن تجعل هذه السنة أفضل. ستأتي ذكرى موتهما بعد أربعة أسابيع، وبالرغم من خوفها منها، كانت تعلم بأنه خلال السنة الثانية من المأساة، يتوجب عليها أن تحسن الأمر. ليس لنفسها وحسب، بل لبيب أيضاً. تدين لها بذلك. وربما سيساعدها العمل في الملجأ. كانت تأمل ذلك.

كانت في طريق عودتها لأخذ بيب من المدرسة، وتوقفت عند الإشارة، وهي تنظر إلى نافذة محل للأحذية. لم تكن تبدي أي اهتمام في البداية، ومن ثم ابتسمت عندما رأتها. كانت أحذية منفوشة عملاقة للكبار، مصنوعة على نمط شخصيات شارع سمسم. كان هناك زوج ضخم أزرق اللون لجروفر،

وزوجاً أحمر لإيلمو. كانت رائعة، ودون أي تفكير، أوقفت سيارتها بجانب سيارة أخرى، وركضت إلى المخزن. اشترت جروفر لها، وإيلمو لبيب، ومن ثم ركضت عائدة إلى السيارة والغرضين في كيس التسوق. وصلت إلى المدرسة في الوقت المناسب تماماً لترى بيب خارجة من المبنى متجهة إلى الزاوية التي كانت تنتظر أمها عندها دائماً. رأتها بيب عند وصولها. بدت متعبة وغير مرتبة قليلاً، ولكنها مبتهجة.

قفزت إلى السيارة تعلو وجهها ابتسامة كبيرة سعيدة برؤية أمها. "لدي أساتذة رائعون. أحبهم جميعاً إلا واحدة، وهي الآنسة جيلاني، وهي بلهاء وأكرهها. أما الآخرون فرائعون، يا أمي". لم تبدُ أكبر من الحادية عشرة أبداً وهي تقول ذلك، وضحكت أوفيلي لها باستمتاع.

"أنا سعيدة لأنهم رائعون، مادموزيل بيب". قالت لها، وقد زلّت منها الكلمات الفرنسية، ومن ثم أشارت إلى الكيس في المقعد الخلفي. "أحضرت لنا هدية".

"ما هي؟" بدت بيب مسرورة وهي تسحب الكيس إلى المقعد الأمامي وتنظر بداخله، ومن ثم صرخت ونظرت إلى والدتها بإعجاب. "فعلتها! فعلتها!".

"ماذا فعلت؟" بدت أوفيلي مرتبكة للحظة.

"اشتريت شيئاً سخيفاً! أتذكرين؟ هذا ما قاله مات الليلة الماضية. قال يجب أن نذهب للتسوق اليوم ونشتري شيئاً سخيفاً. وأخبرته أنه يتوجب عليّ الذهاب إلى المدرسة ولا يمكنني ذلك. ولكنك قمت بذلك على أية حال! ماما، أحبك!" ارتدت خف إيلمو فوق حذاء المدرسة على الفور وبدت مبتهجة، بينما حدقت أوفيلي بها بذهول. لم تكن تعرف إن كانت تلك رسالة غير واعية أو أنها مجرد صدفة، ولكنها لم تفكر أبداً بما قاله، أو به حتى، عندما اشترتها. أحبت الأحذية وحسب، ولكنها كانت سخيفة بالفعل. وأحبتها بيب. "يتوجب عليك ارتداؤها عندما نصل إلى المنزل. عديني بذلك؟".



"أعدك"، قالت أوفيلي بتأكيد، مبتسمة وهي تقود سيارتها إلى المنزل. كان يوماً لطيفاً بالرغم من كل شيء. وكانت متلهفة لموعدها في الملجأ. أخبرت بيب عنه وهما في طريق العودة، وكانت متأثرة ومسرورة عندما رأت أن أمها أفضل. كان المجيء إلى المنزل مروعاً في اليوم السابق، ولكن بدا أن الأمور تتحسن. الفجوات السوداء لم تعد كثيرة السواد، أو عميقة كما كانت من قبل، وأوفيلي أصبحت قادرة على الخروج منها بشكل أسرع. ذلك ما أخبرتها المجموعة أنه سيحصل في النهاية، ولكنها لم تصدقهم. ولكن الأمور تتحسن ببطء فعلاً على أية حال.

جعلتها بيب ترتدي خف جروفر عندما وصلتا إلى المنزل، وبعد تناولها كأساً من الحليب وتفاحة وبسكويتاً، اتصلت بمات، قبل أن تذهب لإنهاء واجباتها المنزلية. كان يدخل لتوه عائداً من الشاطئ، وكانت أمها في الأعلى في مكان ما، ربما في غرفتها، فكّرت بيب، وهي تجلس على كرسي المطبخ وتنتظر رده. كان في طريقه إلى الداخل، وبدا أنه يلهث قليلاً، وكأنه كان يركض ليجيب على الهاتف.

"اتصلت لأخبرك بأنك ذكي"، أعلمته بذلك وابتسم في اللحظة التي سمعها.

"هل هذا أنت، آنسة بيب؟".

"نعم. وأنت عبقري. طلبنا الطعام الصيني، وشغلت الأسطوانة المفضلة عندي، بأعلى صوت سمحت به أمي. ونمت معها الليلة الماضية، وأحببنا ذلك... واشترت لكل منا اليوم خفاً على شكل شخصيات شارع سمسم. أخذت جروفر وأنا إيلمو. وأحببت أساتذتي حقاً، باستثناء واحدة، والتي كانت مثيرة للاشمئزاز". تمكن من خلال صوتها معرفة مقدار تحسن الأمور عما كانت عليه الليلة الماضية، وشعر وكأنه قد ربح الجائزة الوطنية لذلك. جعلته سعيداً بشكل محرج.

"أريد رؤية الخف. أشعر بالغيرة. أريد مثله".

"قدماك كبيرتان جداً، وإلا كنت لأطلب من أمي أن تشتري لك مثله".

"هذا سيئ جداً. لطالما أحببت إيلمو، وكيرميت".

"وأنا أيضاً. ولكنني أفضل إيلمو". ثرثرت بعدها عن المدرسة، وعن صديقاتها، وأساتذتها، وبعد فترة قصيرة، أخبرته أنه يتوجب عليها القيام بواجباتها المدرسية.

"افعلي ذلك. بلغي أمك تحياتي، سأتصل بكِ غداً". وعدها وهو يشعر بنفس الشيء الذي اعتاد على الشعور به عندما كان يتصل بولديه. سعيد وحزين، مسرور ومفعم بالأمل، وكأن هناك شيئاً يدفعك للعيش من أجله. كان عليه أن يذكر نفسه بأنها ليست ابنته. كان كل منهما يبتسم وهو يغلق سماعة الهاتف، وأدخلت بيب رأسها في غرفة أمها وهي في طريقها إلى غرفتها.

"تحدثت مع مات وأخبرته عن الخف. إنه يرسل لك تحياته"، حدّقت بيب بإعجاب بينما ابتسمت لها أوفيلي من بعيد في غرفتها.

"هذا لطف منه"، لم تبدُ أوفيلي مثارة، بل سعيدة ومطمئنة وحسب.

"هل يمكنني النوم بجانبك الليلة ثانيةً؟" سألت بيب، وكانت خجلة تقريباً. كانت ترتدي خف إيلمو، وقد خلعت حذاء المدرسة. وكانت أوفيلي ترتدي جروفر، كما كانت قد وعدت.

"هل هذه فكرة مات؟" سألت بفضول.

"لا، إنها فكرتي". كانت بيب صادقة. لم يقدم أية اقتراحات هذه المرة. لم يحتج لذلك. فقد ساعدهما الليلة الماضية، وهما بخير الآن، حتى الآن.

"يبدو جيداً بالنسبة لي"، قالت أوفيلي بينما وثبت بيب وقفزت إلى غرفتها لتقوم بواجباتها.

كانت تلك ليلة جيدة لهما أيضاً. لم تكن أوفيلي متأكدة من المدة التي ستطول بها ترتيبات النوم الجديدة، ولكنهما أحبتا ذلك. لم تتمكن من تخيل السبب الذي منعها من التفكير بذلك مسبقاً. لقد حلّ ذلك الكثير من المشاكل ومنح الراحة لكل منهما. ومن ثم لم تتمكن من التوقف عن التفكير بالتغييرات الإيجابية التي أدخلها مات على حياتهما.



# 13

كان موعد أوفيلي في مركز ويكسلر في الساعة التاسعة والربع. أوصلت بيب إلى مدرستها أولاً، ثم توجهت بعدها مباشرة إلى منطقة جنوب السوق. كانت ترتدي سترة جلدية سوداء قديمة بالية وبنطالاً من الجينز، وعلّقت بيب على ذلك في طريقها إلى المدرسة بأن أمها تبدو جميلة.

"هل تريدين الذهاب إلى مكان ما، أمي؟" سألتها، وهي ترتدي القميص الأبيض، والتنورة الزرقاء الداكنة ذات الثنيات، وذلك كان زيها المدرسي. لقد كرهت ارتداءه، ولكن أوفيلي كانت تعتقد دائماً بأنه يحل عدداً كبيراً من مشاكل الموضة في الصباح. بدت بيب به لطيفة وصغيرة. كانت ترتدي ربطة عنق زرقاء داكنة لمناسبات المدرسة الهامة، وشكّل شعرها الأحمر المموج تطابقاً رائعاً معها.

"نعم"، قالت أوفيلي بابتسامة هادئة. لقد أحبت الليالي التي قضتها بجانبها في السرير. لقد خففت من ألم الوحدة، وهدأت من كرب الصباح. لم تعلم سبب عدم تفكيرها بذلك من قبل، والأغلب لأنها لم تكن تريد الاعتماد على بيب من أجل راحتها، ولكن الأمر بدا مريحاً لكل منهما. وكانت ممتنة لمات على اقتراحه. كانت قد نامت جيداً بالقرب من بيب لأول مرة منذ أشهر، وكان استيقاظها على معانقة بيب لها وهي تنظر إلى عينيها واضعة أنفها على أنف أمها هو أبهج الأشياء التي حصلت معها منذ أن توفي تيد. لم يكن تيد دافئاً وودوداً كثيراً في الصباح، ولا يرغب بإضاعة وقته صباحاً في العناق، أو حتى إخبارها أنه يحبها عندما يستيقظ، لم تكن تلك صفاته أبداً.

أخبـرت بيب عن مركز ويكسلر عندها، وما فعلوه، وحقيقة أنها ترغب بالتطوع هناك.

"إن رغبوا بي". لم تكن لديها فكرة إن كانوا يريدونها هناك أم لا، أو إن كانـت مفيدة لهـم فعـلاً. وربما إن لم يجدوا شيئاً لها، يدعونها تجيب على المكالمات الهاتفية.

"سأخبرك بما سيحصل عندما أراك بعد ظهر اليوم"، وعدتها وهي تنزلها عـند الزاوية، وتراقبها تتوجه إلى مدخل المدرسة مع صديقاتها. كانت منشغلة جداً في الحديث معهن، فلم تلتفت لتلوح لها.

ركنت أوفيلي سيارتها في مكان فارغ في شارع فولسوم، ومشت إلى الزقاق الموجـود فـيه مركز ويكسلر، حيث رأت مجموعة من السكّيرين، يجلسون أمام الجـدار وهـي تمـر بجانبهم. لم يكن يتوجب عليهم الذهاب بعيداً للوصول إلى المركـز، ولكـن بـدا أن الحـركة صعبة عليهم حتى. نظرت إليهم، فبدا أنهم لم يلاحظـوها... بدوا تائهين بعالمهم الخاص، والذي كان أشبه بجحيم خاص. مشت أوفيلي أمامهم ورأسها للأسفل، تشعر بالأسف عليهم وهي صامتة.

مشت إلى الرواق نفسه الذي رأته في اليوم السابق. كان غرفة كبيرة مفتوحة معلـقٌ علـيها بعض الملصقات، كما كان الطلاء ناتئاً من الجدران ومتشققاً. كان هـناك مكـتب طـويل وموظفة استقبال مختلفة عن تلك التي رأتها. كانت امرأة أميركية من أصل إفريقي في أواسط العمر تدير المكتب وأجهزة الهاتف معاً. بدت كفوءة وسعيدة، وكان شعرها مجدولاً بقوة، ومصبوغاً بألوان داكنة وفاتحة. نظرت إلـى أوفيلي وكأنها تتوقع قدومها. بالرغم من الملابس البسيطة التي ارتدتها، بدت أنـيقة وجميلة، وغير مناسبة للمكان في تلك الغرفة البالية. لم يكن الأثاث متناسقاً، وبـدا مهترئاً برمته. كان من الواضح أنهم قد حصلوا عليه من جودويل[1]، وكان هنالك آلة لصنع القهوة في الزاوية، بأكواب يمكن التخلص منها بعد الاستخدام.

---

(1) شركة تعنى بالأعمال الخيرية والتبرعات.



"هل يمكنني مساعدتك؟" سألت المرأة الواقفة وراء المكتب بسرور.

"لـدي موعد مع لويز أندرسون"، قالت أوفيلي بهدوء. "اعتقد أنها رئيسة المتطوعين"، وعندها، ابتسمت المرأة وراء المكتب.

"إنهـا كـذلك، بالإضـافة إلى أنها رئيسة التسوق، والتبرعات، وطلب الحاجات والمؤونة، والعلاقات العامة وجلب المواهب الجديدة. إننا نتولى الكثير مـن المهـام هـنا". بـدا ذلك ممتعاً لأوفيلي، تجولت حول الغرفة، تنظر إلى الملـصقات والكـتابات، بينما تنتظر. لم تنتظر طويلاً، فبعد دقيقتين، اندفعت امـرأة شابة إلى الغرفة. كان لها شعر أحمر فاتح مثل بيب، صففته على شكل ضفيرتين طويلتين خلف ظهرها، واحدة تعلو الأخرى. كان من الواضح أن لها شـعراً طـويلاً كثيفاً. ارتدت جزمة المحاربين، وبنطال جينز، وقميص عمل، ولكن بالرغم من ذلك، كان من الواضح أنها جميلة، وبدت أنثوية بالكامل. لها جـسد مـرن، كالراقصة، وصغير مثل أوفيلي وبيب. ولكنها مفعمة بالنشاط، واللطـف، والحماسـة والطاقة. بدا واضحاً أن من طبيعتها تحمل المسؤولية، وأظهر ذلك الثقة بالنفس والطمأنينة.

"سـيدة ماكنـزي؟" سـألت بابتسامة دافئة، بينما نهضت أوفيلي لتحييها فأومأت بالإيجاب. "هلا تبعتني؟" مشت بخطى واثقة مسرعة إلى مكتب خلفي، فيه لوحة إعلانات قد ملأت الحائط بأكمله. كانت عليها قصاصات من الورق، ونـشرات، وبلاغات، ورسائل من مؤسسات حكومية، وصور ولائحة طويلة مـن المـشاريع والأسـماء. يشعر المرء بالانهماك الشديد فقط بالنظر إلى ما يُحـتمل أنها قد قامت به. على الجدار المواجه، كان هناك صور لأشخاص في المركـز، ومكتـبها الـصغير وكرسيها وكرسيان للزوار، وقد ملأ ذلك تقريباً الغرفة الصغيرة المشمسة. مثلها تماماً، الغرفة صغيرة ومبهجة ومليئة بالكثير من المعلومات، وفعّالة بشكل صارخ.

"مـا الذي أتى بكِ إلى هنا؟" سألت لويز أندرسون بابتسامة دافئة انطلقت مباشـرة إلـى عينـي أوفيلي. كان من الواضح أنها ليست من النمط العادي

للمتطوعين الذين كانوا عادة من طلاب الجامعة، أو طلاب التخرج الراغبين بساعات عمل للحصول على شهادة في العمل الاجتماعي، أو الأشخاص القريبين من مجالهم نوعاً ما.

"أحب أن أتطوع"، قالت أوفيلي وهي تشعر بالخجل.

"يمكننا بالتأكيد استخدام كل المساعدة التي يمكننا الحصول عليها منك. بماذا أنت جيدة؟" صدمها السؤال لدقيقة. لم تكن لديها أية فكرة، وحتى عما يحتاجونه منها. شعرت بأنها خارج مهاراتها. "أو ربما يجب أن أقول ماذا تحبين أن تفعلي؟".

"لست متأكدة. لدي ولدان". أجفلت وهي تقول ذلك، ولكن تصحيح ذلك سيبدو مثيراً للشفقة، لذا فكّرت بألا تصححه. "مضى على زواجي ثماني عشرة سنة... أو كنت كذلك..." سمحت لها شجاعتها بقول ذلك على الأقل. "يمكنني القيادة، التسوق، التنظيف، الغسيل، وجيدة بعض الشيء في التعامل مع الأطفال، والكلاب". بدا ذلك سخيفاً حتى على مسمعها هي، ولكنها لم تفكر لسنوات بما هي مهاراتها الحقيقية. بدا كل شيء غبياً ومحدوداً الآن. "كنت طالبة أدرس علم الأحياء في الجامعة. ولدي معلومات لا بأس بها عن تكنولوجيا الطاقة، والذي كان اختصاص زوجي أيضاً"، معلومة أخرى لا تجدي نفعاً لهم، "ولدي بعض الخبرة في التعامل مع أفراد العائلة المصابين بمرض عقلي". فكّرت بتشاد. كان ذلك كل ما أمكنها التفكير به وهي تنظر إلى عيني لويز أندرسون.

"هل أنتِ مطلقة الآن؟" لقد ذكرت أنها متزوجة وكلمة "كنت".

هزت أوفيلي رأسها بالنفي، محاولة أن تبدو طبيعية، وغير خائفة، ولكنها كانت كذلك حقاً. كان مروعاً الحضور إلى هناك والشعور بأنها غير نافعة ولا تتمتع بأي مهارة. ولكن المرأة حدّقت بها من الجهة الأخرى للمكتب بانفتاح واحترام. أرادت معرفة المزيد وحسب.

"توفي زوجي منذ سنة"، غصت بكلامها فسمعتها بصعوبة، "وابني. لدي ابنة في الحادية عشرة من عمرها. والكثير من وقت الفراغ".



"يؤسفني ما حصل لزوجك وابنك". قالت بصدق، واستمرت بكلامها. "تجربتك مع المرض العقلي يمكن أن تكون نافعة جداً هنا. الكثير من الأشخاص الذين يأتون إلى هنا يعانون من مرضٍ عقلي. وكثيراً ما يترافق ذلك مع التشرد. في حال إصابتهم بمرض خطير، نحاول إرسالهم إلى المراكز والعيادات المختصة. ولكن إن كانوا فعالين بعض الشيء، ندعهم يدخلون. معظم الملاجئ لديها معايير تستبعد الأشخاص الذين يتصرفون بشكل غريب، وهذا ما يجعل الكثير من المشردين غير مناسبين لدخول الملاجئ. إنها قاعدة جنونية بعض الشيء، ولكنها تسهل الأمور على الملاجئ. نحن متساهلون قليلاً هنا، ولكن كنتيجة لذلك، نرى بعض الأشخاص المرضى حقاً".

"ماذا يحصل لهم؟" سألت أوفيلي، وقد بدا عليها الاهتمام. لقد أحبت تلك المرأة، وأملت أن تعرف المزيد عنها. عندها طاقة إيجابية قوية مسالمة، ولكنها بدت وكأنها تملأ الغرفة. كما أنها تمكنت من إيصال شغفها بما تفعله للجوار. شعرت أوفيلي بالإثارة من وجودها هناك وبالتطلع للعمل معهم، حتى كمتطوعة.

"معظم زوارنا يعودون إلى الشارع بعد ليلة أو اثنتين. تبقى الوحدات العائلية، ولكن معظمها ينتقل إلى ملاجئ دائمة، ونحن لسنا دائمين. إننا وكالة مؤقتة. نحن كضمادة سريعة للمشردين. نبقيهم لأطول فترة ممكنة، إننا نحاول إيصالهم لبعض الوكالات أو الملاجئ الدائمة، أو لدور الرعاية بالأطفال. نحاول تلبية حاجاتهم بكل إمكانياتنا، نلبسهم، نأويهم، ونوفر لهم المساعدة الطبية إن احتاجوا لها، كما نطلب مساعدات حكومية إن كان ذلك ملائماً. نحن أشبه بغرفة إسعاف. نمنحهم الكثير من العناية والمعلومات، أسرّة، طعام، ويداً تعينهم. نحب العمل بتلك الطريقة لأنه يخدم الكثير من الأشخاص، ولكن هناك الكثير من المشاكل التي لا يمكننا حلها. تنفطر قلوبنا أحياناً، ولكن هناك الكثير لنقوم به. نفعل كل ما بوسعنا، ومن ثم يرحلون".

"يبدو أنكم تقومون بالكثير هنا"، قالت أوفيلي بعينين مليئتين بالإعجاب.

"ليس بالمقدار الكافي. هذا عمل يحطم القلب. كإفراغ البحر بالكوب، وفي كل مرة تعتقدين أنك قد حققت اختلافاً، يمتلئ البحر ثانيةً بأسرع مما يمكنك أن تنظري إليه. الأمر الذي يقتلني هو الأطفال. إنهم يجلسون في نفس القارب، ولكنهم أكثر عرضة للغرق، وهذا ليس خطأهم. إنهم الضحايا في كل هذا، ولكن كذلك الكثير من البالغين".

"هل يمكن للأطفال البقاء مع أهلهم؟" اكتأبت أوفيلي بمجرد التفكير بذلك. لم تتمكن حتى من تخيل بيب مشردة في الشوارع وهي في ذلك العمر، مع أنها وجدت الكثير من الأولاد الأصغر سناً منها هنا، حتى أن بعضهم يبدو أنه ولد هنا. كانت تلك مأساة العصر، ولكنها وهي تصغي كانت مسرورة لأنها أتت. كان ذلك خياراً جيداً لها، وكانت ممتنة لبليك على اقتراحه هذا. كانت تشعر بالإثارة لتبدأ عملها في ويكسلر.

"يمكن للأطفال البقاء مع أهلهم، أو مع أحد منهما، تبعاً للحال، فقط إن قبلوا في ملجأ دائم، أو أحد المنازل الآمنة، مثل تلك الخاصة بالأطفال والأمهات المُساء معاملتهم. لا يمكنهم البقاء في الشارع، ففي اللحظة التي تراهم فيها الشرطة، تأخذهم إلى خدمات العناية ويرعونهم هناك. لا يمكن لطفل أن يعيش في الشارع. ربع وفيات بلدنا تكون في الشارع كل عام، بسبب الطقس، والمرض، والحوادث، والرضوض، والعنف. لن يتمكن الطفل من العيش عند تعرضه لنصف ما يتعرض له البالغ هناك. فمن الأفضل أن يعيش الأطفال في منازل الرعاية". وهذا بدا محزناً لأوفيلي أيضاً. "هل لديك فكرة عن الساعات التي ترغبين بالعمل فيها؟ خلال اليوم؟ أم في الليل؟ ربما ترغبين بالعمل في النهار، إن كنت أماً وحيدة مع طفلة في المدرسة". تعبير 'الأم الوحيدة' صدمها كلكمة على معدتها. لم تفكر بنفسها بتلك الطريقة، ولكنها كذلك الآن، تماماً كما كرهته.

"يمكنني القدوم من التاسعة حتى الثالثة كل يوم. لا أعلم... ربما يومان أو ثلاثة أيام في الأسبوع؟" بدا ذلك كثيراً بالنسبة لها، ولكن ليس لديها شيء



آخر تقوم به، وعندها الكثير من الوقت. أمكنها فقط قضاء بعض الوقت وهي في الحديقة مع موس. ربما يمنح ذلك بعض الأهمية لأيامها، والقيام بشيء جيد للآخرين. أحبت تلك الفكرة.

"ما أحب القيام به مع المتطوعين"، قالت لويز بصدق وهي ترسل إحدى ضفائر شعرها إلى خلف كتفيها، "هو إعطاؤهم صورة صادقة عنا في البداية. دون أي كذب... الواقع تماماً. يمكنك قضاء بعض الأيام معنا هنا، وستعرفين شعورك بعدها... إن كان ذلك هو حقاً ما تبحثين عنه وما ترغبين القيام به. وبعد ذلك، إن وجدنا، نحن الاثنتان، تطابقاً في وجهات النظر، ندرّبكِ لأسبوع أو أسبوعين على الأكثر، حسب المجال الذي تحبينه، ومن ثم نضعكِ في العمل. عمل صعب جداً"، حذرتها، وعنت ذلك حقاً. "لا يضيّع أحدٌ الوقت هنا. يعمل طاقم الدوام الكامل لاثنتي عشرة ساعة في معظم الأيام، وأحياناً أكثر إن كنا نواجه أزمة، وهذه هي حالنا معظم الأحيان. حتى أن المتطوعين يعملون بشدة إن كانوا هنا". ضحكت. "كيف يبدو ذلك لك؟".

"رائع، حقاً". ابتسمت أوفيلي لها وهي تشعر بالأمل فجأة. "يبدو تماماً كما أريد. آمل فقط أن أحقق ما تحتاجون إليه".

"سنرى". نهضت لويز وابتسمت لها ابتسامة عريضة. "لا أحاول إخافتك أوفيلي. ولكنني أردت أن أكون صادقة فقط. لا أريدك أن تأخذي انطباعاً بأن الأمر أسهل من ذلك. نستمتع بوقتنا كثيراً هنا، ولكن بعض ما نقوم به هنا يكون مريعاً، ومحبطاً، وقذراً، ومنهكاً، وخطيراً، ومتعباً. يمكنك الذهاب للبيت أحياناً وأنت تشعرين بالسعادة، وأحياناً أخرى ستبكين ريثما تغطين في النوم. نرى كل شيء يحدث في الشارع هنا. ولا أعلم إن كنت مهتمة بذلك، ولكن لدينا برنامج خارجي أيضاً".

"ماذا يفعلون؟" تأثرت أوفيلي.

"يقودون شاحنتين تم تقديمهما لنا كهبة، وذلك في الجوار، ويبحثون عن الأشخاص في الشوارع، أولئك المريضون جداً عقلياً أو جسدياً، بأجسادهم أو

بأرواحهم، لدرجة أنهم لا يستطيعون القدوم إلينا. لذلك نذهب نحن إليهم. نأخذ لهـم الطعام، والثياب، والدعم الطبي وإن كانوا مريضين بشدة، نحاول أخذهم إلـى المستشفى، أو إلى مكان رعاية، أو إلى ملجأ. هناك الكثير من الأشخاص العاجزين عن الوصول إلى هنا. ومهما حاولنا جعل الوصول إلينا سهلاً، هناك الكثيـر مـن الأشـخاص الخائفين جداً أو المحطمين أو المحرومين الذين لا يتمكـنون من الوصول إلى هنا. لدينا على الأقل شاحنة واحدة تجوب الشوارع كـل ليلة لتبحث عنهم، وشاحنتان إن كان لدينا ما يكفي لتمويلهما. تذهبان إلى الأشخاص الذين يحتاجوننا معظم الوقت. أولئك القادرون على المجيء إلى هنا يفكـرون علـى الأقل بشكل أكثر وضوحاً، ويكونون في صحة أفضل. بعض الأشـخاص فـي الخارج يكونون في حالة جيدة، ولكنهم يحتاجون للمساعدة، وقد يكونـون خائفين جداً فلا يحاولون طلبها. لا يثقون بنا، رغم احتمال أن يكونوا قد سمعوا عنا. أحياناً كل ما نفعله في الشوارع في الليل هو الجلوس والتحدث معهم. وأنا شخصياً، أحاول دائماً إحضار الهاربين من الشوارع. ولكن الكثير مما يهربون منـه هـو أسـوأ مما يهربون إليه في الشوارع. هناك أمور قبيحة تحدث في هذا العـالم. نـرى معظمها، أو نتائجها، كل يوم، وخاصة في الليل. أما النهار فيكون أكثر ألفة. ولهذا السبب نذهب في الليل، فهم يحتاجوننا أكثر في ذلك الوقت".

"يـبدو وكأنه عمل خطير بعض الشيء"، قالت أوفيلي بعقلانية. لم تعتقد بأن عليها المخاطرة بذلك من أجل بيب. بالإضافة إلى أنها تريد أن تكون مساءً في المنزل معها.

"إنـه عمـل خطيـر. نقوم بالجولة في الساعة السابعة أو الثامنة مساءً، ونبقـى حتى وقت متأخر، نفعل كل ما يلزم. حدثت بعض الحالات القليلة التي نجا الطاقم فيها من الموت. ولكن حتى الآن، لم يصب أحد من الطاقم الخارجي بأذى. إنهم مدركون جيداً لما يحدث في الشوارع".

"هـل هم مسلحون؟" سألت أوفيلي متأثرة. فهم أشخاص شجعان، يقومون بأعمال خارقة.



ضحكت لويز وهزت رأسها بالنفي. "برؤوسهم وقلوبهم فقط. يجب على الشخص أن يرغب بالذهاب إلى هناك. لا تسأليني كيف أو لماذا، ولكنني أعتقد شخـصياً، بقلبي وبعقلي، أن الأمر يستحق المخاطرة. لا يجب أن تقلقي لذلك، فهناك الكثير من الأعمال التي يمكنك القيام بها هنا داخلياً". أومأت أوفيلي، فقد بـدا عمل الشوارع مخيفاً لها... كثيرٌ على أم وحيدة مسؤولة لوحدها عن ابنة، كما فهمت لويز. "متى ترغبين بالبدء؟".

فكّرت أوفيلي بذلك للحظة. فوقتها أصبح ملكها، إذ لا يجب عليها الذهاب لإحضار بيب حتى الساعة الثالثة. "متى شئت. لا شيء لديّ يشغلني".

"مـا رأيك بالآن؟ يمكنك مساعدة مريم في المكتب. يمكنها تعريفك على الأشخاص وهم يدخلون ويخرجون، ويمكنها أن تشرح الكثير عما يحدث هنا. كيف يبدو هذا؟".

"رائـع". شـعرت أوفيلـي بالإثـارة وهي تتبع لويز عائدة إلى المكتب الأمامي، وشرحت لويز لمريم ما الذي يدور في ذهنها. بدت المرأة ذات الشعر الرمادي متحمسة.

"هل يمكنني الاستفادة من مساعدتك اليوم". ابتسمت بابتهاج. "لدي كومة من الملفات هنا، جميع موظفينا الاجتماعيين ألقوا بكل شيء على مكتبي الليلة الماضـية. إنهـم يفعلون ذلك في كل مرة أذهب فيها إلى المنزل!" كان هناك ملفـات، ومجلـدات، وكرّاسـات عن البرامج وعن الملاجئ الأخرى، والتي يـبقونها فـي ملفـات مرجعية. هناك جبل من الأشياء. أكثر مما يكفي لإبقاء أوفيلي مشغولة حتى الساعة الثالثة، ولأيام بعدها.

لم تتوقف عن العمل إلا قليلاً طوال اليوم، وبدا أنه في كل خمس دقائق، يـدخل أو يخـرج شـخص ما، ويمرون بجانب المكتب دائماً. يحتاجون إلى مـراجع، ومعلـومات عـن عدد من القضايا، وعن أرقام الإحالة، والوثائق، وطلـبات إدخـال للموردين، أو أحياناً لمجرد إلقاء التحية. عرفتها مريم على أعـضاء الطـاقم كلما سنحت الفرصة. كانوا مجموعة رائعة من الأشخاص،

ومعظمهم من الشباب، بالرغم من وجود عدد منهم بنفس عمر أوفيلي أو أكبر سناً. قبل أن تغادر بقليل، دخل شابان، بدا أنهما مختلفان عن الآخرين، وبينهما امرأة إسبانية نحيلة. ابتسمت مريم في اللحظة التي رأتهم فيها. كان أحد الرجال أمريكياً من أصل إفريقي والآخر آسيوي. كلاهما كان وسيماً وشاباً وطويلاً.

"هنا يأتي أبطال فيلم توب غن[1]، أو على الأقل هذا ما أطلقه عليهم". ومن ثم التفتت إليهم بابتسامة عريضة. كان من الواضح أنها تحبهم. وصدمت أوفيلي بحقيقة أن المرأة الشابة جميلة بشكل غير اعتيادي، بدت أشبه بعارضة الأزياء. ولكن عندما أدارت رأسها، تمكنت أوفيلي من رؤية أن لها ندبة رديئة تمتد على طول وجهها. "ما الذي تفعلونه هنا في هذا الوقت المبكر؟".

"أتينا لفحص إحدى الحافلات، تعرضنا لمشكلة معها الليلة الماضية. وتوجب علينا تحميل بعض الأشياء لليلة". قدّمتها مريم لهم كمتطوعة جديدة تنظر في أمر العمل معهم. "أعطنا إياها"، قال الرجل الآسيوي بابتسامة. "ينقصنا رجال منذ رحيل آجي". لم تبدُ آجي رجلاً لها، ولكن جميعهم كان صريحاً وودوداً مع أوفيلي. اسم الرجل الآسيوي هو بوب، والأمريكي الإفريقي هو جيفرسون، والفتاة الإسبانية اسمها ميلاكرا، ولكنّ الرجلين أطلقا عليها اسم ميلي. غادروا بعد بضع دقائق، وذهبوا إلى خلف المبنى باتجاه المرآب حيث الشاحنات.

"ماذا يفعلون؟" سألت أوفيلي باهتمام عندما عادت إلى العمل على خزانة الملفات خلف مكتب مريم.

"هذا فريقنا الخارجي. إنهم الأبطال هنا. هم مجانين قليلاً، ومتهورون كثيراً. يخرجون كل ليلة، خمس ليالٍ في الأسبوع. لدينا طاقم يعمل في عطل نهاية الأسبوع، يشغل مكانهم عند غيابهم. ولكن هؤلاء فريدون من نوعهم...

(1) Top Gun: فيلم معروف لتوم كروز.



جميعهم. خرجت معهم مرة، كاد قلبي يتحطم... وخفت حتى الموت". كانت عيناها مليئتين بالتعاطف والاحترام.

"أليس من الخطير على المرأة أن تخرج معهم؟" بدت أوفيلي متأثرة. بدوا كالأبطال بالنسبة لها هي أيضاً.

"تعلم ميلي ما يتوجب عليها فعله. كانت شرطية في السابق، ولكنها تعاني من إعاقة دائمة، أصيبت في صدرها وفقدت رئتها، ولكنها قوية كالرجال تماماً. إنها خبيرة بالفنون القتالية. يمكن لميلي أن تعتني بنفسها، وبالرجلين أيضاً".

"هل حدثت تلك الندبة بسبب ذلك، عمل الشرطة ذاك؟" سألت أوفيلي باحترام متزايد لهم جميعاً. كانوا أشجع الأشخاص الذين التقت بهم في حياتها، والأكثر اهتماماً. وكانت تلك المرأة الإسبانية جميلة بشكل ملحوظ، بالرغم من تلك الندبة. ولكن أوفيلي شعرت بالفضول الآن.

"لا، حدث ذلك مذ كانت طفلة، بسبب سوء معاملة الأطفال. والدها هو السبب. جرحها وهي تدافع عن نفسها عندما حاول اغتصابها. أعتقد أنها كانت في الحادية عشرة من عمرها". للكثير منهم قصص كهذه، ولكن ما صدم أوفيلي إدراكها أن ميلاكرا كانت بنفس عمر بيب عندما حدث لها ذلك. "ربما هذا هو السبب الذي دفعها للانضمام إلى الشرطة".

كان يوماً رائعاً لأوفيلي. وطوال اليوم، حضر أشخاص مشردون بأعمار، وأحجام، وأجناس مختلفة إما للاستحمام، أو لتناول وجبة طعام، أو للنوم، أو للخروج فقط من الشارع والمشي في الرواق لبرهة. بدا بعضهم متماسكاً ومتمتعاً بالمسؤولية بشكل ملحوظ، ومنهم النظيف أيضاً، وبدا آخرون مرتبكين وكأن على أعينهم غشاوة. قلة منهم كانوا سكارى بشكل واضح، كما بدا أن واحداً أو اثنين منهم يتعاطيان المخدرات. كان مركز ويكسلر سخياً جداً في معايير القبول. لا يمكن لأحد تناول الكحول أو المخدرات في المبنى، ولكن إن كانوا في حالة أقل من المثالية عند دخولهم هناك، يسمح لهم بالبقاء.

كانت أوفيلي مصابة بالدوار عندما غادرت، ووعدت أن تأتي في اليوم التالي. كانت تتوق للعودة، وأخبرت بيب عن الأمر كله في طريق العودة إلى المنزل بعد المدرسة. تأثرت بيب، ليس فقط بما سمعته عن المركز، بل بحقيقة أن أمها قد ذهبت إلى هناك ورغبت بالتطوع.

أخبرت مات عن الأمر بأكمله عندما اتصل بعد ظهر ذلك اليوم. كانت أوفيلي في الأعلى تستحم، شعرت بالقذارة بعد عملها طوال اليوم في المركز، وكانت تتضور جوعاً عندما نزلت إلى الأسفل وشعرها ملفوفٌ بالمنشفة. فهي لم تتوقف عن عملها لتناول طعام الغداء حتى. كانت بيب ما تزال تتكلم مع مات على الهاتف.

"يرسل مات تحياته"، قالت بيب، ومن ثم استمرت في حديثها معه بينما صنعت أوفيلي شطيرة لنفسها. تحسنت شهيتها خلال الأسابيع القليلة الماضية.

"بلغيه تحياتي أيضاً"، قالت أوفيلي، وهي تتناول قضمة من شطيرتها.

"يعتقد أنك رائعة جداً لما تقومين به"، نقلت بيب لها كلامه، ومن ثم أخبرته عن مشروع النحت الذي تقوم به في درس الرسم. وقد تطوعت للمساعدة في تصميم الكتاب السنوي أيضاً. أحبت الحديث معه، بالرغم من أنه لم يكن جيداً كالجلوس معه على الشاطئ. ولكنها لم ترغب بفقدان الاتصال به، وكذلك هو. وفي النهاية، أعطت سماعة الهاتف لأمها.

"يبدو أنك منهمكة في أشياء ممتعة"، قال بإعجاب. "ما هي؟" سألها مات.

"أعمال مخيفة، مثيرة، رائعة، كريهة الرائحة، مؤثرة، حزينة إلا أنني أحببتها. الأشخاص الذين يعملون هناك رائعون، وأولئك الذين يأتون للملجأ للمساعدة لطفاء أيضاً".

"أنتِ امرأة مذهلة. إنني متأثر بذلك". وقصد ذلك حقاً. لقد أثرت به منذ البداية.

"لا تتأثر. كل ما قمت به هو وضع الأوراق في ملفاتها، وكنت تائهة.



ليس لدي أية فكرة عما أفعله، أو هل سيطلبون بقائي عند نهاية الأسبوع". كانت قد وعدتهم بثلاثة أيام فقط، وتركت يومين لها. ولكن حتى الآن، أحبت ذلك.

"سيفعلون ذلك حقاً. لا تفعلي أي شيء خطير فقط، ولا تضعي نفسك في مأزق. لا يمكنك تحمل ذلك، مع بيب".

"أعرف ذلك، صدقني". إشارة لويز أندرسون إليها كوالدة وحيدة قد أوضحت لها الفكرة، بشكل غير مريح. "كيف الشاطئ، إذاً؟".

"ميت بالكامل من دونكما"، قال بحزن. رغم أن الطقس كان رائعاً في اليومين الماضيين منذ أن غادرتا. كان حاراً ومشمساً وكانت السماء زرقاء مشعة طوال اليوم. شهر أيلول هو واحد من أدفأ الأشهر على الشاطئ، وكانت أوفيلي حزينة لأنها لم تكن هناك، تماماً كبيب. "كنت أفكر في المجيء في عطلة نهاية الأسبوع القادمة لرؤيتكما، إن كان ذلك يناسبكما، إلا إن كنتِ تفضلين المجيء إلى هنا".

"لدي شعور بأن بيب لديها تدريب على كرة القدم في صباح يوم السبت... يمكننا المجيء يوم الأحد...".

"لم لا آتي أنا؟ إن كان ذلك يناسبكما، لا أريد التطفل عليكما".

"لن تتطفل. ستكون بيب متحمسة لذلك. كما أنني أرغب حقاً برؤيتك أيضاً"، قالت وقد بدت متحمسة. كانت في مزاج رائع، رغم يومها الطويل. نشطها الحضور في المركز.

"سوف آخذكما لتناول العشاء في الخارج. اسألي بيب أين تحب أن تذهب، ويمكنك إخباري كل شيء عن عملك. إنني أتشوق لسماع ذلك".

"لا أعتقد أنني سأكون قد فعلت أي شيء هام. عليهم أن يدربوني لأسبوع، ومن ثم سأكون مساعدة لأي شخص يحتاجني. على الأغلب للإحالات والردّ على الهاتف. ولكنه شيء أفعله على الأقل". أفضل من الجلوس في غرفة تشاد، تبكي في المنزل. وعلم ذلك هو أيضاً.

"سآتي يوم السبت قرابة الساعة الخامسة. أراكِ حينها".

"شـكراً لك ثانية مات". قالت له وسلمت سماعة الهاتف لبيب لتتمكن من تـوديعه. ومـن ثم صعدت إلى الأعلى لتقرأ الموضوع الذي أعطوها إياه في المركـز. مقـالات، دراسات، وبيانات عن المشردين وعن المركز. كان ذلك مثيراً وموجعاً للقلب".

بيـنما تمددت أوفيلي في سريرها، بثوب وردي ناعم، مع ملاءات نظيفة تحـتها، لم تتمكن من منع نفسها عن التفكير بكم هي محظوظة. منزلهما كان كبيـراً ومـريحاً وجمـيلاً، ومليئاً بالتحف التي أصر تيد على شرائها. كانت الغـرف مشمـسة، والألوان ساطعة. غرفة نومها مكسوة بنسيج قطني مطبّع ساطع أصفر اللون، أما غرفة بيب فمكسوة بالحرير الوردي الفاتح، كان حلماً لفتاة صغيرة. أما غرفة تشاد فهي كغرفة صبي مراهق... عادية، بنسيج أزرق داكـن. وهناك مكتب لتيد مكسو بالجلد البني، والذي لم تعد تدخل إليه أبداً، أما غرفة الجلوس الصغيرة المواجه لغرفة نومها فلونها مائي أصفر وأزرق فاتح. وفي الأسفل كان هناك غرفة معيشة كبيرة مليئة بالتحف الإنكليزية، بموقد كبير بالإضافة إلى غرفة طعام رسمية، وغرفة استراحة. كان المطبخ حديثاً جداً، أو أصبح كذلك عندما أعادوا تجديد ديكور المنزل منذ خمس سنوات. وفي الدور الـسفلي، هناك غرفة لعب كبيرة مع طاولة بلياردو وبينغ بونغ، وألعاب فيديو، وغـرفة للخادمـة لـم يقوموا باستعمالها أبداً. في الخلف توجد حديقة صغيرة بعـض الشيء، أما واجهة المنزل فهي حجرية فخمة حيث توجد أشجار مقلمة فـي قدور حجرية كبيرة على جانبي الباب الأمامي، مع سياج مزركش. كان منزل أحلام تيد، ولكنه لم يكن كذلك بالنسبة لها أبداً. ولكن ليس هناك أي شك بأنـه جمـيل وبعيد جداً عن الألم الذي يعيشه الأشخاص القادمون إلى مركز ويكـسلر، أو حتـى العاملـون هناك. بينما جلست أوفيلي تحدق في الفضاء، ظهرت بيب عند مدخل الباب ونظرت إليها.

"هـل أنـت بخير، أمي؟" ظهرت عليها نظرة الغشاوة نفسها التي كانت



تظهر طوال العام الماضي، وقلقت بيب عليها.

"أنا بخير. كنتُ أفكر كم نحن محظوظتان. هناك أشخاص في الشارع لا يـنامون علـى سـرير أبـداً، وليس لديهم حمامات، ولا يمكنهم الاستحمام، ويـشعرون بالجـوع، ولا أحـد يحـبهم، وليس لديهم مكان يذهبون إليه. من الـصعب تخيل ذلك، بيب. إنهم على بعد أميال قليلة فقط عن هنا، وربما يكون هناك مثلهم في العالم الثالث".

"إنـه أمر حزين جداً، أمي". نظرت بيب إليها بعينين كبيرتين، وشعرت بالارتياح لأن شيئاً سيئاً لم يحدث مع أمها. إنها تخشى دائماً من أن تنزلق أمها إلى أعماق اليأس المظلمة، ولا تريدها أن تذهب إلى هناك ثانيةً.

"نعم إنه كذلك، حبيبتي".

أعـدت أوفيلـي العشاء تلك الليلة. كان هناك قطع من لحم الحمل، التي قامـت بـشيها قليلاً، ومن ثم تناولت كل منهما واحدة. لم تكن أيّ منهما تأكل كثيراً، ولكنها فكرت بأنه يجب عليها القيام بشيء يحسن نظامهما الغذائي على الأقـل. صـنعت السلطة، وسخنت الجزر المعلب، والذي قالت بيب عنه بأنه مثير للاشمئزاز، وبأنها تفضل الذرة.

"سأتذكر ذلك". ابتسمت أوفيلي لها.

وفـي تلـك اللـيلة، ذهبت بيب لتنام في سرير والدتها، دون أن تسألها. وعـندما رنّ المنبه في الصباح، أسرعتا للاستحمام، وارتداء الملابس، وتناول الفطور. بدت أوفيلي مثارة وهي توصل بيب إلى المدرسة، وتتوجه إلى عملها فـي مركـز ويكسلر. كان ذلك تماماً ما تريده، وما تحتاج إليه. لأول مرة منذ سنوات، هناك هدف لحياتها.

# 14

مــرت بقية الأسبوع بسرعة شديدة بالنسبة لهما، حيث استقرت بيب في مدرستها، وتم اختبار أوفيلي في مركز ويكسلر. وبحلول عصر يوم الجمعة، لم تكن هي أو أي أحد آخر يشك بأنها ستقبل في مركز. إنها جاهزة للتطوع ثلاثة أيام في الأسبوع، وهم بحاجة لها حقاً.

ســتعمل أيــام الاثنــين، والأربعاء، والجمعة، وسيدربونها في الأسبوع القادم، وذلك من خلال مرافقتها لمختلف أعضاء الفريق، لعدة ساعات. توجب علــيها تقــديم شهادة طبية، تظهر فيها أنها بصحة جيدة، وبيان جنائي، والذي قالــوا إنهم سيتولون أمره. أخذوا بصمات أصابعها يوم الجمعة قبل مغادرتها. ويــريدون رسالتي توصية شخصية أيضاً. قالت أندريا بأنها ستقدم لها واحدة، واتصلت أوفيلي بمحاميها وطلبت منه إرسال الثانية. كل شيء كان مهيئاً بشكل جيد. لم تكن تعرف بالتحديد بعد ما الذي ستقوم به، في الأيام التي حضرت بها بــدا أنها تعمل بكل شيء، تساعد كل من يحتاج للعون. سيدربونها أيضاً على القــبول. ما تزال تشعر بأنها غير مؤهلة بعد، ولكنها مستعدة بشدة للتعلم. وقد حــصلت علــى توصية بالثناء من مريم في نهاية الأسبوع. وقد قامت أوفيلي بشكرها بحميمية عند مغادرتها.

"حــسناً، لقد حققت المواصفات المطلوبة"، قالت أوفيلي بفخر وهي تأخذ بيب من المدرسة بعد ظهر يوم الجمعة. "يرغبون بي كمتطوعة في ويكسلر". كانــت مــسرورة بصدق. منحها ذلك إحساساً بالإنجاز وأن أحداً بحاجة إليها، وربما تُحقق بذلك بعض الاختلاف البسيط في عالمها.

"هـذا رائـع، أمـي! انتظري لنخبر مات غداً!" كان قد عرض عليهما مشاهدة بيب وهي تلعب كرة القدم، ولكنها قالت بأنها تفضل مجيئه في المرة القادمة ليرى اللعبة الحقيقية. أما يوم السبت القادم فهو للتدريب فقط لأنه يومهم الأول. إنهـا صغيرة وناعمة، ولكنها سريعة جداً أيضاً، وتلعب بشكل جيد. لقد مـضت سنتان عليها وهي تلعب كجزء من فريق المدرسة التعليمي. لقد أحبت ذلك أكثر من الباليه.

أنهت بيب واجباتها المدرسية يوم الجمعة، وقضت الأمسية مع صديقتها، كمـا أتـت أنـدريا لتـناول العـشاء معهما. علمت من بيب أن مات سيأتي لاصطحابهما في اليوم التالي إلى العشاء ورفعت حاجبيها بوجه أوفيلي.

"تخفين عني، يا صديقتي القديمة. متحرش الأطفال سيأتي إلى هنا؟" بدت مستمتعة.

"يـريد رؤية بيب"، قالت أوفيلي باعتدال، مؤمنة بأن ذلك صحيح، رغم أنهـا مسرورة لرؤيته أيضاً، وتعتبره صديقاً لها. "ربما يجب علينا التوقف عن مناداته بذلك في هذه الأيام".

"ربمـا يكون تعبير الرفيق أكثر ملائمة"، قالت، واعترضت أوفيلي على الفور بهزة من رأسها.

"أبـداً. لـيس لدي أي اهتمام برفيقٍ الآن. إنه صديق فقط". وعلمت من خلال الحديث بأن مات يشعر بالشيء نفسه. فقد قررت مسبقاً أن الرومانسية لم تعد ملائمة لها، ولا تريدها أيضاً. لا تريدها ثانيةً للأبد.

"هـذا مـا أنت مهتمة به. وماذا عنه؟ لا يأتي الرجال إلى المدينة لأخذ النـساء إلـى العشاء، فقط بهدف رؤية بناتهن الصغار. ثقي بي. أعلم الرجال حقاً". على طريقتها، وهذا ما تعلمه كل منهما.

"ربما بعضهم يفعل ذلك"، تشبثت أوفيلي برأيها.

"إنه ينتظر الفرصة الملائمة"، قالت أندريا بثقة بالنفس. "وحالما يعتقد أنك قد ارتحت له، سيبدأ عمله".



"أمـل ألا يحصل ذلك"، قالت أوفيلي وقد بدا عليها القلق، ومن ثم لتغير الموضـوع، أخبـرت أنـدريا عن أسبوعها في ويكسلر. تأثرت أندريا بذلك، وسرت لأنها وجدت شيئاً تفعله.

ولكن عصر اليوم التالي، عندما رن جرس الباب وذهبت أوفيلي لتفتحه، خطـر علـى بالها فوراً تقييم أندريا لعلاقتها مع مات. وأملت بشدة أن تكون أندريا مخطئة.

وقـف هـناك مـرتدياً سترة جلدية، وبنطلوناً رمادياً، وكنزة رمادية بـسيطة ذات قبة، وحذاءً ملمعاً بشكل جيد. كانت ثيابه شبيهة بالثياب التي ارتـداها تـيد، إلا أنها أفضل بقليل. لم يكن تيد يتذكر على الإطلاق تلميع حذائـه، ولم يهتم لذلك. كان يقلق لأشياء أكثر أهمية. كانت أوفيلي هي من تلمع له أحذيته.

ابتسم مات في اللحظة التي رآها فيها، وحالما وثبت بيب للأسفل ورآها، علمـت أوفيلي أن صديقتها على خطأ، مهما اعتقدت أنها تعرف الرجال جيداً. أنـدريا مخطـئة برأيها هذا، وليس هناك شك في عقل أوفيلي حوله، فشعرت بالـراحة الكبيرة فوراً. أظهر لطفه الأبوي لبيب، واهتماماً أخوياً بها. وبعد أن أرته بيب غرفتها وممتلكاتها، ولوحاتها الأخيرة، وهدأت أخيراً، أخبرته أوفيلي عـن أسـبوعها في مركز ويكسلر، وبدا متأثراً ومهتماً. حتى أنها أخبرته عن فريق المساعدات الخارجي.

"آمل أنك لا تخططين للانضمام إليهم"، قال بهدوء بنظرة ملؤها القلق.

"أنا متأكد من أن هذا جزءٌ هام من عملهم، وشيء جيد، ولكنه يبدو خطيراً لي".

"أنا واثقة من أنه كذلك، وهم جميعاً ماهرون جداً. المرأة التي في الفريق هـي شرطية سابقة، وأحد الرجال شرطي سابق أيضاً، ولديه خبرة في الفنون القتالية، وكذلك هي، والثالث كان من فريق المغاوير البحري. لا يحتاجون لأي مساعدة مني!" ابتسمت له، عندها انضمت إليهما بيب. كانت مثارة لرؤية مات

يزورهما، وعندما غادرت أمها الغرفة لتحضر لمات كأساً من الشراب، همست بيب له عن لوحتها التي يعمل عليها.

"كـيف أصبحت؟ هل عملت عليها هذا الأسبوع؟" فهي تعلم أنها ستكون أفـضل هديـة لأمهـا قد حصلت عليها في حياتها، وتنتظر بشوق شديد لترى وجهها عندما تقدمها لها.

"لقد بدأت للتو". ابتسم لصديقته الصغيرة. تمنى ألا تصاب بخيبة أمل عـند رؤيـة النتيجة النهائية، ولكنه أحب ما عمله عليها حتى الآن. إن ما يكـنه مـن مـشاعر تجاه بيب جعل من رسمها أسهل، فقد كان ذلك يتعلق بروحها ومشاعرها تماماً كشعرها الأحمر اللامع وعينيها البنيتين الرائعتين بـضوء الكهرمان فيهما. أحب أن يرسم صورة لأوفيلي أيضاً، رغم أنه لم يكـن قـد رسم صورة لشخص بالغ منذ وقت طويل. ولكنه يحب أن يقوم بتجربة ذلك.

قـبل الـساعة الـسابعة بقليل، نهضوا للمغادرة والذهاب للعشاء، وعند وصولهم إلى الباب الخارجي، توقف مات وهو في طريقه.

"نسيتم شيئاً"، قال وهو ينظر للأسفل إلى بيب، والتي بدت متفاجئة.

"لا يمكنـنا أخـذ موس إلى المطعم"، قالت له بنبرة صوت جادة. كانت تـرتدي تـنورة سـوداء قصيرة وكنزة حمراء اللون، وبدت ناضجة جداً. لقد اهتمت باختيار ملابسها من أجله، وشبكت لها أمها شعرها بمشبك جديد تماماً. "يمكننا أخذه إلى المطاعم الموجودة على الشاطئ فقط"، شرحت له.

"لـم أكن أفكّر به، بالرغم من أنه توجب عليّ ذلك. سنحضر له كيس طعام خاص بالكلاب. لم تريني خفي إيلمو وجروفر"، قال مؤنباً، وضحكت بيب.

"هـل تريد رؤيتهما؟" بدت مسرورة. فقد تذكر كل شيء قالته له، كعادته دائماً.

"لـن نغـادر حتـى أراهما"، قال بتصميم. خطى للوراء وشبك ذراعيه، بنظرة مترقبة فيما كانت أوفيلي تبتسم لهما. ومن ثم نظر إليها.



"أنـا جاد في قولي. لكل منكما. أريد رؤية إيلمو وجروفر. وأعتقد أن عليكما انتعالهما أيضاً". بدا وكأنه جاد في كلامه، فركضت بيب إلى الأعلى لإحـضارهما وقـد بدت مبتهجة. عادت بعد دقيقة ومعها الخفان، وأعطت جروفر لأمها.

شـعرت أوفيلـي بالسخف وهي تنتعل خفها، وكذلك بيب، ووقفتا هناك بالخفين الكبيرين المزغبين، فابتسم مات ابتسامة الاستحسان. "إنهما رائعان لقد أحببـتهما. أشـعر بالغيرة الآن. أريد خفاً لي أيضاً. ألا يمكنكِ أن تجدي خفاً بمقاس قدمي؟".

"لا أعـتقد ذلـك"، قالت بيب باعتذار. "قالت أمي أنها وجدت زوجاً لها بصعوبة، رغم أن لها قدمين صغيرتين بعض الشيء".

"أنـا حزين"، قال لهما، وهما تخلعان الخفين ثانية، وتتبعانه إلى الخارج، ثم نزلتا على الدرج إلى سيارته.

قـضوا وقـتاً رائعاً على العشاء، يتحدثون عن أشياء مختلفة. وخطر ببال أوفيلي ثانية وهي تنظر إليه مع بيب، مقدار الصدمة التي أصابته لفقده الاتصال مع ولديه. فمن الواضح أنه رجل يحب الأولاد، ولديه طريقته في الـتعامل معهم. يكرس الكثير من نفسه لهم، وهو منفتح ومهتم، وينتبه إلى كـل شـيء تقـوله بيب. هناك دفء لا يقاوم فيه، وفي الوقت نفسه يتمتع بالمقـدار المناسـب مـن الاحتـرام. لم تشعر أوفيلي أبداً بأنها عاجزة أو محـرجة أمامـه، أو حتى بالإثارة. اقترب منهما بما يكفي ليكون صديقاً، وابـتعد بما يكفي لكي لا يكون متطاولاً. إنه رجل لطيف بالفعل، وصديق رائع لكل منهما.

وعـند عـودتهم إلى المنزل في التاسعة والنصف، كانوا جميعاً يتمتعون بروح عالية. حتى أن مات تذكر طلب الطعام من أجل الكلب. وذهبت بيب إلى المطبخ لتضعه في وعائه.

"أنـت لطـيف جداً معنا، مات"، قالت أوفيلي بهدوء، وهما يجلسان في

غرفة المعيشة، وقد أشعل النار لهما، كما فعل في الشاطئ. عادت بيب بعد عدة دقائق وأرسلتها أوفيلي لترتدي البيجاما، رغم اعتراضها. ولكنها تثاءبت وهي تعترض، فضحك كل من أوفيلي ومات.

"تستحقين أن يكون الناس لطفاء معك، أوفيلي". قال لها بصدق، وهو يجلس على الأريكة بجانبها، وقد رفض للتو عرضها بتقديم كأس من الشراب له. لم يعد يشرب كثيراً هذه الأيام. فهو يجد الكثير من المتعة مع لوحة بيب، ويستمتع حقاً بالقدوم إلى المدينة لرؤيتهما. بدا أن شربه يزداد، كما لاحظ، عندما يشعر بالوحدة أو الإحباط، ولم يكن كذلك في هذه الأيام، والفضل يعود لهما. "جميعنا نستحق أشخاصاً لطفاء في حياتنا"، قال لها، دون أي غاية سوى الاستمتاع بصداقتها. "منزلك جميل"، علق بصدق، معجباً بالغرفة التي يجلسان فيها، وبالأثاث الرائع التي استخدمته لفرشها. كان أكثر رسمية مما يحب بعض الشيء، ولكنه ليس بعيداً عن المنزل الذي امتلكه هو وسالي في نيويورك. كانا قد اشتريا منزلاً بطابقين في جادة بارك، وقد قام أحد أفضل مهندسي الديكور في المدينة بإعداد ديكوره، وتساءل مات هل قام مهندس ديكور بفعل الشيء نفسه في منزل أوفيلي، أو أنها هي من فعلت ذلك بنفسها. وبعد نظرة ثانية حوله، سألها عن ذلك.

"إنني مسرورة لسؤالك". ابتسمت له بامتنان. "اشتريت كل هذا بنفسي خلال السنوات الخمس الماضية. استمتعت بالقيام بذلك. أحب التحف والديكور. إنه ممتع، رغم أن المنزل قد أصبح كبيراً الآن جداً علينا. ولكن ليس لدي الرغبة ببيعه. أحببنا المكان هنا، ولكنه يبدو محزناً بوجود كلتينا فقط فيه. في النهاية، لا بد أن أعرف ما سأفعل".

"لا حاجة للعجلة. أشعر دائماً بأننا استعجلنا في بيع المنزل في نيويورك. ولكن لم يكن هناك نفع من الاحتفاظ به بعد رحيل سالي والولدين. كان لدينا أشياء جميلة هناك". قال وهو يشعر بالحنين إلى منزله.

"هل بعتها كلها؟" سألت أوفيلي.



"لا، أعطيتها كلها لسالي، وأخذتها إلى أوكلاند. الله وحده يعلم ما فعلته بها هناك، فقد انتقلت للعيش مع هاميش على الفور تقريباً. لم أدرك في تلك المرحلة أن خطتها كانت كذلك، أو أنها ستنتقل بتلك السرعة. اعتقدت أنها ستعيش في منزلها الخاص، أو أنها ستغادر لفترة فقط. ولكنها لم تضيع الوقت عليها... هكذا هي سالي. في حال وضعت شيئاً في رأسها، فستفعله". حقق لها ذلك شريكاً تجارياً رائعاً، ولكنها زوجة حقيرة في النهاية. أما هو ففضل الجانب الآخر لذلك بشدة. "لا يهم حقاً". هز كتفيه بلا مبالاة وبدا مرتاحاً بشكل مثير للاستغراب. "يمكنك دائماً جلب الأشياء ثانية، ولكن ليس الأشخاص. وأنا لست بحاجة لمنزل مليء بالتحف عند الشاطئ. أعيش حياة بسيطة هناك، هذا كل ما أريده". عرفت من رؤية منزله هناك بسرعة أن ذلك صحيح، ولكن الأمر ما يزال محزناً بالنسبة لها على أية حال. لقد خسر الكثير. ولكن عليها الاعتراف، رغم كل شيء، يبدو أنه يعيش بسلام، وبرضا بعض الشيء. حياته تعجبه، ومنزله مريح، وهو يستمتع بعمله. الشيء الوحيد الذي بدا أنه يفتقده هو الأشخاص، ولكنه لا يشعر بذلك حتى. فهو شخص منعزل جداً. ولديه الآن بيب وأوفيلي، متى أراد رؤيتهما.

بقي حتى الساعة الحادية عشرة ثم قال إنه من الأفضل له أن يغادر. فالضباب يكثر على طريق الشاطئ في الليل، ويحتاج إلى وقت ليصل إلى هناك. ولكنه أكد لها بأنه استمتع كثيراً بصحبتهما، كما هو الحال دائماً. أدخل رأسه في غرفة بيب ليتمنى لها ليلة طيبة، ولكنها كانت تغط في النوم، برفقة موس عند حافة السرير، وخف إيلمو على الأرض قربها.

"أنت امرأة محظوظة"، قال لها بابتسامة دافئة، وهو يتبع أوفيلي إلى أسفل الدرج. "إنها فتاة رائعة. لا أعلم كيف حالفني الحظ ووجدتني على الشاطئ، أنا مسرور لأنها فعلت ذلك". لم يتمكن من تخيل ما كان سيفعله دون وجودها في حياته بعد الآن. فهي كهدية من الله إليه، وأوفيلي هي الإضافة الرائعة التي حصل عليها مع بيب.

"نحن محظوظتان أيضا، مات. شكراً لهذه الأمسية الرائعة". قبلته على وجنتيه، وابتسم لها. ذكرته بالسنة التي قضاها في فرنسا عندما كان طالباً قبل خمس وعشرين سنة.

"أعلميني بوقت مباراة كرة القدم. سآتي ثانيةً. في أي وقت تريده، في الحقيقة. اتصلي بي فقط".

"سأفعل ذلك". ضحكت. فكلاهما يعلم أن بيب ستتصل به في اليوم التالي، ولكن أوفيلي لم ترَ عيباً في ذلك. إنها تحتاج إلى رجل في حياتها ضمن صيغة ما، وليس لأوفيلي خيار آخر تقدمه لها. علاقتهم تناسب الثلاثة جميعهم، وتخدمهم جيداً.

راقبته أوفيلي وهو يقود سيارته القديمة بعيداً، ثم أغلقت الباب، وأطفأت الأنوار. كانت بيب قد نامت في سريرها تلك الليلة، وهو شيء نادر الحصول في هذه الأيام، فتمددت أوفيلي في سريرها الكبير جداً لوقت طويل، في الظلام، مستيقظة، تفكر بتلك الأمسية، وبالرجل الذي أصبح صديقاً لبيب، ومن ثم صديقاً لها. تعلم كم هما محظوظتان بالتعرف عليه، ولكن التفكير به أوصلها بطريقة ما إلى التفكير بتيد. بدت ذكرياتها عنه مثالية أحياناً، ومزعجة أحياناً أخرى. كان هناك تنافر عميق صامت عندما تزحف الذكريات القديمة إلى رأسها، ولكن بالرغم من ذلك، ما تزال تفتقده بشكل لا يحتمل، وتساءلت إن كانت ستبقى كذلك دائماً. بدا أن حياتها كامرأة قد انتهت، وحتى دورها كأم لن يبقى طويلاً. لقد رحل تشاد، وستذهب بيب أيضاً إلى حياتها الخاصة بعد بضع سنين. لم تتمكن حتى من تخيل حياتها دونها، وكرهت التفكير بذلك. ستكون وحيدة، بشكل محتوم. وبرغم أصدقائها، كأندريا، ومات الآن، حالما ترحل بيب إلى الجامعة وإلى حياتها الخاصة، فإن أي مظهر خارجي لحياتها وفائدتها في هذه الحياة سينتهي. التفكير بذلك ملأها بالرعب، وبالشوق لتيد ثانيةً. الاتجاه الوحيد الذي بدا أنها قادرة على النظر إليه في ليالٍ كهذه، هو للخلف، لحياة قد انتهت، والنظر للمستقبل كان يملؤها بالرعب والخوف. في لحظات كهذه من





التفكير العميق، تفهم بشكل جيد كيف كان تشاد يشعر. مسؤولياتها لبيب هي التي تجعلها تستمر في هذه الحياة، وتمنعها من فعل شيء غبي حقاً. ولكن أحياناً، في ظلمة الليل، دون إنكار لذلك، كان الإغراء موجوداً. ومهما عرفت بأنها مخطئة بذلك، بالنظر إلى مسؤولياتها لبيب، سيكون الموت هو الراحة اللطيفة لها.

# 15

بعـد ثلاثة أيام من العشاء الرائع مع مات، واجهت أوفيلي التحدي الذي شــعرت بالخـوف مـنه مـنذ زمـن. بعد أربعة أشهر من الدعم والحضور المنتظمين، أوشكت مجموعة الأحزان على الانتهاء. عبروا عن ذلك بمصطلح التخـرج، وتحدثـوا عـن الدخول ثانية إلى العالم كلٌ على طريقته، وحاولوا إعطاء اجتماعهم الأخير جواً من الاحتفال. ولكن حقيقة فقدانهم لبعضهم البعض وللـدعم والـصداقة الحميمة التي عاشوها قد سبب البكاء لمعظمهم في يومهم الأخير، ومن بينهم أوفيلي.

عانقـوا بعـضهم ووعـدوا بالبقاء على اتصال، تبادلوا أرقام الهواتف والعـناوين، وناقـشوا خططهم للمستقبل. كان السيد فيكينبوم يواعد امرأة في الثامنة والسبعين من عمرها وقد التقى بها في دروس البريدج[1]، وكان يشعر بالإثــارة حــول ذلك. قلة من الآخرين قد بدأوا بإقامة العلاقات، بعضهم لديه خطــط للـسفر، وإحـدى النساء قرّرت بيع منزلها بعد ألم بدا أنه لا ينتهي، ووافقـت امــرأة أخرى على الانتقال للعيش مع أختها، ورجل لم تحبه أوفيلي كثيــراً عقد صلحاً مع ابنته بعد موت زوجته، وبعد نزاع عائلي استمر ثلاثين ســنة تقريباً. ولكن الأهم من ذلك، أن عليهم قطع طريق طويل، والقيام بالكثير من التعديلات.

إنجــاز أوفيلــي الرئيسي، الذي توضح أخيراً، هو عملها التطوعي في مركــز ويكـسلر. موقفها كان أحسن، والفجوة السوداء التي ما زالت تقع فيها

---

(1) البريدج: لعبة من ألعاب الورق.

أحياناً، والتي تحدث عنها الجميع وخافوها، أصبحت أقل عمقاً الآن، والأيام المظلمة ليست بنفس الطول. ولكنها علمت، كما علم كل منهم عن حياته الخاصة، أن محاولاتها الجاهدة للتكيف مع خسارتها لم تنته بعد. إنهم فقط أفضل مما كانوا عليه من قبل، وقد حصلت على وسائل أكثر فعالية للتغلب على المصاعب. هذا كل ما تمنته، وبدا هذا كافياً نوعاً ما.

ولكنها شعرت بأنها مغمورة بالحزن، وبإحساس بالفقدان ثانيةً وهي تودع بليك، وبدت مليئة بالأحزان عندما جاءت لأخذ بيب من المدرسة.

"ما الأمر، أمي؟" بدت بيب خائفة. كانت قد رأت تلك النظرة مرات كثيرة من قبل، وشعرت بالقلق دائماً من أن الرجل الآلي سيعود ثانيةً ويحل محل أمها، كما كان الحال لسنة تقريباً. لا تريده ثانيةً. لقد شعرت بيب بالحرمان مدة عشرة أشهر بعد موت أخيها وأبيها.

"لا شيء". شعرت أوفيلي بالغباء إن اعترفت لها بالأمر. "شيء سخيف، على ما أظن. انتهت المجموعة اليوم. سأشتاق لهم. بعض أفراد المجموعة كان لطيفاً، بالرغم من أنني كنت أتذمر من بعضهم إلاّ أنني أعتقد أنهم ساعدوني حقاً".

"هل يمكنك العودة والانضمام للمجموعة؟" كانت بيب ما تزال قلقة. لم تحب المظهر الذي بدت أمها عليه. ذلك ما اعتادت عليه. وتذكرت عندما كان تشاد يبدو بتلك الطريقة أيضاً. تلك المأساة المغشاة والمظلمة والغامضة إلى حدٍّ يتعذر وصفه والتي بدت عميقة جداً وتترك ضحاياها مشلولين غير قادرين على الحركة ويشعرون بعدم الأهمية وبالحزن الشديد. أرادت بيب فعل شيء لإيقافها قبل أن تسيطر تلك الحالة عليها، ولكنها لم تعرف كيف. لم تعرف مسبقاً على الإطلاق.

"يمكنني الذهاب إلى مجموعة أخرى، إن احتجت لذلك. ولكن هذه المجموعة انتهت وانفضّ شملها". بدت فاقدة للأمل وهي تقود سيارتها إلى المنزل، وشعرت بيب بالذعر يمسكها بقبضته.



"ربما يتوجب عليك ذلك".

"سأكون بخير بيب، أعدك". ربتت أمها على يدها وقادت سيارتها إلى المنزل بصمت. وحال وصولهما هناك، ذهبت بيب خلسة إلى الحجرة الصغيرة في الأعلى التي لم يعد أحد يستخدمها أبداً، واتصلت بمات. كان الجو ممطراً في ذلك اليوم، وكان هو يعمل على لوحتها بدلاً من الرسم على الشاطئ. فبحلول الشتاء، سيتضاءل ذهابه يوماً بعد يوم، ولكن الجو ما يزال جميلاً بعض الشيء، باستثناء اليوم.

"تبدو بحالة مزرية"، نقلت له بيب الوضع بصوت منخفض، كانت تصلي كي لا ترفع أمها السماعة من مكان آخر في المنزل. كبست زر الخصوصية ولكنها لم تكن واثقة أنه يعمل. "أنا خائفة، مات". قالت بصدق، وسُر لاتصالها. "السنة الماضية، اعتقدت... أنها فقط... حتى أنها لم تترك سريرها أحياناً، أو تمشط شعرها... لم تأكل أبداً... وكانت تبقى مستيقظة طوال الليل... حتى أنها لم تكن تتحدث معي..." ملأت الدموع عينيها، وصدمت كلماتها قلبه كالعاصفة. كان يشعر بالأسف على الاثنتين معاً.

"هل تفعل أياً من هذه الأشياء الآن؟" سأل بقلق حقيقي. فقد بدت بخير يوم السبت الماضي، ولكن لا يمكنه معرفة كل شيء. فبعض الناس يتمكن من كتم هذه الأشياء. أحياناً، أولئك الذين يشعرون باليأس الشديد يبقون تلك الأشياء لأنفسهم مما يؤدي لنتائج أليمة، ومات لا يعلم إن كانت أوفيلي من هؤلاء الأشخاص. بيب تعرف أكثر منه، رغم صغر سنها.

"ليس بعد"، قالت بيب، وهي تتوقع الشؤم في كل مكان. "ولكنها بدت حزينة فعلاً". ملأت الدموع عينيها وهي تقول ذلك.

"ربما تكون خائفة بعض الشيء لفقدانها دعم المجموعة، والوداع صعب عليها الآن. لقد خسرتما كثيراً"، قال وهو يشعر بالارتباك لتذكيرها، ولكن ذلك صحيح، وبدت له بالغة جداً، فاعتقد أن بإمكانه التحدث معها بحرية. وعلى الهاتف حينها، بدت أشبه بأم من كونها طفلة. كانت محادثتهما من النوع الذي

يتوقع تبادلها مع أوفيلي بخصوص بيب، بدلاً من العكس. لقد كبرت بسرعة في السنة الماضية. ذكرى موت أخيها وأبيها ستحل بعد شهر. "أعتقد أنه يتوجب عليك الاهتمام بها، ولكنها بخير برأيي. بدت بخير في تلك الليلة، وفي المرات الأخيرة التي رأيتها بها عند الشاطئ. إن ذلك من الأمور التي تتغير وتتبدل، ولكنها ستنجو من هذا المأزق قريباً. وإن لم تفعل، سآتي لزيارتكم، وأرى ما يمكنني أن أفعل". ليس لأنه لا يملك شيئاً يفعله حيال الأمر الآن. ولكن في سياق علاقته معهما، لم يكن هذا دوره. ولكن كصديق، ربما يكون قادراً على المساعدة، أو على دعم بيب على الأقل. حتى أنها لم تكن لديها تلك الفرصة في السنة الماضية، وكانت ممتنة له الآن. أكثر مما يعرف، أو أكثر مما يمكنها القول.

"شكراً لك، مات". قالت له وعنت كلامها من أعماق قلبها. ساعدها الاتصال معه والتحدث عن الأمر.

"اتصلي بي غداً، وأعلميني عن الحال. وبالمناسبة، تبدو لوحتك جيدة بعض الشيء". قال بتواضع.

"أتلهف شوقاً لرؤيتها!" ابتسمت له، وأغلقت السماعة بعد عدة دقائق. لم يخططا لرؤية بعضهما قريباً مرة أخرى، ولكنها تعلم أنه بالقرب منها إن احتاجته، وهذا منحها إحساساً لا حدّ له من الحب والدعم من قبله. وهذا ما تحتاجه حقاً منه.

كانت أوفيلي تشعر بالحزن لفقدانها دعم المجموعة، وتطهو طعام العشاء، عندما رنّ جرس الباب. أجفلت، ولم تتمكّن من تخمين الزائر. لم تكن تتوقع أحداً، تعلم أن مات ليس في المدينة، وأندريا لا تأتي دون أن تتصل أولاً. كل ما تمكنت من تخيله هو أن ذلك طلب توصيل لنوع ما، أو أن أندريا قد قررت القدوم دون إعلام مسبق. وعندما فتحت الباب، رأت أوفيلي رجلاً طويلاً أصلع يقف هناك، يرتدي نظارات، ولم تعرفه في البداية. استغرقت دقيقة كاملة لتميز وجهه. اسمه جيرمي أتشيسون، وهو عضو من المجموعة



التي انتهت للتو ما بعد ظهر اليوم. خارج المجموعة، لم تميزه في البداية، ومن ثم فعلت بسرعة.

"نعم؟" قالت وقد بدت مشدوهة، عندما نظر من فوق كتفها إلى المنزل الصامت. ومن ثم أدركت من هو. بدا متوتراً وهو يقف قبالتها، ولم تتمكن من تخيل ما يفعله هنا. كان واحداً من الأشخاص الغامضين الذين لا يتحدثون كثيراً، وبرأيها كان يشارك بصورة أقل من البقية. لم يكن بينهما أي صلة معينة، ولم تتمكن من تذكر إن كانت قد تكلمت معه من قبل، داخل أو خارج المجموعة.

"مرحباً أوفيلي"، قال لها، وقد كان العرق يتقاطر على شفته العليا، وامتلكها شعور واضح بأنها تشم رائحة الكحول في نَفَسه. "هل يمكنني الدخول؟" ابتسم لها بتوتر، ولكن صدمتها نظرة خبيثة منه. وأدركت، عندما نظرت إليه بقرب أكثر، أنه أشعث نوعاً ما ولا يمكنه الاتزان جيداً.

"أنا أطهو طعام العشاء"، قالت بارتباك، ولم تكن قادرة على معرفة ما الذي يريده. ولكنها علمت أنه قد حصل على عنوان منزلها من قائمة المجموعة التي كانوا يوزعونها اليوم لأولئك الراغبين بالبقاء على اتصال.

"هذا عظيم"، قال بوقاحة مع ابتسامة غير سارة، "لم آكل بعد. ماذا لدينا للعشاء؟" تدلى فكها لوقاحته، وللحظة، بدا وكأنه على وشك الدخول، بينما بدأت هي ببطء بإغلاق الباب وتضييق الفتحة التي يمكنه الدخول من خلالها. لم يكن لديها أية نية في دعوته للداخل. أحست بشيء بغيض على وشك أن يحدث، وأرادت تجنبه بكل ثمن.

"أنا متأسفة، جيرمي. عليّ الذهاب. ابنتي تتضور جوعاً، وصديق لي سيأتي بعد دقائق". بدأت بإغلاق الباب، فأوقفه بيده، وأدركت على الفور بأنه أسرع وأقوى مما كانت تتوقع. لم تعلم ما تفعل... أتضربه، أو تصرخ. ولكن لا يوجد أحد في المنزل سوى بيب. والصديق القادم هو شخص اخترعته لإعاقته. كان ذلك مشهداً بغيضاً، بكل ما في الكلمة من معنى، وخرقاً لاحترام نما خلال فترة المجموعة.

"لم أنتِ مستعجلة؟" قال لها وهو ينظر بخبث، يريد أن يدفعها، ولكنه لا يجرؤ على ذلك. لحسن الحظ، كانت الكحول التي شربها قد نفعت في تهدئته. ولكنها استطاعت أن تشتم رائحته، وهو يقف قبالتها، على بعد إنشات قليلة. "هل تواعدين أحداً؟".

"نعم، في الحقيقة" وأرادت أن تضيف بأن طوله ستة أقدام ونيف، وخبير بالكاراتيه، ولكن لم يخطر ببالها أحد مخيف بصورة كافية، أو سريع بشكل كافٍ، لإيقافه. خافت عندما أدركت الموقف الذي هي فيه.

"كلا، إنك لا تفعلين"، نفى ذلك. "كنتِ دائماً تقولين في المجموعة بأنك لا تريدين مواعدة أحد، ولن تفعلي ذلك أبداً. اعتقدت أنه بإمكاننا تناول العشاء معاً، وربما تغيرين رأيك". كان شيئاً سخيفاً من قبله، ووقحاً بما تعجز الكلمات عن وصفه. بالإضافة إلى أنه يخيفها، ولا تعلم كيف تعالج الموقف. لم تكن قد واجهت موقفاً كهذا منذ أن تزوجت تيد. تعرضت لعدد من السكيرين في مهجع الجامعة في إحدى المرات، وأخافوها حتى الموت إلى أن رآهم المراقب وجلب الأمن لإخراجهم. ولكن ليس هناك مراقب لإنقاذها الآن، بيب فقط.

"كان لطفاً منك أن تأتي"، قالت أوفيلي بلطف، متسائلة إن كانت تملك القوة الكافية لتغلق الباب بقوة في وجهه، رغم أنها أدركت أنه من المحتمل أن تكسر له ذراعه. "ولكن عليك المغادرة".

"لا. وأنت أيضاً لا تريدينني أن أرحل. أليس كذلك، عزيزتي؟ مم أنت خائفة؟ لقد انتهت المجموعة، يمكننا مواعدة أي شخص نريده الآن. أم أنك خائفة من الرجال وحسب؟ هل أنت امرأة شاذة؟" كان ثملاً أكثر مما اعتقدت في البداية، وأدركت فجأة أنها في خطر حقيقي. إن دخل إلى المنزل، فربما سيتسبب بأذى لها أو لبيب. معرفة ذلك منحتها القوة التي تحتاجها، ودون أي تحذير، باستخدام قوتها الكاملة، دفعته للخلف بيد واحدة، وطرقت الباب بالأخرى، وفي الوقت نفسه ظهر موس عند الدرج وبدأ بالنباح وقد أتى واثباً باتجاهها. لم يكن لديه أية فكرة عما يحدث، ولكن شيئاً ما أخبره بأن الأمور



ليست بخير، وكان على حق. كانت ترتجف وهي تضع سلسلة الباب، وتمكنت من سماعه يشتمها عند الجانب الآخر، ويصيح بعبارات قذرة. "أيتها الساقطة! أتعتقدين أنك تنفعينني؟" وقفت عند الجانب الآخر من الباب، ترتجف، وتشعر بأنها أكثر خوفاً وعرضة للمخاطر أكثر مما كانت عليه لسنوات. تذكرت فجأة بأنه انضم للمجموعة بسبب موت أخيه التوأم، ولم يبدُ أن بإمكانه تخطي الأمر. قُتل أخوه في حادث سير حيث صدمه السائق وهرب. وفي إحدى المرات راقبته وهي في المجموعة، وكان هذا أمراً نادر الحدوث، راودها شعور بأنه مفرط في غضبه لموت أخيه التوأم، كما أن إسرافه في الشرب لم يكن يساعده. أحسّت بانطباع واضح بأنه إن دخل إلى منزلها، فربما سيفعل شيئاً سيئاً لها أو لبيب.

ودون معرفة شيء آخر تفعله، فعلت تماماً كما كانت بيب تفعل، فذهبت إلى الهاتف واتصلت بمات. أخبرته عما حدث وسألته عن رأيه بالاتصال بالشرطة أم لا.

"هل ما يزال في الخارج؟" بدا غاضباً مما سمعه.

"لا، سمعته يقود سيارته بعيداً بينما أتصل بك".

"أظن أنك بأمان الآن، ولكنني أفضل أن تتصلي برئيس المجموعة. ربما يمكنه الاتصال به وقول شيء ما له. فربما يكون قد أفرط بالشرب فقط، ولكن هذا شيء حقير منه. يبدو كالمجنون". أو أسوأ من ذلك، كالمغتصب. ولكنه لم يرغب بإخافتها.

"إنه ثمل وحسب، ولكنه أخافني جداً. كنت أخشى إن دخل، فربما يتسبب بأذى لبيب".

"أو لكِ. بحق الله، لا تفتحي الباب لغرباء مثله". بدت فجأة عرضة للخطر برأيه وغير محمية. إنها كفوءة لذلك بالتأكيد، كما أثبتت خلال إنقاذ الصبي في البحر، ولكنها جميلة أيضاً، وتعيش وحدها مع فتاة صغيرة. ليست وحدها من أدرك مخاطر موقفها، بل هو أيضاً. "اجعلي رئيس المجموعة يتلو عليه قوانين

الشغب، وأخبريه أنك في المرة القادمة ستتصلين بالشرطة، وتجعلينهم يعتقلونه بسبب لحاقه بك. وإن عاد الليلة، اتصلي بالشرطة فوراً، ومن ثم اتصلي بي. يمكنني النوم على الأريكة إن كنت قلقة لذلك، لا أمانع المجيء".

"لا"، قالت له وقد بدت أكثر هدوءاً ثانية. "أنا بخير. كنت محتارة وخائفة لوهلة. لا بد من أنه كان يملك أفكاراً غريبة عني طوال الفترة التي قضيناها في المجموعة. هذا شعور بغيض، إنه أقل ما يمكن قوله".

عودتها إلى العزوبية كانت أمراً مزعجاً بما يكفي، ولكن تواجد أشخاص مثل جيرمي يحاولون الدخول إلى منزلها هو أكثر إزعاجاً. كونها عرضة للخطر الآن، أصبح إحدى الصعوبات في موقفها، ولكن كل ما يمكنها فعله هو الحذر، والوعي، وخاصة أن الأمر قد حدث. تعلم أنه ليس بإمكانها توقع أن يصبح مات حارسها الشخصي، أو أي شخص آخر لهذه المهمة. عليها أن تتعلم كيفية التعامل مع أشياء كهذه بنفسها. أصبحت أكثر أسفاً مما كانت عليه لانتهاء المجموعة. وتمنّت لو أن بإمكانها مناقشة كيفية التعامل مع أشياء كهذه معهم. بدلاً عن ذلك، شكرت مات لتعاطفه واهتمامه ونصيحته الجيدة، وفور انتهاء مكالمتها معه، اتصلت ببليك تومبسون، وكان غاضباً بشدة من ذلك أيضاً.

وعد بليك أن يتصل بجيرمي في اليوم التالي، عندما يعود له وعيه، ويتحدث معه مباشرة ليس فقط عن خرقه للثقة المقدسة للمجموعة، بل وعن إساءة استعمالها أيضاً. بدا جلياً أنها استعادت الهدوء مجدداً عندما اتصل مات بعد العشاء ليطمئن عليها. لم تقل الكثير لبيب لكي لا تخيفها، وإنما طمأنتها بأن الرجل غير مؤذٍ ولا يعني ذلك شيئاً، وربما كان هذا صحيحاً. كانت أوفيلي مقتنعة بأن هذا حادث عرضي، ولكنه أزعجها حقاً. حتى بيب شعرت بالراحة عندما رأتها منشغلة عن الأمر خلال العشاء، وبحلول الصباح التالي، بدت بخير عندما غادرت المنزل لتوصل بيب إلى المدرسة ومن ثم ذهبت إلى عملها في مركز ويكسلر.



اتصل بليك بأوفيلي عند الظهيرة، وأخبرها أنه قد تحدث مع جيرمي وقال بأن سيصدر أمر اعتقال ضده إن اقترب منها ثانيةً. قال إن جيرمي كان حزيناً جداً، واعترف بأنه قد ذهب إلى الحانة عندما انتهت المجموعة، وشرب طوال فترة الظهر، حتى انتهى به الحال أمام باب بيتها. وسيتلقى بعض جلسات المعالجة الخاصة مع بليك، وأخبرها أنه طلب منه الاعتذار لها. وقال بليك بأنه واثق من أن هذا لن يتكرر، ولكن ذلك أعطاها درساً جيداً لأن تكون حذرة ومنتبهة للغرباء، حتى أولئك الذين تعرفهم قليلاً. كان بانتظارها عالم جديد تماماً في الخارج، مليء بالشرور التي لم تواجهها من قبل أبداً، كامرأة متزوجة. لم تكن تلك فكرة مبهجة.

شكرت أوفيلي بليك لتعامله مع الموقف، وعادت إلى عملها، ونسيت الأمر بأكمله. وعندما عادت إلى المنزل في ظهيرة اليوم التالي، وجدت رسالة اعتذار من جيرمي على باب بيتها. أكد لها أنه لن يزعجها ثانيةً. كان من الواضح أن لكل شخص في المجموعة طريقته في التعامل مع التأثيرات المضطربة لفقدان دعم المجموعة. وهو كان أكثر خوفاً من الأغلبية. ولكن ذلك أظهر لها أنها ليست الوحيدة التي تشعر بالإحباط والصدمة. ففقدان المجموعة هو تغيير كبير، ونهاية للعلاقات بينهم. عليها الآن أن تخرج إلى العالم، كما فعل الجميع، وتحاول استخدام ما تعلمته.

حالما وضعت أوفيلي قدمها في المركز، نسيت مشاكلها الخاصة. انشغلت كثيراً حتى الساعة الثالثة، لم يكن لديها وقت لتتنفس. أحبت ما كانت تفعله، وكل شيء تتعلمه. قامت بإجراء قبولين ذلك اليوم. أحدها لوالدين مع طفليهما، وقد أتوا من أوماها، وفقدوا كل شيء. لم يكن لديهم ما يكفي للأكل، أو للعيش، أو لدفع الإيجار، أو للعناية بالأطفال، كما وفقد كل من الزوج والزوجة عمليهما. ليس لديهم أحد للالتجاء إليه، ولكنهم يحاولون ببسالة الوقوف على أقدامهم ثانيةً، وفعل المركز كل ما بوسعه لمساعدتهم، بما في ذلك إعطاؤهم قسيمة للحصول على المواد الغذائية، وضمهم إلى قائمة البطالة، وتسجيل

طفليهما في المدرسة. وكان عليهم الانتقال إلى ملجأ دائم خلال أسبوع، وبمساعدة المركز، بدا أنهم قادرون على الاحتفاظ بطفليهما معهما، وذلك ليس بالإنجاز القليل. كادت أوفيلي أن تبكي، وهي تستمع لهم، وتتحدث مع الطفلة الصغيرة، التي كانت بنفس عمر بيب تماماً. كان من الصعب تخيل كيف يصل الأشخاص لهذا المستوى، ولكن ذلك ذكرها ثانيةً بكم هي وبيب محظوظتان. تخيلت لو أن تيد قد مات وتركهما مشردتين دون شيء. لا يمكنها التفكير بذلك.

القبول الثاني الذي سجلته أوفيلي هو لأم مع ابنتها. الأم في أواخر العقد الثالث من عمرها ومدمنة على الكحول، والابنة في السابعة عشر ومدمنة على المخدرات. كانت الابنة تعاني من نوبات اختلاجية كنتيجة لاستخدام المخدرات أو لسبب آخر، ومضى عليهما وهما في الشارع سنتان. ازدادت الأمور تعقيداً عندما اعترفت الابنة لأوفيلي بأنها حامل في الشهر الرابع، ولا شيء في ذلك يجلب السرور. قامت مريم وإحدى الموظفات الماهرات بأخذهما للإصلاحية، مع مساعدات طبية، وعناية ما قبل الولادة للابنة. خرجتا من المركز وانضمتا لمؤسسة أخرى في المساء، وهما في طريقهما إلى الإصلاحية في الصباح.

بحلول نهاية الأسبوع، شعرت أوفيلي وكأنها مصابة بالدوار، ولكنها أحبت ذلك. لم تشعر بأنها ذات فائدة من قبل طوال حياتها، أو بتعاطفها مع الآخرين، مثلما هي الآن. رأت وتعلمت أشياء كثيرة كان من الصعب تخيلها قبل أن تراها وتسمع عنها. لمرات كثيرة في اليوم رغبت بأن تخفض رأسها وتبكي، ولكنها علمت أنه ليس بإمكانها ذلك. لا يمكنها جعل المحتاجين يعلمون مدى مأساوية وضعهم، أو كم هو ميؤوس منهم. في معظم الأحيان، كان من الصعب تخيل أنهم سيتغلبون على أوضاعهم المأساوية أبداً، ولكن البعض تمكن من ذلك. وسواء أقاموا بذلك أم لا فهي، كجميع من في المركز، موجودة هناك لفعل كل شيء يمكنها القيام به لمساعدتهم. تأثرت كثيراً بكل شيء تعرضت له لدرجة أن أسفها الكبير كان أنها لا تتمكن من إخبار تيد عن ذلك، عندما تذهب



إلى المنزل كل ليلة. أحبت الاعتقاد بأنه سيكون متأثراً جداً بذلك. وبدلاً من ذلك، شاركت كل ما يبدو معقولاً مع بيب، دون إخافتها بإفراط. كانت بعض القصص كئيبة جداً أو رهيبة أحياناً. توفي رجل على الباب هذا الأسبوع، وهو في طريقه إلى المركز، بسبب الكحول، وإصابته بالفشل الكلوي، وسوء التغذية. ولكنها لم تخبر بيب عنه أبداً.

بحلول ظهر يوم الجمعة، كان من الواضح لأوفيلي أنها قد قامت بالقرار الصائب. وتعزز ذلك بشدة من قبل مرشديها، وموجهيها في العمل وزملائها. فمن الواضح أنها ستكون مصدر نفع في المركز، وشعرت، ولأول مرة منذ سنة، بأنها قد وجدت بعض الأهداف والاتجاهات المثمرة.

كانت على وشك المغادرة عندما ظهر جيف مانيكس من الفريق الخارجي أمامها، وتوقف لتناول كوب من القهوة.

"كيف الأحوال؟ أسبوع مليء بالعمل؟" سألها بابتسامة.

"يبدو كذلك بالنسبة لي. ليس لديّ شيء لأقارنه به، ولكن إن انشغلنا هنا أكثر، فربما سنقفل الباب كي لا يدوسنا أحد".

"يبدو هذا صحيحاً". ابتسم لها، وأخذ رشفة من القهوة الساخنة. كان قد مرّ لتفحص المؤن، فهم يضيفون بعض الدعم الطبي والصحي لإعاناتهم المعتادة. في معظم الوقت، لم يكن يأتي إلى العمل حتى الساعة السادسة، ويبقى في الشوارع حتى الثالثة أو الرابعة صباحاً. كان من السهل معرفة أنه يحب ما يفعله.

تحدثا لدقيقة عن الرجل الذي مات عند مدخل الباب يوم الأربعاء. كانت أوفيلي ما تزال حزينة جداً عليه.

"أكره القول، ولكن أرى من أمثاله كثيراً هناك في الخارج، فلم يعد ذلك يفاجئني. لا يمكنني إخبارك كم عدد الأشخاص الذين أحاول إيقاظهم، وعندما أديرهم... يكونون قد فارقوا الحياة. ليس من الرجال فقط، بل نساء أيضاً". ولكن هناك قليل من النساء في الشوارع. فالنساء يملن للذهاب إلى الملاجئ،

رغم أن أوفيلي قد سمعت قصصاً مريعة عن ذلك. فقد قامت بقبول امرأتين في الأسبوع الماضي أخبرتاها أنه قد تم اغتصابهما في الملاجئ، وهو أمرٌ ليس غريباً. "تعتقدين أنك ستعتادين على الأمر"، قال لها بكآبة، "ولكن لا يحدث ذلك أبداً". ومن ثم نظر إليها وهو يقيّمها. كان قد سمع أشياء جيدة عنها طوال الأسبوع. "متى ستأتين معنا إذاً؟ عملتِ مع الجميع هنا. سمعتِ أنكِ بارعة في القبولات والتزويد بالمؤن. ولكن اعتبري أنكِ لم تري شيئاً حتى تخرجي مع بوب، وميلسي وأنا. أو هذا كثير جداً عليك؟" كان ذلك تحدياً لها، وقصد ذلك حقاً. بقدر ما يحترم زملاءه في العمل، فإنه يشعر هو والفريق الخارجي بأنهم يقومون بأهم عمل في المركز. فهم يتعرضون لخطر كبير، ويقدمون عناية فورية في الليلة أكثر مما يفعله المركز على مدار الأسبوع. واعتقد أن أوفيلي يجب عليها رؤية ذلك أيضاً.

"لست واثقة من أنني سأجدي نفعاً"، قالت أوفيلي بصدق. "أنا جبانة بعض الشيء. وقد سمعت أنكم الأبطال هنا. ربما سأكون خائفة لدرجة لا أخرج فيها من الشاحنة".

"نعم، ربما لخمس دقائق فقط. بعد ذلك سوف تنسين الأمر، وتفعلين ما يتوجب عليك فعله. تبدين شجاعة برأيي". كانت هناك إشاعة بأنها تمتلك الكثير من المال، ولم يكن أحد واثقاً من معلوماته، ولكن أحذيتها بدت باهظة الثمن، وملابسها أنيقة جداً وتلائمها بشكل جيد، وعنوان منزلها في باسيفيك هايتس. ولكنها تعمل بمثابرة كغيرها تماماً، وبرأي لويز أكثر منهم أيضاً. "ماذا ستفعلين الليلة؟" ضغط عليها، وشعرت بأنها محرجة ومتأثرة. "ألديك موعد مع أحد؟" سأل بقليل من الفظاظة. ولكن بالرغم من عدوانيته تلك، أعجبت به. إنه شاب أنيق وقوي، ويهتم بشدة بما يفعله. أخبرها أحدهم بأنه كاد أن يُطعن مرة في الشوارع، ولكنه عاد إلى هناك في اليوم التالي. ربما يبدو متهوراً، ولكنه برأيها رائع أيضاً. كان قادراً على المخاطرة بحياته.



"لا أواعد أحداً"، قالت ببساطة. "لديّ طفلة صغيرة، وسأكون في المنزل معها. وعدتها أن آخذها لمشاهدة فيلم". لم يكن لديهما أي خطط أخرى في عطلة نهاية الأسبوع، سوى المباراة الأولى في كرة القدم لبيب في اليوم التالي.

"خذيها غداً. أريدك أن تخرجي معنا. كنت أتحدث أنا وميلي عن ذلك البارحة. يجب أن تري ما يحدث، على الأقل لمرة واحدة فقط. لن تعودي كما أنت بعد أن تفعلي ذلك".

"وخاصة إن تعرضت للأذى"، قالت بصراحة، "أو للقتل. أنا كل من تبقى لطفلتي في هذا العالم".

"هذا ليس بالأمر الجيد"، قال وهو يعبس. "يبدو أنك تحتاجين للمزيد في حياتك، أوبي". وجد اسمها جميلاً، ولكنه صعب اللفظ، وقرر أن يمزح معها عندما يلتقي بها. "هيا، سنعتني بك. ما رأيك؟".

"ليس لديّ أحد أتركها معه"، قالت أوفيلي وهي مستغرقة بالتفكير، وتشعر بالإغراء لتذهب، ولكن بالخوف أيضاً. كان من الصعب مقاومة تحديه.

"في الحادية عشرة؟" قلب نظره بين اتجاه وآخر، فأنارت ابتسامته العاجية الكبيرة وجهه البني الغامق. كان رجلاً وسيماً، وبطول يبلغ الستة أقدام ونصف. كان من مغاوير البحرية في السابق، وذلك لمدة تسع سنوات.

"وأنا في عمرها، كنت أعتني بخمسة أخوة، وأخرج أمي من السجن كل أسبوع. كانت عاهرة". بدا ذلك مفهوماً بسيطاً، ولكنه حقيقي، والأمر الذي لم يخبرها إياه، ولكنها سمعته من الآخرين بأنه كان شخصاً عظيماً، وأنشأ عائلة رائعة من الأشقاء. أحد إخوته دخل جامعة برينستون بواسطة منحة دراسية، والآخر دخل جامعة ييل، وكلاهما كان محامياً. أخوه الأصغر كان يدرس ليصبح طبيباً، وآخر كان من أعضاء المجلس التشريعي، يتولى أمور العنف الداخلي في المدن، والخامس لديه أربعة أطفال، ويسعى ليصبح عضواً في الكونغرس. كان جيف رجلاً لا مثيل له، ومقنعاً بشدة. فقد أخذت أوفيلي تفكّر بجدية بالذهاب إلى الشوارع معه، رغم أنها كانت قد أقسمت بأنها لن تفعل

ذلك. بدا خطيراً جداً عليها. "هيا، ماما... امنحينا فرصة. لن ترغبي بعدها بالجلوس خلف هذا المكتب ثانية، بعد خروجك معنا! نحن من يسبب حدوث كل هذا هنا... ولماذا نقوم جميعنا بهذا العمل. إننا نغادر في السادسة والنصف... كوني هنا". كان ذلك أشبه بأمر من كونه دعوة، قالت أوفيلي إنها سترى ما يمكنها فعله. كانت ما تزال تفكّر بالأمر، بعد نصف ساعة، عندما أخذت بيب من المدرسة. وظلت هادئة طوال الطريق للمنزل.

"هل أنت بخير، أمي؟" سألت بيب، بقلقها المعتاد، ولكن أوفيلي طمأنتها بأنها بخير. راقبتها بيب، وقررت أن توافق على ذلك. تعلم بيب معظم علامات الخطر الآن التي تنبئ بأن حالة أمها تزداد سوءاً. إلاّ أنها تبدو الآن محتارة وحسب، ولكن ليس مكتئبة أو منزعجة. "ماذا فعلت اليوم في المركز؟".

كعادتها، أخبرتها أوفيلي القصة بعد الحذف منها، ومن ثم أجرت اتصالاً هاتفياً من غرفة نومها. قالت المرأة التي تدير لها منزلها عدة مرات في الأسبوع بأنه يمكنها الجلوس مع بيب تلك الليلة، وطلبت أوفيلي منها المجيء في الساعة الخامسة والنصف. لم تكن واثقة كيف ستشعر بيب حيال ذلك، ولا تريد أن تخيب أملها، ولكن كما ظهر أخيراً، كانت بيب تفضل الذهاب إلى الفيلم يوم السبت على أية حال. كانت ستلعب كرة القدم في الصباح التالي، ولا ترغب بأن تكون متعبة بشدة. شرحت أوفيلي لها بأن هناك شيئاً يجب القيام به في المركز وتريد أن تنضم إليهم. وقالت بيب بأنها لا تمانع في ذلك على الإطلاق. كانت سعيدة لأن أمها تقوم بشيء تستمتع به. كان ذلك أفضل بكثير من مراقبتها وهي نائمة طوال اليوم في غرفتها، أو تتجول في المنزل ببطء طوال الليل وهي قلقة، كحالها طوال السنة الماضية.

كما وعدت، ظهرت أليس، مدبرة المنزل، في الساعة الخامسة والنصف تماماً، وعندما غادرت أوفيلي، كانت بيب تشاهد التلفاز. ارتدت أوفيلي بنطال جينز وكنزة سميكة، وسترة ضيقة وجدتها في خزانتها، وحذاء مشي طويل لم تكن قد ارتدته منذ سنوات. وأحضرت معها غطاء رأس صوفي وقفازات في



حال كان الطقس بارداً. كان جيف قد حذرها من أنه سيكون كذلك. مهما كان الفصل في سان فرانسيسكو، يكون الطقس بارداً في الليل، وحتى في معظم أيام الصيف. كان هناك نسيم مميز في أثناء الليل خلال الأسابيع القليلة الماضية. أخذوا معهم كعكاً محلى، وشطائر، وترمس قهوة، وتعلم هي كما قال جيف لها بأنهم سيتوقفون عند محلات ماكدونالد وهم في طريقهم خلال الليل. مهما كانوا قد خططوا له، فإنها جاهزة بأفضل ما يمكنها. وبينما كانت تركن سيارتها بالقرب من المركز، راودها شعور مؤكد بالذعر. وما عدا ذلك، تعلم أنها ستكون ليلة ممتعة. وربما أفضل ليلة في حياتها. وعلمت أنه لو عرفت أندريا أو مات أو بيب بالأمر، سيحاولون منعها عن ذلك، أو إخافتها بشدة. وكانت خائفة أيضاً.

وفي طريقها إلى المرآب، خلف مركز ويكسلر، رأت جيف، وبوب وميلي يحملون المؤن. كانوا يضعون الصناديق وأكياس النجاة في إحدى الشاحنات، وأكياس معدات النوم والملابس في الأخرى. التفت جيف مبتسماً عندما رآها، وبدا مسروراً.

"واو... واو... أهلاً أوفيلي... مرحباً بك في العالم الحقيقي". لم تكن واثقة إن كان ذلك تشجيعاً أو إحباطاً، ولكن مهما كان، بدا سعيداً برؤيتها، وابتسمت ميلي لها أيضاً.

"أنا سعيدة لأنكِ تمكّنت من المجيء"، قالت لها بهدوء، وعادت إلى العمل. استغرق الأمر نصف ساعة قبل أن ينتهوا من التحميل، بمساعدة أوفيلي. كان عملاً يكسر الظهر، مع أن العمل الحقيقي لم يبدأ بعد. وحالما انتهوا، أخبرها جيف بأن تركب مع بوب في الشاحنة الثانية.

أشار لها الرجل الأسيوي الهادئ في الشاحنة إلى المقعد الجانبي، فقد تمت إزالة بقية المقاعد لإضافة مساحة من أجل معداتهم.

"هل أنت واثقة من أنك تريدين القيام بذلك؟" سألها بهدوء، وهو يدير مفتاح السيارة. فهو يعرف جيف وطريقته القوية في جعل الأشخاص يقومون

بالأشياء، وأعجبه أنها أتت. كانت تتحلى بالشجاعة. لم تكن ترغب بفعل ذلك، لا يتوجب عليها إثبات أي شيء لأحد. بدت وكأنها تأتي من حياة مختلفة. ولكنه أراد منحها الشجاعة لأنها تمكنت من المجيء، ولأنها قادرة على مواجهة الخطر، وحتى المخاطرة بحياتها.

"هذا ليس مطلوباً منك، تعلمين ذلك. يطلقون علينا لقب منظمة رعاة البقر، وجميعنا مجانين بعض الشيء. لن يعتقد أحد بأنك جبانة إن عدت". كان يقدم لها فرصة الذهاب الآن، قبل أن يتأخر الوقت. فكّر أن ذلك منطقي، فليس لديها أية فكرة عما سيحدث.

"سيعتقد جيف أنني جبانة". ابتسمت له، وضحك لها.

"نعم، ربما. إذاً ماذا؟ من يأبه لذلك. هل تريدين الذهاب، أوبي؟ أو تريدين الانطلاق؟ على أية حال، لا عار في ذلك. قرري". فكّرت للحظة طويلة، ونظرت إلى بوب لفترة طويلة. أخذت نفساً، ولأجزاء من الثانية، كانت جاهزة لتغير رأيها، ومن ثم نظرت إليه، وأدركت أنها تشعر بالأمان معه. لا تعرفه منذ زمن، ولكنها أحست أن بإمكانها الوثوق به، وكانت محقة. عندها أطلقت الشاحنة الثانية زموراً. لقد نفد صبر جيف، ولم يفهم سبب التأخير، بينما كان بوب ينتظر قرار أوفيلي. "معنا أو للخارج؟".

تنهّدت ببطء وهي تنظر إليه، وخرجت الكلمات من فمها تلقائياً. "معكم".

"حسناً!" قال لها بابتسامة عريضة وهو يضغط على البنزين، فانطلق موكب الشاحنتين من المرآب. كانت الساعة السابعة مساءً.



# 16

خلال الساعات الثماني التالية، رأت أوفيلي أشياء لم تكن تحلم بوجودها أبداً، وبالتأكيد ليست على بعد أميال قليلة من منزلها. ذهبوا إلى مناطق لم تعرفها طوال حياتها، إلى نهايات أزقة جعلتها ترتعد، ورأت أناساً أبعد مما يمكن لبصرها إدراكه، فكاد ذلك يمزق قلبها. أشخاص يملأ وجههم الجرب، وجسمهم مغطى بالقروح، ومزق تغطي أقدامهم بدلاً من الأحذية، حتى أن بعضهم لا يمتلك تلك المزق أيضاً، بقدمين حافيتين وأحياناً نصف عراة في البرد. وأحيان أخرى، تبدو عليهم النظافة والأناقة والاحترام، يختبئون في الزوايا أسفل الجسور وينامون على ألواح من الكرتون أو الصحف على الأرض القذرة. وفي كل مكان ذهبوا إليه، تبعهم الشكر والدعاء وهم يغادرون. كانت ليلة بطيئة وطويلة ومؤلمة. ولكن في الوقت نفسه، لم تكن أوفيلي قد شعرت بنفس الطمأنينة أو المتعة أو الإحساس بهدف وجودها كتلك الليلة، باستثناء الليالي التي وضعت بها تشاد وبيب ربما. كانت تلك الليلة تشبهها تقريباً.

في معظم الوقت، تحركت هي وبوب كجسد واحد. لم يكن بحاجة أن يخبرها ما تفعل. كل ما عليكِ فعله هو إتباع قلبك، وما تبقى واضح. حيث يكون هناك حاجة لمعدات النوم، أو لملابس دافئة، تمنحينها لهم. أما جيف وميلي فكانا يوزعان الأدوية والدعم الصحي. وعندما وجدوا مخيماً من الهاربين بقرب رصيف الشحن بعيداً عن جنوب السوق، دوّن بوب الموقع عنده. وشرح لأوفيلي أن هناك برنامجاً خارجياً للهاربين اليافعين. سيعطيهم

العنوان في الصباح، وسيأتون إلى هنا ويتحدثون معهم. القليل منهم فقط مستعد لترك الشوارع. وهم لا يثقون بالملاجئ والبرامج، ويفوقون البالغين في ذلك، كما أنهم لا يرغبون بأن يُرسلوا إلى أوطانهم. وفي أكثر الأحيان، يكون اليافع قد لاقى أشياء أكثر سوءاً في المكان الذي هرب منه من تلك التي يجدها في الشوارع.

"الكثير منهم قد قضى سنوات هنا في الخارج، فالشوارع تكون أحياناً أكثر أماناً لهم من المكان الذي كانوا فيه. تحاول البرامج إعادة توحيدهم مع عائلاتهم، ولكن لا أحد منهم يأبه لذلك. حتى أن آباءهم لا يأبهون لمكان تواجدهم. يأتون إلى هنا من جميع أنحاء البلد، يتجولون هنا وحسب، ويعيشون في الشوارع إلى أن يكبروا".

"وماذا يحدث بعدها؟" سألت أوفيلي بنظرة من اليأس. لم تكن قد رأت أشخاصاً بمثل هذه الحاجة الشديدة من قبل، مع القليل القليل من الإعانات. كانوا تقريباً، أو كذلك بدوا، حالات ميؤوس منها. وكما أطلق عليهم بوب: *الأشخاص المنسيون*. ولم تكن قد رأت أشخاصاً ممتنين بهذا الشكل حتى للمساعدات الصغيرة التي يحصلون عليها. البعض منهم وقف وبكى.

"أعلم ذلك"، قال بوب عندها، عندما عادت إلى الشاحنة وهي تبكي. "أبكي أحياناً بيني وبين نفسي. يؤثر اليافعون بي كثيراً... والعجزة أيضاً... تعلمين أنهم لن يعيشوا هنا في الخارج كثيراً. ولكن هذا كل ما يمكننا فعله لأجلهم. هذا كل ما يريدونه. لا يريدون المجيء إلينا. ربما لا يبدو هذا منطقياً لنا ولكنه كذلك بالنسبة لهم. إنهم تائهون جداً، أو مرضى جداً، أو محطمون بالكامل. لا يمكنهم التواجد في أي مكان إلا هنا. وبما أن الموارد الفيدرالية قد انخفضت منذ سنوات، لم يعد لدينا مصحات عقلية لاستضافتهم، وحتى أولئك الذين يبدون بخير، ليسوا كذلك على الأرجح. هناك الكثير من الأشخاص المصابين بالأمراض العقلية في الخارج، هذا هو نتيجة إدمان المواد، والكثير من العلاج الشخصي للبقاء على قيد الحياة وحسب. ومن يلومهم؟ تباً، لو كنت



أنا هنا في الخارج، فربما كنت مدمناً على المخدرات أيضاً. ماذا لديهم ليفعلوه سوى ذلك؟".

تعلمت أوفيلي في تلك الليلة الكثير عن العرق البشري أكثر مما تعلمته طوال حياتها. كان درساً تعرف أنها لن تنساه أبداً. وعندما توقفوا لتناول الهمبرغر عند ماكدونالد في منتصف الليل، شعرت بالذنب لتناولها. كانت تبتلع الطعام والقهوة الساخنة بصعوبة، بسبب معرفتها أن هناك أشخاصاً حولها في الشوارع يتضورون جوعاً وبرداً، والذين كانوا ليقدموا كل ما لديهم من أجل فنجان من القهوة أو سندويتش البرغر.

"كيف الأحوال؟" سألها جيف، بينما كانت ميلي تخلع قفازيها. كان الجو بارداً، وكانت أوفيلي ترتدي قفازيها أيضاً.

"إنه مذهل. أنتم حقاً تفعلون أشياء رائعة"، قالت أوفيلي بإعجاب للثلاثة. لم تتأثر بحياتها كذلك من قبل أبداً. والأكثر من ذلك أنّ بوب كان متأثراً جداً بها. كانت محترمة ومتعاطفة، دون أن تظهر شعوراً بالتعالي أو التظاهر. عاملت كل شخص بما يستحقه من الإنسانية والاحترام، وعملت بجد. تحدث عنها كثيراً لجيف في طريقهم إلى الخارج، وأومأ جيف. عرف ما كان يفعله عندما طلب منها القدوم. الجميع قال إنها رائعة، وأرادها أن تنضم للفريق الخارجي قبل أن تنهمك في الأعمال الورقية في المركز. أحس على الفور أنها ستكون عضواً قيماً للفريق الخارجي، إن تمكن من جعلها تشترك. المخاطر التي يتعاملون معها كل ليلة، ولساعات طويلة، تجعل الناس يبتعدون عن العمل معهم. ومعظم المتطوعين وحتى الطاقم يخاف جداً من ذلك، بما فيهم الرجال.

توجهوا إلى بوتريرو هيل بعد الاستراحة، وإلى هانترز بوينت بعدها. وكانت منطقة ميشن هي موقعهم الأخير. عند وصولهم هناك، حذرها بوب بأن تبقى خلفه وتكون حذرة. أخبرها أنه بالإضافة إلى العدائية والهمجية، كانت الإبر القذرة هي سلاحهم. وبينما كان يقول ذلك، فكّرت بيبب. لا يمكنها تحمل الإصابة بالأذى أو الموت. ذكرها ذلك، وحتى لو لثانية واحدة، بأنها مجنونة

لخروجها إلى هناك. ولكن التواجد هناك كان كدواء لها، فقد أدمنت عليه مسبقاً حتى قبل خروجها معهم. ما كانوا يفعلونه هو أكبر عمل عظيم من العطاء والاهتمام يمكنها تخيله. يضع هؤلاء الأشخاص حياتهم في خطر كل ليلة. دون مساعدة، دون سلاح، ودون دعم، يذهبون في مهمة الرحمة التي تشكل الخطر على حياتهم. ومع ذلك، كل شيء كان يبدو منطقياً. تفاجأت بأنها لم تكن متعبة حتى عندما قادوا الشاحنة أخيراً عائدين بها إلى المرآب. كانت مفعمة بالحيوية، وتشعر بأنها نشيطة بالكامل، ربما أكثر من أي يوم في حياتها.

"شكراً، أوبي". قال بوب بلطف وهو يطفأ المحرك. "قمت بعمل عظيم". قصد ذلك حقاً. فقد قامت بذلك.

"شكراً لك"، قالت له مبتسمة. كان ذلك بالنسبة لها ثناءً كبيراً منه. أحبته حتى أكثر من جيف. بوب شخصية هادئة ومجدة ولطيفة مع الأشخاص الذين يتعامل معهم، وهو يحترمها جداً. عرفت في الساعات التي قضياها سويةً أن زوجته قد ماتت بالسرطان قبل أربع سنوات. وهو يقوم برعاية أطفاله الثلاثة، بمساعدة أخته. عمله في الليل يسمح له بقضاء وقته معهم في النهار. لم يبدُ أن المخاطر تقلقه، فقد كانت أسوأ عندما كان شرطياً. إنه يحصل على معاش تقاعد من الشرطة، لذلك يمكنه تحمل المبلغ القليل الذي يتلقاه من ويكسلر. وبالرغم من كل شيء، إنه يحب عمله. وكان راعٍ للبقر أقل من جيف. كان لطيفاً بشكل لا يصدق معها طوال الليل، وتفاجأت عندما اكتشفت بأنها ساهمت معه بالقضاء على علبة كاملة من الكعك المحلى. تساءلت إن كان التوتر قد سبب جوعها، أو العمل فحسب. مهما كان، كانت تلك إحدى أكثر الليالي روعة وأهمية في حياتها. وخلال تلك الساعات السحرية بين السابعة مساءً والثالثة صباحاً أصبحت هي وبوب صديقين. وعندما شكرته، شعرت بذلك من صميم قلبها.

"أراكِ يوم الاثنين؟" سأل جيف، ونظر مباشرة إلى عينيها، عندما وقفا في المرآب. كان شديد الصرامة أكثر من قبل، وبدت أوفيلي متفاجئة.



"تريديني أن آتي مرة أخرى؟".

"تريدك معنا في الفريق". كان قد قرر ذلك في منتصف طريقهم في الليل، بالنظر إلى ما رآه وما قاله بوب عنها.

"عليّ أن أفكّر بالأمر قليلاً"، قالت بحذر، ولكنها شعرت بالإطراء على أية حال. "لا يمكنني المجيء كل ليلة". ولا يجب عليها ذلك أبداً، فليس ذلك عدلاً من أجل بيب. ولكن ماذا عن جميع هؤلاء الأشخاص، وجميع الوجوه، وجميع الأرواح النائمة على جانبي الطريق وتحت سكك الحديد وأرصفة الشحن. وكأنها سمعت نداءً، وعرفت أن ذلك ما تنوي فعله، مهما كان الخطر كبيراً. "لا يمكنني القيام بذلك أكثر من يومين في الأسبوع. لديّ طفلة صغيرة".

"لو كنت على علاقة بأحد، لخرجت أكثر من ذلك، وقلتِ أنك لست كذلك". كان على حق. لا يتفنن جيف في قول الحق، أو يتردد أبداً.

"هل يمكنني التفكير بالأمر؟" شعرت بأنها مضغوطة، ولكن هذا ما أراده. أرادها في الفريق، بدون شروط.

"هل تحتاجين لذلك؟ حقاً؟ أعتقد أنك تعرفين ما تريدينه". كانت كذلك بالفعل. ولكنها لا تريد القيام بشيء متهور أو غبي، بسبب مشاعر تلك الليلة. والمشاعر تتدفق كثيراً، وبخاصة لها، لأن كل شيء جديد عليها. "هيا، أوبي. احسمي الأمر. نحتاج إليك... وكذلك هم..." ناشدتها عيناه.

"حسناً". قالت غير قادرة على التنفس... "حسناً. مرتان في الأسبوع". عنى ذلك أنها ستعمل ليلتي الثلاثاء والخميس بدلاً من الاثنين والأربعاء والجمعة.

"لك ذلك"، قال وهو يبتسم لها بابتهاج، ورفع إشارة الترحيب بها، بينما كانت تضحك.

"يصعب مقاومتك".

"هذا صحيح"، قال لها، "ولا تنسي ذلك. عمل جيد، أوبي... أراك ليلة

الثلاثاء!" لوّح لها وذهب. دخلت ميلي إلى سيارة مركونة أمام المرآب، ومشى بوب معها إلى سيارتها وشكرته ثانيةً.

قال لها بلطف: "في أي وقت تريدين التوقف عن العمل، يمكنك ذلك. نحن لا نوقع بالدم هنا". ذكرها، وذلك خفف من خوفها. فقد قامت لتوها بالتزام شنيع، ولا يمكنها تخيل ما سيقوله الناس إن أخبرتهم. لم تكن واثقة من أنها ستفعل ذلك... على الأقل الآن.

"شكراً لدعمك".

"أي شيء تفعلينه، مهما كانت مدته، هو فعّال وله أهمية. جميعنا يقوم بذلك للمدة التي يستطيعها. وعندما لا تتمكنين من ذلك، فإن كل شيء بخير أيضاً. هوني عليك، أوبي"، قال لها، وهي تدخل إلى سيارتها. "أراك الأسبوع القادم".

"تصبح على خير، بوب"، قالت بلطف، وقد بدأت أخيراً تشعر بالتعب. لقد اتخذت قرارها في الليل، وتساءلت كيف ستكون مشاعرها في الصباح. "شكراً لك ثانيةً...".

لوّح لها، أخفض رأسه ومشى إلى أسفل الشارع قاصداً سيارته. وبينما كان يفعل ذلك، أحست بمشاعر الابتهاج لأنها أصبحت واحدة منهم الآن. أصبحت راعية بقر. مثلهم تماماً. واو!



# 17

عندما عادت أوفيلي إلى منزلها تلك الليلة، أجالت نظرها فيه وكأنها تراه للمرة الأولى. تلك الرفاهية، والراحة، والألوان، والدفء، والطعام الذي يملأ الثلاجة، وحوض الاستحمام والمياه الدافئة داخله. بدت جميعها أشياء ثمينة فجأة، تمدّدت في حوض الاستحمام ونقعت نفسها فيه مدة ساعة تقريباً، فكّرت بما قد رأته، وما فعلته، وما التزمت به لتوها. لم تكن قد شعرت بأنها محظوظة في حياتها من قبل مثل الآن، أو غير خائفة أيضاً. عند مواجهة ما كانت تخاف منه بشدة، وهو موتها في الشوارع، لم تعد الأشياء الأخرى تبدو خطيرة. تماماً كالأشباح التي في رأسها، وشعورها بالذنب لأنها دفعت تشاد ليذهب مع تيد، وحتى أحزانها تلك التي بدت مؤلمة بعمق. إن تمكنت من مواجهة أخطار الشوارع، ثم نجت بعدها، سيبدو كل ما تبقى أسهل بكثير للتعامل معه. وعندما تمدّدت في السرير بالقرب من بيب، التي كانت قد اختارت أن تنام في سرير أمها ثانية تلك الليلة، لم تكن ممتنة في حياتها لوجود طفلتها كتلك الليلة، وللحياة التي تعيشانها معاً. نامت ويداها حول طفلتها، تمنحها الشكر الصامت، ثم استيقظت فجأة عندما سمعت المنبه. للحظة، لم تتمكن حتى من معرفة أين هي. كانت تحلم بالشوارع وبالأشخاص الذين رأتهم هناك. عرفت أنها ستتذكر تلك الوجوه طيلة حياتها.

"ما الوقت الآن؟" سألت وهي تطفأ المنبه وتضع رأسها على الوسادة بالقرب من بيب.

"الساعة الثامنة. لديّ مباراة في التاسعة، أمي".

"أوه... حسناً..." ذكرها ذلك بأنه ما يزال أمامها حياة تعيشها... مع بيب. وربما ما قامت به تلك الليلة كان أكثر من مجرد جنون صغير. ما كان سيحدث لبيب إن أصيبت بأذى؟ بالرغم من كل شيء لم يبدُ ذلك محتملاً، فقد بدا الفريق فعالاً جداً، كما أنهم لم يجازفوا بتعريض أنفسهم لأي خطر. المخاطر مكانها الشوارع، ولكنهم أشخاص يدركون ما يفعلونه. ولكن الأمر ما يزال مخيفاً بعض الشيء على أية حال. فلديها مسؤوليات تجاه بيب، والتي هي بالأصل رقيقة في مشاعرها أيضاً.

كانت ما تزال تفكّر بالأمر عندما نهضت وارتدت ملابسها، ونزلت إلى الأسفل لتعد الفطور لبيب.

"كيف كانت ليلة الأمس، أمي؟ ماذا فعلت؟".

"أشياء رائعة بعض الشيء. عملت مع الفريق الخارجي في الشوارع". أخبرت بيب القصة المُعدلة عما فعلته هناك.

"هل هذا خطير؟" بدت بيب قلقة، ثم أنهت عصير البرتقال وبدأت بالبيض المخفوق.

"إلى حدٍّ ما". لم ترغب أوفيلي بالكذب عليها. "ولكن الأشخاص الذين يقومون بهذا العمل حذرون جداً، ويعرفون ما يفعلونه. لم أرَ أحداً خطيراً هناك في الليلة الماضية. ولكن تحدث بعض الأشياء حقاً في الشوارع". لم تتمكن من إنكار خطر ذلك عليها.

"هل ستفعلين ذلك ثانيةً؟" بدت بيب قلقة.

"أرغب بذلك حقاً. ما رأيك؟".

"هل أحببت القيام بذلك؟" سألتها بعقلانية.

"نعم، كثيراً. يحتاج هؤلاء الأشخاص للكثير من المساعدة".

"إذاً، قومي بذلك، أمي. ولكن كوني حذرة وحسب. لا أريدك أن تتعرضي للأذى".



"ولا أنا أيضاً. ربما سأجرب ذلك عدة مرات فقط، وأرى كيف سأشعر. إن بدا الأمر خطراً جداً بعد مرات قليلة، سأتوقف".

"يبدو هذا جيداً. وبالمناسبة"، قالت وقد أدارت رأسها وهي تتوجه للأعلى لتحضر حذاءها الرياضي. "أخبرت مات أن بإمكانه القدوم إلى اللعبة إن رغب بذلك. قال إنه يريد الحضور".

"لكن الوقت باكر بعض الشيء. ربما لن يتمكن من القدوم". لم ترغب أوفيلي بإحباطها، ولم تعرف مدى جدية عرض مات. "أخبرت أندريا أن بإمكانها الحضور أيضاً. لديك فريق تشجيع كامل".

"آمل أن ألعب بشكل جيد". قالت وهي ترتدي كنزتها القطنية. كانت جاهزة للذهاب. أجلست أوفيلي موس في المقعد الخلفي. وخلال دقائق، توجهتا إلى ساحة اللعب في حديقة جولدين جيت، حيث يلعبون هناك. كان الطقس لا يزال ضبابياً، ولكنه بدا وكأنه سيصبح لطيفاً في النهاية. وبينما هم في السيارة، وأدارت بيب الراديو بصوت عالٍ بعض الشيء، وجدت أوفيلي نفسها تفكّر ثانيةً بما رأته في الليلة السابقة، الفقراء الذين يقطنون في الخيام والعلب، والذين ينامون على الرصيف بمزق بالية تغطيهم. في وضح النهار، بدا أن ذلك أمر لا يصدق أكثر مما كان عليه الليلة السابقة. ولكنها كانت مسرورة الآن لأنها وافقت على الذهاب ثانيةً، ولتكون جزءاً من الفريق. شعرت بانجذاب قوي. ابتسمت لنفسها وهي تفكّر بذلك، وعند خروجهما من السيارة أمام ساحة اللعب، تفاجأت لرؤية مات. أطلقت بيب هتاف المرح، وحضنته. كان يرتدي سترة سميكة من جلد الغنم التي بدت وكأنها مخصصة للحرب، وبنطال جينز، وينتعل حذاءً للركض بدا قوي البنية وبصورة أبوية، وبعدها ركضت بيب إلى الملعب.

"أنت صديق وفيّ حقاً. لا بد أنك غادرت الشاطئ عندما انبلج الفجر"، قالت أوفيلي بابتسامة شاكرة.

"لا، عند الساعة الثامنة. اعتقدت أن هذا سيكون ممتعاً". لم يخبرها بأنه

كان يذهب إلى كل لعبة لروبرت قبل الطلاق، وللكثير من الألعاب في أوكلاند بعد ذلك. كان روبرت قد تعلم لعب كرة القدم هناك أيضاً .

"كانت تأمل قدومك. شكراً لأنك لم تخيب ظنها". عنت أوفيلي ذلك بالفعل. فهو لم يخيب ظن بيب أبداً منذ أن التقت به، ولا هي أيضاً. كان الشخص الوحيد الذي علمت كل منهما أنه بإمكانهما الاعتماد عليه.

"لم أكن لأفوت اللعبة مهما كان السبب. كنت مدرّباً في السابق".

"لا تخبرها. ستجعلك تصبح مدرب الفريق". ضحكا، ثم وقفا لوقت طويل يشاهدان اللعبة. كانت بيب تلعب بشكل رائع وسجلت هدفاً، عندما وصلت أندريا مع الطفل في عربة الأطفال كان الطفل ملفوفاً ليبقى دافئاً. عرفتها أوفيلي على مات، ووقفا يتحدثان لبرهة. حاولت ألا تشعر بأجواء أسئلة أندريا وآرائها وافتراضاتها الموجهة لها، وذلك عندما رأت مات. اصطنعت أوفيلي الهدوء، وبعد أن بكى الطفل لنصف ساعة لأنه جائع، غادرت أندريا. ولكن أوفيلي تأكدت من أنها ستستمع لتعليقها لاحقاً. يمكنها الرهان على ذلك. لقد تجاهلت أوفيلي جميع نظرات أندريا المليئة بالمعاني وهي تغادر، وتابعت حديثها مع مات.

"إنها عرابة بيب وصديقتي القديمة هنا"، شرحت أوفيلي.

"أخبرتني بيب عنها وعن الطفل. وإن كان وصف بيب صحيحاً للموقف، فإنها قامت بعمل جريء". كان يشير بتحفظ إلى بنك النطاف الذي أخبرته بيب عنه، وفهمت أوفيلي. أحبت تحفظه ومراعاته للمشاعر.

"كان ذلك تصرفاً جريئاً منها، ولكنها اعتقدت أنها لن تتمكن من إنجاب الأطفال إلا بتلك الطريقة، وهي تشعر بالحماسة مع طفلها كثيراً".

"إنه جذاب فعلاً"، قال لها، وعادوا لمشاهدة بيب. كان وأوفيلي مسرورين وفخورين عندما ربح فريقها اللعبة، وركضت في الملعب بابتسامة النصر العريضة، وهما يثنيان عليها.



عرض اصطحابهما لتناول الغداء بعد ذلك، وذهبا إلى محل للفطائر بطلب من بيب، فتناولوا وجبة رائعة سوية، ومن ثم عاد مات إلى الشاطئ. أراد أن يعمل على اللوحة، وقال ذلك لبيب هامساً عند المغادرة، فغمزته. بعد ذلك، عادت هي وأوفيلي إلى المنزل. كان الهاتف يرنّ في الوقت الذي فتحت أوفيلي به الباب، وتمكنت من تخمين المتصل.

"أوه... يأتي الآن إلى مباريات بيب؟" كان صوت أندريا مليئاً بالتلميح، بينما هزت أوفيلي رأسها في الجهة الأخرى. "أعتقد أنك تخفين عني".

"ربما يحبها، وسيكون صهراً لي يوماً ما"، قالت أوفيلي وهي تضحك. كانت قد توقعت هذا. "لا أخفي عنك شيئاً".

"إذاً، أنتِ مجنونة. إنه أجمل رجل رأيته منذ سنوات. إن كان سوي التوجه، تشبثي به، بحق الله. هل تعتقدين أنه كذلك؟" سألت أندريا، وبدا عليها القلق فجأة.

"ماذا تقصدين؟" لم تفهم أوفيلي شيئاً مما قالته. حتى أنه لم يخطر ببالها، فعلى أية حال، هي لا تأبه لذلك. إنهما صديقان وحسب.

"سوي التوجه. هل تعتقدين أنه شاذ؟".

"لا أعتقد ذلك. لم أسأله من قبل. كان متزوجاً، بحق السماء، ولديه ولدان. ولكن ما الفرق؟".

"ربما أصبح شاذاً بعد ذلك"، قالت أندريا بصورة عملية، ولكنها لم تعتقد أنه شاذ أيضاً. "ولكن لا أعتقد ذلك. أعتقد أنك مجنونة إن لم تتشبثي به طالما سنحت لك الفرصة. رجال مثله يُختطفون بسرعة من الأسواق قبل أن تلاحظي".

"حسناً، أنا لا ألاحظ، وأعتقد أنه لم يعد متوافراً في الأسواق، مثلي تماماً. أعتقد أنه يرغب بالبقاء وحيداً".

"ربما يكون مصاباً بالاكتئاب. هل يتعالج؟ يمكنك اقتراح ذلك عليه، فربما

تكون تلك البداية. بالطبع، قد تتعرضين بعدها للتعامل مع مشاكل التأثيرات الجانبية. بعض مضادات الاكتئاب تسبب الضعف الجنسي عند الرجال. ولكن الفياغرا متواجدة متى أردت". قالت أندريا بتفاؤل بينما اندهشت أوفيلي.

"سأعمل جاهدة على اقتراح ذلك عليه. سيكون متحمساً. لا يحتاج للفياغرا لتناول العشاء معي. ولا أعتقد أنه مصاب بالاكتئاب. أعتقد أنه متألم وحسب". كان هذا مختلفاً تماماً.

"الأمر نفسه. كم مضى على رحيل زوجته؟ عشر سنوات؟ ليس من الطبيعي أن يبقى وحيداً حتى الآن... أو ليكون مهتماً بشدة ببيب، إن لم يكن متحرش أطفال، الأمر الذي أعتقد أنه لا ينطبق عليه أيضاً. فهو يحتاج إلى علاقة، وكذلك أنت".

"شكراً لك، دكتورة ويلسون. أشعر بتحسن. يا للرجل المسكين، لو يعرف أنك تعيدين تنظيم حياته وعقله أيضاً. وتصفين له الفياغرا".

"يتوجب على شخص ما فعل ذلك. من الواضح أنه غير قادر على تنظيم نفسه، وكذلك أنت. لا يمكنك البقاء كذلك بقية حياتك. بالإضافة إلى أن بيب سترحل بعد سنوات قليلة".

"فكّرتُ بذلك مسبقاً بنفسي، وجعلني أصاب بالجنون، شكراً لك. عليّ أن أعتاد على ذلك وحسب. لحسن الحظ، لديّ القليل من الوقت قبل أن ترحل". ولكن ذلك كان الشيء الوحيد الذي يخيفها الآن كثيراً، لا يمكنها تخيل العيش وحيدة دون بيب، عندما تكبر. يجعلها التفكير بذلك تصاب بالكآبة الشديدة، ويحبس أنفاسها. ولكن ماثيو بولز ليس الحل لمشاكلها. عليها أن تعتاد فقط على العيش وحيدة... والاستمتاع ببيب بقدر ما يمكنها طالما هي موجودة معها. لم تكن أوفيلي تبحث عن أحد ليملأ الفراغ الذي أحدثه رحيل تشاد وتيد، ولا الفراغ الذي ستشكله بيب حالما ترحل. ستعمل على ملئه بالعمل والأصدقاء وأي شيء آخر تجده أمامها، كالعمل الذي تقوم به مع المشردين.



"مات ليس الحل"، كررت ذلك لأندريا.

"لم لا؟ يبدو جيداً جداً برأيي". أفضل من ذلك، في الحقيقة.

"إذاً الحقي به أنت، وأعطه الفياغرا. أنا واثقة من أنه سيكون ممتناً لك"، قالت أوفيلي وهي تضحك ثانيةً. كانت أندريا مفرطة، ولكن ذلك حالها دائماً. وهذا أحد الأمور التي أحبتها أوفيلي فيها. فقد كانتا مختلفتين كثيراً.

"ربما سأحاول الحصول عليه. متى مباراة بيب الثانية؟".

"أنتِ مستحيلة. لم لا تقودين سيارتك إلى مرفأ الأمان (سيف هاربر) وتطرقين بابه بالفأس. ربما يؤثر به كم أنت جازمة في إنقاذه من نفسه".

"تبدو فكرة رائعة". بدا أنها لن تحجم عن فعل ذلك.

ثرثرتا لبضع دقائق، ولم تخبرها أوفيلي عن تلك الليلة المتميزة التي قضتها في الشوارع. وفي وقت متأخر من بعد الظهر، ذهبت هي وبيب إلى السينما، ومن ثم عادتا إلى المنزل وتناولتا العشاء. وبحلول الساعة العاشرة، كانتا تغطان في النوم على سرير أوفيلي.

في تلك الساعة في مرفأ الأمان (سيف هاربر)، كان مات ما زال يعمل على لوحة بيب. يواجه مشكلة في رسم فمها تلك الليلة، ويفكّر بما بدت عليه وهي تركض في الملعب عائدة من اللعبة. علت وجهها أجمل ابتسامة لا تقاوم. أحب النظر إليها، ورسمها، ومرافقتها. واستمتع بصحبة أوفيلي أيضاً، ولكن ليس بقدر ما استمتع بصحبة بيب ربما. هي كالملاك، كالجنية، كروح قديمة حكيمة في جسد طفل، كل تلك الصفات بدأت تنبثق وهو يرسمها. كان مسروراً باللوحة عندما ذهب إلى السرير تلك الليلة. وكان ما يزال نائماً عندما اتصلت به بيب في الصباح. اعتذرت له عندما أدركت أنها أيقظته.

"أنا آسفة لأنني أيقظتك، مات. اعتقدتُ أنك مستيقظ". كانت الساعة التاسعة والنصف، والتي بدت وقتاً متأخراً بالنسبة لها. ولكنه لم يكن قد ذهب إلى النوم حتى الساعة الثانية من بعد منتصف الليل تقريباً.

"لا بأس. كنت أعمل الليلة الماضية على مشروعنا. أعتقد أنني على وشك إنهائه". بدا مسروراً، وكذلك هي.

"ستحبها أمي"، أكدت له بيب. "ربما بإمكاننا الذهاب لتناول العشاء في إحدى الليالي وتريني إياها. إنها ستعمل ليلتين في الأسبوع".

"ماذا ستعمل؟" بدا متفاجئاً. لم يعرف حتى أنها قد حصلت على عمل، سوى العمل التطوعي الذي كانت تخطط له مع المشردين في مركز ويكسلر. بدا هذا أكثر جدية بعض الشيء، ورسمياً نوعاً ما.

"ستعمل في شاحنة، تزور المشردين في الشوارع، أيام الثلاثاء والخميس. ستقضي طوال الليل هناك تقريباً، وستقضي أليس الليل هنا معي، لأن الوقت سيكون متأخراً جداً لتعود إلى منزلها عندما تعود أمي".

"يبدو هذا ممتعاً بعض الشيء"، قال لبيب. ولكنه خطير أيضاً، فكّر بينه وبين نفسه، ولكنه لم يرغب أن يثير قلقها. "سأكون سعيداً للمجيء وأخذك إلى العشاء. ولكن ربما علينا أن ننتظر ليلة تكون أمك فيها في المنزل أيضاً. لربما شعرت بأننا نتجاهلها". استمتع بصحبة أوفيلي، ولكنه لا يرغب أيضاً بالابتعاد عن السلوك الاجتماعي الصحيح، برؤية طفلة بعمر بيب من دون أمها، إلا على الشاطئ، كما فعل طوال الصيف. كان ذلك مختلفاً، من وجهة نظره على الأقل. وشك بأن أوفيلي ستوافق على ذلك. فمعظم أفكارهما عن الأطفال متشابهة بعض الشيء، وهو يكن لها احتراماً كبيراً للطريقة التي تربي بها طفلتها، والتي تستمر عليها. فالنتائج مذهلة، نظراً لكل ما رآه.

"ربما يمكنك القدوم لزيارتنا الأسبوع القادم".

"سأحاول"، وعدها، ولكن كما اتضح فيما بعد أن خططه وخططهم لم تنسجم في الأسابيع التالية. كان يعمل على اللوحة، ويتوجب عليه القيام ببعض الأشياء الأخرى، والقيام ببعض الأعمال. كانت أوفيلي أكثر انشغالاً مما توقعت. فقد قررت أن تعمل ثلاثة أيام في المركز، وليلتين في الشوارع مع الفريق الخارجي. وذلك برنامج مرهق. أما بيب فكان لديها الكثير من





الواجبات المدرسية أكثر مما أرادت الاعتراف به.

في الأول من شهر تشرين الأول، اتصل بأوفيلي ودعاها إلى الشاطئ لقضاء عطلة نهاية الأسبوع التالية هناك، ولكن أوفيلي بدت مترددة، ثم شرحت له السبب.

"ذكرى وفاة تيد وتشاد ستكون في اليوم السابق للدعوة"، قالت بحزن. "وأعتقد أنه سيكون يوماً صعباً علينا. لا أعلم كيف سيكون شعورنا بعد ذلك، وأكره الخروج وأنا كئيبة وحزينة. ربما يكون من الأفضل الانتظار لأسبوع آخر. في الواقع، إن ذكرى ميلاد بيب في الأسبوع القادم". تذكر ذلك، ولكنها لم تكن قد أخبرته الكثير، وذلك أظهرها بأنها راشدة حقاً، وحريصة على عدم إحراجه.

"يمكننا القيام بالاثنين معاً. دعينا نفترض أنك ستأتين في اليوم التالي لذكرى الوفاة، ولا نستبق الأحداث. فربما ترغبان بالخروج إلى مرفأ الأمان (سيف هاربر) لتغيير الجو. ليس عليكما إخباري حتى صباح ذلك اليوم. وإن لم يكن برأيك تطفلاً، أرغب بدعوتك أنت وبيب إلى العشاء في يوم ميلادها، إن اعتقدت أن ذلك سيكون ممتعاً بالنسبة لها".

"أنا واثقة من أنها ستحب ذلك"، قالت أوفيلي بتردد، ووافقت في النهاية بأن تتصل به في الصباح الذي يلي ذكرى الوفاة. واعتقدت تماماً بأنها لن تتحدث معه قبل ذلك على أية حال. وعلى الرغم من انشغالها هذه الأيام، إلا أنها تستمتع بسماع صوته على الهاتف.

أخبرت بيب عن الدعوتين، فسرت بشكل واضح، رغم أنها كانت قلقة بشأن الذكرى السنوية. لقد شعرت بالخوف أكثر لأنها شعرت بأنه سيكون صعباً على والدتها وربما يعيدها للخلف ثانية. كانت تتحسن بشكل جيد في الآونة الأخيرة، وبدا يوم الذكرى السنوية أشبه بتهديد كبير.

سيتوجب على أوفيلي حضور المراسم في كنيسة سانت دومينيك، وسوى ذلك، لم يكن لديهما شيء تفعلانه. لم يكن هناك أية معلومات عن الجثتين بعد

تحطم الطائرة واحتراقها، ولم تقم أوفيلي عمداً بوضع أية شواهد على القبرين الفارغين. لم ترغب أن يكون لديها مكان تذهب إليه أو تندب عليه. وبخصوص بيب، شرحت لها السنة الماضية، بأنهما يحملانها في قلبيهما. كل ما تبقى بعد التحطم هو ابزيم حزام تشاد، وخاتم زواج تيد، وكلاهما كان ملتويا بشكل لا يمكن تمييزه، ولكنها احتفظت بهما.

إذاً كل ما بقي لهما هو الذهاب إلى المراسم. كانتا تخططان لقضاء بقية اليوم بهدوء في المنزل، تفكّران بتشاد وتيد. وكان ذلك بالتحديد ما أشعر بيب بالقلق. ومع انتهاء اليوم، كانت أوفيلي وبيب تتوقعان أن الذكرى السنوية لموت تشاد وتيد ستكون مليئة بالخوف.



# 18

كما ظهر فيما بعد، بدأ يوم الذكرى السنوية مشمساً وجميلاً. أرسلت الشمس أشعتها عبر نوافذ غرفة نوم أوفيلي. كانت بيب تقضي كل الليالي تقريباً في سرير أمها منذ بداية شهر أيلول. منح ذلك أوفيلي راحة عظيمة، وكانت ما تزال تشعر بالامتنان لاقتراح مات. ولكن الصمت سيطر عليهما عندما استيقظتا ذلك اليوم.

فكّرت أوفيلي على الفور، كما فعلت بيب، بيوم الجنازة، والذي كان مشمساً أيضاً، ومؤلماً للجميع. جميع زملاء تيد ورفاقه على مرّ السنين، وأصدقائهم قد شاركوهما، وكذلك أصدقاء تشاد، وجميع طلاب صفه. وبرحمة من الله، لم تتذكر أوفيلي من ذلك إلا القليل، فقد كانت تمر بأوقات وكأنها في دوامة. كل ما تذكرته هو بحر من الأزهار، بينما تمسك بيب بيدها بشدة حتى آلمتها. تلك ذكرى تعرف أنها لن تخرج من رأسها على الإطلاق.

ذهبتا إلى المراسم سويةً، وجلستا صامتتين بقرب بعضهما. وبطلب منها، تم إضافة اسمي تشاد وتيد إلى المراسم الخاصة، وجعلها ذلك تبكي، ومرة أخرى، أمسكت يداها بيدي بيب. وبعد ذلك، وقفتا لحظة لشكر القس. أشعلت كل منهما شمعة، أشعلتها أوفيلي من أجل زوجها، وبيب من أجل تشاد، ومن ثم عادتا بالسيارة إلى المنزل بصمت. كان من الممكن سماع سقوط الإبرة طوال اليوم في ذلك المنزل الصامت. وذكرهما ذلك باليوم الذي مات فيه تيد وتشاد. لم تأكل أي منهما، أو تتحدث، وعندما رنّ جرس الباب، وثبتا من مكانهما. كانت زهوراً من مات، فقد أرسل مجموعة صغيرة لكل منهما. شعرت بيب

وأوفيلـي بـنفس درجـة التأثر. قالت البطاقات ببساطة: "أفكّر بكما اليوم. مع حبي، مات".

"إننـي أحبه"، قالت بيب ببساطة وهي تقرأ البطاقة. كانت الأشياء بسيطة في عمرها. أكثر بساطة مما ستكون عليه فيما بعد.

"إنه رجل لطيف، وصديق رائع"، قالت أوفيلي، وأومأت بيب كإجابة لها، وأخـذت الزهور إلى غرفتها في الأعلى. حتى موس كان هادئاً وبدا أنه يشعر بـأن مالكيه لا يستمتعان بيومهما. كانت أندريا قد أرسلت لهما الزهور أيضاً، والتـي وصلت في ظهر اليوم السابق. لم تكن متدينة، ولم تذهب إلى المراسم معهما، ولكنهما تعرفان بأنها ستفكّر بهما، تماماً كمات.

بحلـول الظلام، كانت كل منهما متلهفة للذهاب إلى السرير. شغّلت بيب الـتلفاز الموجـود في غرفة نوم أمها، وطلبت منها أوفيلي إطفاءه، أو الذهاب لمشاهدته في مكان آخر. ولكن بيب لم ترغب بأن تكون وحيدة، لذلك بقيت في الغـرفة الـصامتة مع أمها، وكان الأمر رحمةً عندما غطّتا بالنوم أخيراً بين ذراعـي بعـضهما البعض. لم تخبرها أوفيلي، ولكن بيب عرفت بأن أمها قد قضت عدة ساعات في ذلك اليوم وهي تبكي في غرفة تشاد. كان يوماً بغيضاً تماماً عليهما بكل أشكاله. لم يكن هناك أي أمر جيد يرافق الذكرى السنوية، لا مباركة، ولا تعاطف مع ما عانياه. كان يوماً، كمعظم أيام السنة الماضية، مليئاً بالفقدان تماماً.

وفي الصباح، عندما رنّ الهاتف، كانتا تجلسان إلى طاولة المطبخ، حيث كانـت أوفيلـي تقـرأ الجريدة بصمت، بينما كانت بيب تلعب مع الكلب. كان المتصل مات.

"لا أجرؤ على سؤالك عن يوم أمس"، قال بحذر، بعد أن حيّا أوفيلي.

"لا تفعل. كان بنفس درجة السوء التي اعتقدت أنه سيكون عليها، ولكنه انتهـى على الأقل. شكراً لك كثيراً على الزهور". كان من الصعب أن تفسر، حتـى لنفسها، سبب أهمية الذكرى السنوية. لم يكن هناك سبب لأن تكون أسوأ



من اليوم الذي قبلها أو اليوم الذي بعدها، ولكنها كانت كذلك. ذلك أشبه باحتفال لأسوأ أيام حياتهما. لم يكن هناك أية فائدة واحدة منه. اليوم بأكمله كان ذكرى لأسوأ يوم حل عليهما، وكان مترعاً بالذكريات المؤلمة. شعر بالتعاطف معهما مـن دون شـك، ولكنه لا يملك أية نصيحة يقدمها، فلم يمر بهذا أبداً من قبل. خـساراته قد امتدت واستمرت طوال الوقت، وأصبحت واضحة في النهاية. لم تحدث جميعها مرة واحدة في لحظة بشعة واحدة مثلما حدث معهما.

"لم أرغب بالتدخل، لذا لم أتصل"، اعتذر منها.

"كان من الأفضل ذلك"، قالت بصدق. فلم تكن أي منهما ترغب بالتحدث مع أي شخص، رغم أن بيب كانت لربما ترغب بالتكلم معه، كما أدركت فيما بعد. "زهورك كانت رائعة. سُحرنا بها جداً".

"أتـساءل إن كـنت تـرغبين بالخروج اليوم. ربما يكون جيداً لكما. ما رأيـك؟" لم تكن ترغب حقاً بالخروج، ولكنها فكّرت بأن بيب ربما تريد ذلك، إذا تـواجدت الفرصة. وشعرت بالذنب لأن ترفض الدعوة دون استشارتها أو الأخذ برأيها.

"لا يمكننـي توفير صحبة جيدة لكما". كانت ما تزال تشعر بالإنهاك التام مـن مشاعر اليوم السابق، وبخاصة تلك الساعات التي قضتها وهي تنشج في سـرير تـشاد، تكبت صوت بكائها بوسادته، التي ما تزال تحتفظ بالقليل من رائحـته. لم تكن قد غسلت الملاءات أو أغطية الوسائد، وتعرف أنها لن تفعل ذلـك أبداً. "لا يمكنني التكلم باسم بيب. فربما ترغب برؤيتك. سأسألها ومن ثم أتصل بك"، ولكن بيب كانت تلوح لها بجنون قبل أن تغلق أمها سماعة الهاتف.

"أريـد ذلك! أريد ذلك!" قالت وقد بدا أنها استعادت نشاطها على الفور، ولـم تمـتلك أوفيلي قسوة القلب لتخيب أملها، على الرغم من أنها لم تكن في مزاج يسمح لها بالذهاب إلى أي مكان. بالإضافة إلى أنها لم تكن رحلة طويلة جداً. تستغرق نصف ساعة فقط، ولكنها كانت صعبة جداً بالنسبة لها، رغم أن أوفيلي تعلم أن بإمكانها العودة بعد ساعات قليلة. تعلم أن مات سيتفهم الأمر. لم

تكن في مزاج جيد أبداً. "هل يمكننا الذهاب، أمي؟ أرجوك؟؟؟".

"حسناً"، استسلمت أوفيلي. "ولكنني لا أريد البقاء طويلاً. أنا متعبة". علمت بيب أن الأمر أسوأ من ذلك، ولكنها أملت بأنه حال وصولهما هناك، ستشعر أمها بالنشاط. علمت أن أمها تحب التحدث مع مات، وراودها شعور بأنها ستتحسن كثيراً وهي تمشي على الرمل طوال الشاطئ.

أخبرت أوفيلي مات بأنهما ستصلان إلى هناك وقت الظهر، وسُر مات. عرضت إحضار الغداء معها، وأخبرها ألا تشغل نفسها بذلك. وقال إنه سيحضّر العجة، وإن لم تحبها بيب، فإنه قد أحضر زبدة الفستق والهلام منذ الأمس. بدا أن ذلك تماماً ما هو المطلوب، وكان كذلك.

كان ينتظرهما في الخارج عندما وصلت سيارتهما، جالساً على كرسي قديم على المنصة الخارجية، يستمتع بالشمس. بدا مسروراً لرؤيتهما، وألقت بيب بذراعيها حوله، ومن ثم، كما يحدث عادة الآن، قبلته أوفيلي من وجنتيه. ولكنه لاحظ على الفور مقدار حزنها. بدا وكأن ألف رطل على قلبها، وكانت كذلك حقاً. أجلسها على كرسيه، ووضع غطاءً قديماً عليها، وأصر أن تبقى هناك وتسترخي، ومن ثم طلب من بيب مساعدته في صنع عجة الفطر وفي تقطيع الأعشاب. أحبت مساعدته، وتجهيز الطاولة، وفي الوقت الذي أرسلها فيه لتنادي أمها، شعرت أوفيلي بأنها أكثر استرخاءً من قبل، وبأن الكتلة الجليدية التي كانت على قلبها قد ذابت قليلاً تحت أشعة الشمس. بقيت هادئة خلال تناول الغداء، وعندما قدّم الفراولة والكريما، كانت تبتسم حقاً، أما بيب فقد ارتاحت تماماً. ذهبت أوفيلي لتحضر شيئاً من السيارة، عندما كان يحضر الشاي، فهمست بيب له بنظرة قلقة.

"أعتقد أنها أحسن قليلاً، أليس كذلك؟" أحس بذلك، وتأثر بقلق بيب الواضح.

"ستكون بخير. الأمس كان يوماً صعباً عليها، وعليك أيضاً. سنذهب لنتمشى على الشاطئ بعد قليل، ولا بد أن ذلك سيجعلها أفضل حالاً".



ربتت على يده مقرّة بالجميل عند دخول أمها. كانت قد ذهبت لتحضر مقالة تتحدث عن مركز ويكسلر أرادت أن تريها لمات. إنها تتحدث عن كل شيء يقومون به، وكانت مليئة بالمعلومات عنهم.

قرأها بعناية، وهو يومئ، ومن ثم نظر إلى أوفيلي باحترام جديد. "يبدو أنه مكان رائع. ما العمل الذي تقومين به، أوفيلي؟" كانت قد تحدثت معه بشأن هذا من قبل، ولكن كعادتها كانت غامضة عن عمد.

"تعمل في الشوارع مع الفريق الخارجي"، قالت بيب على الفور، ونظر مات إلى كل منهما مذهولاً. لم يكن هذا ما تريد أوفيلي قوله، ولكنها تأخرت كثيراً عن تغييره الآن.

"هل أنت جادة؟" نظر مباشرة إليها، وأومأت بالإيجاب، محاولة ألا تبدو قلقة، ولكنها نظرت بغضب إلى بيب، التي أدركت أنها قد فضحت أمرها بحماقة، وتظاهرت بأنها تلعب مع الكلب. كان من النادر أن يزل لسان بيب، وشعرت بأنها محرجة وقلقة قليلاً لأنه من المحتمل أن تكون أمها قد انزعجت. "تقول المقالة إنهم يقضون الليالي في الشوارع، يحضرون المساعدات لأولئك المعاقين أو العاجزين عن المجيء إلى المركز، وبأنهم معرضون لأخطر أماكن المدينة. هذا جنون، أوفيلي. لا يمكنك فعل هذا". بدا خائفاً جداً وقلقاً وهو يحدّق بها. فحسبما يعرف مات، لم تكن تلك أخباراً جيدة.

"ليس خطيراً كما يبدو"، قالت أوفيلي بهدوء، ولأول مرة كانت جاهزةً لتخنق بيب، ولكنها أدركت أن ذلك ليس خطأها. من الطبيعي أن يستجيب بتلك الطريقة. فهي بنفسها تدرك مخاطر ذلك جيداً، وقد نجوا بأعجوبة الأسبوع الماضي، عند تعرضهم لرجل مدمن على المخدرات كان يهددهم ملوحاً ببندقيته، ولكن بوب تمكّن من تهدئته، وإقناعه بوضع البندقية جانباً. لم يكن لديهم الحق بأخذها منه فلم يفعلوا ذلك. ولكن الحادث ذكرها ثانيةً بالمخاطر التي يواجهونها في كل مرة يخرجون فيها. كان من الصعب إخبار مات أن تلك المخاطر غير موجودة، في حين أن كليهما يعرف صحة ذلك. "طاقم العمل

بارع جداً، ومدرب بشكل جيد. اثنان ممن أعمل معهم كانوا من رجال الشرطة في السابق، ولديهم خبرات في الفنون القتالية، والثالث كان من مغاوير البحرية".

"لا أبالي لهم"، قال بجرأة، "لا يمكنهم ضمان سلامتك، أوفيلي. يمكن للأمور أن تتطور خلال ثوانٍ في الشوارع. وبما أنك خرجت إلى هناك، فأنت تعرفين ذلك أيضاً. لا يمكنك تحمل ذلك الخطر". ألقى نظرة مليئة بالمعاني إلى بيب، ومن ثم اقترحت أوفيلي أن يذهبوا للتنزّه على الشاطئ.

كان مات ما يزال غاضباً وهم في الخارج، وكانت بيب تركض أمامهما مع الكلب، بينما مشى مات ووالدتها بهدوء على الشاطئ. أسرع في إثارة الموضوع ثانية معها.

"لا يمكنك فعل هذا"، قال معارضاً بشدة، "ليس لديّ الحق بمنعك من فعل ذلك، ولكن أتمنى لو كان باستطاعتي. هذه أشبه برغبة منك في الموت، أو نوع من الانتحار اللاواعي. لا يمكنك المخاطرة، فأنت كلا الوالدين لبيب. ولكن حتى بغض النظر عن ذلك، لمَ المجازفة فربما تتعرضين للأذى؟ حتى وإن لم تتعرضي للقتل، فيمكن لأنواع مختلفة أخرى أن تصيبك هناك في الخارج. أتوسل إليك أن تعيدي التفكير بالأمر، أوفيلي". بدا كئيباً جداً وهو يتحدث.

"أعدك، مات، أعلم أنه من الممكن أن يكون الخروج إلى هناك خطيراً"، قالت بهدوء، في محاولة منها لتهدئته أيضاً. "ولكن هذا حال الكثير من الأشياء. كالإبحار، إن فكّرت به. يمكن أن تتعرض لحادث وأنت وحدك على متن قاربك. أشعر بصدق بالارتياح وأنا أفعل ذلك. الأشخاص الذين أعمل معهم ماهرون في ما يفعلونه. حتى أنني لم أعد أشعر بالخطر هناك في الخارج". كان ذلك صحيحاً تقريباً. فقد كانت منشغلة جداً بالدخول والخروج إلى الشاحنة مع بوب، والآخرين، فلم يكن لديها الوقت الكافي لتفكّر بالمخاطر المحتملة خلال أمسياتهم الطويلة. ولكنها أدركت بأنها غير قادرة على إقناع مات. بدا شديد الاهتياج.



"أنت مجنونة"، قال بحزن. "لو كنت من أقاربك، لمنعتك من الخروج، ولحبستك في غرفتك. ولكنني لست كذلك، لسوء الحظ. وماذا أصابهم؟ كيف يمكنهم السماح لامرأة غير متدربة بالخروج إلى الشوارع معهم؟ أليس لديهم أي حس بالمسؤولية للأشخاص المعرضة حياتهم للخطر؟" كان تقريباً يصرخ فيما كانا يمشيان، وكانت بيب ترقص فرحاً أمامهما، سعيدة بعودتها إلى الشاطئ، وكذلك موس، الذي كان يقفز، ويثب، ويطارد الطيور، ويركض جيئة وذهاباً حاملاً قطعة خشب بين أسنانه، ولكن لأول مرة، لم يكن مات يولي بيب أو الكلب أي اهتمام. "إنهم مصابون بالجنون مثلك تماماً، بحق الله". قال غاضباً من أناس المركز.

"أنا بالغة، مات. لديّ الحق بصنع قراراتي، وحتى بالمخاطرة. إن راودني أي شعور بأن ذلك خطير جداً، فسأتوقف".

"ستكونين قد فارقت الحياة عندها، بحق الله. كيف يمكنك أن تفقدي المسؤولية بالكامل؟ ستكونين قد تأخرت كثيراً عندما تكتشفين بأن ذلك خطير جداً. لا أعتقد أنه بإمكانك أن تكوني بذلك الغباء". فبرأيه، لقد فقدت كل إدراكها، ومن الواضح أنها لا تفكّر بعقلها. اعترف بأن ذلك عمل يستحق التبجيل، ولكنه عمل طائش، وخاصة بالنظر إلى بيب، ومسؤولياتها تجاهها.

"إن حدث شيء لي"، قالت في محاولة منها لتبديد حقيقة قلقه قليلاً، "عليك أن تتزوج أندريا وتعتنيان ببيب. سيكون ذلك رائعاً من أجل طفلها أيضاً".

"لا أجد ذلك ممتعاً"، قال وقد بدا عنيداً كما كان تيد بين الحين والآخر، رغم أنه لم يكن يشبه مات كثيراً، فهو لطيف وسهل المراس. ولكنه كان قلقاً جداً عليها، وشعر بأنه عاجز تماماً عن جعلها تغير رأيها. "لن أستسلم"، حذرها في طريق العودة إلى منزله. "سأبقى أطاردك حتى تتوقفي عن هذا الجنون. يمكنك العمل في المركز، وفعل ما يحلو لك خلال النهار. ولكن ذلك البرنامج الخارجي مخصص لرعاة البقر والطائشين، ولأولئك الذين لا يملكون أحداً يعتمد عليهم".

"شريكي في الشاحنة أرمل ولديه ثلاثة أولاد صغار"، قالت بهدوء، ممسكة بيد مات وهما يمشيان.

"إذاً هو يتمنى الموت أيضاً. وربما إن كانت زوجتي قد توفيت ولديّ ثلاثة أولاد يتوجب عليّ تربيتهم، أعتقد أني سأفعل مثله أيضاً. كل ما أعرفه هو أنه لا يمكنني تركك تفعلين ذلك. إن كنت تحاولين الحصول على موافقة مني، فلا تفعلي ذلك، لن أمنحك إياها. وإن كنت تحاولين جعلي أقلق بشدة، فأنا كذلك. سأصاب بالذعر في كل مرة تخرجين فيها إلى الشوارع، من أجلك ومن أجل بيب"، وكاد يضيف، "ومن أجلي"، ولكنه أوقف نفسه ولم يفعل.

"لم يكن يتوجب على بيب إخبارك"، قالت أوفيلي بهدوء، وهز رأسه نافياً بيأس.

"أنا مسرور بشدة لأنها فعلت ذلك. وإلا لم أكن لأعرف. تحتاجين إلى شخص يرشدك، أوفيلي. عليك أن تفكّري بالأمر أكثر. عديني أن تفعلي ذلك".

"سأفعل. ولكنني أقسم لك، إن الأمر ليس بالسوء الذي يبدو عليه. إن كنت لا أشعر بالارتياح، سأتوقف عن فعل ذلك بنفسي. ولكنني أشعر بالارتياح أكثر الآن. الأشخاص في الفريق الخارجي يشعرون بالمسؤولية الكاملة".

ولكنها لم تخبره بأن المجموعة صغيرة، وفي الغالب ينشقون عن بعضهم، وفي الحقيقة إذا أطلق شخص ما على أحدهم النار أو لوح أمامه بالبندقية أو السكين، فمن غير المحتمل أن يتحرك الآخرون بسرعة كافية لإنقاذه، وخاصة أنهم غير مسلحين. يجب عليهم التمتع بالذكاء والسرعة وإبقاء أعينهم مفتوحة، وهذا ما يفعلونه جميعاً. وسوى ذلك، يتوجب عليهم الاعتماد على البداهة الشخصية، وعلى لطف المشردين الذين ينقذونهم، وعلى رحمة الله. لم يكن هناك شك، في عقل أي شخص منهم، في أي وقت، قد يحدث شيء سيئ. ولم يكن عند مات أي مشكلة في معرفة ذلك.

"لم تنتهِ هذه المحادثة، أوفيلي، أعدك بذلك"، قال وهو يمشي معهما إلى منزله.



"لم أخطط لفعل ذلك مات"، قالت كنوع من الشرح، "ولكن الأمر حدث. أخذوني معهم في إحدى الليالي، ووقعت في حب ذلك. ربما يتوجب عليك المجيء معنا ورؤية ذلك بنفسك"، دعته، وبدا خائفاً جداً.

"لست جريئاً مثلك، أو بالأصح لست مجنوناً. سأكون خائفاً حتى الموت"، قال بصدق مع نظرة من الذعر، فضحكت. لم تعرف السبب، ولكنها شعرت بأنها على صواب في خروجها، ولم تعد خائفة أبداً. حتى أنها لم تكن خائفة بالدرجة التي تتوقع نفسها أن تكون بها عندما سحب الرجل المدمن البندقية عليهم، ولكنها لم تقل ذلك لمات. سيعمل على حبسها في منزلها إن فعلت، كما هددها مسبقاً. ولا شيء قالته حتى الآن أثار طمأنينته على أية حال.

"إن الأمر ليس مخيفاً بالدرجة التي تتوقعها. في معظم الوقت، يكون مؤثراً جداً، فترغب حينها بالجلوس فقط والبكاء. مات، إنه شيءٌ يحطم القلب".

"أنا أكثر قلقاً من أن أحدهم سيضع رصاصة في رأسك". كان ذلك صريحاً ولكنه عبر عن كل شيء شعر به. لم يكن قد شعر بمثل هذا الخوف تجاه أي شخص منذ وقت طويل. وربما منذ أن أخبرته سالي بأنها ذاهبة إلى أوكلاند مع الأولاد. كان مقتنعاً فجأة بأن صديقته الجديدة ستموت. ولا يريد أن يحدث ذلك لأجلها، ولأجل بيب ولأجله. لديه الكثير ليفقده الآن، الأمر الذي لم يتوافر له منذ زمن بعيد. اهتم لكل منهما. وشعر بأن قلبه في خطر الآن أيضاً.

وضع قطعة من الخشب في الموقد عند عودتهم إلى منزله. كانت أوفيلي قد ساعدته في غسيل أطباق الغداء قبل خروجهم، وقف يحدّق بالنار لوقت طويل، ومن ثم نظر مباشرة إليها. "لا أعلم ما عليّ فعله لأوقفك عن فعل هذا الشيء الجنوني، أوفيلي. ولكنني سأفعل كل شيء يمكنني فعله لإقناعك بأن هذه فكرة سيئة". لم يرد إخافة بيب لذلك توقف عن التحدث عن الأمر، ولكنه بدا غاضباً وقلقاً طيلة فترة الظهر، وظل كذلك حتى عند مغادرتهما. اتفقوا على موعد عشاء في يوم ميلاد بيب الأسبوع القادم.

"أنا آسفة لأنني أخبرته عن موضوع المشردين، أمي". قالت بيب بندم واضح وهم في السيارة بعيدين عن منزله، ونظرت إليها أوفيلي بابتسامة حزينة.

"لا بأس، حبيبتي. أعتقد أن الأسرار ليست أشياءً جيدة".

"هل الأمر خطير كما يقول؟" بدت بيب قلقة.

"ليس كذلك في الواقع"، حاولت أوفيلي طمأنتها، وصدّقت ما تقوله. لم تكن تكذب على بيب. شعرت بالأمان حقاً مع الفريق. "علينا أن نكون حذرين، فإن كنا كذلك، ستجري الأمور بخير. لم يتعرض أحد من الفريق لأي أذى من قبل، ويريدون إبقاء الأمر بهذه الطريقة، وكذلك أنا". عند سماع ذلك، شعرت بيب بالطمأنينة ثانيةً، ونظرت إلى أمها مرة أخرى.

"يجب عليك إخبار مات بذلك. أعتقد أنه خائف جداً عليك".

"هذا لطف منه. إنه يهتم بنا". ولكن الحقيقة هي أن هناك الكثير من الأشياء الخطيرة في الحياة. لا شيء في الحياة خالٍ من المخاطرة بكامله.

"أحب مات"، قالت بيب بهدوء. كانت تلك المرة الثانية خلال يومين التي تعبّر فيها بيب عن حبها لمات، بقيت أوفيلي صامتة في طريق العودة إلى المنزل. لقد مضى زمن طويل منذ أن اهتم أحد بها بمثل طريقة الحماية تلك. حتى تيد. لم يكن يوليها الاهتمام الكبير في السنوات الأخيرة. كان منشغلاً جداً بأموره الشخصية لدرجة أنه لم يكن ليقلق عليها، ولكن لم يكن هناك حاجة لذلك أيضاً. الشخص الوحيد الذي كانت أوفيلي تقلق عليه دائماً هو تشاد، وخاصة بعد محاولتي الانتحار، ولم يكن تيد يقلق لأمره أيضاً. كان معظم الوقت مهتماً بنفسه وحسب. ولكنها أحبته رغم ذلك.

اتصلت بيب بمات تلك الليلة لتشكره على اليوم الجميل عند الشاطئ، وبعد دقائق قليلة، طلب منها التحدث مع أوفيلي. كانت خائفة تقريباً من رفع سماعة الهاتف، ولكنها فعلت.



"كنت أفكّر بما تكلمنا فيه، وأعتقد أنني غاضب جداً منك"، قال بقوة. "إنه من أكثر الأمور عديمة المسؤولية التي سمعت عنها في حياتي، لامرأة بوضعك، وأعتقد أنه يتوجب عليك رؤية طبيب نفسي. أو العودة للانضمام إلى المجموعة".

"قائد المجموعة هو من أرسلني إلى المركز"، قالت بعقلانية، فتأوه بصورة مسموعة.

"أنا واثق من أنه لم يفكّر أبداً بأنك ستنضمين إلى الفريق الخارجي. اعتقد بأنك قد تساهمين في تقديم القهوة، أو تضميد الجروح، أو أي شيء يقومون به". يعلم ما كانوا يفعلونه. فقد قرأ المقالة التي أعطته اياها. ولكنه كان غاضباً بشدة.

"أعدك أنني سأكون بخير".

"لا يمكنك أن تعدي أحداً بذلك، ولا حتى نفسك، أو بيب. لا يمكنك التوقع أو السيطرة على ما يحصل هناك في الخارج".

"لا، ولكن ربما أصطدم بحافلة وأنا أقطع الشارع غداً أيضاً، أو أموت على سريري بنوبة قلبية. لا يمكنك السيطرة على كل شيء في الحياة مات. تعلم ذلك تماماً مثلي". كان لها فلسفة عن الحياة، وحتى عن الموت، ازدادت بعد موت تيد وتشاد. لم يعد الموت يخيفها كما كان في السابق. تعلم أن الموت هو الشيء الوحيد الذي لا يمكنك السيطرة عليه.

"هذا أقل احتمالاً وأنت تعرفين ذلك". بدا غاضباً بشدة، وبعد دقائق قليلة، أغلق كل منهما سماعة الهاتف. لم تكن تفكّر بالاستقالة من الفريق الخارجي، وقد علم ذلك. ولكنه لا يعلم ماذا يجب أن يفعل. كان قلقاً طوال الأسبوع، وذكر ذلك في ميلاد بيب ثانيةً، بعد ذهابها للنوم.

اصطحبهما لتناول العشاء في مطعم إيطالي صغير أحبته بيب. غنى القائمون على الخدمة أغنية عيد ميلاد سعيد باللغة الإيطالية بصوت عالٍ، وأعطاها بعض معدات الرسم التي كانت تتوق إليها، وكنزة كُتب عليها /نت

صديقتي *المفضلة*. كان قد قام بكتابتها بنفسه، وكانت مبتهجة بشدة. كانت أمسية رائعة، وشعرت أوفيلي بالامتنان له كعادتها. ولكنها تعلم ما سيأتي بعد ذلك. تمكنت من رؤية ذلك على وجهه، وعلم أنها تعرف ذلك. أصبحا يعرفان بعضهما بشكل جيد.

"تعرفين ما سأقوله، أليس كذلك؟" سألها، وبدا جاداً، فأومأت أوفيلي، وهي تشعر بالأسف تقريباً لذهاب بيب إلى السرير.

"أتوقع ذلك". ابتسمت له. أثر في قلبها أنه يهتم بهما كثيراً. وهي تهتم به أيضاً، وأدركت في كل مرة تراه فيها كم أصبحت متعلقة به بصورة متزايدة. كانت على وشك توقع أنه جزء من حياتها، ومن حياة بيب، بأي شكل كان.

"هل فكّرتِ بالأمر؟ أعتقد بصدق أنه يتوجب عليك الاستقالة من الفريق الخارجي". نظر إليها بحزم.

"أعلم ذلك. قالت بيب بأنه يتوجب عليّ إخبارك بأنه لم يتعرض أي شخص من الفريق للأذى من قبل. إنهم حذرون وأذكياء، ويعرفون ما يفعلونه هناك. مات إنهم ليسوا أغبياء، وكذلك أنا. هل يطمئنك هذا؟".

"لا. كل ما يعنيه هذا هو أنهم محظوظون حتى الآن، ولم يحدث أي شيء معهم بعد، ولكن من الممكن أن يحدث في أي وقت. وتعرفين ذلك تماماً كما أعرفه".

"ربما يتوجب علينا أن نكون أكثر إيماناً. ربما يبدو ذلك سخيفاً لك، ولكن لا أعتقد أن العناية الإلهية ستدعني أتعرض للأذى لأنني أقوم بشيء يستحق العناء".

"وماذا إن كانت منشغلة في مكان آخر تلك الليلة عندما تعترضك المشكلة؟ هناك المجاعات، والفيضانات، والحروب التي يتوجب الاهتمام بها، ولست أنت وحدك"، قال مات، ولم تتمكن من منع نفسها من الضحك، وابتسم هو أخيراً.



"أتعرفين أنك ستجعلينني أصاب بالجنون. لم أعرف أحداً عنيداً مثلك من قبل. أو جريئاً أيضاً"، ثم أضاف بهدوء، "أو لطيفاً. أو أحمقاً، لسوء الحظ. لا أريدك أن تصابي بأي أذى". قال بحزن تقريباً. "أنت وبيب تعنيان لي الكثير".

"وأنت تعني لنا الكثير أيضاً. لقد جعلت ميلاد بيب رائعاً"، قالت بشكر. كان ميلادها السنة الماضية مروعاً، بعد أسبوع من موت أبيها وأخيها. أما هذا فكان ممتعاً وجميلاً بسبب ما تمكن مات من فعله. ستقيم حفلة من تلك الحفلات التي تنتهي بالنوم سويةً مع أربع صديقات من مدرستها في عطلة نهاية الأسبوع القادمة، وكانت تتوق إليها أيضاً. ولكن العشاء مع مات، والهدايا التي قدّمها لها، كانت تعني الكثير لها، ولأوفيلي. وشعرت بالأسف لأن الفريق الخارجي وعملها معهم قد أصبح موضع الخلاف الدائم بينهما. لم يكن لديها أية نية في الاستقالة من الفريق، وقد عرف مات ذلك. ولكن لديه جميع النوايا لاستخدام جميع الطرق المنطقية لإقناعها، ووضع جميع الضغوط عليها لإيقافها.

أخيراً تحدثا عن أمور مختلفة لأول مرة منذ أسبوع، وبدا كل منهما مستريحاً بكوب من الشراب وهما يجلسان بالقرب من الموقد. كان المكوث معه سهلاً ومريحاً. لم تكن قد شعرت بمثل هذه الراحة مع أي رجل في حياتها، حتى مع تيد. وكان مات يشعر بالراحة أيضاً. بدا أكثر سعادة عند مغادرته. لم يستسلم في معركته الضارية المتعلقة بالعمل مع المشردين، وليس لديه أية نية لذلك، ولكنه أدرك أيضاً أنه لا يمتلك ما يكفي من النفوذ عليها. ولكنه كان يفعل كل ما بوسعه، بالنظر إلى حدود دوره في حياتها.

بينما كانت تصعد ببطء السلالم في الظلام، لتجد بيب في سريرها، كالعادة، كانت تفكّر به. إنه رجل لطيف، وصديق طيب، وشعرت بأنها محظوظة لوجود شخص مثله يهتم بهما. كانت الأمسية معه جميلة... أكثر جمالاً مما أرادتها. كانت تشعر بالقلق أحياناً من أن تعلقها به يزداد، ولكنها

أوقفت نفسها عن التفكير بذلك. بدا أنه يمكن السيطرة جيداً على الموقف بينهما. إنه صديقها، وليس سوى ذلك.

بينما كان يقود سيارته عائداً إلى مرفأ الأمان (سيف هاربر)، كان يبتسم بينه وبين نفسه. كان مصدوماً قليلاً بما فعله قبل مغادرته منزلها، ولكن ذلك كان لسبب معقول. كانت الفكرة قد خطرت في باله بينما كان يجلس بالقرب منها وصدف أن نظر إلى الصورة الموضوعة أمامها على الطاولة. انتظر حتى تذهب لتطمئن على بيب، ومن ثم قام بحركته. وبينما كان يقود سيارته، ويفكّر بالأمسية، وبوجه بيب عندما كان الخدم ينشدون لها، كانت صورة تشاد بإطارها الفضي بجانبه على المقعد، تبتسم له.



# 19

لم ترَ بيب وأوفيلي مات حتى عشاء الأب والابنة بعد ثلاثة أسابيع تقريباً. كان منشغلاً، وكذلك هما. كان يتصل كل يوم تقريباً للتحدث مع بيب. وحاولت أوفيلي الابتعاد عن موضوع مركز ويكسلر عند التكلم معه. فهي تعرف بشكل جيد جداً كيف يشعر حيال الفريق الخارجي. علمت بأنه لم يكن غاضباً منها، ولكنه مصاب بخيبة الأمل لرفضها الموافقة على رأيه. وشعر بالقلق عليها وعلى بيب أيضاً.

وصل إلى عشاء الأب والابنة مرتدياً سترة فضفاضة، وبنطالاً رمادياً، وقميصاً أزرق، وربطة عنق حمراء اللون. وبدت بيب فخورة به عند مغادرتهما للعشاء، المقام في نادي مدرستها. أما أوفيلي فتناولت العشاء يومها مع أندريا، في مطعم ياباني صغير في الجوار. كانت أندريا قد أحضرت جليسة أطفال لابنها، لذلك كانت تستمتع لساعات قليلة بحريتها.

"ماذا يحدث إذاً؟" سألتها بتأكيد حاد.

"أنا منشغلة في المركز، وتبدو بيب سعيدة في المدرسة. هذا كل شيء عنا. كل شيء بخير. ماذا عنك؟" بدت أوفيلي بخير هذه الأيام. كان عملها في المركز يجدي لها نفعاً. كان بإمكان أندريا رؤية ذلك أيضاً.

"تبدو حياتك مملة تماماً كحياتي"، قالت لها بنظرة مثيرة للاشمئزاز. "هذا ليس ما عنيته، وتعرفين ذلك. ماذا يحدث مع مات؟".

"أخذ بيب إلى عشاء الأب والابنة الليلة"، قالت أوفيلي ببراءة، وهي تسخر من صديقتها بشدة.

"أعلم ذلك، أيتها الغبية. ماذا يحدث معك ومعه؟ هل يوجد أي شيء؟".

"لا تكوني سخيفة. إنه سيتزوج بيب يوماً ما، وسيصبح صهري". بدت مسرورة.

"أنتِ مريضة. لا بد من أنه شاذ".

"أشك بذلك. ولكن إن كان كذلك، فهذا ليس من شأني". بدت أوفيلي غير قلقة، فهدأت أندريا بنظرة غاضبة. كانت قد بدأت مؤخراً علاقةً مع أحد زملائها في المكتب، رغم أن أوفيلي تعلم بأنه متزوج. ولكن ذلك لم يبدُ أنه يزعج أندريا. فقد أقامت علاقات مع الكثير من الرجال المتزوجين على مر السنين، وقالت إن ذلك يناسبها. لا ترغب بالزواج، ولا تريد رجلاً يعترضها طوال الوقت. ولكن أوفيلي شكت منذ زمن بعيد بعدم صحة ذلك. وخاصة الآن، مع وجود الطفل، فسيكون من الجميل لها أن تتزوج. هي لا تؤمن فقط بأنها ستجد أي شخص بعد الآن، إنها جاهزة للقبول بأي شيء تحصل عليه، حتى ولو كان مُستعاراً أو ملكاً لشخص آخر.

"هل تريدين الخروج معه؟" بدا ذلك غير طبيعي لها. كانت أوفيلي امرأة جميلة، وفي الثانية والأربعين من عمرها فقط - حوالى الثالثة والأربعين - فهي ما تزال شابة لتحرم نفسها من الرجال، ولتقضي بقية عمرها تندب تيد.

"كلا"، أجابت أوفيلي بهدوء. "لا أريد الخروج مع أحد. لا أزال أشعر أنني متزوجة من تيد". ومهما شعرت، أو لم تشعر، ليس لمات أي علاقة بذلك. فقد أحب كل منهما العلاقة كما هي. كان خطراً جداً عليها أن تتوقع المزيد منها، أو حتى السماح لها بتجاوز ذلك، إن حصل ذلك. ولم ترغب أبداً بإفساد ما يفعلونه الآن. ولكنها لم تقل شيئاً من هذا لأندريا. تعلم أوفيلي بأنها لن تفهم ذلك أبداً. فقد كانت تهتم بتحقيق ملذاتها الشخصية أكثر بكثير من كبحها، الأمر الذي فضلته أوفيلي.

"وماذا إن لم يكن تيد يشعر بأنك زوجة له؟ ماذا تعتقدين أنه كان سيفعل لو أنتِ مت بدلاً منه؟ هل تعتقدين أنه سيحافظ على حبك لبقية حياته؟" بدت



أوفيلي غير سعيدة بسؤالها. فقد أحضر لها ذلك بعض الذكريات القديمة المؤلمة التي تعلمها أندريا حقاً. ولكن ضايقتها رؤية أوفيلي تضيّع حياتها. لم تكن تعتقد أن تيد يستحق ذلك، مهما كان مقدار حب أوفيلي له. لم يكن من الجيد لصحتها أن تبقى وحيدة للأبد بسببه. فمن الواضح أن أوفيلي مصرة على طريق العازبة الأرملة البائسة لبقية حياتها.

"لا يهم ما كان سيفعله"، قالت بهدوء، "هذا ما أفعله أنا، وما أشعر به. وما أريد القيام به". فقد اختارت بنفسها، وتشعر بالراحة لذلك، مهما كان مات لطيفاً وجذاباً.

"ربما لا يكون مات قادراً على إثارتك. ماذا عن مكان المشردين الذي تعملين به؟ هل من أحد هناك؟ كيف هو المدير؟" حاولت تجربة كل شيء من أجل مصلحة صديقتها، وضحكت أوفيلي عليها.

"أحبها جداً. إنها امرأة".

"استسلمت. إن الأمل ميؤوس منك". أطلقت أندريا يديها في الهواء مستسلمة.

"جيد. ماذا عنك؟ كيف هو هذا الرجل الجديد؟".

"من النوع الذي أفضله. ستلد زوجته توأماً في كانون الأول. يقول بأن دماغها ميت، وزواجهما يتعرض لمشاكل منذ سنوات، ولهذا السبب هي حامل. من الغباء فعل ذلك، ولكن هذا ما يفعله الناس. إنه ليس حب حياتي، ولكننا نستمتع بوقتنا سوياً". حتى مجيء الأطفال، ومن ثم سيقع في حب زوجته ثانيةً، أو لن يفعل. ولكنه ليس الحل لأندريا، وكلتاهما تعرف ذلك. زعمت بأنها لا تريد حلاً، مجرد علاقة جنسية عَرَضية لتثبت لنفسها بأنها لم تمت بعد.

"إنه لا يبدو حلاً لك"، قالت أوفيلي متعاطفة، وشعرت بالأسف عليها. فقد قامت أندريا بصنع خيارات بائسة كثيرة في حياتها، لفترة تعتبر طويلة.

"إنه ليس كذلك. ولكنه يجدي نفعاً الآن. سيكون منشغلاً مع توأمه عند ولادتهما على أية حال. ففي هذه الأثناء، تستريح زوجته في فراشها، وهما لم يقيما أية علاقة جنسية منذ حزيران". الاستماع لها فقط كان محزناً. كل شيء وصفته كان كل شيء لم ترغب به أوفيلي على الإطلاق. كان كل ما تتحدث عنه هو الوسيلة والفرصة المناسبة والموافقة على شيء أقل مما تستحقه، فقط لتجد جسداً دافئاً في سريرها.

مهما كان تيد صعب المراس، أحبت أوفيلي زواجهما. أحبت الزواج منه، وحبه، ودعمه عاطفياً في سنوات الفقر، والاحتفال معه ولأجله عندما تمكن من إنجاز كل شيء. أحبت الولاء وحقيقة أنهما كانا سوية للأبد. لم تخنه أبداً، ولم ترد ذلك. حتى وإن أخطأ في إحدى المرات، تعرف أنه يحبها، وسامحته. أرعبها التفكير الآن بأنها عزباء مرة أخرى، وروعها عالم العلاقات. كانت أكثر سعادة في المنزل مع بيب، من أن تتسكع خارجاً مع رجال يخونون زوجاتهم، أو مع العازبين الراغبين بالبقاء على تلك الحال، ويرغبون فقط بالتسلية. لم تتمكن من التفكير بأي شيء أسوأ من ذلك. ولم تكن لديها أية رغبة بإفساد صداقتها مع مات، أو بإيذائه، أو إيذاء نفسها ثانيةً. أحبت ما يفعلانه، تماماً كما هو. كان من الأفضل لهما أن يظلا صديقين، ولا يهم ما فكّرت به أندريا.

عاد مات مع بيب في الساعة العاشرة والنصف تلك الليلة. بدت مسرورة وغير مرتبة، وقد خرج قميصها من تنورتها، ووضع هو ربطة عنقه في جيبه. كانا قد تناولا الدجاج المقلي ورقصا على إيقاع موسيقى الراب التي اختارتها الفتيات. وقالا إنهما استمتعا بوقتهما جداً.

"أنا لست متأكداً من موسيقاهم"، قال وهو يضحك مع أوفيلي، بينما كانت تصب له كوباً من الشراب، بعد ذهاب بيب إلى سريرها. "بدا أن بيب تحبها. ويمكنها الرقص عليها بالتأكيد".

"كنت أحب الرقص أيضاً"، قالت أوفيلي بابتسامة سعيدة. كانت مسرورة



لاستمتاعهما بالوقت. وكعادته، خصص يومه لهما فقط. ذهبت بيب إلى سريرها والابتسامة تمتد من أذنها الأولى حتى الثانية. شكت أوفيلي بأنها مغرمة به، ولكن ذلك لم يكن مضراً وبدا منطقياً بالنسبة لها. لم يكن مات مدركاً ذلك حتى، فبدا هذا شيئاً جيداً. ولو كان يدرك ذلك، فلربما سبب إحراجاً لبيب.

"والآن؟ ألا تحبين الرقص أبداً؟" سأل بابتسامة عريضة وهو يجلس.

"كره تيد الرقص، بالرغم من أنه كان راقصاً متميزاً بعض الشيء. لم أرقص منذ سنوات". وأدركت الآن بأنه من غير المحتمل أن تفعل ذلك ثانيةً... ليس مع تلك الطريقة التي اختارتها لتعيش. يتوجب على بيب الآن الرقص عن العائلة بكاملها بعد الآن. قالت لنفسها بأن القطار قد فاتها. الأرملة ماكنزي في عزلتها، وتنوي أن تبقى كذلك. كان ذلك أحد الأمور العديدة التي قبلت بها بخصوص وضعها. لن تقيم أية علاقة على الإطلاق. ولن تسمح لنفسها حتى بالتفكير بها.

"ربما يتوجب علينا الذهاب للرقص يوماً ما، فقط لإعادة تدريبك"، مزح معها، فابتسمت. علمت بأنه يضحكها وحسب. فقد كان مبتهجاً بشدة بعد أمسيته مع بيب.

"أعتقد أنني تجاوزت تلك المرحلة الآن. بالإضافة إلى أنني أتفق معك بشأن موسيقى بيب. أشياء مخيفة حقاً. إنها تشغّل الراديو كل يوم في طريقنا إلى المدرسة، ويكاد ذلك يصمني".

"فكّرت بتلك الليلة أيضاً. الأذية الصناعية في الصف السابع. الأمر بخير، بالنسبة لرسام، وليس بالخسارة الكبيرة. ولكنه سيكون صعباً جداً إن كنت مؤلفاً أو قائداً لفرقة موسيقية". استمرا في التحدث لبعض الوقت، ولأول مرة، لم يذكر الفريق الخارجي، وشعرت بالارتياح لذلك. كان عملها معهم يستمر بشكل رائع، ولم يتعرضوا لأية حوادث مشؤومة في الأسابيع الأخيرة. شعرت بأنها آمنة ومرتاحة معهم أكثر مما كانت عليه في حياتها. وأصبحت

هي وبوب صديقين حميمين. قدّمت له نصائح مجانية لأطفاله، رغم أنه بدا بأنه يتعامل بشكل رائع مع الأمر، وتحدثت معه كثيراً عن بيب. كان قد بدأ لتوه بإقامة علاقة مع صديقة زوجته المفضلة، الأمر الذي اعتقدت بأنه لطيف، وجيد ربما من أجل الأطفال، الذين كانوا يحبونها جداً. كانت سعيدة من أجله.

كان الوقت قرابة منتصف الليل عندما غادر مات. كانت ليلة رائعة مليئة بالنجوم، وعلمت بأنها ستكون آمنة ورائعة في طريق عودته للمنزل. حسدته... فهي تشتاق للشاطئ. ومن ثم، قبل أن ينطلق بسيارته بلحظات، لوّحت له وركضت على الدرج. أرادت أن تسأله عن شيء ما.

"لقد كدت أنسى. ماذا ستفعل في مناسبة الشكر؟" كان ذلك بعد ثلاثة أسابيع، وكانت تنوي أن تسأله منذ أسابيع.

"الشيء نفسه الذي أفعله كل سنة. أتجاهله. أنا مثالٌ أصلي للرجل المثير للاشمئزاز والخالي من المشاعر. لا أهتم بالديك الرومي، أو بمناسبة 25 كانون. إنها تعاكس إيماني". كان من السهل عليها معرفة السبب. فبما أن ولديه قد ابتعدا عن حياته، كانت واثقة من أن أيام العطل مؤلمة بالنسبة له، ولكن ربما معها ومع بيب، ستكون جيدة وأكثر سعادة.

"هل لديك رغبة بتغيير ذلك؟ سأقيم مع بيب وأندريا احتفالاً هنا. ما رأيك؟".

"أعتقد أنه لطف منكِ أن تسأليني. ولكنني لم أعد جيداً في هذه الأمور. إنه شيء من الماضي. لم لا تأتين وبيب لقضاء اليوم التالي؟ أحب ذلك، إن رغبت بالمجيء".

"أنا واثقة من أن بيب ستحب ذلك، وكذلك أنا". لم ترغب بالضغط عليه من أجل مناسبة الشكر. يمكنها تخيل مدى صعوبة ذلك عليه. تماماً كما كان بالنسبة لها الآن. كانت أيام العطل أكثر الأمور بغضاً بالنسبة لها في السنة الماضية. "اعتقدت أنه يجب عليّ سؤالك عن ذلك وحسب". أصيبت بخيبة أمل قليلاً، ولكنها أخفت ذلك عنه. لقد قدّم أكثر مما يتوجب عليه لهما. ولا يدين لهما بشيء.



"شكراً لك"، قال وقد بدا متأثراً بالرغم من رفضه لدعوتها.

"شكراً لاصطحابك بيب إلى الرقص"، قالت وهي تبتسم له.

"أحببت ذلك. سأستمع إلى موسيقى الراب كل يوم، وأرى إن كان بإمكاني الرقص. لا أريد إحراجها في السنة القادمة". كان لطفاً منه أن يفكّر بتلك الطريقة، اعتقدت أوفيلي ذلك، وهو يقود سيارته بعيداً. كان رجلاً لطيفاً بصدق. فمن المضحك كيف يتمكن الناس من تعلم النجاة، قالت متأملة. يتعلم المرء بصنع البدائل، والانتقال، والاعتماد على الأصدقاء بدلاً من الأزواج والرفاق. أصبحوا كالعائلة لبعضهم البعض، يجتمعون معاً كأشخاص معرضين للعاصفة وهم في قارب نجاة واحد. لم يكن هذا ما توقعت أن تفعله في حياتها، ولكنه أجدى نفعاً. مُنح كلٌّ منهم ما يريده. لم يكن هذا اتحاد العائلة الذي كانت تملكه مسبقاً، ولكنه كل ما يملكونه الآن، وما يجدي نفعاً معهم. سواء أحبوه أم لا، ليس لديهم خيار آخر، وكانت شاكرة لتلك الأيدي اللطيفة التي امتدت لهم في الظلام، وأمسكتهم، كأيدي مات. كانت بالتأكيد ممتنة له، وهي تقفل الباب الأمامي، وتصعد إلى الأعلى، ثم تذهب إلى السرير في المنزل الصامت.

# 20

كان يوم مناسبة الشكر أصعب مما توقعت. هناك شيء مؤلم يرافق العطل بغياب تيد وتشاد. لم يكن هناك أية طريقة لإخفاء قسوتها، أو تليينها، أو التظاهر بأنها أقل إيلاماً مما كانت عليه. وعندما تلت الابتهالات أمام المجموعة الصغيرة المتجمعة على طاولة المطبخ، تعبر فيها عن العرفان بالجميل لكل النعم، وتطلب من الله الرحمة لابنها وزوجها المتوفيين، انهارت وانفجرت بالبكاء. بكت بيب معها. وبمشاهدتهما، بدأت أندريا تبكي، وبرؤية المأساة حوله، بدأ طفلها ويليام بالصراخ أيضاً. حتى موس بدا غير مرتاح. كان الأمر بغيضاً جداً لدرجة أن أوفيلي بدأت تضحك بعد دقيقة. وقضين بقية اليوم بين الضحك الهستيري والبكاء.

كان طبق الديك الرومي متوسط الجودة، ولكن لم يرغب أحد بتناوله حقاً، وحشوته كانت جافة. لقد كان وجبة لم يستمتع بها أي شخص وحسب. كنّ قد قرّرن تناول الطعام في المطبخ، لأنهن علمن أن ويليام البالغ تسعة أشهر تقريباً، والقادر على تحريك يديه السمينتين في كرسيه العالي فقط، سيحول المكان إلى فوضى. شعرت أوفيلي بالامتنان لأنهن لم يجلسن في غرفة الطعام، حيث كل ما ستتمكن من تخيله هو تيد وهو يقطع الديك، كما كان يفعل كل سنة، وتشاد يرتدي بذلته، وهو يتذمر بألم لأن عليه ارتداء ربطة العنق. لم يمضِ الكثير على تلك الذكريات والخسائر.

عادت أندريا إلى منزلها بعد الظهر مع طفلها، وذهبت بيب إلى غرفتها لترسم. لم يكن يوماً سهلاً. خرجت من غرفتها في الوقت المناسب لترى أمها

على وشك التسلل إلى غرفة تشاد، فنظرت إليها بعينين متوسلتين.

"أرجوك لا تدخلي، أمي، سيجعلك ذلك حزينة وحسب". تعلم ما تفعله هناك، تتمدد يائسة على سرير تشاد، تشم ما تبقى من أثره، وتشعر بعبيره حولها. تتمدد هناك فقط وتبكي لساعات. كان بإمكان بيب سماعها دائماً عبر الباب المقفل، وكان ذلك يحطم قلبها. بدا من المستحيل أن تأخذ مكانه في عيني أمها. ومن المستحيل على أوفيلي أن تشرح لها بأن هذا سببه ليس عدم كفاءتها أو بأنها تعني لها أقل مما كان يعنيه هو، ولكنه مجرد خسارة لا يمكن لأحد تحملها، خسارة لا يمكن لأي شيء آخر أن يملأها، فراغ لا يمكن سدّه. لا يمكن لأي طفل آخر أن يملأ ذلك، ولكن هذا لا يعني أنها تكنّ حباً أقل لبيب.

"سأدخل لدقيقة واحدة فقط"، نظرت أوفيلي إليها متوسلة والدموع تملأ عيني بيب، ومن ثم عادت بصمت إلى غرفتها وأغلقت الباب. جعلتها النظرة التي ملأت عيني بيب تشعر بالذنب لذهابها إلى غرفة تشاد، وبدلاً عن ذلك، عادت إلى غرفتها، ووقفت أمام الخزانة، وحدّقت بملابس تيد. احتاجت إلى شيء ما، شخص ما، إلى واحد منهما، أي شيء، للمسة، لجاكيت من ملابسه، لقميص، لأي شيء مألوف ما زال يفوح بعبيره، أو برائحة عطره. تلك حاجة لا يمكن الشبع منها، ولا يمكن لأحد أن يفهمها إلا إذا عانى من الخسارة نفسها. كل ما بقي لهما هو ممتلكاتهما وملابسهما، والأشياء التي لمساها أو لبساها، أو حملاها، أو تعاملا معها. ارتدت خاتم الزفاف طوال السنة الماضية، في سلسلة رفيعة حول عنقها. لم يكن أحد يعلم بوجوده هناك، إلا هي، وكانت يدها تذهب إليه من حين لآخر، فقط لتطمئن نفسها بأنه ما يزال موجوداً في الواقع، وبأنهما متزوجان، وبأنها كانت حبيبته سابقاً. كان من الصعب تقريباً تذكر ذلك الآن. يسيطر عليها الذعر أحياناً، عندما تدرك ثانيةً أنه قد رحل، ولن يعود أبداً. شعرت بموجة من الذعر تسيطر عليها وهي تسحب المعطف إلى وجهها، حيث كان معلقاً في الخزانة بقربها، وكأنها تشعر بيديه حولها، سحبته من الحمّالة وارتدته.



وقفت أمام الخزانة، وشعرت وكأنها طفلة ضائعة، بينما تدلت الأكمام للأسفل، فلفت يديها حول نفسها. شعرت بشيء يصدر حفيفاً في أحد الجيوب، ودون تفكير مدت يدها إلى الداخل. كانت رسالة، وللحظة جنونية، أرادتها أن تكون رسالة منه لها، ولكنها لم تكن كذلك. كانت ورقة واحدة طبعها أحدهم على الكمبيوتر، موقعاً بأول حرف من اسمه في أسفل الصفحة. شعرت بأنها غير مرتاحة بقراءتها لأنها ليست موجهة لها، ولكنها كانت شيئاً ما، قطعة منه، شيئاً قد لمسه مرةً وقرأه. انتقلت عيناها بهدوء لأسفل الصفحة. للحظة، تساءلت إن كانت قد كتبتها هي بنفسها، ولكنها علمت أنها لم تفعل ذلك، وشعرت بأن قلبها قد بدأ ينبض بسرعة وهي تقرأ ما تقوله الرسالة.

"حبيبي تيد"، بدأت الرسالة بذلك، ولم تتحسن بل ازدادت سوءاً. "أعلم أن تلك كانت صدمة علينا نحن الاثنين، ولكن أحياناً تتحول الصدمات الكبرى إلى أعظم الهبات في الحياة. لم أنو فعل هذا أيضاً. ولكن أعتقد أن القدر قد فعل ذلك. لم أعد شابة كم كنت، ولأكون صادقة، أخشى أنني لن أحظى بفرصة أخرى، معك أو مع أي شخص آخر. هذا الطفل يعني لي الكثير، أكثر من أي شيء في العالم، لأنه طفلك.

أعلم أنك لم تكن تخطط لهذا، ولا أنا أيضاً. بدأ الأمر كمتعة صغيرة، شيء لا ضير فيه بيننا. كان دائماً بيننا أشياء مشتركة، وأعلم كم كانت الأمور صعبة عليك في منزلك في السنوات القليلة الماضية. لا أحد يعلم أكثر مني. أعتقد أنها هي من تسيء تدبير الأمور معك ومع تشاد، والأهم من ذلك بينكما أنتما الاثنين. حتى أنني لست مقتنعة بأنه أقدم على الانتحار، وإن فعل ذلك حقيقة، فهذا لأنها تبعده عنك. أعلم جيداً كم هذا صعب عليك. ومثلك تماماً، لست مقتنعة على الإطلاق بأنه يعاني في الحقيقة من أي مشاكل. لم أصدق على الإطلاق ذلك التشخيص، وأعتقد أنه من المحتمل أن تكون تلك التي تدعى محاولات الانتحار مجرد محاولات للفت انتباهك، وربما تكون كطلب منه لكي تنقذه منها. أعتقد أنها أساءت التعامل مع الأمر منذ البداية. وربما تكون الإجابة

في أن ننهي الأمر سوية كما آمل أن نفعل، وأنت قلت أنه بإمكاننا ذلك، فتحتفظ هي بيبب ونحتفظ أنا وأنت بتشاد. ربما يكون أكثر سعادة مما عليه الآن، بدلاً من أن تئز حوله مثل الدبور، وهي تشعر بالذعر الدائم. لا يمكن لهذا أن يكون جيداً لـه. وهو أميل لأن يشبهنا كثيراً، أنا وأنت، أكثر منها. من الواضح لنا بأنهـا لا تفهمه. ربما لأنه أذكى منها، وربما حتى أذكى منا نحن الاثنين. على أيـة حـال، إن كان هذا ما ترغب به، سأكون جاهزة لتجربته، وجعله يعيش معنا، إن كان هذا ما قررته.

أمـا بالنـسبة لـنا، أؤمـن بصدق بأن هذه مجرد البداية. انتهت حياتك معها... مضت سنوات على ذلك. إنها لا ترى ذلك، ولا تريد أيضاً. لا يمكنها ذلك. إنها تعتمد عليك وعلى الولدين بالكامل. ليس لديها أية حياة. ولا تريد أية حياة لها. إنها تستخدمك مع الولدين لتجعلوا حياتها ذات معنى، فهي خالية من المعانـي. علـيها أن تجد حياتها الخاصة، عاجلاً أم آجلاً. وربما على المدى البعيد، هذا ما تحتاج إليه، ليدفعها ذلك لكي تدرك بأن حياتها بلا معنى، وبأنها فارغـة، وبأنهـا أصبحت تافهة بالنسبة لك. إنها تستنزفك. تمتص كل الحياة منك، كما فعلت لسنوات.

وهـذا الرضـيع، سواء كان صبياً أو فتاة، هو الرابط بيننا، رابطنا إلى المـستقبل. أعـرف أنك لم تتخذ قراراً صارماً بعد، ولكن أعتقد أنني أعلم ما تـريده، وما ستفعله. كل ما عليك فعله هو مدّ يدك وامتلاكه، مثل ما امتلكتني. وقد مضى على ذلك سنة الآن. لم يكن لهذا الطفل أن يأتي إن لم يُكتب له ذلك، إن لم تكن تريدنا بشدة، كما أريدك أنا.

أمامنا ستة أشهر لإنهاء الأمر، لنقوم بحركاتنا، حتى مجيء الطفل. ستة أشـهر لإنهاء الحياة القديمة، والبدء بحياة جديدة. لا يمكنني التفكير بأي شيء أهـم مـن ذلـك، أو أفضل منه، أو بأنني أرغب بالمزيد. إيماني وولائي لك، وحبي، وإعجابي واحترامي بكامله لك، ولما أنت بالنسبة لي.

المـستقبل لنا. طفلنا قادم. وحياتنا ستبدأ قريباً، تماماً كحياته، أو حياتها،



بالـرغم مـن أنني أشعر بأنه ولد، مثلك تماماً. يقدم لنا الله حياة جديدة، بداية جديـدة، حـياة كنا دائماً نرغب بها، بين شخصين يفهمان ويحترمان بعضهما البعض، بين شخصين أصبحا واحداً الآن من خلال هذا الطفل.

"أحـبك من كل قلبي، وأعدك إن أتيت إليّ - لأنني أؤمن بأنك ستفعل - بأنك ستشعر بسعادة لم تشعر بها من قبل أبداً. عزيزي، إن المستقبل لنا. تماماً كما أنا لك، بكل حبي. "أ"".

أظهـر تاريخ الرسالة أنها قد أتت قبل أسبوع من وفاته، وشعرت أوفيلي وكأنهـا علـى وشك أن تصاب بنوبة قلبية، وسقطت على ركبتيها وهي تقرأ، ومـع ذلـك قرأتها ثانيةً. لم تتمكن من تصديق ما تقرأه، ولم تتمكن من تخيل مرسلها. لم تتمكن من التفكير بشيء. لا يمكن أن يحدث هذا. هذه كذبة. خدعة قبيحة يلعبها أحدهم معها. تساءلت إن كانت رسالة ابتزاز، بينما انزلق المعطف من كتفيها، وسقط على الأرض وهي تحمل الرسالة بيدين مرتجفتين.

تـشبثت بالحـائط لتساعد نفسها على الوقوف، وحدقت بشرود للأعلى، وهـي لا تـزال تحمل الرسالة. ومن ثم أرادت أن تموت عندما علمت بذلك، وفكّـرت، وخطر ببالها. لقد ولد الطفل الذي تحدثت الرسالة عنه، وإن كان قد تـم ذلك، فحدث بعد ستة أشهر من موته. ويليام تيودور. لم تجرأ على تسميته تـيد، ولكنها اقتربت من الاسم بصورة كافية. إنها لم تسمه على اسم صديقها الـراحل. لقد تمت تسمية الطفل على اسم والده. فقد كان اسم تيد الأوسط هو ويليام. كل ما قامت بفعله هو أنها عكست الاسمين. كان الطفل منه، وليس من بنك النطاف. وذلك الحرف لا يمكن إلا أن يكون لأندريا. ذلك الحرف الوحيد 'أ' كـان أول حـرف مـن اسمها، حتى أنها كانت تخدعه بشأن تشاد، تعبث بحاجته الماسة للإنكار، وتنتقدها أيضاً. لقد أرسلت الرسالة من قبل المرأة التي ادعت لمدة ثماني عشرة سنة بأنها صديقتها المفضلة. لا يمكن تصديق ذلك، لا يمكن التفكير به، لا يمكن احتماله. خدعتها أندريا، وكذلك هو. كل ما يمكن أن تعنـيه الرسـالة أنه عندما توفي، لم يكن يحبها. كان يحب أندريا، وأصبح أباً

لطفلها. كانت أوفيلي ما تزال تحمل الرسالة عندما دخلت الحمام، وبدأت بالتقيؤ. كانت تقف أمام المغسلة، تبدو شاحبة كالموتى عندما وجدتها بيب. وتمكنت من رؤية أن أمها ترتجف بشدة.

"هل أنت بخير؟" بدت بيب مذعورة. "ما الأمر؟" بدت أمها متعبة بصورة مخيفة، وشاحبة لدرجة أن لونها قد تحول إلى الأخضر.

"نعم، أنا بخير"، قالت بصوت أجش، وهي تنظف فمها بالماء. كل ما أخرجته هو عصارة صفراء من معدتها وقضمة صغيرة من الديك الرومي. لم تكن قد تناولت شيئاً تقريباً. ولكنها شعرت وكأنها ألقت كل ما في داخلها بما في ذلك قلبها، وروحها، وزواجها.

"هل تريدين أن تتمددي؟" عرضت عليها بيب. كان يوماً بغيضاً على الجميع، والآن شعرت بالقلق الشديد على أمها. بدت وكأنها على وشك أن تموت، وتمنت ذلك.



"سأفعل بعد دقيقة. إنني بخير". عرفت بنفسها أن تلك كذبة. لن تكون بخير بعد الآن أبداً. ماذا لو كان قد تركها؟ ماذا لو فعل ذلك ولم يمت؟ وأخذ تشاد معه. كان ذلك سيقتلها، وربما يقتل تشاد، إن أنكر ذلك كل منهما. ولكنه ميت على أية حال... وكلاهما كذلك. لم يعد الأمر مهماً. ولكنه قتلها الآن، تماماً كما لو أنه أطلق عليها النار. جعلت الرسالة زواجها مضحكاً، بغض النظر عن صداقتها مع أندريا. لم تتمكن من فهم كيف يمكن لأحد أن يفعل ذلك بها، كيف يمكنها أن تكون بهذا الغدر، والمكر، والغش، والقبح.

"ماما، اذهبي وتمددي الآن، من فضلك..." كانت بيب تبكي قليلاً. لم تكن قد لقبتها بـ 'ماما' منذ أن كانت طفلة صغيرة. ولكنها كانت خائفة كثيراً.

"أحتاج إلى الخروج لدقيقة". التفتت أوفيلي لتنظر إلى ابنتها، ولكن في هذه المرة لم تعد ذلك الرجل الآلي، لقد بدت كمصاص الدماء، وجهها أصفر بارد، وعيناها لامعتان حمراوان دامعتان. لم تتمكن بيب من تمييزها، ولم ترغب بذلك. أرادت أن تعود أمها، مهما كانت قد فعلت في الساعة الأخيرة.



ومهما كان الشخص الواقف أمامها لم يكن يشبه أمها حتى. "هل يمكنك البقاء هنا لوحدك؟".

"إلى أين أنت ذاهبة؟ هل تريدينني أن أذهب معك؟" كانت بيب ترتجف الآن هي أيضاً.

"لا. سأذهب لبضع دقائق فقط. أبقي الأبواب مقفلة، وموس معك". بدا صوتها كصوت أمها، ولكنها لم تكن تشبهها. وفجأة شعرت أوفيلي أن لها هدفاً وحيداً، وقوة لم تكن تعرف أنها تمتلكها. تمكنت فجأة من فهم سبب اقتراف الناس لجرائم الانفعال. ولكنها لم ترغب بقتلها. أرادت رؤيتها وحسب، بأن تلقي نظرة أخيرة عليها، على المرأة التي دمّرت زواجها، والتي قلبت ذكرياتها عن تيد وعن حياتهما سوية إلى رماد. حتى أنها لم تسمح لنفسها بأن تكرهه. كل شيء شعرت به، كل ألم وذعر أحسته في السنة الماضية انصبّ على أندريا خلال لحظة واحدة، كالرصاصة تماماً. ولكن الرصاصة قد ارتطمت بأوفيلي ومرت مباشرة عبرها. ولم يكن هناك شيء يمكنها فعله لترد ما فعلاه بها.

وقفت بيب في أعلى الدرج، كانت خائفة بشدة عندما غادرت أمها. لم تعرف ماذا تفعل، أو بمن تتصل، أو ماذا تقول. جلست على الدرج، وسحبت موس بالقرب منها. لعق وجهها، ودموعها، بينما جلسا هناك بانتظار عودة أوفيلي.



قادت سيارتها على بعد عشرة أبنية وصولاً إلى منزل أندريا دون توقف. اجتازت ممرات المشاة وإشارات التوقف، وإشارة سير ضوئية، ثم ركنت سيارتها على رصيف المشاة. لم تعطها أي اتصال تحذير، وصعدت مسرعة إلى أعلى الدرج ورنّت جرس الباب. لم تكن قد ارتدت أي معطف فوق قميصها الرقيق، ولا كنزة، ولكنها لم تشعر بأي شيء. استغرقت أندريا دقيقة فقط لتجيب على جرس الباب. كانت تحمل الصبي مرتدياً البيجاما، وابتسم كل منهما في اللحظة التي شاهداها فيها.

"أهلاً..." بدأت أندريا ترحب بها بدفء، ورأت على الفور أنها ترتجف. كانت قد وضعت الرسالة في جيبها. "هل أنت بخير؟ هل حدث أي شيء؟ أين بيب؟".

"نعم، حدث شيء ما". وقفت أوفيلي أمام المدخل، وسحبت الرسالة من جيبها بيدين مرتجفتين بشدة، لم تتمكن من السيطرة عليهما جيداً. "وجدت رسالتك". ازداد وجهها شحوباً، وتماثل بذلك على الفور مع وجه أندريا. لم تقم بأي محاولة لإنكارها. بدتا كامرأتين من طبشور تقفان أمام الباب، والرياح تعصف حولهما.

"هل ترغبين بالدخول؟" كان هناك أشياء كثيرة يتوجب قولها، ولكن أوفيلي لا تريد سماعها، ولم تتحرك من المكان الذي كانت تقف فيه.

"كيف أمكنك فعل هذا؟ كيف أمكنك فعل هذا لمدة سنة، والتظاهر بأنك صديقتي؟ كيف أمكنك الحصول على طفل منه والتظاهر بأنه من بنك النطاف؟ كيف تجرأتِ على قول ذلك عن تشاد لتخدعي أباه؟ تعلمين كيف كان تيد يشعر تجاهه. كل ذلك كان خداعاً، حتى أنك ربما لم تحبيه. أندريا، أنت لا تحبين أحداً. لا تحبينني، ولا تحبينه، وربما لا تحبين هذا الطفل المسكين. وكنت ستأخذين تشاد مني، لتؤذي تيد، وكان ليقتل نفسه وأنت تمتعين نفسك، تستخدمينه كطعم. أنتِ أقل من أن تستحقي الشفقة. إنكِ شريرة. أنتِ أسوأ إنسان. أكرهكِ... دمرتِ الشيء الوحيد الذي تبقى لي... الإيمان بأنه أحبني... لم يفعل ذلك... وأنتِ لم تحبيه أيضاً. أنا فعلت. أحببته دائماً، مهما كان سيئاً معي، أو مع ولديه... أنتِ لا تحبين أحداً... يا إلهي، كيف تمكنتِ من فعل هذا؟" شعرت وكأنها على وشك أن تموت وهي واقفة هناك، ولكنها لم تعد تأبه. لقد دمراها. استغرق ذلك سنة بعد موته، ولكن حتى بعد موته، تمكنا من فعل ذلك. كلاهما. لم تتمكن حتى من فهم السبب. "أريدكِ أن تبتعدي عني... وعن بيب... لا تتصلي بنا أبداً. لا تحتكي بي. أنت ميتة برأيي للأبد. تماماً كما هو ميت... هل تسمعينني..." انقطع صوت أوفيلي ليتحول إلى بكاء.



لم تجادلها أندريا، وكانت ترتجف أيضاً، وهي تحمل الصبي. كانتا باردتين ومذهولتين، ترتجفان بشدة، وعلمت أندريا أنها تستحق ذلك. كانت قلقة كثيراً عما فعل بالرسالة، ولكن عندما لم تظهر، افترضت أنه قد مزقها، وأملت أن يكون قد فعل ذلك. ولكن كان هناك شيء أخير تريد قوله للمرأة التي كانت صديقتها ولم تخنها أبداً.

"أريدك أن تسمعيني... لديّ شيء واحد أقوله لك، عدا أنني متأسفة جداً... لن أسامح نفسي أبداً، ولكن الطفل يستحق هذا على الأقل... لم يكن خطأه".

"لا أبالي لطفلكِ أو لكِ". ولكن المشكلة أنها تبالي فعلاً لكل منهما، ولهذا السبب كان الأمر مؤلماً بشدة، والأعظم من ذلك معرفة أن الصبي له... حتى أنه يشبهه، رأت ذلك الآن... أكثر مما كان تشاد يشبهه.

"اسمعيني، أوفيلي، وأنصتي لي. لم يكن قد قرر بعد. أخبرني أنه لا يعرف كيف بإمكانه هجرك، كنتِ جيدة معه كثيراً منذ البداية، ودائماً كذلك، علم ذلك... كان رجلاً أنانياً، فعل ما أراده فقط، وأرادني، ولكن أعتقد أنه كان يلهو وحسب. كان بيننا أشياء مشتركة. أردته لي. كنت كذلك دائماً. وعندما سنحت لي الفرصة، عندما كنتِ أنتِ والولدين في فرنسا، انتهزتها... اختطفتها. لم يفعل ذلك هو. قبل بها فوراً، ولكنني لست واثقة من أنه أحبني. ربما لم يفعل. ربما لم يكن ليتركك أبداً. لم يكن قد قرر بعد. عليك أن تعرفي ذلك. إنه لم يمت وقد قرر أن يهجرك. لم يكن متأكداً من ذلك. لهذا السبب كتبت له الرسالة. كنت أحاول إقناعه. يمكنك رؤية ذلك. لربما كان قراره أن يبقى معك. لست واثقة من أنه أحب أياً منا، كي أكون صريحة معك. أنا لست واثقة بأنه كان قادراً على ذلك. كان ذكياً ونرجسياً. لا أعرف إن أحبني، وإن أحب أحداً، فإنه أنت. قال ذلك، أعتقد أنه صادق في ذلك. كنت دائماً أعتقد بأنه كان سيئاً معك، وتستحقين أفضل منه. ولكن أظن حقاً بأنه أحبك، بالمستوى الذي تمكن منه. وأريدك أن تعرفي ذلك الآن".

"لا تتحدثي معي أبداً". بصقت أوفيلي الكلمات عليها، ومن ثم التفتت، وبساقين مرتجفتين، نزلت الدرج إلى سيارتها. كانت قد تركت سيارتها على رصيف المشاة دون أن تطفئ محركها. لم تنظر للخلف إلى أندريا. لم ترغب برؤيتها ثانية على الإطلاق. وعلمت أندريا أنها لن تفعل. كانت أندريا غارقة بدموعها وهي تنظر إليها تقود سيارتها بعيداً بطريقة غريبة، ولكنها أخبرت أوفيلي بالحقيقة على الأقل، كما تعلمها. لم يكن تيد واثقاً مما سيفعل. وربما لم يكن يحب أياً منهما، ولكن تستحق أوفيلي على الأقل أن تعرف بأنه كان يدين لها بشيء ما، وربما كان سيبقى معها. ربما كانت أوفيلي هي الفائزة وليست الخاسرة. ولكن في النهاية، خسر الجميع. تيد، تشاد، أوفيلي، أندريا، وحتى طفلها... جميعهم خاسرون. لقد توفي قبل أن يتّخذ قراره، وبدلاً عن تمزيق الرسالة، تركها لتعثر عليها. وربما أرادها أن تفعل ذلك. وربما توقع أن تفعل. ربما كانت تلك هي طريقته لمعالجة الأمر. لن يعرف أيّ منهم الآن. ولكن كل ما تبقى عند أندريا لتمنحها إياه هو الحقيقة، بأنه لم يكن واثقاً، وبأنه لم يعلم عندما توفي... وبأنه ربما... وفقط ربما... أحبها، بأفضل ما أمكنه.



# 21

لم تعرف أوفيلي على الإطلاق كيف تمكنت من العودة إلى منزلها، أو كيف وصلت إليه. ركنت سيارتها في المدخل ودخلت. كانت بيب ما تزال جالسة حيث تركتها على الدرج، تتشبث بكلبها.

"ماذا حصل؟ أين ذهبتِ؟" من الناحية الإنسانية، بدت والدتها أسوأ مما كانت عليه قبل نصف ساعة، وشعرت بالغثيان ثانيةً وهي تصعد الدرج، وتدخل غرفتها وهي مصابة بالدوار.

"لم يحدث أي شيء"، قالت، بعينين محدقتين، وبقلب اقتُلِع للخارج برسالة واحدة. لقد اقتلعاه معاً تيد وأندريا. استغرق ذلك منهما سنة كاملة، ولكنهما تمكنا من قتلها أخيراً. التفتت أوفيلي لتنظر إلى بيب وكأنها لا تتمكن من رؤيتها. وكأنها أصيبت بالعمى فجأة. لقد عاد الرجل الآلي، ولكنه محطم بالكامل بكل ما للكلمة من معنى، يرسل شرارته في كل مكان، نظامٌ أخفق في الإقلاع ويدمّر نفسه بنفسه كما شاهدته بيب. "أنا ذاهبة إلى السرير الآن"، كان هذا كل ما تمكنت من قوله لبيب، ومن ثم أطفأت الأضواء، واستلقت هناك، تحدّق في الفضاء. كانت بيب تودّ الصراخ إلا أنها لم تجرؤ على ذلك، لأنها خشيت أن تزيد الأمر سوءاً. ركضت إلى حجرة والدها واتصلت. كانت تبكي عندما أجاب. لم يتمكن من فهمها في البداية، وكان سعيداً بشكل غير معتاد.

"حدث شيء ما... حدث شيء ما سيئ لأمي". عاد مات إلى طبيعته فجأة وهو يستمع. لم يكن قد سمع بيب بمثل هذه الحال من قبل أبداً، ولا حتى بشكل قريب من ذلك. لقد كانت مذعورة، وتمكن من سماع الرجفة في صوتها.

"هل أصابها مكروه؟ أخبريني بسرعة، بيب. هل أنت بحاجة للاتصال بالرقم 911؟".

"لا أعلم. أعتقد أنها جنّت. لم تخبرني". وصفت كل شيء قد حدث، وطلب منها التحدث مع أمها. ولكنها عندما عادت إلى غرفة والدتها، كان الباب مقفلاً ولم تجب عليها. كانت بيب تبكي أكثر عندما عادت للتحدث معه على الهاتف. لم يطمئن للأمر، ولكنه كان خائفاً من أن يزيد الأمر سوءاً إن اتصل بالشرطة، وجعلهم يقتحمون البيت. أخبر بيب أن تعود وتطرق الباب ثانيةً، وأن تقول لها بأنه ينتظرها على الهاتف.

طرقت بيب لوقت طويل، ومن ثم أخيراً تمكنت من سماع شيء في الغرفة. بدا وكأن شيئاً قد وقع أرضاً، كمصباح أو طاولة، ومن ثم فتحت الباب ببطء. بدت وكأنها كانت تبكي، وما تزال كذلك، ولكنها لم تبدُ على نفس حالة الجنون التي كانت عليها قبل نصف ساعة.

نظرت بيب إليها بيأس، ولمست يدها وكأنها تريد التأكد من أنها حقيقية، وتحدثت بصوت مرتجف. "مات ينتظرك على الهاتف. يريد التحدث معك".

"أخبريه أنني متعبة"، قالت وهي تنظر إلى طفلتها الوحيدة الآن، وكأنها تراها للمرة الأولى.

"أنا متأسفة جداً... أنا متأسفة جداً..." فهمت أخيراً ما الذي كانت تفعله بطفلتها، كان ذلك ما فعلاه بها (أندريا وزوجها). "أخبريه أنني لا أستطيع التحدث معه الآن. سأتصل به غداً".

"يقول إن لم تتحدثي معه، فسيأتي". أرادت أوفيلي إخبارها أنه لم يكن يتوجب عليها الاتصال به، ولكنها علمت بأنه ليس لبيب أحد آخر تتصل به.

لم تنطق أوفيلي بأي كلمة أخرى، وعادت إلى غرفتها، ورفعت سماعة الهاتف. كان الظلام دامساً، ولكن بيب تمكنت من رؤية المصباح الذي وقع على الأرض. كان الصوت الذي سمعته ناجماً عن سقوطه. لقد تعثرت في الظلام.



"مرحباً". بدا صوتها وكأنه صوت صادر من الأموات، وشعر مات بالقلق تماماً كما شعرت بيب قبله.

"أوفيلي، ما الذي يحصل؟ بيب خائفة حتى الموت. هل تريدين مني أن آتي؟" علمت أن بإمكانه فعل هذا، كل ما عليها فعله هو طلب ذلك، ولكنها لم تكن تريده أو تريد أي أحد آخر، ولا حتى بيب. ليس بعد... ليس الآن، أو ربما للأبد. لم تكن قد شعرت بأنها وحيدة في حياتها على الإطلاق كما تشعر الآن، ولا حتى في اليوم الذي توفي فيه.

"أنا بخير"، قالت بصورة غير مقنعة. "لا تأتِ".

"أخبريني ما حدث". كان صارماً وقوياً.

"لا يمكنني". كان ذلك أشبه بصوت شخص شارد. "ليس الآن".

"أريدك أن تخبريني ما الخطب". هزت رأسها، وتمكن من سماع بكائها. كان قلقاً حتى الغثيان. "سآتي".

"أرجوك لا تفعل. أريد البقاء وحدي". بدت أكثر عقلانية ثانيةً. كانت مصابة بنوع من الهستيريا، أو الذعر، ولم يكن لديه أية فكرة عن الأمر.

"لا يمكنك فعل هذا ببيب".

"أعلم... أعلم... أنا متأسفة جداً..." لم تتمكن من التوقف عن البكاء.

"أريد المجيء، ولكنني لا أرغب بالتطفل عليك. أتمنى أن أعلم ما الذي يحدث بحق الجحيم".

"لا يمكنني التحدث عن الأمر الآن".

"هل تعتقدين أنه بإمكانك تمالك نفسك؟" بدت وكأنها منهارة تماماً، وبسبب ذلك البعد، لم يتمكن من تقييم مقدار الضرر. ولكنه بدا سيئاً إلى حدٍّ ما بنظره. ولم تكن لديه أية فكرة عن الأمر الذي سبب ذلك. ربما العطلة. ربما لم تتمكن من تحمل حقيقة فقدانها المضاعف. ولكن الذي لم يعرفه هو أنها أصبحت خسارة ثلاثية، لم تخسر تيد وتشاد فحسب، بل جميع أوهامها عن زواجها أيضاً. كان ذلك أكثر مما يمكنها تحمله.

"لا أعلم"، قالت كإجابة على سؤاله.

"هل تريدين مني طلب أية مساعدة؟" كان ما يزال يفكّر بالاتصال بالرقم 911. فكّر بالاتصال بأندريا، لأنها أكثر قرباً، ولكن الحاسة السادسة أخبرته بألا يتصل بأحد.

"لا، لا تتصل بأحد. سأكون بخير. أحتاج إلى الوقت وحسب".

"هل لديكِ أي شيء يمكنكِ تناوله لتهدئتك؟" رغم أنه لم يحب تلك الفكرة أيضاً. لم يرغب بأن تكون تحت تأثير المسكن وحيدةً مع بيب. سيزعجها هذا أيضاً.

"لا أحتاج إلى أي شيء لتهدئتي. أنا ميتة. لقد قتلاني". كانت تبكي بشدة ثانيةً.

"من قتلك؟".

"لا أريد التحدث عن الأمر. رحل تيد".

"أعلم ذلك. أعلم..." كان الأمر أسوأ مما أعتقد، وللحظة، تساءل إن كانت تحت تأثير الكحول.

"أعني أنه رحل حقاً... للأبد. وكذلك زواجنا. أنا لست واثقة حتى من أنه كان موجوداً في السابق". لم تعنِ طمأنة أندريا أي شيء الآن.

"أفهم ذلك"، قال راغباً في طمأنتها على الأغلب.

"لا، لا تفعل، وكذلك أنا. لقد وجدت رسالة".

"من تيد؟" بدا مصدوماً. "كرسالة انتحار؟" تساءل فجأة إن كان قد قتل نفسه وتشاد. كان ذلك سيشرح سبب وضعها... فلا توجد الكثير من الاحتمالات لذلك.

"رسالة من قاتل". لم تكن أوفيلي تقول شيئاً مفهوماً. ولكن من الواضح، بأن شيئاً فظيعاً قد حدث.

"أوفيلي، هل تعتقدين أنكِ قادرة على اجتياز الليلة؟".



"هل لديّ أي خيار آخر؟" بدت كالموتى تماماً.

"لا، ليس لديك غيره، وخاصة مع وجود بيب هناك. الخيار الوحيد الذي لديك هو أن آتي إلى المدينة أو لا". ولكن لأول مرة، لم يكن يرغب بمغادرة الشاطئ. أراد أن يشرح لها السبب، ولكن ليس الآن. يتوجب عليه الانتظار.

"يمكنني اجتياز الليلة". ما الفرق الذي سيحققه ذلك الآن؟ لا شيء، من وجهة نظرها.

"أريدكِ أن تأتي أنت وبيب غداً". كان ذلك ما خططوا له، والآن أكثر من السابق، أرادها أن تبقى هناك، أو أن يأتي هو إليها.

"لا أعتقد أنه بإمكاني ذلك". كانت صادقة معه. لم تتخيل نفسها تقود سيارتها إلى مرفأ الأمان (سيف هاربر). ولم يحب تلك الفكرة هو أيضاً. لم تكن في حالة جيدة تسمح لها بالقيادة.

"إن لم تتمكني من ذلك، سآتي أنا. سأتصل بك في الصباح. وسأتصل بك بعد ساعة لأرى كيف حالك. ربما يتوجب عليك النوم وحدك الليلة، إن كنت منزعجة جداً. يبدو وكأنك تحتاجين لبعض الوقت وحدك، وربما يكون هذا صعباً على بيب". لقد كان صعباً في السابق.

"سأسألها عمّا تريده. لا يتوجب عليك الاتصال ثانيةً. سأكون بخير".

"لست مقتنعاً بعد"، قال وقد بدا عليه التوتر، كان قلقاً عليهما. "دعيني أتحدث مع بيب". طلبت من بيب التحدث على الهاتف، فرفعت سماعة الحجرة. أخبرها مات أن تتصل به إن حدث أي شيء، وإن ازدادت الأمور سوءاً أن تتصل بالرقم 911.

"تبدو بحال أفضل الآن"، أخبرته بيب، وعندما عادت لرؤية أمها، كانت أوفيلي قد أشعلت الأنوار في غرفتها. كانت ما تزال تبدو شاحبة كالأموات، ولكنها حاولت طمأنة بيب.

"أنا متأسفة. كنت فقط... أعتقد أنني شعرت بالفزع". كان ذلك كل ما

تمكنت من قوله لتشرح لها ما حدث. فهي لا تنوي أن تخبرها القصة. أبداً على الإطلاق. أو بأن طفل أندريا هو أخوها من أبيها.

"أنا أيضاً"، قالت بيب بهدوء، ثم تقدمت ببطء إلى سرير أمها وتمددت بين ذراعيها. كانت باردة كالثلج، فوضعت بيب بلطف غطاءً عليها لتدفئها. "هل تريدين شيئاً، أمي؟" أحضرت لها كوباً من الماء، فأخذت أوفيلي رشفة منه، لتسعد طفلتها وحسب. شعرت بالحزن لأنها أخافت ابنتها بتلك الشدة. كادت أن تفقد عقلها، وهذا ما حصل بالفعل لفترة وجيزة.

"أنا بخير. لم لا تنامين هنا الليلة؟" خلعت أوفيلي ملابسها ولبست ثوب النوم، بينما عادت بيب مرتدية البيجاما برفقة كلبها. تمددتا تضمان بعضهما لفترة طويلة، ومن ثم اتصل مات. طمأنته بيب بأن كل شيء على ما يرام، وبدت أفضل، لذا توجب عليه الافتراض بأن ما قالته صحيح. بدا وكأنها كانت ليلة فظيعة لكل منهما. وقبل أن تغلق السماعة، أكد لبيب أنه بطريقة أو بأخرى، سيراهما في اليوم التالي. ولأول مرة تلك الليلة، قال مات لها بأنه يحبها. علم أنها بحاجة لسماعها، وشعر أنه بحاجة لقول ذلك لها.

اقتربت بيب من أمها ثانيةً، ولم تتمكنا من النوم إلا بعد وقت طويل. بقيت بيب محدقة للأعلى للتأكد من وضع أمها، وعندما غطتا في النوم أخيراً، كانت الأنوار مشتعلة، لتبعد الأرواح الشريرة عنهما.

يوم ذكرى الشكر الذي قضاه مات كان معاكساً تماماً ليومهما. كان قد جهز نفسه ليتجاهله، كما فعل دائماً، أو بالأصح كما فعل في السنوات الست الماضية. عمل على لوحة بيب، وكان مسروراً بالنتائج. ومن ثم صنع لنفسه شطيرة من سمك الطون. أحب القيام بكل شيء يؤكد من خلاله لنفسه بأن اليوم ليس يوم ذكرى الشكر. حتى لو صدف وتناول شطيرة لحم الديك الرومي، فستكون جهداً كبيراً عليه. كان يغسل الطبق الذي تناول فيه الشطيرة عندما سمع طرقاً على الباب. لم يتخيل من الطارق. لم يكن يتوقع أحداً، عادة لا يزعجه أحد من الجوار. لا بد أن أحدهم مخطئ. فكّر في تجاهل الطرق، ولكن



الطارق كان مصراً. لذا، مشى أخيراً إلى الباب وفتحه، وحدّق في الوجه غير المألوف أمامه. كان هناك شاب طويل يقف هناك بعينين بنيتين وشعر داكن، وله لحية. الشيء الغريب أن الوجه لم يكن غير مألوف بالكامل له. أدرك مذعوراً بأنه قد رأى هذا الوجه من قبل، في المرآة، قبل سنوات. كانت تجربة سريالية. وكأنه ينظر إلى نفسه. حتى أنه كان يملك لحية في ذلك العمر. كانت أشبه بالنظر إلى شبح الميلاد القديم. ومن ثم تحدث الرجل، وشعر مات بأن كتلة ترتفع في حلقه.

"أبي؟" كان ذلك روبرت. الصبي الذي كان في الثانية عشرة من عمره في آخر مرة رآه فيها. ابنه الوحيد... انبثق من رماد حياته. لم ينطق مات بأية كلمة، ولكنه سحبه إليه وضمه بشدة حتى أنه تمكن من التنفس بصعوبة. لم تكن لديه أية فكرة عن كيفية وصوله إليه، أو سبب وجوده. كان مات ممتناً له وحسب.

"أوه، يا إلهي"، قال مات، مخففاً من ضمّه إليه قليلاً، غير قادر على تصديق أن الأمر قد حدث أخيراً. كان يعتقد دائماً بأنه سيتمكن من رؤيته ثانيةً يوماً ما. لم يكن يعلم كيف أو متى، ولكنه دائماً أحس بأنه سيراه. "ماذا تفعل هنا؟".

"أذهب إلى جامعة ستانفورد. إنني أبحث عنك منذ أشهر. ضيعت عنوانك، وقالت أمي بأنها لا تملكه".

"ماذا قالت؟" كانا ما يزالان يقفان في المدخل، ثم لوح له مات بتعابير محتارة للدخول. "اجلس". أشار له إلى الأريكة الجلدية البالية، فجلس روبرت عليها وابتسم. كان مسروراً كوالده تماماً. فقد وعد نفسه بأنه سيعثر عليه، وها هو قد نجح في العثور عليه.

"قالت بأنها فقدت الاتصال بك عندما توقفت عن الكتابة"، قال روبرت بهدوء.

"إنها ترسل لي بطاقات الميلاد كل سنة. تعرف أين أنا". نظر روبرت إليه باستغراب، وشعر مات بالغثيان فجأة.

"قالت بأنها لم تسمع عنك منذ سنوات".

قال مات، "كتبت لكما لمدة أربع سنوات بعد أن توقفتما أنتما عن الكتابة أنت وفانيسا"، وشعر بصدمة كبيرة.

"لم نتوقف عن الكتابة أبداً، أنت توقفت". بدا روبرت مصدوماً أيضاً.

"لا، لــم أفعــل. قالت أمك بأنكما لا تريدانني في حياتكما أبداً، وتريدان هاميش فقط. كان قد مضى عليّ وأنا أكتب لكما ثلاث سنوات حينها، دون تلقي أيــة إجابة. في النهاية، سألتني أن أسمح له بتبنيكما، إلا أنني أخبرتها بأنني لن أفعل أبداً. أنتما ولداي، وستبقيان كذلك على الدوام. ولكن بعد ثلاث سنوات من الصمت من قبلكما، استسلمت أخيراً. كنت سأكتب ثلاث سنوات أخرى بعدها. ولكن والدتك وأنا بقينا على اتصال. قالت بأنكما أكثر سعادة من دون وجودي في حياتكما، أنت وفانيسا، وتريدان الأمر كذلك. لذا منحتكما ذلك".

اســتغرق الأمــر طوال فترة ما بعد الظهر لتجميع الصورة الكاملة، ولكن كـــان ما حصل واضحاً، عندما روى كلّ منهما للآخر جزء القصة الخاص به. كان من الواضح أن سالي قد منعت رسائله عنهما، وأخبرتهما بأنه قد توقف عن الكــتابة. أخبرت مات بأن ولديها لا يرغبان بأن يتصل بهما بعد ذلك. رأت أنه مــن الأفــضل استبداله بهاميش، وربما قد كذبت على زوجها الجديد بخصوص ذلـــك أيضاً. قامت بذكاء وبحيلة بإخراج مات من حياتهما، برأيها للأبد، وكذبت على ولديه، وعلى زوجها السابق، لمدة ست سنوات. تمت العملية بذكاء وبراعة، وقــد نجحــت طوال السنوات الست الماضية بذلك. قال روبرت بأنه كان يبحث عنه منذ شهر أيلول، وعثر عليه قبل ثلاثة أيام. فكانت هدية ذكرى الشكر له بأن يقود سيارته ويفاجئه. الشيء الوحيد الذي خشيه هو أن يرفض مات رؤيته، فهو لم يفهم أبداً سبب هجره لهما، وكان يخشى من أنه لم يعد يرغب برؤيته الآن. لم يكــن قد توقع أبداً، الاستقبال الذي حصل عليه أو القصة التي سمعها لتوه. بكى كــل منهما عندما أدركا ما الذي قد حصل، وعانقا بعضهما مرة أخرى وأخرى وهمـــا يجلسان بجانب بعضهما على الأريكة. ساد الظلام في الخارج في الوقت الـــذي تبدّد فيه كل الغموض. أرى روبرت والده صورة فانيسا، التي كانت فتاة



جمـــيلة شـــقراء في السادسة عشر من عمرها. اتصلا بها بعد عدة دقائق، علم روبرت مكانها، وبالنسبة لها كانت الساعة الثالثة من بعد الظهر.

"لـــديّ مفاجـــأة لك"، قال روبرت بغموض، مفعماً بالحيوية بما هو على وشك أن يفعله، وملأت الدموع عيني مات، وهما يمسكان بيدي بعضهما. "لديّ الكثيـــر لأخبرك به، وسنتحدث عن الأمر لاحقاً. سأشرح لك كل شيء. ولكن هناك شخص هنا يريد إلقاء التحية عليك".

"أهلاً، نيسي"، قال مات بلطف، وللحظة، ساد الصمت في الجهة الأخرى للهاتف، بينما تدحرجت الدموع على خديه.

"أبي؟" ما زال صوتها كفتاة صغيرة بالنسبة له. بدا صوتها تماماً كما كان في السابق، إلا أنه قد نضج قليلاً. وخلال لحظة، بكت هي أيضاً. "أين أنت؟ لا أفهـــم. كيف عثر روبرت عليك؟... كنت أخاف دائماً من أن تكون قد توفيت ولا أحـــد يعلم بذلك. أمي لا تعلم أي شيء قط. قالت إنك قد اختفيت عن وجه الأرض". ولكـــن لـــيس بالمدى الذي رغبت به. كم هو معيبٌ ذلك. طوال هذه الفترة، كانت تصرف شيكات الدعم، وترسل له بطاقات الميلاد.

"ســنتحدث عن ذلك يوماً ما. لم أذهب إلى أي مكان. اعتقدت أنكما من فعل ذلك. سيشرح لك روبرت الأمر فيما بعد، وكذلك أنا. أريد أن أخبرك أنني أحــبك فقــط... أردت أن أقول لك ذلك طوال السنوات الست الماضية. يبدو وكـــأن أمـــك قـــد لعبت لعبتها معنا جميعاً. كتبت لكم طيلة ثلاث سنوات ولم أحصل على أي ردّ". أراد على الأقل أن تعرف ذلك.

"لـــم تــصلنا رسائلك أبداً"، قالت له وقد بدت مرتبكة. كان من الصعب علـــيهم جمـــيعاً تحمّـــل كل هذا. جريمة شنيعة اقترفتها أمها التي يثقون بها، والمرأة التي كان يحبها يوماً ما.

"أعلـــم ذلـــك. لا تقولي شيئاً لأمك. سأتحدث معها عن الأمر بنفسي. أنا مـــسرور لأنني أتحدث معك. أريد رؤيتك". قال بتوق. "سآتي لزيارتك قريباً، وربما نتمكن من قضاء الميلاد سوياً".

"واو! سيكون هذا لطيفاً جداً". ما تزال تبدو كطفلة أميركية، وكأنها نسخة أكبر بقليل عن بيب. أراد لبيب ولوفيلي أن تلتقيا بهما أيضاً.

"سأتصل بكِ بعد عدة أيام. أمامنا الكثير لنعوضه. تبدين فائقة الجمال في الصورة التي أراني إياها روبرت. لديك شعر كشعر أمك". ولكن لحسن الحظ، ليس قلباً كقلبها، أو عقلاً ملتوياً كعقلها. لم يتمكن من تصديق أن المرأة التي أحبها وكان زوجاً لها قد خدعته ليبتعد عن ولديه طيلة ست سنوات. لم يتمكن من تخيل أي أمر أسوأ من هذا. حتى أنه لم يتمكن من تخيل ما الذي دار في رأسها. لديه الكثير ليقوله لها، ولكنه أراد أن يهدأ أولاً، وإن لم يفعل، لن يتمكن من التماسك حتى. سيتصل بهاميش أيضاً. افترض بأنه جزء من تلك الحبكة، ولكن روبرت استبعد تورط هاميش، وأصرّ على أنه رجل لطيف. فقد كان على الأقل لطيفاً معهما. ولكن ما فعلته سالي لا يمكن الصفح عنه، وعلم بأنه لن يفعل ذلك أبداً.

تحدث مع فانيسا لعدة دقائق ومن ثم تحدثت مع روبرت، وحاول أن يشرح لهما بمقدار ما يعلم. بدا الأمر لا يصدق بالنسبة لهما أيضاً، ولكن روبرت صدق والده. تمكن من رؤية الحقيقة في عينيه، وتمكن أيضاً من رؤية ما كلفه الأمر. كان هناك ألم عميق لم يتمكن مات من إخفائه لسنوات، حتى عن ابنه الآن. رؤية ذلك، ومعرفة ما حصل وضع علاقة روبرت مع أمه بخطر، وكان ذلك صعباً عليه أيضاً.

تحدث مات وروبرت لساعات، وكانا يتحدثان عندما اتصلت بيب بشأن أمها. استمع روبرت بانتباه كامل إلى الحوار المتبادل.

"عن ماذا كان كل هذا؟" سأل وهو يريد معرفة كل شيء عنه الآن، بما في ذلك أصدقائه وحياته.

"أرملة وابنتها. يبدو أن هنالك مشكلة".

"هل هي رفيقتك؟" سأل روبرت بابتسامة على وجهه بينما هز مات رأسه نافياً.

"لا، ليست كذلك. نحن صديقان وحسب. لقد مرّت هي وابنتها بوقت



صعب. توفي زوجها وابنها السنة الماضية".

"هذا سيئ جداً. هل لديك رفيقة؟" سأل روبرت ضاحكاً. كان سعيداً جداً لمجرد وجوده هناك، فأراد ارتشاف كل شيء. كان مات قد قدّم له شطيرة وكوباً من الشراب حينها، ولكن روبرت كان يشعر بالإثارة بشدة فلم يتمكن من الأكل أو الشرب.

"لا، ليس لديّ أية رفيقة". ضحك مات. "أو زوجة. أعيش حياة الناسك".

"ما زلت ترسم؟". رأى صوراً له ولأخته، ثم حدّق في صورة بيب. "من هذه؟".

"الطفلة الصغيرة التي كانت على الهاتف".

"تشبه نيسي"، قال روبرت، وهو ينظر ممعناً باللوحة. كان هناك سحر في عينيها، وشيء مؤثر في ابتسامتها.

"نعم، هي كذلك. رسمت تلك اللوحة كمفاجأة لأمها، ذكرى ميلادها الأسبوع القادم".

"هذا جيد. هل أنت متأكد من أن أمها ليست رفيقتك؟" كان هناك شيء غريب بالطريقة التي يتحدث فيها عنها، جعلت روبرت يشك بالأمر.

"بالتأكيد لا. ماذا عنك الآن؟ هل لديك زوجة أو رفيقة؟" ضحك روبرت كإجابة وأخبره عن حبه الحالي، وعن دروسه في ستانفورد، وعن أصدقائه، وميوله، وحياته. لقد فاتتهما ست سنوات ليتحدثا عنها، ومرّ منتصف الليل وهما لا يزالان يتحدثان. كانت الساعة الرابعة صباحاً عندما نام روبرت في سرير مات، ونام مات على الأريكة. لم يكن روبرت ينوي قضاء الليل، ولكنه لم يتمكن من الرحيل.

عندما استيقظ في الصباح، عاودا الحديث ثانيةً. طها مات اللحم المقدد والبيض، وفي الساعة العاشرة قال روبرت إنه سيغادر، ولكنه وعد بأن يعود في الأسبوع القادم. كان لديه خطط يقوم بها في عطلة نهاية الأسبوع. قال مات إنه سيأتي إلى ستانفورد لزيارته خلال الأسبوع.

"لن تنجو مني الآن أبداً"، حذره مات، وبدا أنه أكثر سعادة مما كان عليه لسنوات. وكذلك روبرت.

"لم أرد ذلك أبداً، أبي"، قال بلطف. "اعتقدت أنك نسيتنا. كان السبب الوحيد الذي يفسّر لي عدم اتصالك بنا هو أنك توفيت. لم أعتقد أنك توقفت عن الكتابة لأي سبب كان. عرفت أنك لن تنسحب، مهما كان الأمر. ولكنني أردت أن أكون متأكداً من ذلك". كان قد استخدم جميع وسائل البحث البارعة للعثور عليه، وقد أثمرت جهوده في النهاية.

"أشكر الله أنك وجدتني. كنت سأتصل بك وبنيسي بعد سنوات، لأرى إن كنتما قد غيرتما رأييكما، وأردتما رؤيتي ثانيةً. لم أستسلم، كنت أنتظر وحسب". كان أمامه الكثير ليقوله لسالي. ولكن الأهم من ذلك، ماذا يمكنها أن تقول له لتشرح ما فعلته؟ وماذا عساها تقول لولديها؟ لقد حرمتهما من والدهما، وكذّبت على الجميع. بدت تلك جريمة لا تغتفر، ليس في عيني مات وحده، ولكن في عيني ولدها أيضاً. عليها أن تصفي الكثير من الحسابات. وبصورة يمكن تبريرها، لن يثقوا بها ثانيةً أبداً.

غادر روبرت متردداً في النهاية، في الساعة العاشرة والنصف من صباح يوم الجمعة. كانت تلك أفضل ذكرى شكر في حياة مات، ولم يتمكن من الانتظار ليخبر أوفيلي وبيب. ولكن عليه معرفة ما حصل مع أوفيلي أولاً، وكيف حالها. اتصل برقمها بعد ثوانٍ من مغادرة روبرت. شعر مات وكأنه رجل جديد، أو الرجل الذي كان عليه سابقاً. أصبح رجلاً لديه أولاد من جديد. ليس هناك شعور يضاهي هذا في العالم. وعلم أن أوفيلي وبيب ستكونان مسرورتين له.

أجابت بيب على الهاتف عند الرنة الثانية. بدت جدية ولكن ليست غاضبة، ونقلت له بنبرة صوت منخفضة أن أمها تبدو بحالة جيدة، أو على الأقل أفضل مما كانت عليه في الأمس. ومن ثم ذهبت لتخبر أوفيلي بأن مات على الهاتف ويريد التحدث معها.

"كيف حالك؟" سألها بهدوء عندما أجابت على الهاتف.



"لا أعلم. خدرة، على ما أظن". لم تقدم المزيد.

"مررت بليلة صعبة. هل ستخرجين؟".

"لست واثقة من ذلك". بدت مترددة ولا تزال تحت وطأة الصدمة. ولكنه كان جاهزاً تماماً للمجيء إلى المدينة إن أرادت، كان ذلك أكثر صعوبة الليلة السابقة، بوجود روبرت هناك. ولكنه كان سيذهب، إن دعت الحاجة، وربما كان سيأخذ ابنه معه. تمكن بصعوبة من الانتظار حتى يخبر أوفيلي وبيب عمّا حدث معه.

"هل تريدينني أن آتي؟ ربما يكون من الجيد لك أن تأتي إلى هنا. يمكننا التنزّه قليلاً على الشاطئ. إن أردتِ".

ترددت وهي تفكّر بالأمر، وكان عليها الاعتراف بأنها أحبت الفكرة. أرادت الخروج من المنزل، والذهاب بعيداً عن كل شيء يذكرها به. حتى أنها لم تكن متأكدة بعد عمّا ستخبره لمات. الأمر بأكمله كان مخزياً، ومخجلاً بشدة ومُذلاً أيضاً. لقد خانها تيد، مع أفضل صديقاتها. لقد كانت تلك أقبح الخدع، وحتى أندريا كانت جاهزة لاستخدام تشاد لتدميرها. علمت أوفيلي أن تلك صدمة لن تشفى منها أبداً، طوال حياتها. وعلمت أن مات سيتفهم ذلك أيضاً. لقد مرّ بنفس مشاعر الولاء التي مرّت بها.

"سآتي"، قالت بلطف. "لا أعلم إن كنت أرغب بالتحدث. أريد أن أكون هناك فقط، وأتمكن من التنفس". شعرت وكأنها غير قادرة على التنفس في المنزل، وكأن رئتيها وصدرها وأضلاعها قد تحطمت.

"لا يتوجب عليكِ قول أي شيء إن لم ترغبي بذلك. سأكون هنا بقربك. قودي سيارتك بحذر. سأحضّر الغداء".

"لست واثقة من أنه بإمكاني الأكل".

"لا بأس"، قال بلطف. "ستفعل ذلك بيب. لديّ زبدة الفول السوداني". وصور لولديه يريد أن يريهما إياها. كان روبرت قد ترك جميع الصور التي في محفظته. كانت أفضل هدية يحصل عليها مات منذ سنوات. شعر وكأن أحداً قد أعاد له الروح. الروح التي حاولت زوجته السابقة تدميرها. ولكنها لم

تتمكن من ذلك. وبالنسبة له، بدأت عملية الشفاء. لا يعلم كيف سيتمكن من الانتظار للذهاب إلى ستانفورد لرؤيته ثانيةً في الأسبوع القادم.

استغرقت أوفيلي وقتاً أطول من المعاد لترتدي ملابسها وتقود سيارتها إلى الشاطئ. شعرت وكأنها تتحرك تحت الماء، لقد وصلتا وقت الظهيرة. كانت الأمور أكثر سوءاً مما ظن، أو ربما بدت كذلك. كانت بيب كئيبة، أما أوفيلي فبدت شاحبة وكانت ترتجف بشكل جلي. بدت وكأنها لم تسرح شعرها حتى. كان ذلك شكلها تماماً أول ما توفي تيد. وأصبح ذلك مشهداً مألوفاً لبيب، التي ركضت إلى مات وألقت يديها حوله. تشبثت به كطفلة تغرق.

"حسناً، بيب... حسناً... كل شيء بخير". تشبثت به لوقت طويل، ومن ثم دخلت المنزل مع الكلب. عندها نظر إلى أوفيلي ورأى عينيها. لم تتحرك. وقفت هناك فقط، دون نطق أي كلمة. فمشى إليها ووضع يده حول كتفيها، ومشيا معاً نحو الداخل. كان قد خبأ اللوحة، وكانت بيب تبحث حولها، متسائلة أين هي، بابتسامة خجولة. التقت عيناهما المتآمرتان، فأومأ لها، وكأنه يخبرها بأن الأمور على ما يرام.

صنع الشطائر للجميع، ولم تقل أوفيلي أية كلمة طوال الغداء. وعندما أحس بأنها جاهزة للتكلم معه، اقترح على بيب أن تأخذ موس للتنزه على الشاطئ. فهمت على الفور، وبعد دقيقة، ارتدت سترتها وغادرا. لم يقل مات أي شيء. قدّم لأوفيلي كوباً من الشاي فقط.

"شكراً لك"، قالت بلطف. "أنا متأسفة لأنني كنت في حالة من الفوضى الليلة الماضية. ذلك أمر قبيح فعلته لبيب. شعرت وكأن تيد قد توفى ثانيةً". كان قد فكّر بهذا الاحتمال، ولكنه لم يعلم لماذا حصل.

"هل كان ذلك بسبب العطلة؟" هزّت رأسها نافيةً. لم تعلم ما تقول له، ولكنها علمت الآن أنها تريد إطلاعه على الأمر. مشت إلى حيث تركت حقيبتها، أخرجت رسالة أندريا، وأعطته اياها. تردد، ثم أمسكها ورغب بسؤالها إن كانت حقاً تريده أن يقرأها، ولكنه رأى أنها فعلاً تريد ذلك. جلست قبالته على الطاولة، ووضعت رأسها بين يديها، عندما بدأ يقرأ. لم يستغرق الأمر منه وقتاً طويلاً حتى يفرغ من القراءة.

وعندما انتهى، نظر إليها، لم يتفوّه بأي كلمة. كانت عيناها بركتين عميقتين من الألم، وعرف السبب الآن. مد يده وأمسك بيدها، وجلسا على هذا الحال لوقت طويل. وتماماً كما فعلت، اكتشف أن مرسلة الرسالة هي أندريا، والطفل هو ابن تيد. لم يكن من الصعب معرفة ذلك، ولكن كان من الصعب جداً التعايش مع ذلك، وفهمه. إن توقيت اكتشاف الرسالة كان فظيعاً ومعذباً خاصة وأنها اكتشفتها بعد موته، وعلمها بأن أندريا قد استخدمت تشاد لإرغام تيد، إن احتاج أصلاً لما يرغمه.

استغرق مات وقتاً طويلاً ليتحدث. "لا تعلمين ما الذي كان ينوي فعله. توضح الرسالة بأنه لم يكن قد قرر بعد". كانت تلك تعزية صغيرة الآن. ولكنه كان على علاقة مع صديقتها المفضلة، وأباً لابنها.

"هذا ما قالته"، قالت أوفيلي وهي تشعر بالتبلد ثانيةً. شعرت وكأن جسدها بأكمله مصنوع من الرصاص.

"تحدثت معها؟" بدا مذهولاً.

"ذهبتُ لرؤيتها. أخبرتها بأنني لا أريد أن أراها ثانيةً أبداً، ولن أفعل. إنها ميتة بالنسبة لي الآن، تماماً مثل تيد وتشاد. وأعتقد أن زواجنا قد مات أيضاً. لم أكن أرغب باعتباره كذلك وحسب، تماماً كما رفض معرفة أن تشاد مريض. أنكرت ذلك أنا أيضاً. جميعنا كان غبياً ومصاباً بالعمى، كل واحد على طريقته الخاصة".

"أحببته. هذا مسموح. ورغم هذا، ربما أحبك هو أيضاً".

"لا يمكن معرفة ذلك الآن أبداً". كان هذا أسوأ ما في الأمر. منعتها الرسالة من تصديق أن تيد كان يحبها. كانت تلك خدعة قبيحة.

"عليك التصديق بأنه كان كذلك. لا يقضي الرجل عشرين سنة مع امرأة لا يحبها. ربما أخطأ، ولكنني واثق من أنه كان يحبك، أوفيلي. رغم كل هذا".

"وربما كان سيتركني من أجلها". رغم معرفتها بتيد، لم تكن واثقة، ليس لأنه يحبها، بل لأنه لا يحب أحداً لهذه الدرجة، باستثناء نفسه. لربما ترك أندريا وطفله، ولم يفعل شيئاً لها. كان ذلك محتملاً بالنسبة له. ولكن هذا لا يعني بأنه كان يحب زوجته. ربما لم يحب أياً منهما، وهذا احتمال كبير أيضاً.

"كانت له علاقة أخرى منذ سنوات أيضاً"، قالت لمات بصوت مختنق. كانت قد غفرت له ذلك. كانت جاهزة لتغفر له أي شيء... حتى الآن. إلا أنهما لا يمكنهما تسوية الأمر هذه المرة، أو التحدث عنه، أو شرحه. لن يكون هناك أي تعويض هذه المرة. لقد تحول بناء حياتهما إلى ركام خلال ليلة واحدة، برسالة واحدة، وخيانة من صديقتها. ضرر يفوق التعويض. "أقام العلاقة عند بداية إصابة تشاد بالمرض. أعتقد أنه كرهني بسبب ذلك. كان هذا انتقامه، أو هربه، أو الطريقة الوحيدة التي يمكنه التغلب على المشكلة من خلالها. لقد أقام العلاقة عندما كنت في فرنسا مع بيب. لا أعتقد أنه اهتم لتلك المرأة. ولكن الأمر كاد يقتلني. حدث الكثير في وقت واحد. ولكنه توقف عن رؤيتها، فسامحته، كما فعلت دائماً. غفرت له كل شيء. كل ما أردته هو أن أحبه وأكون زوجته". أما هو فلم يحب في حياته إلا نفسه. تمكن مات من رؤية ذلك بوضوح، ولكنه لم ينطق بأية كلمة. عليها أن تحصل على استنتاجاتها وحدها وتكون قادرة على العيش معها. لم يرغب مات بجرحها أكثر مما كانت عليه. فالضرر الذي لحق بها كان فظيعاً، لم يرغب بإيذائها أكثر من ذلك. آخر شيء رغب به هو إلحاق الأذى بلوفيلي أو بيب.

"ربما يتوجب عليكِ نسيان الأمر"، قال مات بحكمة. "سيلحق الضرر بك وحسب. إنه ليس هنا الآن. لم يعد الأمر متعلقاً به، إنه متعلق بك".

"لقد دمر كل شيء، حتى من قبره، تمكن من تدمير حياتنا". كان غباءً منه أن يحتفظ بالرسالة ويتركها حيث وجدتها. لقد جعل هذا الأمر مات يتساءل إن كان يريدها أن تعثر عليها. ربما كان يعتمد على ذلك ليجعلها تتركه. من المؤلم تخيل المأساة التي كان يمكن أن تحدث، وتحققت في النهاية.

"ماذا ستقولين لبيب؟".



"لا شيء. لا حاجة لأن تعرف. هذا بيني وبين تيد، حتى الآن. في مرحلة ما، سأخبرها بأننا لم نعد نرى أندريا. عليّ أن أفكّر بسبب ما أقوله لها، أو ربما أقول لها أن السبب هو أمر ما سأشرحه لها لاحقاً. تعلم بأن شيئاً فظيعاً قد حدث الليلة الماضية، ولكنها لا تعلم أن أندريا جزءٌ منه. لم أخبرها إلى أين ذهبت عندما خرجت".

"هذا شيء جيد". كان ما يزال ممسكاً يدها، وأراد أن يضع ذراعيه حولها، ولكنه كان يخشى ألا تتحمل ذلك. بدت محطمة وهشة جداً، مثل طائر صغير محطم الجناحين.

"أعتقد أنني فقدت عقلي الليلة الماضية، أو أوشكت على ذلك. أنا متأسفة، مات. لم أقصد أن أحملك عبء هذا الأمر".

"لم لا؟ تعلمين كم أهتم لأمرك ولأمر بيب". أو ربما لا تعلم. كان قد بدأ للتو بإدراك الأمر بنفسه، ويعلم ذلك الآن وهو ينظر إليها. لم يهتم لأمر أحد على الإطلاق بهذا الحدّ في حياته، باستثناء ولديه. وهذا ما ذكره بالأمر الذي لم يخبرها إياه بعد. "حدث شيء ما لي البارحة"، قال بلطف، وهو ما يزال ممسكاً يدها. "لقد اكتشفت أيضاً خديعة فظيعة. جاءني زائر ليلة أمس، في ذكرى الشكر. إنه أول شكر حقيقي أحظى به منذ سنوات".

"من كان الزائر؟" حاولت الخروج من مأساتها بالاستماع له.

"ابني". قال لها ما حدث بعدها وكانت عيناها تتسعان من الدهشة.

"لا يمكنني تصديق أنها فعلت ذلك بك، وبولديها. ألم تعتقد أنهما سيكتشفان ذلك يوماً ما؟" شعرت بالرعب. فكلاهما تعرض لخيانة مرعبة من قبل شخصين كانا يثقان بهما ويحبانهما. وهذا أسوأ أنواع الخيانة على الإطلاق. ولم تكن واثقة من منهما تعرض للأسوأ، فكلا الأمرين متشابه تقريباً.

"يبدو أنها لم تعتقد ذلك. لا بد أنها ظنت أنهما سينسياني، أو يفترضان موتي. لقد كادا ينسياني تقريباً. قال كل من روبرت وفانيسا أنهما اعتقدا أنني ميت. حاول البحث عني، ليتأكد. لقد ذهل عندما وجدني حياً. إنه ولد رائع.

أريدك أن تلتقي أنت وبيب به قريباً. ربما يمكننا قضاء الميلاد سوياً"، قال ذلك وقد بدا مفعماً بالأمل. كان قد بدأ مسبقاً بالتخطيط لذلك.

"لا مزيد من الخدع الشنيعة؟" قالت بابتسامة، وضحك هو.

"ليس هذه السنة. إلا أنني سأسافر لرؤية فانيسا في أوكلاند في القريب العاجل".

"كم هذا رائع، مات"، قالت وهي تشدّ على يده، عندها دخلت بيب، وابتسمت عندما رأتهما يمسكان بيدي بعضهما البعض. لقد أعطت الأمر تفسيراً مخالفاً للحقيقة، ولكنها كانت مسرورة.

سألت "هل يمكنني الدخول الآن؟" عندها قفز موس إلى الداخل وملأ غرفة مات بالرمل، ولكنه أصرّ على أنه لا يمانع ذلك.

"كنت أقترح للتو على أمك أن نذهب ونتنزّه على الشاطئ. هل تريدين الذهاب معنا؟".

"هل يتوجب عليّ ذلك؟" سألت وهي تجلس على الأريكة، وقد بدا عليها التعب. "أشعر بالبرد".

"حسناً. لن نتأخر". نظر إلى أوفيلي عندها، وأومأت بالإيجاب. لقد أرادت هي أيضاً التنزّه.

لبس كل منهما معطفاً وخرجا، ووضع يده حولها وسحبها إلى جانبه. بدت بشكل غريب صغيرة أكثر من قبل، وضعيفة جداً. نزلا إلى الشاطئ، واتكأت عليه، وكأنها تدعم نفسها. هو الصديق الوحيد الذي بقي لها، والشخص الوحيد الذي ما تزال تثق به، وعلمت أنه بإمكانها ذلك. لم تعد تعلم ماذا تصدق عن زواجها أو عن زوجها الراحل. لم تعد تعلم بماذا تفكّر أو تعتقد عن أي شخص، باستثنائه هو. كانت متوترة جداً بسبب ما حدث، وماذا عنى، فمشيا سويةً طوال الطريق إلى الشاطئ، واضعاً يده بإحكام حولها، ولم تقل أي كلمة. مجرد كونها معه كان كافياً.



# 22

ذهب مات لرؤية ابنه يوم الاثنين الذي تلا ذكرى الشكر، وتوقف لرؤية بيب وأوفيلي في طريق عودته إلى المنزل. كانت بيب قد عادت للتو من المدرسة، أما أوفيلي فقد كانت في إجازة من العمل يومها. كانت منزعجة جداً لدرجة أنها لا تتمكن من التفكير. لقد كانت تشعر وكأن حياتها بالكامل قد تغيرت. كانت قد قررت ذلك الصباح أن تتخلص من ملابس تيد. تلك طريقتها في طرده من المنزل، ومعاقبته بعد وفاته على ما فعله. ذلك هو الانتقام الوحيد الذي تبقى لها، ولكنها علمت أيضاً بأن ذلك سيكون جيداً لها. عليها أن تستمر في الحياة. لا يمكنها التمسك برجل خانها، وأصبح أباً لطفل من امرأة أخرى. علمت الآن بأنها كانت تتشبث بأوهام وبحياة ملؤها الأحلام. وقد حان الوقت لتستيقظ، مهما كان ذلك سيشعرها بالوحدة.

أخبرت مات بذلك عندما ذهبت بيب إلى غرفتها لتقوم بواجباتها المنزلية، وكان يخشى من أن يقول المزيد. لم يرغب بإخبارها أنه يعتقد أن زوجها الراحل مجرد رجل حقير. لم يبدُ ذلك عدلاً. يتوجب عليها أن تستخلص تلك الاستنتاجات وحدها. وكان من الصعب معرفة ذلك الآن بعد الموت، بعد أن كانت قادرة على الصفح عنه كثيراً في الحياة. كانت قادرة على تحمل كل شيء منه تقريباً. ولكن مات شعر بالسرور لرؤيتها قادرة على صياغة قرارات مختلفة الآن، ووافق على ذلك بصمت.

بينما كان هناك، اتفق على رؤيتها يوم ذكرى ميلادها في الأسبوع القادم. وكما يحدث دائماً، ضم بيب معهما. فعل ذلك دائماً منذ البداية. على أية حال،

كان هو وبيب الصديقين أولاً، كما تشير إلى ذلك هي عادةً، وهذا ما جعله يبتسم. كان هذا صحيحاً.

ولكنه اختار – لليلة ذكرى ميلادها – مطعماً أكثر نضجاً مما يفعل عادةً. أراد أن يأخذها إلى مكان خاص. فهي تستحق مكافأة بعد المأساة التي سببها لها تيد وأندريا. وأخبرته بأنها قد تلقت رسالة من أندريا، أوصلها الساعي عصر ذلك اليوم. كانت رسالة اعتذار دنيئة، تقول فيها أندريا إنها لا تتوقع أن تسامحها، وأرادتها أن تعرف كم تحبها، وكم هي متأسفة على ما فعلته. بالنسبة لأوفيلي، لقد فات الأوان، وقالت لمات هذا.

"أعتقد بأن هذا سيجعلني امرأة رديئة. ولكنني لا أستطيع. لا أريد أبداً رؤيتها أو سماعها ثانيةً على الإطلاق".

"يبدو هذا معقولاً بالنسبة لي". أخبر أوفيلي بأنه يخطط للاتصال بسالي تلك الليلة، إن رغبت بالحديث معه.

"يبدو وكأن كلاً منا يصفي حساباته"، قالت بحزن.

"ربما حان الوقت لذلك". كان يفكّر طوال اليوم بما سيقوله لزوجته السابقة. ماذا سيقول لامرأة سرقت ولديه وست سنوات من حياته، ذلك بغض النظر عن الزواج والحياة التي دمرتها قبل ذلك؟ لم يكن هناك أي تعويض ممكن لذلك. تعلم أوفيلي هذا أيضاً.

تحدثا لوقت طويل، ودعته أوفيلي للبقاء وتناول العشاء معها ومع بيب. وحالما انتهى العشاء، غادر. ولكنهما تواعدا من أجل ذكرى ميلادها في الأسبوع القادم. إن بيب تنتظر ذلك بفارغ الصبر.

اتصل بأوفيلي تلك الليلة، بعد أن اتصل بسالي. بدا مستنزفاً.

"ماذا قالت؟".

"حاولت أن تكذب"، قال وقد بدا مندهشاً. "ولكنها لم تتمكن... أعرف الكثير الآن. لذلك اكتفت بالبكاء، لقرابة الساعة. أخبرتني أنها كانت تفعل ذلك



من أجل الولدين، واعتقدتْ أنه من الأفضل لهما أن يكونا جزءاً من عائلة واحدة مع هاميش، أما أنا فلأذهب إلى الجحيم، كما أعتقد. أصبحت الشخص الذي يُستغنى عنه. قررت أن تلعب الدور المسيطر. لم يكن هناك الكثير لتتمكن من قوله لإصلاح الموقف، لا شيء في الحقيقة. سأسافر لرؤية فانيسا بعد ذكرى ميلادك الأسبوع القادم. سأبقى هناك لبضعة أيام فقط. قالت إنها سترسلها لي من أجل الميلاد إن أحببت، وقلت إنني كذلك. سيكون ولداي الاثنان معي". بدا متأثراً بشدة، وكانت مسرورة من أجله. "أفكّر في استئجار منزل في تاهوي، لأصطحبهما إلى التزلج. ربما ترغبين أنت وبيب بالمجيء أيضاً. هل يمكنها التزلج؟".

"تحب ذلك".

"ماذا عنك؟" بدا مفعماً بالأمل.

"أتزلج، ولكنني لست بارعة في ذلك. أكره الركوب في ذلك الكرسي فوق المنحدرات. أخشى المرتفعات".

"يمكننا ركوبها سويةً. لست متزلجاً بارعاً أيضاً. اعتقدت فقط أن ذلك سيكون ممتعاً. آمل أن تأتي أنت وبيب". بدا صادقاً، ولكن أوفيلي كانت قلقة.

"ألن يعارض ولداك وجود غرباء معكم بعد عدم رؤيتهما لك لكل هذه الفترة الطويلة؟ لا أريد التطفل". كانت دائماً حذرة بخصوص مشاعره، وكان كذلك معها، على عكس الشخصين اللذين تزوجاهما واللذين كانا أنانيين ولا يباليان بالآخرين لأقصى المستويات.

"سأسألهما، ولكنني لا أتخيل أنهما يمانعان، وخاصة بعد أن يلتقيا بك وببيب. أخبرت روبرت عنكما في ذلك اليوم". وكاد لسانه أن يزل ويقول بأنه أراه لوحة بيب، والتي كانت مفاجئة بيب الكبرى لها.

ومن ثم سألها مات إن كانت ستخرج مع ذلك الفريق، كعادتها، في الليلة التالية، وقالت إنها ستفعل.

"مررت بأيام عصيبة. لم لا تمنحين نفسك بعض الراحة؟" للأبد، كما يتمنى. كان ما يزال يكره قيامها بذلك، ولكنها رفضت الإصغاء إليه.

"سيفقدون المساعدة إن لم أفعل، بالإضافة إلى أن هذا سيبعد عقلي عن تلك الأشياء". كلاهما يعلم أن جروحها أعمق من أن تلتئم بسهولة... ليس فقدان زوجها وابنها وحسب، ولكن زواجها وصديقتها المفضلة الآن. هذا يضاعف كل شيء، ويجعل الأمر أكثر سوءاً. ولكن بدا أنها متماسكة، وشعر مات بالراحة لذلك. الأمر الوحيد الذي لم يحبه هو خروجها مع ذلك الفريق، وخاصة عندما تكون فاقدةً لانتباهها ومتعبة، ولذلك احتمال تعرضها للأذى أكبر.

لكن كل شيء جرى على ما يرام. مرت الليلة على خير، كما قالت لمات عندما اتصل ليطمئن عليها يوم الأربعاء، وكانت ليلة هادئة أخرى عندما خرجت معهم يوم الخميس. مروا بالقرب من عدة مخيمات تضم الأطفال والشباب، بعضهم ما زال يرتدي ملابس مرتبة منذ أن تركوا ديارهم، وهذا ما آلم قلبها. ومروا على مخيم فيه رجال بدوا مرتبي المظهر، وجميعهم قالوا إنهم كانوا موظفين ولكنهم مشرّدون على أية حال. كان هناك الكثير من القصص المؤلمة في الشوارع. ويوم السبت كان ذكرى ميلادها، والذي بدا أفضل مما توقعته. كل شيء حلمت به بيب تماماً. احتفلوا في المنزل قبل الخروج لتناول العشاء، وكانت بيب تشعر بالإثارة لدرجة لم تتمكن بها من ضبط نفسها. خرجت هي ومات إلى السيارة لإحضار اللوحة. جعلت بيب أمها تغلق عينيها، ومن ثَم بقبلة فرح، أعطتها اللوحة. ولهثت أوفيلي. ومن ثم بكت.

"أوه... يا إلهي... إنها جميلة جداً... بيب!... مات..." ظلت تحملها وتحدق بها. كانت لوحة جميلة، لم يقتصر على رسم وجهها الساحر بل روحها أيضاً. في كل مرة نظرت أوفيلي إليها، بكت. وكرهت أن تتركها عند مغادرتها للعشاء. تمكنت بصعوبة من الانتظار حتى تعلقها. ردة فعلها كانت تماماً كما أمل مات، ولم تتوقف عن شكره طوال الليل.



قضوا وقتاً ممتعاً على العشاء، وقد كان قد رتب لكعكة ذكرى الميلاد لها في المطعم. كان الأمر رائعاً، وكانت بيب تتثاءب عند وصولهم إلى المنزل. كانت ليلة عظيمة لها أيضاً. انتظرت أشهراً لتقديم اللوحة، وقد أنهكتها إثارتها وتوقعها. كانت أوفيلي ما تزال تحمل اللوحة عندما قبلتها بيب وقبلت مات ومن ثم ذهبت إلى السرير، وكان مسروراً جداً عند رؤيته مدى سعادة أوفيلي بتلك الهدية.

"لا يمكنني معرفة كيف سأتمكن من شكرك أبداً. إنها أجمل هدية تلقيتها في حياتي". كانت هدية حب صادق، ليس من بيب فقط، بل من مات أيضاً.

"أنت امرأة رائعة"، قال بلطف، وهو يجلس إلى جانبها على الأريكة. وامرأة صادقة... علم ذلك، وهي التي أصبحت تعني له الكثير، وخاصة بعد ما فعلته سالي به، وبعد أن علم ما فعله زوجها وصديقتها بها. إنها امرأة نادرة الوجود، وكذلك هو. ولكن الشخصين اللذين أحباهما كانا قبيحين بصورة غير اعتيادية.

"أنت دائماً طيب معي ومع بيب"، قالت معترفة بجميله، في الوقت الذي كان يمسك فيه بيدها وينظر إليها. أرادها أن تثق به، واعتقد دائماً بأنها كذلك، ولكنه لم يعرف إلى أي درجة. وما هو على وشك أن يخبرها إياه يحتاج إلى مقدار كبير من الثقة.

"تستحقين أن يكون الأشخاص طيبين معك، أوفيلي. وكذلك بيب". شعر وكأنهما جزءٌ من عائلته، وبأنه العائلة الوحيدة التي تبقت لها ولبيب. بدا وكأنهم قد فقدوا الجميع.

وبينما كان ينظر إليها، انحنى نحوها بلطف، وقبلها من فمها. كانت أول امرأة يقبلها منذ سنوات، أما هي فلم يلمسها رجل منذ وفاة زوجها. كانا روحين هشتين حذرتين، كالنجوم، يطوفان بلطف في السماء. أجفلت أوفيلي، لم تتوقع أن يقبلها، ولكنها لم تقاوم أو ترتد إلى الخلف. بدت متشبثة به في تلك اللحظة، وعندما توقف، انقطعت أنفاسهما. كان يخشى من أن تكون غاضبة

منه، وكان مرتاحاً جداً لأنها لم تكن كذلك، ولكنها بدت خائفة، عندما سحبها بين ذراعيه وأمسكها بقربه.

"ما الذي نفعله، مات؟ هل هذا جنون؟" أكثر من أي شيء، احتاجت أن تشعر بالأمان. ولم تعد تشعر بذلك، في أي مكان في حياتها، إلا معه. وهو أيضاً شعر بالأمان معها.

"لا أعتقد أنه كذلك"، طمأنها. "شعرت بذلك منذ وقت طويل... أطول مما عرفت. كنت أخشى أن أخيفك فتبتعدين عني إن قلت أي شيء. لقد تعرضت للأذى الشديد".

"وكذلك أنت"، همست له، وهي تلمس وجهه بيدها اللطيفة، وتفكّر بكم ستكون بيب سعيدة بذلك. التفكير بذلك جعلها تبتسم، وقالت له ذلك.

"إنني أحبها أيضاً. لا يمكنني الانتظار حتى تلتقيا بولدي".

"ولا أنا"، قالت وهي تبدو سعيدة، فقبلها ثانيةً.

"ميلاد سعيد، حبيبتي"، قال لها وهو يقبلها، وعندما غادر تلك الليلة، فكّرت بما حصل، ومن دون أي شك، كان ذلك أفضل ميلاد في حياتها.



# 23

يوم الثلاثاء الذي تلا ذكرى ميلادها، خرجت أوفيلي مع الفريق الخارجي، ونبهها بوب إلى أنها لم تكن مبالية أثناء تفحصهم لما يلقبونه *بمأوى المشردين*، صناديق وهياكل ينام فيها الناس. ذهبوا إليهم، وتأكدوا من أن هنالك أشخاصاً مستيقظين في الداخل، وسألوهم عما يحتاجون إليه، ولكن الحذر مطلوب أثناء القيام بذلك، لتجنب المفاجآت. كانت شاردة، وأكثر من مرة أدارت ظهرها إلى مجموعات من الشبان الذين كانوا قريبين منهم. دائماً يتساءل الأشخاص في الشوارع عمن يكونون، ومن أين أتوا، وماذا يفعلون. ولذلك فإن الانتباه والحذر أمران أساسيان للفريق. فقوانين الغابة تطبّق طوال الوقت، مهما أظهر الأشخاص من طيبة. في معظم الأحيان، يكون المشردون الذين يلاقونهم لطفاء وطيبين، وممتنين لكل ما يحصلون عليه. ولكن المخاوف تأتي بلا شك من قبل المشاكسين ومثيري المتاعب والمفترسين الذين ينقضون عليهم، ويأخذون بلا رحمة حتى القليل مما لديهم. كان من المؤلم معرفة أنه من بين كل ما يوزعه الفريق الخارجي، يتم سرقة ثلثه أو حتى نصفه من قبل أشخاص آخرين. ذلك عالم سمته المميزة هي البقاء، والقليل من أمور أخرى. علمت أوفيلي ذلك، كالآخرين. إن كل ما يمكنك فعله، لمساعدتهم، هو معالجتهم بأفضل ما لديك، على أمل أن يحقق ذلك اختلافاً.

"هيه، أوبي! انتبهي لظهرك، عزيزتي. ما بكِ؟" سألها بوب بنظرة من القلق وهم يتوجهون عائدين إلى الشاحنة بعد توقفهم للمرة الثانية. أرادها أن تنتبه، كي لا يصاب أحد بالأذى. ترتكز سلامة الفريق بأكمله على سلامة

جميع أعضائه. رغم أنهم يكونون متسامحين أحياناً، ويمزحون مع بعضهم البعض، وحتى مع أولئك الذين يساعدونهم، لا يزال الحذر واليقظة متوجبين عليهم. يتوجب عليهم توقع الأسوأ، ليمنعوا ذلك من الحصول لهم. فهناك قصص مؤكدة عن رجال من الشرطة، ومتطوعين، وموظفين اجتماعيين تعرّضوا للقتل في الشوارع، وذلك لأنهم قاموا بأمور لا يتوجب عليهم القيام بها، كالذهاب للعمل في الشوارع وحدهم. إنهم أكثر حكمة من ذلك، ولكن هناك دائماً إغواء بأنهم مستثنون، ولا يمكن لأحد أن يلمسهم. فالأمان، للجميع، يكمن في أن يكون كل منهم متيقظاً طوال الوقت.

"أنا آسفة. سأكون أكثر حذراً في المرة القادمة"، وعدته معتذرة، مركزةً بعناية أكثر ثانية. كانت تفكّر بمات.

"يفضل أن تكوني حذرة. ماذا يحصل معك؟ يبدو وكأنك واقعة في الحب". علم لأنه كان كذلك. كان يقضي وقتاً ممتعاً مع صديقة زوجته المتوفاة. نظرت أوفيلي إليه وابتسمت وهي تخطو إلى الشاحنة. كان محقاً. سيطر عليها ذلك طوال الليل. كانت تفكّر بمات. كما فعلت طوال اليوم. قبلاتهما في الليلة السابقة أسعدتها وضايقتها في آن معاً. حققت لها كل شيء أرادته بطريقة ما، وبأخرى كانت الشيء الوحيد الذي لا تريده أبداً. التعرض للألم ثانية... الانفتاح... الحب... الألم. كل ذلك جعلها تركع على ركبتيها عند وفاة تيد، وكاد أن يقتلها عندما وجدت رسالة أندريا. للحظة، فكّرت بأن ذلك قد حدث. أما الآن، وأكثر من أي شيء، أحست بأنها خدِرة، وهي تحاول ترتيب ما تشعر به... عن تيد، وأندريا، ونفسها، والآن عن مات. كان ذلك كثيراً عليها لتستوعبه وتحاول فهمه. وفي الوقت نفسه، كانت تشعر بالحاجة لأن تطلق نفسها حرة إلى ذراعيه وحياته.

"لا أعلم، ربما"، قالت بصدق، عند توجههم نحو هنترز بوينت. كان الوقت قد تأخر، وبذلك أصبح المكان أكثر أمناً هناك. فبحلول هذا الوقت، يكون الكثير من المشاكسين قد ذهبوا للنوم، وقد هدأ كل من في الجوار.





"هذا خبر جديد"، قال لها بنظرة من الاهتمام. كان يشعر بالاحترام تجاهها وأعجب بها كثيراً في الأشهر الثلاثة التي عملا بها سوياً. فهي امرأة ذكية، وصادقة، وجريئة، وحقيقية دون تصنع أو عجرفة. تتمتع بالبساطة والجدية فسحرت قلبه بهما.

"آمل أن يكون رجلاً طيباً. هذا ما تستحقينه"، قال بصدق.

"شكراً لك، بوب"، قالت وابتسمت. بدت غير جاهزة للتحدث عن الأمر، ولم يضغط عليها. فكانت علاقتهما متسامحة ويسودها الفهم السليم لإيقاعات بعضهما البعض. كانا يتحدثان أحياناً عن قضايا هامة، وأحياناً لا يفعلان. كانا أشبه بزميلين يعملان في الشرطة، كما كانا منسجمين ويحترمان بعضهما البعض، ويثقان ببعضهما البعض بالكامل. تعتمد حياتهما على ذلك. ولكنها أولت انتباهاً أكثر، و"انتبهت لظهرها"، كما قال لها، عند التوقف الثاني ولما تبقى من الليل.

ولكنها أدركت وهي تقود سيارتها عائدةً إلى المنزل تلك الليلة بأنها كانت قلقة بشأن مات. عما كانت تفعله، وعن الباب الذي فُتح. لم ترغب بتعريض صداقتهما للخطر، أكثر من أي شيء آخر، وإن لم تنجح علاقة الحب بينهما، فربما يحدث ذلك. لم ترغب بالمخاطرة بذلك من أجله، أو من أجلها، أو الأهم من ذلك من أجل بيب. إن تورطت هي ومات بعلاقة عاطفية، ثم فشلت، فسيفسد ذلك الأمر بأكمله، وهذا هو آخر شيء تريده.

حتى بيب لاحظت أن أمها تبدو هادئة وكئيبة في الصباح التالي في طريقهما إلى المدرسة بالسيارة.

"هل هناك خطب ما، أمي؟" سألت وهي تشغل المذياع، عندما أجفلت أوفيلي بسبب ذلك الصوت العالي، كما تفعل دائماً. كانت تلك طريقة صارخة لبدء الصباح. كانت بيب أقل قلقاً على أمها هذه الأيام. فمهما حدث، بدت أنها ستتعافى من الأيام المزعجة قريباً. رغم أنها لا تعلم ما حدث في ذكرى الشكر. كل ما علمته أن الأمر الذي حدث يتعلق بأندريا. كانت والدتها قد

أخبـــرتها بأنهما لن ترياها ثانيةً أبداً. شعرت بيب بالصدمة لذلك. ولكن أوفيلي رفضت الإجابة عن أي أسئلة. وعندما سألتها بيب: "للأبد؟" أكدت لها أوفيلي، للأبد.

"لا، أنــا بخير"، أجابت أوفيلي، ولكنها لم تبدُ مقنعة. وكان عليها النضال طــوال اليوم في المركز لتحافظ على تركيزها. حتى مريم في المكتب الأمامي علقت على ذلك. وعندما اتصل مات، تمكن من الشعور بذلك.

سألها، وقد بدا قلقاً، "هل أنت بخير؟".

"أظــن ذلك"، قالت بصدق، فلم يطمئن أبداً. عدم تأكدها كان أمراً مثيراً للعصبية.

"ماذا يعني هذا؟ هل يجب أن أصاب بالذعر؟" ابتسمت كردٍّ على ذلك.

"لا، لا تــصب بالذعر. إنني خائفة فقط، على ما أعتقد". لم تكن واثقة إن كانت تلك مسألة وقت أو اعتياد بالنسبة لها، أو شيئاً أكثر عمقاً.

"مــم أنت خائفة؟" أرادها أن تتحدث عن الأمر، كي تشعر بالراحة أكثر. كــان يحلق في الهواء منذ أن قبلها في يوم ميلادها. ذلك تماماً ما كان يريده، ولــم يكن يعرفه. رغم أنه كان مدركاً منذ فترة لمشاعره النامية تجاهها، والتي لم تكن – بأي حال – عاديةً كما كان يتظاهر.

"هل تمزح؟ أنا خائفة منك، من نفسي، من الحياة، من القدر، من الأمور الجــيدة والسيئة... من خيبة الأمل، والخيانة، من أن تموت، أو أموت... هل تريدني أن أستمر؟".

"لا، هذا يفي بالغرض، حتى الآن على الأقل. يمكنك أن تحتفظي بالباقي حتــى تريني. يمكننا قضاء اليوم بأكمله ونحن نحصيها". بدت وكأنها تحتاج لــذلك الــوقت حقاً. ومن ثم أصبح أكثر جديةً معها. شعر بالأسف لأنها كانت خائفة جداً، وأراد أن يبادلها مشاعر الثقة. "ما الذي يمكنني أن أفعله لأطمئنك؟" سألها بلطف، وتنهدت.

"لــست واثقــة مــن أنه يمكنك ذلك. امنحني الوقت. لقد فقدت للتو آخر



أوهامــي عــن زواجي. لست واثقة من أنه بإمكاني تحمل أكثر من ذلك. ربما ليس هذا هو الوقت المناسب". انقبض قلبه عند سماع كلماتها.

"هل تمنحيننا الفرصة على الأقل؟ لا تتخذي أي قرار الآن. لنا الحق بأن نكون سعداء، كلانا. دعينا لا ندمر الأمر قبل البدء به. أتقبلين ذلك؟".

"سـأحاول". كــان ذلك كل ما يمكنها فعله. في أعماقها، فكّرت بأنه من الأفــضل لــه أن يكون مع امرأة أخرى. امرأة أكثر بساطة، أقل تعرضاً منها لمــثل ذلــك الألم الموجع، ولذلك الألم الذي أصابها مؤخراً. تشعر أحياناً بأنها مــصابة بــضرر فظيع. ولكن معه تشعر دائماً بأنها مطمئنة، ولم تصب بأي ضرر من قبل، وبالأمان، وهذا يعني الكثير لها.

جــاء إلى المدينة لتناول العشاء معها ومع بيب في عطلة نهاية الأسبوع، وفــي يوم الأحد قصدت مع بيب الشاطئ لرؤيته. كان روبرت قد جاء لقضاء يــوم عطلـــة من ستانفورد، وكان مات متلهفاً لتلتقيا به. شعرت أوفيلي بالتأثر الكبير. كان شاباً رائعاً، وبرغم السنوات التي ابتعدا بها عن بعضهما البعض، كــان يــشبه مات بشكل ملحوظ. كما يحصل في الغالب، فازت الجينات، وفي هــذه الحالة، من أجل الأفضل. تحدث بصراحة عن خيانة أمه في تلك الفترة، ومن الواضح بأنه غاضب جداً لذلك. ولكنه بدا متقبلاً للأمر، وحتى أنه يحبها كمــا هــي. يمتلك قلباً متسامحاً جداً. رغم أنه أشار إلى أن فانيسا غاضبة جداً منها، وبأنها لم تتحدث معها منذ أن عرفت بالأمر.

وعندما عادت هي وبيب إلى المدينة، شعرت بالتحسن ثانيةً. كان مات قد وضع ذراعه حولها عدة مرات، وأمسك يدها عندما تنزها على الشاطئ، ولكنه لــم يحرجها، أو يظهر أمام بيب بأن شيئاً يحدث. أراد أن يمنح أوفيلي الوقت الكافــي للتكيف معه. فعلاقتهما، وماضيهما، وحاضرهما، ومستقبلهما مهم جداً لــه، وأراد أن يعامــل ذلك بحذر، ويمنحها كل الوقت والمساحة التي تحتاجها لتؤمن له مكاناً في قلبها.

كان على وشك رفع سماعة الهاتف مساء يوم الاثنين ليتصل بها، عندما

رنّ الهاتف قبل أن يفعل. أمل أن تكون هي. بدت سعيدة ومرتاحة في اليوم السابق، وبدت بخير عندما اتصل بها ليلة الأحد. أراد إخبارها بأنه يحبها، ولكنه لم يفعل. أراد أن يخبرها شخصياً لأول مرة بذلك، وليس على الهاتف فقط. ولكن لم تكن أوفيلي هي المتصلة، أو حتى بيب. كانت سالي، تتصل من أوكلاند، فأصيب بالخوف عند سماع صوتها. كانت تبكي. وفكّر على الفور بابنته، وشعر بالخوف المميت من أن شيئاً ما قد حدث لها.

"سالي؟" تمكن بصعوبة من فهمها، ولكن حتى بعد هذه السنوات، عرف صوتها جيداً. "ما الأمر؟ هل هناك شيء ما؟" كل ما تمكن من معرفته هو "السقوط... ملعب التنس..." وبإحساس بالراحة كان آثماً بعض الشيء، أدرك أنها تتحدث عن زوجها، وليس عن ابنته الشابة.

"ماذا؟ لا أتمكن من فهمك. ماذا حصل لهاميش؟" ولمَ تتصل به؟

أطلقت نشيجاً مليئاً بالألم ومن ثم أطلقت كلماتها إلى السماعة. "إنه ميت. أصيب بنوبة قلبية قبل ساعة في ملعب التنس. حاولوا إعادته للوعي، ولكنه... رحل". بدأت تبكي ثانيةً، بينما استمع مات وحدّق إلى الفراغ، حيث ومضت السنوات العشر أمام عينيه. إخبارها له بأنها ستهجره، ومن ثم انتقالها إلى أوكلاند. معرفته بأنها تقيم علاقة مع صديقه، وانفصالها عنه من أجله... ومن ثم الانتقال إلى أوكلاند مع ولديه... "مات سنتزوج أنا وهاميش"، تلك القذيفة التي أطلقتها إلى صدره... وسفره خلال أربع سنوات لرؤية ولديه، ومن ثم ابتعادهما عنه خلال الست سنوات الماضية... والآن تتصل لتخبره بأن هاميش قد مات. حتى أنه لم يعرف بماذا شعر، حيال صديقه القديم الذي تحول إلى خائن... أو مشاعره نحوها... أو نحو نفسه... لم يتمكن حتى من التفكير بذلك.

"مات؟ هل أنت هنا؟" كانت تتحدث دون توقف وتبكي خلال ذلك، تتحدث عن الجنازة، وعن ولديهما، وهل يعتقد أنه يتوجب على روبرت العودة إلى المنزل من أجل الخدمات، فقد كان هاميش طيباً جداً معه... وأطفالها من هاميش كانوا صغاراً جداً في السن... شعر بأنه امتلأ بهذا الكلام.



"نعم، أنا هنا". ومن ثم فكّر بابنه. "هل تريدينني أن أتصل بروبرت وأخبره؟ وإن اعتقدت بأن ذلك سيكون صعباً جداً عليه، فيمكنني الذهاب إلى ستانفورد". كان من الغريب كم يخدم القدر المرء أحياناً. أحد الأبوين قد عاد ليدخل حياته ثانيةً في الوقت الذي اختفى فيه الآخر. من الغريب كيف تحدث هذه الأمور.

"لقد اتصلت به قبلك"، قالت بصراحة، وقد فكّرت قليلاً فيما إذا كان ذلك سيؤثر على روبرت. هكذا هي سالي.

"كيف تقبل الأمر؟" بدا مات قلقاً.

"لا أعلم. كان مولعاً بهاميش جداً".

"سأتصل به"، قال مات بسرعة، متلهفاً ليغلق السماعة الآن.

"هل تريد المجيء إلى الجنازة؟" سألت سالي، كعادتها دون أي اهتمام بالمسافة التي سيقطعها، أو الوقت الذي سيستهلكه، أو مشاعره. وبغض النظر عن أي شيء آخر، لقد خانه هاميش، وكاد أن يدمر حياته، بمساعدة سالي.

"لا، لا أريد". قال بصراحة.

"ربما أحضر أنا وفانيسا الأطفال لقضاء الميلاد سوياً"، قالت بحزن. "لا أعتقد أنه يتوجب عليك المجيء لرؤيتها هذا الأسبوع، إلا إن رغبت بحضور الجنازة معنا". كان يخطط للمغادرة إلى أوكلاند لرؤية سالي يوم الخميس، بعد ست سنوات طويلة فارغة، بدت أنها لا تنتهي دون ولديه معه. ولكن يبدو أن هذا الوقت غير مناسب.

"سأنتظر. سآتي حالما تهدأ الأمور، إلا إن أرسلتها إلى هنا". قال 'أرسلتها'، وليس 'أحضرتها'. لم يحب أن تحضر سالي أيضاً. ليس لديه أية رغبة برؤية زوجته السابقة ثانيةً. "لديك أشياء أخرى لتفكّري بها الآن"، لديها جنازة لتخطط لها، وزوج لتقوم بدفنه، وقرارات لتصوغها، وأرواح جديدة لتدمرها. مشاعره تجاهها تضمنت أي شيء باستثناء المحبة منذ أن فضح غدرها بعودة روبرت. علم أنه لن يسامحها أبداً على ما فعلته.

"لا يمكنني حتى تخيل تأثير هذا على عملنا"، قالت بنبرة صوت حزينة. يشغل العمل عقلها دائماً، كما فعل طوال حياتها. لم يتغير أي شيء.

"هذا أمر صعب، أعلم ذلك"، قال لها، بصوت أكثر مرارة، ولكنها لم تسمعه. "قومي ببيعه، سالي. أنا فعلت... ليس بالأمر المهم. ستجدين شيئاً آخر تفعلينه. لا داعي للاستمرار". كانت تلك الكلمات المماثلة تقريباً لتلك التي قالتها له قبل عشر سنوات. ولكنها لم تعد تتذكرها. مهما كانت تعليقاتها فاقدة للإحساس بالآخرين وقد غيرت حياتهم بكاملها، فهي لن تتذكر، أو تتحمل مسؤوليتها لاحقاً. مشاعر الأشخاص الآخرين أو حالتهم الجيدة لا تهمها أبداً.

"أحقاً تعتقد أنه يتوجب عليّ البيع؟" قالت بجدية، تبدو مهتمة، وكل ما يريده هو إغلاق السماعة والاتصال بابنه.

"ليس لديّ أية فكرة. عليّ الذهاب الآن. أنا متأسف من أجل هاميش، انقلي تعازي لأطفاله. سأعلمك عندما آتي لرؤية نيس. أخبريها أنني سأتصل بها بنفسي لاحقاً". وبذلك، أغلق السماعة.

اتصل بروبرت ووجده في غرفته في ستانفورد. لم يكن يبكي، ولكنه بدا محبطاً وبائساً قليلاً.

"أعزيك بوفاته، بني. أعلم أنك أحببته. أنا أيضاً أحببته"، قبل أن يفسد حياتي بأكملها، فكّر مات.

"أعلم أنه أفسد زواجك مع أمي، ولكنه كان دائماً لطيفاً معنا. أشعر بالحزن على أمي. كانت حزينة جداً على الهاتف". ولكنها ليست حزينة جداً لدرجة تناقش بها مستقبل عملها مع مات. تنعطف عجلاتها دائماً نحو مصلحتها. تلك هي سالي، كما كانت دائماً. وفي ذلك الوقت، كان هاميش صفقة أفضل لها. لديه أموال أكثر، وألعاب أكثر، ومنازل أكثر، وكان أكثر مرحاً، فألقت زوجها وانتقلت إليه. ما زال صعباً عليه فهم ذلك، وعلم مات أنه سيكون كذلك دائماً. لقد كلفه ذلك كثيراً، كل شيء كان يحبه ويهتم به في حياته، زوجته، ولداه، عمله الذي كان أقل أهمية منهما أيضاً، ولكن ما تبقى



خسارة لا يمكن تعويضها أبداً. عشر سنوات فاجعة انقضت من عمره.

"هل ستذهب إلى الجنازة؟" سأله مات، وتردد روبرت.

"يتوجب عليّ ذلك، من أجل أمي، ولكني لديّ امتحانات نهائية. تحدثت مع نيسي وتعتقد أن أمي ستكون بخير إن لم أذهب. لديها الكثير من الأشخاص معها". وسبعة أطفال آخرين. أربعة لهاميش، وفانيسا، واثنان منهما. كانت حاشية كبيرة، رغم أن روبرت يعلم أنه مهم لوالدته أيضاً. "ما رأيك، أبي؟".

"هذا قرارك. لا يمكنني اتخاذه عنك. هل تريدني أن آتي إلى ستانفورد؟" بدا مات قلقاً، وكان كذلك من أعماقه.

"لا بأس، أبي. سأكون بخير. إنها مجرد صدمة... ولكنها ليست كبيرة. أصيب بنوبتين قلبيتين، وأجرى عمليتين جراحيتين لقلبه. ولم يكن يعتني بنفسه كثيراً. كانت أمي تقول دائماً بأن الأمر سينتهي على ما انتهى عليه". كان يدخن، ويشرب الكحول كثيراً، كما كان زائد الوزن لسنوات طويلة. كان في الثانية والخمسين من عمره.

"سآتي إليك في أي وقت تريده. اتصل بي فقط. ربما يمكننا القيام بأي شيء في عطلة نهاية الأسبوع إن لم ترغب بالدراسة".

"إنني منضم لمجموعات الدراسة طوال يوم العطلة. سأتصل بك. شكراً لك، أبي".

جلس مات بهدوء للحظة، يفكّر بالأمر، واتصل بأوفيلي. لم يعلم السبب، ولكنه كان حزيناً بشأن هاميش، فربما يكون السبب لأن ذلك يؤثر بولديه، أو ربما لأنه كان صديقه يوماً ما. شعر بحزن أقل على سالي من حزنه عليه.

أخبر أوفيلي بما حدث، وكانت قلقة على روبرت، كما كان، وللحظة أنثوية غريبة، تساءلت ماذا سيعني ترمل سالي لمات. كان يحبها في السابق، وشغوفاً بها، وحزن عليها طوال السنوات العشر الماضية. وأصبحت حرة الآن. لم يكن من المحتمل حدوث أي شيء بينهما، ولكن لا يمكن التوقع. أشياء

أكثر غرابة قد حدثت. فهي في الخامسة والأربعين من عمرها، ولا بد من أنها ستبحث عن رجل جديد. وكانت تحبه في السابق، حباً يكفي لأن تتزوج به وتنجب أولاداً منه.

"قالت بأنه من المحتمل أن تُحضر فانيسا لقضاء الميلاد، ولترى روبرت"، أعلمها مات. "آمل ألا تفعل. لا أريد رؤيتها، أريد رؤية الولدين فقط". شعر بخيبة الأمل لعدم تمكنه من الذهاب إلى أوكلاند لرؤية فانيسا. ولكن من الواضح أن هذا ليس بالوقت المناسب. يحدث الكثير هناك، وستكون فانيسا مشغولة بعائلة هاميش، وبوالدتها، وبالأطفال الآخرين. لن يكون لديها الوقت الكافي لتقضيه معه، وهذا هو الصحيح. فهم مات. بعد ست سنوات، يعلم أن بإمكانه الانتظار لأسبوع آخر أو أسبوعين. كان من الأفضل ذلك.

"ولماذا تريد أن تأتي هي أيضاً؟" سألت أوفيلي، وقد بدت مهتمة.

"الله يعلم. ربما لتزعجني وحسب"، قال وضحك. كان التحدث معها على الهاتف مزعجاً، كذلك الاستماع لها وهي تبكي. لم يقربه ذلك منها أبداً، ذكره بمقدار الحزن الذي سببته له خلال السنوات الماضية. لم يكن لديه أية فكرة بأن أوفيلي تشعر بالقلق فجأة منها، واعتبرتها تهديداً محتملاً لعلاقتهما الناشئة.

مضت بقية الأسبوع سريعة على كل منهما. كانت الأشياء صعبة في الشوارع مع اقتراب أيام العطل. حيث يتعاطى الأشخاص المخدرات بشكل متزايد ويثملون أكثر، ويفقدون أعمالهم، كما يصبح الجو بارداً. لقد وجدوا أربع جثث في ليلة واحدة في مآوي المشردين التي تفحصوها. وكالعادة، كان عملاً مجهداً ومؤلماً للقلب.

ذهب مات بسيارته لرؤية روبرت. وتحدث مع فانيسا على الهاتف. ولأسباب لم يتمكن من فهمها، وفي وسط كل ما يتوجب عليها فعله، اتصلت سالي به عدة مرات لتتحدث معه فقط. لم يرغب بأن يكون صديقها المفضل، وتذمّر من ذلك لأوفيلي.



لحظة الهدوء الوحيدة للجميع كانت من بعد ظهر الأحد المشمس عند الشاطئ. ذهبت هي وبيب لرؤية مات. لم يتمكن روبرت من المجيء، حيث كان ما يزال يدرس للامتحان. وكان الميلاد بعد أقل من أسبوعين.

مشوا ثلاثتهم لفترة طويلة على الشاطئ، وأخبر مات أوفيلي عن المنزل الذي استأجره في تاهوي لفترة الميلاد وحتى بعد بداية السنة الجديدة بقليل. كان سيذهب إلى تاهوي مع روبرت للتزلج، ويأمل أن تتمكن فانيسا من السفر إلى هناك أيضاً.

"هل ما تزال سالي تفكّر بالمجيء؟" سألته، محاولةً أن تبدو غير قلقة، ولكنها كانت كذلك. تفاجأت هي أيضاً بأن ظهور زوجته السابقة يقلقها كثيراً، ولكن هذا حدث فعلاً. وخاصة الآن لأنها أصبحت أرملة أيضاً. بالرغم من أن أوفيلي أدركت بأن هذا كان أوهاماً، أكثر من أي أمر حقيقي. بدا مات غير مهتم بها بأي حال، ولكن لا يمكنك التوقع. فأشياء أكثر غرابة قد حدثت... أكثر غرابة بكثير. كأن يكون زوجها أباً لطفل صديقتها المفضلة. غيّر ذلك جميع وجهات نظرها.

"الله يعلم. لا أبالي. سأجعل أحداً ما يوصل نيسي إلى تاهوي، إن أتت. ليست لديّ أية نية في رؤية سالي، إن أتت إلى هنا"، وهذا طمأن أوفيلي على الأقل. "أرغب أن تأتي أنت وبيب أيضاً. ماذا ستفعلين في الميلاد؟" كان ذلك موضوعاً مؤلماً لها هذه السنة، حتى أنه أكثر إيلاماً من السنة السابقة.

"لا أعلم بعد. يبدو أن عائلتنا تزداد صغراً وصغراً. قضينا العيد السنة الماضية مع أندريا". كانت في الشهر الخامس من الحمل عندها. التفكير بذلك جعل أوفيلي ترتعد الآن، بمعرفة أن الصبي هو طفل تيد، والصورة الساخرة التي كانت تمثلها صداقتها مع أندريا. "أعتقد أنني سأقضيه وبيب بهدوء. ربما يكون من الجميل أن آتي إلى تاهوي في اليوم التالي. أعتقد أنه يتوجب علينا أن نكون وحدنا يوم الميلاد". أومأ لها موافقاً فهو لا يرغب بالتطفل عليها وعلى بيب. علم كم هي حساسة تجاه تلك الأمور، وكان ذلك وقتاً حلواً ومراً

في أن معاً بالنسبة لهما، مليء بذكريات يفترض أن تكون مقدسة، ولكنها مؤلمة بنفس الوقت. "سيكون من الممتع أن يكون هناك شيء تنتظرين القيام به في اليوم التالي". ابتسمت له، وكانت بيب بعيدة جداً عنهما على الشاطئ فتمكن من حني رأسه وتقبيلها. وبينما كان يفعل ذلك، شعر بصدمة كهربائية تمر به، والتي كبتها على الفور. أراد المزيد منها، ولكن الكثير من الأمور كانت قد حدثت في الأسابيع القليلة الماضية، فلم يرغب بالاستعجال، أو إخافتها فتبتعد. كانا يتقدمان باحتراس كبير، وليس بسرعة. علم أنه ما يزال لديها الكثير من المخاوف بالنسبة للتورط معه. لم تكن واثقة بعد من رغبتها بإحراز تقدم جيد. فهو لم يقبلها إلا مرات قليلة، وكان قادراً على الانتظار، مهما استغرقت من الوقت. رغم أنه يدرك بأن الرغبة التي يشعر بها تجاهها كانت تصرف تركيزه كثيراً، إلا أنه واعٍ بنفس الدرجة للمصائب التي مرت بها، وبالخصوص مؤخراً. وبالرغم من ذلك، تمكن من الإحساس بالرغبة تتصاعد داخلها أيضاً. مهما كان لديها من تحفظات، بدت أنها تزداد قرباً منه أكثر.

تحدثا مع بيب عن تاهوي عندما عادت إليهما، وأحبت الفكرة. ومع مرور الوقت حتى مغادرتهما ذلك اليوم، كانت أوفيلي قد وافقت. ومع ذلك حاول مات أيضاً الحصول على وعد آخر منها.

"أريد شيئاً واحداً منك فقط من أجل الميلاد"، قال لها بجدية، وهما يجلسان بالقرب من الموقد في غرفة جلوسه قبل رحيلها وبيب.

"وما هو؟" كانت تبتسم له. وكانت بيب قد أحضرت له هديته مسبقاً، أما أوفيلي فتريد أن تتسوق لتجد له شيئاً مناسباً.

"أريدك أن تتخلي عن الفريق الخارجي". كان جاداً، فتنهدت وهي تنظر إليه. أصبح يعني الكثير لها، ولكنها ما تزال لا تعلم ما الذي تفعله بخصوص الأمر، ومتى، وإن كانت ستفعل أم لا. شعرت بانجذاب كبير نحوه، ولكن مشاعرها كانت تتصارع بصورة متلازمة مع مخاوفها. ولكنه لم يكن يطلب أي إجابات أو وعود. لم يضغط عليها من قبل أبداً، إلا بخصوص هذا الأمر، وهو ما يفعله دائماً.



"تعلم أنه ليس بإمكاني فعل هذا، مات، إنه بالغ الأهمية بالنسبة لي. وبالنسبة لهم أيضاً. أدرك كم هذا مناسب لي. ومن الصعب أن تجعل الأشخاص ينضمون إلى ذلك الفريق".

"أتعرفين السبب؟" قال لها، يبدو حزيناً. "لأن معظم الأشخاص أذكياء بشكل كافٍ ليشعروا بالخوف بالفطرة، ولن يفعلوا ذلك". خطر له أكثر من مرة أن أحد أسباب قيامها بذلك ربما يكون نوعاً من الانتحار غير الواعي. ولكن مهما كانت أسبابها، صمّم على الانتصار عليها في النهاية، وجعلها تتوقف عن العمل. لم يمانع عملها في المركز، ولكن لا يريدها أن تعمل في الشوارع. لم يكن ذلك مسألة عدم احترامها، ولكن إنقاذها من نفسها، ومن أفكارها غير المبالية تجاه نفسها. "أوفيلي، أنا جاد. أريد منك التوقف عن ذلك، من أجل سلامتك، وسلامة بيب. إن كان هؤلاء الأشخاص مجانين ليقوموا بهذا العمل، دعيهم يفعلوه، يمكنك مساعدة المشردين بطرق أخرى. أنت مدينة لنفسك بالتوقف عن ذلك".

"لا شيء فعال بمستوى ما يقوم به رجال الفريق الخارجي. يذهبون إلى حيث يوجد المحتاجون، ويمنحونهم ما يحتاجونه. هناك حقاً حالات ميؤوس منها لا يمكنها بأي طريقة القدوم إلينا لمساعدتها. يتوجب علينا الذهاب إليهم"، قالت، في محاولة لإقناعه دائماً، كما يحاول هو. كانت معركة غير قابلة للحل بينهما، وكانت مصرة تماماً عليها. ولكنه استمر بالمحاولة، ونوى الاستمرار بذلك. "الأمر الذي لا تدركه هو أنهم ليسوا أشخاصاً سيئين أو مجرمين. إنهم يشعرون بالحزن، والحاجة، والانكسار، وبحاجة ماسة للمساعدة. بعضهم مجرد أطفال وحسب، أو عجزة. لا يمكنني التخلي عنهم واعتبار أن شخصاً آخر سيفعل ذلك عوضاً عني. إن لم أفعل ذلك، من سيفعله؟ الكثير منهم أشخاص طيبون جداً ولديّ مسؤولية تجاههم. ما الأمر الآخر الذي تريده من أجل الميلاد؟" سألته، كمحاولة لتغيير الموضوع ولتحصل على المزيد من الأفكار، ولكن كل ما فعله هو الهز برأسه.

"هذا كل ما أريده منك. وإن لم تمنحيني ذلك، سيضع بابا نويل الفحم في جوربك، أو براز الأيل فيه". تساءل أحياناً إن كانت محقة وهو يبالغ في الأمر. فقد كانت مقنعة جداً، ولكنه لم يقتنع بعد. ضحكت على ما قاله، فهي لا تعلم أنه قد لف لها هديتها، ووضعها جانباً بانتظارها منذ فترة طويلة بعض الشيء. وأمل أن تحبها. وبموافقة من أوفيلي، أحضر لبيب دراجة جميلة جديدة بإمكانها استخدامها في المنتزه في المدينة، وفي الشاطئ عندما تأتي لرؤيته. كان مسروراً لأنها نوع من الهدايا التي يحضرها الوالد، وشيء لا يمكن لوالدتها أن تفكّر به. كانت أوفيلي تتسوق لها الملابس والألعاب منذ أسابيع. كانت في سن حرجة، فبالنظر إلى الدمى، لقد كبرت عليها، أما هدايا الفتيات الكبار، فما زالت تدخل للتو في ذلك العمر. فبعمر الثانية عشرة، تقع بين هاتين المرحلتين بالتحديد. كان قد خبأ الدراجة على مرآبه في الشاطئ، تحت الغطاء، وأكدت له أوفيلي أنها ستسر بها كثيراً.

الهدية الوحيدة التي لم يرغب بها مات هي تلك التي حصل عليها قبل الميلاد. اتصال من سالي تخبره بأنها فيه ستتصل في اليوم التالي، مع فانيسا وطفليها الآخرين. أطفال هاميش الأربعة كانوا مع والدتهم من أجل قضاء العطلة معاً، وقد قررت القدوم إلى سان فرانسيسكو، كما عبرت عن غايتها بقولها: "لرؤيته". كل ما أراده، هو رؤية ابنته، الأمر الذي شعر بالإثارة الكبيرة تجاهه، وليس تجاه زوجته السابقة. كانوا يخططون للبقاء في ريتز. واتصل ليشتكي لأوفيلي، في الدقيقة التي أغلق بها السماعة. كانت تتجهز للخروج مع الفريق.

"ماذا يفترض بي أن أفعل بخصوص الأمر؟" قال لها، وهو يبدو منزعجاً. "لن أراها. كل ما أريد رؤيته هو نيسي. الخبر الجيد هو أنها ستذهب معي إلى تاهوي. نيسي وليس سالي"، صحح، ولكن أوفيلي شعرت بالقلق على أية حال، ولم ترغب بأن تدعه يعرف بأنها كذلك. فهي متعلقة الآن بمات كثيراً، ولا تريد لذلك أن يتأثر برؤيته لزوجته السابقة. فماذا إن وقع بحبها



ثانيةً؟ إن كان ذلك قد حدث من قبل، فربما يحدث ثانيةً، رغم كل شيء فعلته. كانت قد بدأت تشعر بالارتياح بخصوصها، ولكن وصولها المليء بالتهديد أقلقها فجأة. اعتقدت بواسطة الحاسة السادسة أنه سيراها، وقيامه بذلك سيحرك مشاعره القديمة تجاهها. فالرجال بسطاء في مثل هذه الأمور، ويبدو من إلحاح سالي على رؤيته، أن لديها شيئاً خاصاً تنوي فعله. حاولت أوفيلي بكامل الذوق الذي امتلكته تحذيره.

"سالي؟ لا تكوني سخيفة. لقد مات كل شيء وانتهى. إنها تشعر بالملل وحسب ولا تعلم ما الذي تفعله بنفسها. تحاول تقرير ما الذي ستفعله بعملها. أوفيلي، ليس هناك أي شيء لتقلقي حياله. إني خارج الموضوع بالكامل، وكنت كذلك لعشر سنوات مضت". بدا الأمر عادياً بالنسبة له، ولكن حدس أوفيلي الأنثوي كان بقمة خوفه.

"أشياء أكثر غرابة قد حدثت"، حذرته بحكمة.

"ليس معي. لقد انتهى الأمر بالنسبة لي منذ سنوات، ولمدة أطول من جانبها. هي من تركني، أتذكرين. من أجل رجل أكثر مالاً وأكثر لهواً". قال لها وألمه ما يزال شديداً من تلك الصدمة.

"إنها تملك المال الآن، وقد رحل هو. وتشعر بالخوف والوحدة. ثق بي. لم تسمع آخر ما لديها". ولكن مات لم يتفق معها على الإطلاق... حتى وصولها إلى ريتز، واتصالها بعد ساعة. كان صوتها مليئاً بالعطف واللطف، وسألته إن كان يرغب بالقدوم لتناول الشاي. قالت إنها متعبة من الطيران، وبدت متخبطة، ولكنها كانت تتلهف لرؤيته. شعر بالخوف الشديد، ولم يكن واثقاً مما سيقوله.

خطرت تحذيرات أوفيلي على باله فوراً، ولكنه صرفها على الفور ودون تفكير. كانت تحاول أن تكون ودودة معه، بحق الأيام الماضية، ولكن ذلك حتى لم يرق له على الإطلاق. على النقيض، بعد أن سرقت ولديه منه، كرهها عقله المنطقي، ولكن هناك أشياء أخرى فيه، استجابت غريزياً للذكريات. كان ذلك

ارتباطاً شرطياً، فأزعجه ذلك من نفسه ومنها أيضاً. كانت تلك طريقتها في تعذيبه، لترى إن كان بإمكانها استرجاع الوسائل القديمة المعتادة.

"أين نيسي؟" سألها بفظاظة، متلهفاً لرؤية ابنته، وليس لرؤيتها هي. كل ما أراده هو رؤية ابنته، بأسرع ما يمكنه.

"إنها هنا"، قالت متظاهرة بالخجل. "إنها متعبة أيضاً".

"أخبريها أنه بإمكانها النوم فيما بعد. سأحضر إلى قاعة الانتظار بعد ساعة، أخبريها أن تكون هناك". كان يشعر بالإثارة الشديدة لدرجة أنه كاد يغلق السماعة في وجه سالي، ووعدته أن توصل الرسالة إلى فانيسا، التي كانت متحمسة هي أيضاً عندما أخبرتها.

اغتسل، حلق ذقنه، غير ملابسه، وارتدى سترة فضفاضة وبنطالاً رمادياً، وبدا وسيماً جداً عند دخوله قاعة الانتظار في فندق ريتز كارلتون، وأخذ ينظر حوله بتلهف. ماذا إن لم يعرفها؟ إن كانت قد تغيرت كثيراً... وماذا إن... ومن ثم رآها تقف هناك كغزالة فتية، بنفس ملامح الوجه التي كانت عليها وهي طفلة صغيرة، ولكن بجسد امرأة، وبشعر أشقر مسترسل، وبكى كل منهما عند سقوطهما في ذراعي بعضهما البعض. خبأت وجهها في رقبته، وقبلته، ولمست وجهه وهو يمسك بها. وحشية انفصالهما الطويل بدت واضحة في حاجتهما الشديدة وهما يعانقان بعضهما البعض. لم يرد أبداً أن يفلتها من بين ذراعيه ثانيةً، وكان عليه أن يجبر نفسه على تركها، ليتمكن من رؤيتها فقط. وهو ينظر إليها بحب شديد، كان كل منهما يضحك مع الدموع.

"أوه أبي... تبدو كما كنت... لم تتغير على الإطلاق..." لم تتمكن من التوقف عن البكاء والضحك، ولم يكن قد رأى أحداً من قبل بمثل جمال ابنته الشابة. كاد قلبه أن يخرج من صدره وهو ينظر إليها، وجعله ذلك يدرك مقدار الألم الذي سببه غيابها الطويل عن حياته. كل شيء أجبر نفسه على ألا يشعر به لمدة ست سنوات عاد مسرعاً إليه الآن.



"حسناً، أما أنتِ فقد تغيرتِ حقاً! واو!" كانت قامتها رائعة، تماماً كما كانت والدتها في شبابها. ارتدت فانيسا ثوباً رمادياً قصيراً وحذاءً بكعب عالٍ، ووضعت ما يكفي من المكياج لتبدو فاتنة وليس مبتذلة، ووضعت قرطين صغيرين من الألماس في أذنيها، علم أنهما ربما يكونان هدية من هاميش. كان دائماً كريماً مع ولدي مات. "ماذا تريدين أن نفعل؟ نتناول بعض الشاي؟ أو نذهب إلى مكان ما؟" كل ما أراده هو البقاء معها.

ترددت فانيسا للحظة، ومن ثم رآهم خلفها. كان غير مدرك لوجود أي شخص آخر غيرها من اللحظة التي وضع عينيه عليها. ولكن سالي كانت تقف في وسط القاعة، مع امرأة بدت كمربية أطفال وصبيين صغيرين. كانت السنوات لطيفة معها، فما تزال امرأة جميلة، رغم أنها أسمن قليلاً مما كانت عليه في الماضي. وكان الصبيان لطيفين. أحدهما في السادسة والآخر في الثامنة. ولكن بدلاً عن ترك فانيسا وحدها معه بعد كل هذه السنوات، تطفلت عليهما، وهذا ما لم يرغب به مات بالتحديد، وأبدى انزعاجه فوراً وهي تقترب، أما فانيسا فرمقتها بنظرات ملؤها الغضب منها. ارتدت سالي ثوباً أسود قصيراً، وحذاءً باهظ الثمن ومثيراً، ومعطفاً من الفرو، ووضعت قرطين من الألماس في أذنيها بحجم أكبر بقليل من الحجم الذي كانت فانيسا تضعه، هدية أخرى من زوجها الراحل دون شك.

"أنا متأسفة، مات، آمل أنك لا تمانع... لم أستطع المقاومة... وأردتك أن تلتقي بالصبيين". آخر مرة رآهما في أوكلاند كان أحدهما في الثانية والآخر يبلغ بضعة شهور فقط. ومهما كانا لطيفين، أراد أن يكون مع ابنته هو، وليس مع سالي وطفليها. لقد فعلت ما يكفي معه. كل ما يريده منها الآن هو أن ترحل وتختفي.

رحّب مات بالصبيين، بابتسامة دافئة، وداعب شعرهما بيديه قليلاً، وأومأ باحترام إلى المربية. لم يكن خطأ الطفلين عدم تصرف أمهما اللائق، ولكنه أراد أن يكون واضحاً معها.

"أعتقد أني أرغب وفانيسا بالبقاء وحدنا لبرهة. لدينا الكثير لنعوضه".

"بالطبع، أفهم ذلك"، قالت بمرح، ولكنها لم تفهم شيئاً. لا تتمكن من الاهتمام بما يريده أي شخص آخر، وخاصة هو. وتجاهلت بالكامل غضب فانيسا الواضح منها. لم تكن قد سامحت أمها بعد لإبعاد مات عنها لست سنوات، وأقسمت ألا تفعل. "لقد وعدت الطفلين بالذهاب إلى محلات ماسي ورؤية سانتا كلوز، وربما نتوقف في شوارز. اعتقدت أن بإمكاننا تناول العشاء جميعاً مساء الغد، إن لم يكن لديك شيء تفعله". قالت وتبسّمت تلك الابتسامة التي بهرته في المرة الأولى التي كان قد التقى بها، ولكنها لم تعد كذلك. علم أن قرشاً يعيش خلف هذه الابتسامة، لقد عضته بعمق شديد فمن المستحيل أن ينخدع بها. ولكنها لعبت لعبة عظيمة. أي شخص آخر كان ليظنها ساحرة ومتوازنة، وودودة معه. ومهما أرادت منه، لم يعد يرغب بمنحها شيئاً.

"سأخبرك لاحقاً"، قال بغموض، وقاد بثبات فانيسا بعيداً عنهم إلى المكان الذي يُقدم فيه الشاي في الصالة. بعد لحظة، رأى سالي والمربية والطفلين يندفعون عبر الباب الدوار إلى الليموزين المنتظرة. أصبحت امرأة ثرية الآن، أكثر ثراءً مما كانت عليه. ولكن من وجهة نظره، لم يزدها ذلك سحراً. لا شيء سيفعل ذلك. لديها كل شيء يرغب به المرء، الجمال، الموهبة، العقل، الإبداع، كل شيء، باستثناء القلب.

"أشعر بالأسف على كل شيء، أبي"، قالت فانيسا بهدوء، وهما يجلسان. لقد فهمت كل شيء، وأعجبت بوالدها كثيراً للطريقة اللطيفة التي تعامل بها مع الأمر. كانت قد تحدثت مع أخيها مطولاً عما حصل، وكانت أقل رغبة بالعفو عنها من روبرت، الذي كان دائماً يجد الأعذار لأمه، ويقول إنها لا تفهم تأثيرها على الأشخاص. ولكن فانيسا كرهتها بكل ما تملكه فتاة في السادسة عشر من طاقة، ولسبب جيد هذه المرة. "أكرهها، أبي"، قالت بصراحة لوالدها، ولم يختلف معها بذلك، ولكن لم يرغب بصب الزيت على النار أو تشجيعها



على كره أمها. حاول بطريقة ما أن يكون متحفظاً من أجل فانيسا. ولكن لم تكن هناك أية وسيلة لتصحيح الموقف، أو لشرح الأمر. لقد منعتهما من رؤية والدهما، من أجل أهدافها الخاصة، مدة ست سنوات. تقريباً نصف عمرهما، وشعرت فانيسا أن السنين الست مرّت عليه أطول مما هي حقيقةً. وكل ما يريدونه هو التعويض عن ذلك الآن. "لا يتوجب عليك القدوم للعشاء معها غداً. أريد أن أكون معك فقط". فهمت فانيسا الأمر بأكمله، وكانت حكيمة بالنسبة لفتاة في السادسة عشر. لقد مرّت بالكثير هي أيضاً.

"أفضل أن أكون معكِ"، قال لها بصدق. "لا أريد التشاجر مع والدتك، ولكني لا أتلهف لأن أصبح صديقها المفضل أيضاً". كان من الواضح تماماً أنه يرغب بأن يكون حضارياً معها، وهي تود أن تظهر حسن نواياها.

"لا بأس، أبي". جلسا وتحدثا لثلاث ساعات في صالة الريتز. شرح لها ثانيةً ما علمته مسبقاً، كيف مرّت سنوات انفصالهما الست. ومن ثم تابع ليسألها عن نفسها، وعن أصدقائها، ومدرستها وحياتها، وأحلامها. أحب المكوث معها، وكان وكأنه يتشرب كل شيء تقوله. كانت هي وروبرت سيقضيان الميلاد في تاهوي معه، بدون أمهما. كانت سالي ستذهب إلى نيويورك مع طفليها. بدا أنها لا تملك أي مكان تذهب إليه الآن، وتبحث عن شيء ما. لو لم يكن يكرهها لهذه الدرجة، لكان شعر بالحزن عليها.

اتصلت به سالي في اليوم التالي، بخصوص العشاء، وحاولت إقناعه بالانضمام إليهم. ولكنه قاوم بصورة حليمة، وبدلاً عن ذلك تحدث عن فانيسا، وأخذ يتباهى بها.

"قمت بعمل جيد معها. إنها رائعة"، قال لها بسخاء.

"إنها فتاة طيبة"، وافقت سالي. قالت سالي إنها ستمكث هنا لأربعة أيام، وشعر مات بالتلهف لمغادرتها. لم يكن لديه أية رغبة برؤيتها. "ماذا عنك، مات؟ كيف هي حياتك؟" كان ذلك موضوعاً لا يرغب بالتأكيد مناقشته معها.

"جيدة، شكراً لك. أقدم لك التعازي بخصوص هاميش. سيكون هذا تغييراً

كبيراً عليك. هل ستبقين في أوكلاند؟" أراد إبقاء محادثتهما بخصوص العمل، والمنازل، والأولاد. ولكنها لم ترغب بذلك.

"ليس لديّ أية فكرة. قررت بيع التجارة بأكملها. لقد تعبت، مات. حان الوقت للتوقف وتنشق الزهور". كانت تلك فكرة جيدة، ولكن بمعرفته لسالي، كان الاحتمال الأكبر هو أن تحطمها وأن توقد النار بها. فقد كان هناك في السابق.

"يبدو هذا معقولاً". جعل إجاباته مقتضبة، وغير متعاطفة أبداً. ليس لديه أية نية في مدّ الجسور بينهما، وأمل أن تفترسها تماسيح الخندق المائي إن حاولت احتلال القلعة.

"أخمّن أنك ما تزال ترسم، فأنت تملك موهبة رائعة"، قالت بسخاء. ومن ثم بدت مترددة للحظة، وأصبح صوتها طفولياً، ومن ثم حزيناً وهي تتحدث ثانيةً. كانت تلك وسيلتها، التي كاد أن ينساها، لتحصل على ما تريده. "مات..." ترددت، ولكن للحظة فقط، "هل تكره تناول العشاء معي الليلة؟ لا أريد أي شيء منك. أريد دفن الفأس التي استخدمتها"[1]. يعلم أنها قد فعلت ذلك مسبقاً، بغيابه قبل سنوات، وما زالت هناك، تتقيح وتصدأ. إخراجها الآن سيزيد الأمور سوءاً وحسب، وستجعله ينزف حتى الموت.

"إنها فكرة جيدة"، قال لها وقد بدا متعباً. لقد أنهكته. لديها جدول أعمال مليء جداً. "ولكن لا أعتقد أن العشاء فكرة جيدة. لا فائدة منه. دعينا لا نوقظ الكلاب النائمة. ليس لدينا أي شيء نقوله لبعضنا البعض".

"ما رأيك بأنا متأسفة؟ أدين لك بالكثير منها، أليس كذلك؟" تحدثت بنعومة، وبدت رقيقة لدرجة كادت تقتله. أراد أن يصرخ بها كي لا تفعل ذلك. كان من السهل جداً تذكر كل ما كانت بالنسبة له يوماً ما، وصعباً جداً بنفس الوقت. ليس بإمكانه ذلك وحسب... سيتسبب بقتله.

(1) دفن الفأس: تعبير يستخدم لعقد الصلح.



"ليس عليك قول أي شيء، سالي"، قال لها، يبدو أشبه بالزوج الذي كان يوماً ما، الرجل الذي عرفته وأحبته، والذي دمرته تقريباً. مهما كان قد حدث خلال ذلك، فهما لا يزالان الشخصين نفسهما، ويتذكّر كل منهما الأيام الجيدة كالأيام السيئة. "تجاوزنا كل ذلك".

"أريد رؤيتك وحسب. ربما يمكننا أن نكون صديقين مجدداً"، قالت له وقد بدت مفعمة بالأمل.

"لمَ؟ كل منا لديه أصدقاؤه. لا نحتاج لبعضنا".

"لدينا ولدان. ربما يكون من الجيد لهما أن نُحيي علاقتنا ثانيةً". بصورة مدهشة، لم يخطر ذلك على بالها طوال الست سنوات الماضية. الآن فقط. فهذا يناسب هدفها الحالي، أياً يكن. ومهما كان ذلك، يعلم مات أنه جيد بالنسبة لها، وبالتأكيد ليس له. نرجسيتها الداخلية دائماً تسيطر عليها. يتعلق الأمر دائماً باحتياجاتها، وليس باحتياجات أي شخص غيرها.

"لا أعلم..." تردد. "لم أفهم الفكرة".

"العفو، الإنسانية، الحب. تزوجنا لخمس عشرة سنة. ألا يمكننا أن نكون أصدقاء الآن؟".

"هل من الفظاظة أن أذكرك بأنك أنت من تركتني من أجل أحد أصدقائي المفضلين، انتقلت آلاف الأميال مع ولديّ، ولم تسمحي لي بالاتصال بهما مدة ست سنوات؟ هذا كثير جداً، حتى بين *الأصدقاء* كما تسمينها. كيف يمكن لتلك الصداقة أن تكون؟".

"أعلم... أعلم... قمت بالكثير من الأخطاء"، شملت كل ما فعلته بذلك القول، ومن ثم لبست صوت الاعتراف، الأمر الذي لم يكن يرغب به بالتحديد منها. "إن كان ذلك سيقدم أي عزاء، فلم أكن أنا وهاميش سعيدين على الإطلاق. كان هناك الكثير من المشاكل بيننا".

"يؤسفني سماع ذلك"، قال وهو يشعر بالقشعريرة تسري في جسمه. "كان دائماً يراودني شعور بأنكما كنتما سعيدين جداً. كان كريماً جداً معك، ومع

الأولاد". وقد كان بالأصل رجلاً طيباً، حتى فراره مع سالي، كان مات دائماً يحبه.

"كريم، نعم. ولكنه لم يكن *يفهم الأمر* تماماً، مثلما فهمته أنت. كان رجلاً يستمتع بوقته، ويشرب بشمالة، الأمر الذي تسبب بقتله في النهاية"، قالت بلا تعاطف أبداً. "لم يكن لدينا حياة جنسية".

"سالي، من فضلك... بحق الله. لا أريد أن أعرف ذلك". بدا مات مجفلاً وكئيباً.

"متأسفة، نسيت كم أنت محتشم". اجتماعياً، ربما، ولكن ليس في غرفة النوم. وهي تعلم ذلك عنه. لقد اشتاقت إليه. كان هاميش يقول أكثر النكات البذيئة في العالم، ويحب النظر إلى الكثير من الأثداء والمؤخرات، ولكنه كان يسعد بذهابه إلى السرير مع شريط فيديو... وزجاجة من... كما لو كانت معه.

"لم لا نتوقف هنا؟ ليس هناك فائدة من ذلك. لا يمكنك إعادة الفيلم إلى الوراء. انتهى كل شيء. انتهى وحسب. هذه نهاية القصة".

"لم ينته. لم يكن كذلك أبداً. وتعلم ذلك حقاً". ضربت على عصب حساس جداً، ما زال يجعله يئن. كان ذلك ما يخبئ منذ قرن. فرغم كل ما حصل، أو مقدار بشاعته، فقد كان دائماً يحبها. وهي تعلم ذلك. تمكنت من الإحساس بذلك حتى الآن. كانت قرشاً مزوداً بشاشة رادار، وغريزة لا تخيب.

"لا أبالي. انتهى الأمر"، قال بفظاظة. ونبرة صوته، الأجش تقريباً، أطلقت المواد الكيميائية نفسها فيها، كما كان يحدث دائماً. لم تكن قد تغلبت عليه مسبقاً أبداً. لقد أوقفت كل شيء، قطعت حياته كفرع لم تعد تريده، ولكن الأعصاب المتوضعة حول الجرح كانت ما تزال غضّة، وتنبض، ومليئة بالحياة.

"لا تتناول العشاء معي. تناول الشراب. قابلني فقط، بحق الله. ما الفرق؟ لم لا يمكنك فعل هذا؟" لأنه لم يعد يرغب بأن يجرحه أحد، ذكّر نفسه، ولكنه شعر بشيء لا يقاوم يسحبه تجاهها وكره نفسه لذلك.



"رأيتك البارحة، في الصالة".

"لا، لم تفعل. رأيت أرملة هاميش، وطفليه، وابنتك".

"هذه أنت، أليس كذلك؟" قال بيأس، لا يرغب بأية إجابة مختلفة منها.

"لا، لست كذلك. ليس بالنسبة لك، مات". كان الصمت بينهما يصمّ الآذان، فتأوه. جعلته يشعر بالجنون، كما فعلت دائماً. حتى بعد تركها له، تمكنت دائماً من فعل ذلك به. علمت أين تقع جميع تآلفاته، وأعصابه الحساسة، وأحبت اللعب بها جميعاً.

"حسناً، حسناً. مدة نصف ساعة، ليس أكثر. سأراك... سأدفن الفأس، سنعتبر أنفسنا صديقين، ومن ثم بحق الله، اخرجي من حياتي قبل أن أصاب بالجنون". لقد تمكنت من ذلك. لقد حصلت عليه. كما فعلت دائماً. وهذه هي لعنته في الحياة. العذاب الذي كان يعيشه، والحكم الذي أصدرته بحقه عندما رحلت عنه.

"شكراً لك، مات"، قالت بلطف. "غداً في السادسة؟ تعال إلى الجناح. سأكون هادئة ويمكننا التحدث".

"سأراك حينها"، قال ببرود، لقد كان غاضباً لأنه استسلم لها. وكل ما تمكنت من فعله هو تمني ألا يلغي الموعد خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة. علمت أنها إن رأته، حتى ولو لنصف ساعة، ربما يتغير كل شيء. والأسوأ هو أنه عندما أغلق سماعة الهاتف، علم بذلك أيضاً.

# 24

قاد مات سيارته إلى المدينة في الساعة الخامسة من اليوم التالي، ووصل قـبل خمس عشرة دقيقة. تمشّى في الصالة، وبدا وكأنه يمشي بثبات وغضب، وعـند الـساعة الـسادسة تماماً كان يقف أمام الجناح، ورنّ الجرس. لم يكن يـرغب بوجـوده هناك، ولكنه علم أن ذلك لمرة واحدة وللأبد، فيتوجب عليه مواجهة الموقف. إن لم يفعل، سيلازمه ذلك للأبد.

فتحت الباب، وبدت جادة وأنيقة في بذلة سوداء اللون، وجوارب سوداء، وحـذاء بكعـب عالٍ، وشعرها الأشقر كان جميلاً كشعر ابنتها تماماً. ما تزال امرأة رائعة المنظر.

"أهـلاً، مـات"، قالت ببساطة، وطلبت منه الجلوس وقدّمت له الشراب. تذكّرت بأنه يحبه، رغم أنه لم يعد يشربه. ولكنه قبِله هذه المرة.

أحـضرت كـوباً لها أيضاً، وجلست على الأريكة أمامه، كانت الدقائق الأولـى القلـيلة مـربكة دون شك، ولكن الشراب ساعدهما. وبصورة يمكن تـوقعها، لم يستغرق الانجذاب بينهما وقتاً طويلاً حتى شعر به كل منهما. أو هـي مـن فعـل، فمـا شـعر به مات كان شيئاً مختلفاً. لم يتمكن من تحديد الاخـتلافات بعد، ولكنه علم أنه بطريقة ما، في صميم مشاعره تجاهها، هناك تغير أساسي، وشعر بالراحة لذلك.

"لماذا لم تتزوج ثانيةً؟" سألته، وهي تلعب بالزيتون الموجود في شرابها.

"شـفيتني من ذلك"، قال بابتسامة، معجباً بساقيها. كانتا جيدتين تماماً كما هـو حالها دائماً، والتنورة السوداء القصيرة سمحت له بمنظر مثير لها. "كنت

أعيش كالناسك طيلة عشر سنوات. فأنا ناسك... رسام..." فكّر بالأمر، ولكن ليس لديه أية رغبة بجعلها تشعر بالذنب. فهذه حياته الآن، ويشعر بالراحة فيها. في الحقيقة، أصبح يفضلها عن الحياة التي عاشها في السابق.

"لمَ تفعل ذلك بنفسك؟" قالت وهي تبدو مهتمة.

"ذلك يناسبني، في الحقيقة. فعلت كل ما أريده في هذه الحياة. أثبتّ كل شيء أريد إثباته. إني أعيش عند الشاطئ وأرسم... وأتحدث مع الأطفال والكلاب المتجولة". ابتسم لنفسه، فكّر ببيب، وفكّر بأوفيلي فجأة، التي كانت بطريقتها الخاصة، تفوق هذه المرأة جمالاً بكثير. كانتا مختلفتين دون شك بكل معنى ممكن.

"تحتاج إلى حياة، مات"، قالت سالي بلطف. "هل فكّرت بالعودة إلى نيويورك؟" كانت هي تفكّر بالأمر. لم تكن قد أحبت أوكلاند على الإطلاق، أو نيوزيلندا. وقد أصبحت حرة الآن، لتفعل كل ما تريده.

"لا، حتى اللحظة"، قال بصدق. "أنا غير مهتم أبداً". تفكيره بأوفيلي، حتى ولو لدقيقة، قد ساعده نوعاً ما على استعادة أحاسيسه والحفاظ على مسافة عنها.

"ماذا عن باريس أو لندن؟".

"ربما. عندما أملّ من التسكع على الشاطئ. لم أملّ بعد. وعندما أفعل، ربما سأنتقل إلى أوروبا. أما الآن، بوجود روبرت، أنا أكثر تحمساً للبقاء هنا خلال السنوات الأربع القادمة". وكانت فانيسا قد أخبرته أنها ترغب بالانضمام إلى جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس بعد سنتين، أو ربما إلى بيركلي. وهو لن ينتقل إلى أي مكان في هذه الأثناء. أراد أن يكون بالقرب من ولديه. تم إبعاده عنهما لوقت كافٍ، أما الآن فيريد أن يستمتع بكل لحظة يمكنه البقاء فيها معهما.

"أنا متفاجئة لأنك لم تمل من كل هذا، مات. حياة الناسك تلك. كنت مفعماً بالحيوية في الأيام الخوالي". وكان المدير الفني لأكبر وكالة إعلانات في



نيويورك، مع الكثير من الزبائن الهامين وذوي القوة. كان هو وسالي قد استأجرا الكثير من الطائرات، والمنازل، والسفن الشراعية ليستمتعا بها. ولكنه لم يعد متعطشاً لها، لم يفعل منذ عقد تقريباً.

"أعتقد أني كبرت نوعاً ما. يحدث هذا مع بعضنا".

"لا تبدو أكبر ولو بيوم واحد". اتخذت أسلوباً آخر، فالأساليب الأخرى لم تنفع. لم تتمكن من تخيل نفسها تعيش في كوخ عند الشاطئ معه، فذلك سيتسبب بقتلها بالتأكيد.

"حسناً، أنا أشعر بذلك. ولكن شكراً لك، ولا أنت أيضاً". في الحقيقة، بدت أفضل مما كانت عليه في السابق، فالقليل من الوزن قد ناسبها ومنحها جسداً أكثر إثارة. كانت دائماً نحيلة جداً في الأيام السابقة، رغم أنه أحب ذلك أيضاً. "ما الذي ستفعلينه الآن إذاً؟".

"لا أعلم. أحاول معرفة ذلك. الأمر جديد بكامله". لم تبدُ أنها أرملة حزينة، ولم تكن كذلك. بدت أشبه بمجرم تم إطلاق سراحه. على نقيض أوفيلي، التي كانت تذوي بسبب موت زوجها. التناقض بين هاتين المرأتين كبيرة جداً. "كنتُ أفكّر بنيويورك". قالت له، ومن ثم نظرت إليه بخجل. "أعلم أنها فكرة جنونية، ولكن كنت أتساءل إن..." نظرت عيناها بعمق إلى عينيه، ولم تنه كلامها. لم تكن بحاجة لذلك. فهو يعرفها جيداً. وكانت تلك هي المشكلة... بأنه يعرفها.

"أرغب بالذهاب معك، وتجربة ذلك لبرهة، ونرى إن كانت الأمور ستمضي بخير... لو نتمكن من إعادة كل شيء سويةً، أن نعيد عقارب الساعة ونقع بالحب من جديد... يا إلهي، تبدو هذه فكرة رائعة، أليس كذلك؟..." أكمل ذلك عنها، وقد بدا شارداً، وأومأت هي بالإيجاب. لقد فهمها، كما فعل دائماً، أكثر مما تعرف هي. "المشكلة هي... أن ذلك هو ما رغبت به طيلة السنوات العشر الماضية... ليس بصورة علنية. لم أعذب نفسي يومياً، فقد كنتِ متزوجة من هاميش، لم يكن هناك أي أمل بيننا... وأنت لست كذلك الآن، فقد رحل...

والشيء المضحك، سالي... أدركت الآن أنه ليس بإمكاني فعل ذلك. أنت جميلة، تماماً كما كنتِ جميلة دائماً، وبكوب آخر من الشراب، سأسقط إلى السرير معك وأحس بعدها أني مت وذهبت إلى الجنة... ولكن ماذا بعدها؟ أنت كما أنتِ، وأنا كما أنا... وجميع الأسباب التي حولت كل شيء إلى فتات في السابق ما تزال وستظل دائماً... ربما يكون حديثي مملاً. والحقيقة هي أنني بنفس الدرجة التي أحببتك فيها وربما سأظل دائماً كذلك، لم أعد أريد البقاء معك أبداً. الثمن باهظ جداً بالنسبة لي. أريد أن أكون مع امرأة تحبني. لست متأكداً من أنك فعلت ذلك سابقاً. الحب ليس مجرد شيء، أو بضاعة تشترى، أو تباع، إنه تبادل، مقايضة، هبة تقدمينها وتتلقينها... أريد الهدية في المرة التالية... أريد أن أحصل عليها وأمنحها..." شعر براحة ملحوظة وهو يقول لها ذلك. لقد حصل على الفرصة التي أرادها طيلة عشر سنوات، ووجد أنه لم يعد يريدها في الحقيقة. كان ذلك شعوراً لا يصدق بالتحرر، وفي الوقت نفسه، بالخسارة... بخيبة الأمل، بالنصر، والحرية.

"كنت دائماً رومانسياً جداً"، قالت منزعجة قليلاً. لم تجرِ الأشياء بالطريقة التي رغبت بها.

"وأنت لم تكوني كذلك"، قال مبتسماً. "وربما هذه هي المشكلة، أؤمن بكل ذلك الهراء الرومانسي. أما أنتِ فتريدين أن تستمري بذلك. تدفنين رجلاً، وتحيين آخر. بغض النظر عما فعلته مع ولدينا. المشكلة هي أنكِ كنتِ تقتلينني، وروحي تطوف الآن هناك في مكان ما، أصبحت حرة الآن... وأعتقد أني أحبها كذلك...".

"كنت دائماً مجنوناً قليلاً". ضحكت. ولكنه لم يكن أبداً بمثل سلامة العقل هذه من قبل في حياته أبداً، وقد عرف ذلك. "ما رأيك بالعلاقة؟" كانت تلعب لعبة دعنا نعقد أي صفقة الآن وشعر بالأسف عليها.

"سيكون هذا غباءً وإرباكاً. ألا تظنين ذلك؟ ماذا سيحدث بعدها؟ لن أحب أي شيء سوى الذهاب معك إلى السرير. ولكن هنا تبدأ جميع المشاكل. أهتم



بك، ولا تفعلين. يأتي شخص آخر، فتطردينني من النافذة. ليست هذه وسيلة النقل المفضلة لديّ. النوم معك رياضة خطيرة، بالنسبة لي على الأقل. ولديّ احترام صحي لحدود ألمي. لا أعتقد أن بإمكاني فعل ذلك. في الحقيقة، أعلم أنه ليس بإمكاني ذلك".

"إذاً ماذا الآن؟" بدت غاضبة ومهتاجة وهي تصب لنفسها كوباً آخر من الشراب. الكوب الثالث لحدّ الآن. كان قد ترك كوبه الأول دون أن يكمله. لقد كبر على هذه الأشياء أيضاً. لم يعد مذاقها جيداً كما كانت في السابق.

"نفعل الآن ما قلتِ أننا سنفعله. نعتبر أنفسنا صديقين، نتمنّى حظاً سعيداً لبعضنا البعض، نودع بعضنا، وكل منا يستمر في عمله. تذهبين إلى نيويورك، وتستمتعين بوقتك، تجدين زوجاً جديداً، تنتقلين إلى باريس أو لندن أو بالم بيتش، تربين أطفالك، وأراك في حفل زفاف روبرت وفانيسا". كان ذلك كل ما أراده لها ومنها، ولا شيء أكثر.

"وماذا عنك، مات؟" تشاحنت معه. "هل ستتعفن على الشاطئ للأبد؟".

"ربما، وربما لا... أكبُر كشجرة قوية قديمة، أمد جذوري للأسفل، واستمتع بحياتي مع الأشخاص الذين يجلسون تحتها، ولا يريدون هزها كل عشر دقائق، أو يرغبون بقطعها. أحياناً تكون الحياة الهادئة أمراً جيداً". كان ذلك المفهوم غريباً عنها تماماً. أحبت الإثارة، مهما توجب عليها أن تفعله لتخلقها.

"لست كبيراً في العمر لتفكّر بتلك الطريقة. أنت في السابعة والأربعين فقط، بحق الله. كان هاميش في الثانية والخمسين، وكان يتصرف وكأنه في نصف عمرك".

"وهو ميت الآن. لذا لم تكن تلك فكرة رائعة أيضاً. ربما من الأفضل أن يكون المرء في المنتصف. ولكن مهما كانت الحالة، طريقك وطريقي يمضيان في اتجاهين مختلفين وللأبد. إما أن أقودك للجنون، أو ربما تقتلينني. ليست صورة جميلة أليس كذلك".

"هل هناك أحد في حياتك؟".

"ربما، ولكن ليست هذه المشكلة. لو كنت واقعاً في حبك، لتركت كل شيء ولحقت بك إلى نهاية الأرض للأبد. تعرفينني، الغبي الرومانسي، كل الصفات التي تعتقدين أنها غبية بشكل غير معقول. ولكني كنت لأفعل ذلك. المشكلة هي، أني لم أعد أحبك. اعتقدت أني كنت كذلك. ولكن أظن أني نزلت من القطار في منتصف المسافة، ولم أعلم ذلك. أحب ولدينا، ذكرياتنا، وهناك جزء شاب مجنون قديم تائه مني سيحبك للأبد. ولكني لا أحبك بما يكفي لأحاول ثانيةً، سالي، أو لأتبعك للأبد". وبذلك، نهض، وانحنى للأسفل، وقبلها من أعلى رأسها، لم تتحرك وهي تراه يمشي إلى الباب ويفتحه. لم تحاول إيقافه، فهي تعرفه حقاً. لقد عنى كل كلمة قالها. كما فعل دائماً، ويفعل دائماً، وسيفعل دائماً. وهو يقف هناك، ألقى نظرة أخيرة عليها قبل أن يغادر حياتها للأبد.

"وداعاً، سالي". قال وهو يشعر بأنه أفضل حالاً مما كان عليه منذ سنوات. "حظاً طيباً".

"أكرهك"، قالت وهي ثملة، عندما أغلق الباب.

بالنسبة لمات، لقد انتهت اللعنة أخيراً. انتهى كل شيء أخيراً.



# 25

تناول مات العشاء مع بيب وأوفيلي في منزلهما، وذلك ليتبادلوا الهدايا قبل ليلة الميلاد. كانتا قد زينتا الشجرة، وأصرت أوفيلي على طهو الإوز له، لأن ذلك كان تقليداً فرنسياً. كانت بيب تكره الإوز لذا كانت ستتناول الهمبرغر، ولكن أوفيلي أرادت أن تقضي ميلاداً لطيفاً معه، فهي لم تره بحالٍ أفضل من هذا أبداً.

كان كل منهما منشغلاً ولم يتحدثا كثيراً في الأسبوع الماضي. لم يكن قد ذكر لها على الإطلاق رؤيته لسالي، ولم يكن متأكداً من أنه سيفعل. ما حدث بينهما ما يزال يبدو أمراً خاصاً به، ولم يكن جاهزاً بعد لإطلاعها عليه. ولكن ذلك حرره دون شك، وبالرغم من أن أوفيلي لم تعلم ماذا حدث، تمكنت من الإحساس بذلك. وكعادته، كان لطيفاً بصورة استثنائية ومهتماً بها جداً.

كانوا يخططون لتبادل الهدايا في تلك الليلة، ولكن بيب لم تتمكن من الانتظار حتى انتهاء العشاء. أصرت على إعطائه هديتها، وطلبت منه أن يفتحها على الفور، عندما هددها أن يبقيها حتى يوم الميلاد.

"لا! الآن!" قفزت للأعلى وللأسفل وهي تصفق بيديها، تراقبه بإثارة وهو يمزق الغلاف، وحالما رأى ما هي، انفجر ضاحكاً. لقد كانت خف بيغ بيرد، وكان رجالياً عملاقاً مزغباً أصفر اللون، وكان على مقاس قدميه تماماً.

"أحبه!" قال وهو يعانقها. ارتداه وبقي كذلك وهو يتناول العشاء. "إنه خف رائع. يمكننا جميعاً انتعال هذه الأخفاف في تاهوي. أنت وأمك تحضران جروفر وإيلمو". وعدت بيب بأن تفعل ذلك، ومن ثم شعرت بالإثارة الشديدة

عندما أعطاها الدراجة الجميلة التي أحضرها لها. ركبتها متجولة بها في غرفة الطعام وغرفة المعيشة، وكادت أن توقع الشجرة، ومن ثم أخرجتها لتركبها في الساحة بينما تنهي أمها طهو العشاء.

"ماذا عنك؟" سأل أوفيلي، وهما يرتشفان كوباً من الشراب. "هل أنت جاهزة لهديتك؟" علم أنها ستكون سلاحاً ذا حدين، وهناك احتمال ضئيل أنها ربما تغضبها، ولكن على المدى البعيد، ستكون مسرورة بها. "أتمنحينني دقيقة من وقتك؟" أومأت وجلسا، عندما كانت بيب في الخارج تجرب دراجتها الجديدة. وكان مات مسروراً لحصوله على دقيقة وحده مع أمها. أعطاها الهدية الملفوفة، ولم تتمكن من تخيل ما هي. كانت في داخل علبة مسطحة كبيرة، ولم تصدر أي صوت عندما هزتها.

"ما هذه؟" سألت، وكانت تبدو متأثرة حتى قبل رؤيتها لها.

"سترين". مزقت الغلاف وفتحت العلبة. كانت ملفوفة ومسطحة، وأخذت تمزق الغطاء بحذر، ومن ثم عند انتهاء آخر جزء من الورق، لهثت وامتلأت عيناها بالدموع على الفور. وضعت يدها على فمها وأغلقت عينيها. كانت صورة تشاد، وبدت مثله تماماً. لقد رسم لوحة له لتناسب تلك التي رسمها لبيب من أجل ذكرى ميلادها. فتحت عينيها ونظرت إليه بعدها، ومن ثم غمرت نفسها في صدره، وبكت.

"أوه، يا إلهي، مات... شكراً لك... شكراً لك..." نظرت إلى اللوحة ثانيةً. كانت أشبه برؤيته ثانيةً، وهو يبتسم لها. جعلها ذلك تدرك ثانيةً مقدار شوقها إليه، وفي الوقت نفسه، وضع بلسماً على الألم. كانت رائعة. "كيف فعلت ذلك؟ تبدو تماماً كتشاد، حتى أن الابتسامة نفسها تماماً.

سحب مات شيئاً من جيبه وسلمها إياه. كانت صورة تشاد ذات الإطار، التي أخذها من غرفة المعيشة عندما فكّر في الأمر في البداية. "أعتذر. أنا مصاب بهوس السرقة". ضحكت عندما رأتها.

"أتعلم، بحثت عنها. لم أتمكن من معرفة أين ذهبت. اعتقدت أن بيب قد





أخذتها، ولم أرغب بإزعاجها بالسؤال. اعتقدت أنها خبأتها في غرفتها، أو في أحد الدروج... ولكني قضيت أسابيع وأنا أبحث عنها". وضعها على الطاولة في غرفة المعيشة من حيث أخذها ليرسم اللوحة وفقها. "مات، كيف يمكنني شكرك؟".

"لا يتوجب عليك ذلك. أحبك، وأريدك أن تكوني سعيدة". كان على وشك قول المزيد، عندما اندفعت بيب عبر الباب، برفقة موس الذي كان ينبح خلفها. كان يركض بجانبها طوال الوقت.

"أحببت دراجتي!" صاحت، وهي ترتطم بالطاولة في الصالة الأمامية، وكادت أن ترتطم بالأخرى ولكنها نجت، ومن ثم أطلقت صرخة التوقف أمامهما وهي تدوس على المكابح. كانت دراجة للبالغين، ومن الواضح أنها أحبتها بشدة. ومن ثم أرتها أوفيلي لوحة تشاد، وصمتت بيب.

"واو... إنها تشبهه كثيراً..." نظرت إلى أمها، وأمسكت يدها وحدقتا بها لوقت طويل. وتلألأت الدموع في أعينهم هم الثلاثة. كانت لحظة حساسة، ومن ثم شمت أوفيلي رائحة كارثة تحدث في المطبخ. لم يطهُ الإوز جيداً وحسب، بل كاد أن يحترق.

"أوف!" قالت بيب عندما قدمته أوفيلي.

تناولوا غداءً لذيذاً وقضوا أمسية رائعة، وانتظرت أوفيلي صعود بيب إلى سريرها قبل أن تقدم هديتها لمات. كانت هدية خاصة، وهامة بالنسبة لها، وتمنت أن يحبها. وكان وجهه، عندما فتحها، متأثراً كوجهها عندما رأت اللوحة. كانت ساعة بريجوت قديمة لوالدها، منذ الخمسينيات. كانت قطعة جميلة، وليس لديها أحد لتعطيه إياها الآن. لا زوج، ولا ابن، ولا أخ. كانت تخبئها لتعطيها لتشاد، لقد أرادت أن يأخذها مات. ارتداها بتبجيل، وكان مسروراً ومتأثراً تماماً كما كانت هي عندما قدّم لها لوحة تشاد.

"لا أعلم ماذا أقول"، قال وهو ينظر إلى ساعته الجميلة، ومن ثم قبلها. "أحبك، أوفيلي"، قال بهدوء. ما قضياه سوياً كان كل شيء يريده، وليس مثل ما

قـضاه مـع سـالي. فهذا هادئ وقوي وحقيقي، شخصان طيبان يتحدان ببطء وبثبات سوية. كان جاهزاً ليفعل أي شيء من أجلها، وهي تعلم ذلك. ولبيب أيضاً. كانت امرأة جيدة، بل امرأة عظيمة حتى، وشعر بأنه محظوظ بشكل لا يـصدق. شـعر بأنه آمن تماماً عندما يكون معها، كما شعرت هي. لا شيء يمكن أن يمسها وهي داخل إطار القوة العظيمة التي يشتركان بها.

"أحبك أيضاً، مات... ميلاد مجيد"، همست ومن ثم قبلته. وفي تلك القبلة، كان كل شيء شعرت به تجاهه، وكل العاطفة التي كانت تقاومها.

تلـك اللـيلة عـندما غـادر، كان يضع ساعة والدها، وتمددت هي في سـريرها تنظـر إلى لوحة تشاد مع ابتسامة على وجهها، والدراجة الحمراء تستند على سرير بيب، حيث تركتها. كان ذلك سحر الميلاد حقاً.

يـوم المـيلاد *الحقيقـي* الذي قضته بيب وأوفيلي كان أكثر صعوبة بكثيـر، ومـؤلماً مـن دون شك. رغم كل الجهود لجعله غير ذلك، تحول ليخص المفقودين أكثر من الموجودين. غياب أندريا كان محسوساً، والغياب المـستمر لتيد وتشاد كان كالاستمرار بمزحة سيئة بدت أنها لا تنتهي. في منتـصف اليوم، أرادت أوفيلي أن ترفع يديها وتصرخ: "حسناً، هذا يكفي! يمكـنكما الخـروج الآن!" ولكنهما لم يفعلا ولن يفعلا أبداً. وشيء مرافق لغيابهما، شعرت بأنها تناضل بإدراكها أن الذكريات التي كانت في السابق مـتعلقة بذهنها عن زواجها أصبحت فاسدة لا يمكن استرجاعها بما حصل مع أندريا، ومع طفلها.

كـان يـوماً صعباً، وشعرتا بالسرور لرؤيته ينتهي. صعدتا إلى سرير أوفيلـي تلك الليلة، والشيء الوحيد الذي أبهجهما هو أنهما ذاهبتان إلى تاهوي لـرؤية مـات وولديه في صباح اليوم التالي. وكما وعدت، جهّزت بيب خفّيْ جروفـر وإيلمـو لتأخذهما معها. وبحلول العاشرة، كانت تغط في نومها بين ذراعـي أمها، أما أوفيلي فتمددت مستيقظة لوقت طويل، تضم ابنتها الصغيرة بالقرب منها.



أصـبحت أيـام العطـل أفضل مما كانت عليه قبل سنة، وعلى الأغلب لأنهما اعتادتا عليها... على حقيقة أن نصف عائلتهم قد رحلت. ولكن بطريقة أخرى، كانت أكثر صعوبة أيضاً، لأنهما بدأتا بالإدراك بأن هذا لن يتغير أبداً. الحياة التي عرفوها واستمتعوا بها في عائلتهم قد انتهت للأبد. يمكن أن تتحسن الأمور ثانيةً يوماً ما، ولكنها لن تكون كما كانت في السابق أبداً. وتفهم أوفيلي، وحتى بيب، ذلك.

لقد ساعدهما الاستماع لمات مرات كثيرة. لم تسمع أوفيلي أي شيء عن أنـدريا، ولـم تكن لديها رغبة في ذلك. فقد خرجت أندريا من حياتهما للأبد. كانت بيب قد تحدثت عنها لمرة واحدة، وعند رؤيتها وجه أمها، لم تذكر الأمر ثانية على الإطلاق. كانت رسالة أوفيلي واضحة وبصوت عالٍ. لم تعد أندريا موجودة في عالمنا.

بيـنما كانت أوفيلي مستلقية في سريرها تفكر، فكّرت أولاً بتيد وتشاد ثـم بمـات. أحبت اللوحة التي رسمها كثيراً، والطريقة التي تعامل بها مع بـيب. لطفـه معهمـا لم يكن له حدود حتى منذ التقائهما به. وتمكّنت من الإحـساس بنفـسها تقع في حبه، وأنها أكثر انجذاباً إليه، ولكنها لم تعلم ما الذي تريده. لم تكن متأكدة من أنها جاهزة لرجل آخر في حياتها، ولا تعلم أنهـا سـتكون كـذلك. ليس فقط لأنها كانت تحب تيد، بل لأنها منذ ذكرى الـشكر، فقـدت كل إيمان بما يعنيه الحب بين شخصين. أصبح ذلك يعني ألمـاً، وخيبة أمل، وخيانة، وضياعاً لكل شيء آمنت ووثقت به من قبل. لا تـريد أن تمر بذلك ثانية، مع أي شخص، مهما بدا مات لطيفاً وودوداً. إنه مـن بنـي البشر، وبني البشر يفعلون أشياء فظيعة لبعضهم، بهيئة وباسم الحب في معظم الأحيان. أن تطلب من أي شخص الإيمان بذلك ثانية، وأن تخاطـر بكل شيء بدا كثيراً عليها تقريباً. لم تعد تثق بأحد، وتعلم بأنها لن تـتمكن من الوثوق بأحد كما فعلت في السابق، حتى ولو كان مات. يستحق أفضل من ذلك، وخاصة بعد ما رآه من سالي.

ولكنها كانت وبيب مفعمتين بالنشاط عند مغادرتهما في اليوم التالي. كانت قد أحضرت السلاسل معها في حال تساقط الثلج وهما على الطريق. ولكن الطرق كانت رائعة طوال الطريق إلى تروكي، وبتوجيهاته تمكنت بسهولة من الوصول إلى وادي سكواي. كان قد استأجر منزلاً رائعاً، بغرفتي نوم إضافيتين لها ولبيب، وثلاثة غرف أخرى له ولولديه.

كانت فانيسا وروبرت يتزلجان في الخارج عندما وصلت أوفيلي وبيب، كان مات ينتظرهما في غرفة الجلوس مع نار مشتعلة، وشوكولاته ساخنة، وطبق من الشطائر لكل منهما. كان منزلاً فاخراً وأنيقاً، وكان يرتدي بنطال تزلج أسود وكنزة رمادية سميكة، وبدا وسيماً وقوياً كعادته. كان رجلاً جميل المظهر، شعرت أوفيلي على الفور بالانجذاب له. كانت معجبة به، ولكنها ما تزال تخشى من القيام بأي شيء حيال ذلك. ما يزال الوقت مبكراً للالتفاف إلى الخلف، رغم أنها تعلم أن ذلك سيخيب أمله بشدة. ولكن خيبة الأمل ربما تكون أفضل لهما من يأس وتدمير لا ينتهي. مخاطر السماح لنفسها بتسليم نفسها له بدت عالية جداً، ومع ذلك، في الوقت نفسه، القيام بذلك أعجبها كثيراً. كانت في صراع دائم تجاهه، وطوال الوقت، شعرت بأنها أكثر قرباً منه. لم تعد تتمكن من تخيل حياتها دونه. ورغم مخاوفها، علمت أنها تحبه.

"هل أحضرت خفي إيلمو وجروفر؟" سأل مات بيب على الفور تقريباً، وأومأت برأسها وضحكت.

"وأنا أيضاً. أحضرت بيغ بيرد معي". وقبل عودة الآخرين، ارتدى الثلاثة أخفافهم، وجلسوا يضحكون أمام الموقد، وقد شغّل الموسيقى. وبعد وقت قصير، دخلت فانيسا وروبرت. كانا جميلين، واستمتعت فانيسا بلقاء أوفيلي وبيب. حصلت الإلفة سريعاً بينها وبين الطفلة، ونظرت بإعجاب خجول إلى أمها. كان هناك رقة في أوفيلي فتنتها، ولطفٌ يمكنك أن تلمسه تقريباً. رأت جميع الأشياء نفسها فيها تماماً مثل مات، قالت ذلك له لاحقاً، عندما كانت تساعده في تحضير العشاء، فيما كانت بيب وأوفيلي في غرفتيهما تفرغان محتويات حقائبهما.



"أفهم لماذا أحببتها، أبي. إنها امرأة طيبة ورائعة حقاً. تبدو حزينة جداً أحياناً، حتى عندما تبتسم. تجعلك ترغب بمعانقتها". حدث الشيء نفسه معه. "وأحب بيب. إنها لطيفة جداً!".

بحلول المساء أصبحت الفتاتان صديقتين، وقامت فانيسا بدعوة بيب للنوم في غرفتها، وكانت بيب متحمسة لذلك. رأت أن فانيسا رائعة، وجميلة حقاً، ولطيفة بشدة، وقالت ذلك لوالدتها عندما ارتدت بيجامتها. وبعد ذهاب الأولاد إلى السرير، جلس مات وأوفيلي بالقرب من النار لساعات، حتى لم يبقَ شيء سوى الجمر المتوهج. تحدثا عن الموسيقى والفن، والسياسة في فرنسا، وأولادهما وآبائهما، ولوحاته وأحلامهما. تحدثا عن أشخاص يعرفانهما، وكلاب امتلكاها وهما صغيران. في عملية التعرف على بعضهما البعض بشكل أفضل، لم يتركا شيئاً دون التحدث عنه، وأرادا معرفة كل شيء عن بعضهما. وقبل أن يذهب كل منهما إلى غرفة نومه الخاصة، قبلها، واستغرقا وقتاً طويلاً ليتركا بعضهما. الأمور التي عرفاها عن بعضهما أصبحت قوة جبارة بينهما.

في الصباح التالي، غادر الخمسة المنزل سويةً، ووقفوا في الصف ليستقلوا المصاعد. أراد روبرت التزلج مع بعض الأصدقاء من الجامعة التقى بهم صدفة، وانطلقت فانيسا مع بيب، وعرض مات أن يبقى مع أوفيلي.

"لا أريد تعطيلك"، قالت بحذر، وهي ترتدي بذلة تزلج سوداء اللون كانت تمتلكها منذ سنوات، ولكنها بدت بسيطة وأنيقة عليها. ارتدتها مع قبعة فرو كبيرة، وبدت فاتنة جداً بنظره. ولكنها أصرت على أن مهاراتها على المنحدرات لم تكن متناسبة مع بذلة التزلج.

"صدقيني، لن تعطليني"، طمأنها. "لم أتزلج منذ خمس سنوات. صعدت إلى هنا من أجل الولدين. وستصنعين لي معروفاً، فربما يتوجب عليك إنقاذي". ولكن كما اتضح فيما بعد، كانا بنفس المستوى تقريباً، واستمتعا بصباح من التزلج الرائع على المنحدرات المتوسطة. كان كلاهما يفضلانها، وبحلول وقت الغداء، كانا ينتظران الأولاد في المطعم، وقد وصلوا بعد دقائق، بوجه أحمر

اللون ومفعمين بالنشاط. بدت بيب مبتهجة بشدة، وهي تخلع قبعتها وقفّازيها. كانت تستمتع بوقتها كثيراً، وبدت فانيسا سعيدة هي أيضاً. كانت قد التقت ببعض الصبية الظرفاء، وتبعوها على المنحدرات. ولكن على الأغلب، اعتقدت فقط أن ذلك للمتعة وحسب. لم تبدُ أنها فاقدة للسيطرة، أو متهورة، على عكس أمها عندما كانت في نفس عمرها.

تزلج الأولاد طوال فترة ما بعد الظهر، واستمتع مات وأوفيلي بجولة طويلة واحدة. وعندما بدأ الثلج يتساقط، عادا إلى المنزل. أشعل مات النار وشغّل الموسيقى، وصنعت أوفيلي لها وله شراباً ساخناً. جلسا على الأريكة بصحبة كومة من المجلات والكتب، وكانا ينظران لبعضهما ويبتسمان بين الحين والآخر. كانت أوفيلي مندهشة من سهولة المكوث معه. كان تيد أكثر صعوبة وتطلباً بكثير، ويقلق ويجادل بكل شيء تقريباً. أخبرت مات بتلك الاختلافات. علاقتهما كانت مزيجاً من الراحة، والشغف المختبئ قليلاً، والعواطف العميقة. وبالإضافة لذلك، كانا صديقين حميمين.

"أحب ذلك أيضاً"، قال بسهولة، وقرر إخبارها عن آخر مرة التقى بها مع سالي.

"لم تشعر بأي شيء تجاهها؟" سألت أوفيلي وهي تأخذ رشفة من الشراب الساخن وهي تراقبه لترى أية إشارات لذلك. كانت قلقة بشأن سالي لفترة، وخاصة منذ أن أصبحت أرملة.

"أقل بكثير مما توقعت، أو مما خشيت أن أكون عليه. خشيت أن يتوجب عليّ إبعادها، من رأسي على الأقل. ولكن الأمر لم يكن كذلك. بدا حزيناً ومضحكاً، مثل كل شيء كان دائماً خاطئاً بيننا. كل ما أرادته هو المناورة معي للحصول على ما تريده، وبدلاً عن الوقوع في حبها، شعرت بالأسف عليها. إنها امرأة حزينة جداً. بغض النظر عن أن زوجها الذي عاشت معه مدة عشر سنوات تقريباً قد توفي منذ أقل من شهر. الوفاء ليس من شيمها على الإطلاق".



"لا أعتقد ذلك". كانت أوفيلي مصدومة بعض الشيء من وقاحة ما فعلته، بعد كل الألم الذي سببته له. ولكن لم يبدُ أنها تشعر بالذنب. الأهم من ذلك، شعرت أوفيلي بالارتياح. "لماذا لم تخبرني أنك شاهدتها؟" أخبرها الكثير عن حياته فبدا غريباً أنه لم يفعل.

"اعتقدت أنني احتجت لأصل إلى قرار بعد ما حدث. ولكني خرجت من تلك الغرفة رجلاً حراً، لأول مرة منذ عشر سنوات. الذهاب لرؤيتها كان واحداً من أفضل الأشياء التي فعلتها في حياتي". بدا مسروراً بنفسه، وهو ينظر إلى أوفيلي، التي كانت تبتسم له.

"أنا مسرورة لأجلك"، قالت أوفيلي بهدوء، متمنيةً أن تتبدد مشاعرها الشخصية عن زواجها هي أيضاً. ولكن لا يوجد أحد تراه، أو تتحدث معه، أو تلومه، أو تتشاجر معه، أو تتبعه، أو يشرح لها لماذا حدث ذلك. الحل الوحيد هو أن تبدد الأمر بنفسها، بمرور الوقت، بمفردها وبصمت.

عندما عاد الأولاد إلى المنزل بعد التزلج، طهت أوفيلي العشاء تلك الليلة، ومن ثم جلس الجميع يروون القصص حول الموقد. تحدثت فانيسا عن رفاقها الكُثر في أوكلاند، بينما نظرت بيب إليها بإعجاب، وسخر روبرت من الاثنتين ممازحاً. كان مشهداً عائلياً مريحاً أثّر في قلب الكبار. كان ذلك ما اشتاق إليه مات، إلى السنين التي رحلا عنه فيها، وما تشتاق إليه أوفيلي كثيراً الآن بغياب تيد وتشاد. كان هناك كمال يحيط بالأمر، وظروف سوية تنشأ من كونهما شخصين بالغين، محاطين بثلاثة أولاد، يضحكون ويجلسون حول المدفئة. ذلك ما لم يمتلكه أي منهما بصورة حقيقية في حياتهما السابقة، ولكن كان هذا ما رغبا به دائماً.

"لطيف، أليس كذلك؟" ابتسم مات لها، عندما تقابلا في المطبخ، عندما كانت تضع بعض البسكويت على الطبق من أجل الأولاد، فيما كان يصب له ولها كوباً من الشراب.

"لطيف جداً"، قالت مبتسمة له. بجميع معايير العالم، وحتى معاييرهما،

كـان حلماً قد تحقق. كل ما أراده مات هو أن يستمر ذلك للأبد. علم أن لديها قـضايا تـشغلها، ومخاوف تتغلب عليها، تماماً كما كان لديه، ولكنه أراد من نفسه ومنها الوصول إلى قرارات متشابهة والالتقاء سويةً في النهاية. ومع ذلك إنه دائم الاحتراس معها. يعلم كم هي خائفة، أكثر من أي شخص آخر. ولأنه يعلم، أو على الأقل كما تعلم هي، ماذا فعل تيد. كان الأمر سيئاً لدرجة كبيرة، وكأنه قد وضع بلاءً عليها أو لعنها، أو حكم عليها بأن تفقد الثقة طيلة ما تبقى مـن حـياتها. ولا أحـد يعلم أفضل من مات ما الذي تعنيه اللعنة. ولكن على الأقل، تحرّرا منها في هذه الأثناء، في عالمهما الصغير الآمن في تاهوي.

خـرجوا إلـى مطعم مجاور لتناول العشاء في يوم رأس السنة الجديدة، ومـن ثـم توقفـوا في فندق لمشاهدة المهرجانات هناك. ارتدى الناس ملابس تـزلج، وسترات كبيرة لامعة، والقليلون فقط، مثل أوفيلي، ارتدوا الفرو. بدت أنـيقة جداً في البذلة السوداء المخملية، مع سترة سوداء من جلد الثعلب فوقها، وقبعة متناسبة معها.

"تـبدين كالقطر، أمي". قالت بيب لوالدتها بنظرة مستنكرة. ولكن فانيسا أطلقـت على ملابس أوفيلي صفة الامتياز. كانت أوفيلي سترتدي نفس الثياب على أي حال. فهي لم تكن لتقبل بنصيحة بيب بشأن الملابس المحافظة، ولكن مـات أحب المظهر الذي بدت عليه. مهما ارتدت، أو مهما تحدثت الإنكليزية بشكل جيد، دائماً تبدو أوفيلي فرنسية. فهي إما أن ترتدي وشاحاً أو زوجاً من الأقراط، أو قبعة هرميز قديمة مع شريط يتدلى على كتفيها، والتي امتلكتها منذ أن كانت في التاسعة عشر من عمرها. ولكن الملابس والقطع التي تخرجها من خزائنها، والطريقة التي ترتديها بها، تفضح جنسيتها.

بالنظـر إلـى جـذورها، والمناخ حولها، سمحت لبيب بتناول كوب من الشراب في تلك الليلة فهي ليلة رأس السنة الجديدة. وفعل مات الشيء نفسه مع فانيـسا، ورغم أن روبرت لم يكن في سن قانوني يسمح له بالشرب، وبما أنه لـن يقود السيارة هو، عرض مات على ابنه بعض الشراب الفرنسي. بدا أنه



يتدبر الأمر بشكل جيد، وكان والده متأكداً، سواء كان قانونياً أم لا، من أن ابنه قد تناول الشراب في ستانفورد تماماً كالآخرين. كان رجلاً شاباً عقلانياً.

كانـوا فـي بـناء الفندق الرئيسي عندما أعلنت الساعة بضرباتها حلول منتصف الليل، وقبّل الجميع بعضهم البعض، على النمط الفرنسي بقبلات على كـلا الخـدين، وتمنوا لبعضهم سنة جديدة سعيدة. وبعد عودتهم إلى المنزل، وذهاب الأولاد إلى أسرتهم بعد ساعة، قبلها مات بعاطفة أكثر. كانا بمفردهما في غرفة الجلوس عندها، تعانقا أمام النار الخامدة، ولكن الغرفة كانت ما تزال دافئة. كانت أمسية لطيفة، وخاصة للأولاد، ولقد بدا أنهم يتصادقون بشكل جيد جـداً، وكـذلك هما. لم يشعر مات أبداً في حياته بمثل هذه السعادة، وشعرت أوفيلـي بالاطمئـنان بصورة ملحوظة. رغم كل شيء مرت به خلال الأشهر الماضية، وحتى في السنة الماضية، شعرت بأن الأعباء المتبقية عليها منذ فترة طويلة تتلاشى ببطء، واحدة تلو الأخرى.

"هـل أنـت سعيدة؟" سألها مات وهو يعانقها. كانا يتهامسان في الغرفة المظلمة، المضاءة بالنار فقط، وكانا متأكدين من أن الأولاد يغطون في النوم. كانـت بيب مرة أخرى في غرفة فانيسا. أصبحت الاثنتان صديقتين حميمتين. واعتبـرت بـيب الفتاة الأكبر سناً كأختها الكبرى التي تمنت أن تكون لها. أما فانيـسا فكان إخوتها الأكبر والأصغر منها سناً، صبية، فكان ذلك تغييراً لطيفاً لها.

"سـعيدة جـداً"، أجابت أوفيلي بلطف. كانت دائماً تشعر بالسعادة معه. شـعرت بأنها محمية، وآمنة، ومحبوبة في عالمه. راودها إحساس بأن أذى لن يـصيبها طالمـا هي معه. وكل ما أراده هو حمايتها، وأن يكون درعها ضد جميع الآلام التي مرت بها، ويضع البلسم على جروحها الكثيرة. وهو لم يتثبّط عن ذلك المفهوم أبداً.

قـبلها ثانـيةً، وبدأا بلطف وهدوء باكتشاف بعضهما أكثر مما فعلاه في السابق. وبينما شعرت بيديه تتحركان ببطء فوقها، أدركت كم تتوق إليه. وكأن

كل شيء يخصها كامرأة قد مات في الأربعة عشر شهراً الماضية، منذ وفاة تيد، كان يحيى ثانيةً الآن ببطء بين يدي مات. كان ممتلئاً بالشهوة لها. جلسا سويةً لوقت طويل، ومن ثم تمددا على الأريكة، وجسداهما وأطرافهما تتداخل مع بعضها، حتى همس لها أخيراً:

"سنوقع أنفسنا في المشاكل إن بقينا هنا لوقت أطول". قهقهت مجيبة، وهي تشعر وكأنها فتاة صغيرة ثانيةً لأول مرة منذ سنوات. استخدم كل الشجاعة التي يمتلكها ليسألها السؤال التالي، ولكن التوقيت بدا صحيحاً، أخيراً، لكل منهما. "هل تريدين المجيء إلى غرفتي؟" همس في أذنها، وأومأت بالإيجاب، وكاد قلبه أن ينفطر من الراحة. أراد هذا منذ وقت طويل، أكثر مما كان يتجرأ ليعترف لنفسه بذلك حتى.

نهض كل منهما، وأمسك يدها، وقادها إلى غرفته، مشيا على رؤوس أصابعهما بصمت. كانت أوفيلي تضحك تقريباً، فهذا شيء مضحك جداً وهما يختبئان من الأولاد، ولكن الجميع في المنزل كان نائماً. وحال وصولهما إلى غرفة مات، أغلق الباب خلفهما وأقفله، ومن ثم حملها بيديه ومشى بها إلى سريره، حيث أجلسها هناك بلطف. وبعد لحظة، كان يتمدد بجانبها.

"أحبك كثيراً، أوفيلي"، همس لها، والقمر يرسل ضوءه إلى الغرفة. كان الجو مريحاً ودافئاً وهما يقبلان بعضهما ويخلعان ملابسهما، وبعد ثوانٍ، كانا تحت الغطاء. وبلطف شديد، اقترب منها. أحس بها ترتجف بقربه، وكل ما أراده هو جعلها سعيدة ومرتاحة.

"أحبك، مات"، همست له، وتمكن من سماع الذعر في صوتها. تمكن من الإحساس بمقدار خوفها، ولوقت طويل، عانقها بالقرب منه، يشدها نحوه. "حسناً، حبيبتي... أنتِ بأمانٍ معي... لن يصيبك أي مكروه، أعدك...".

تمكن من الإحساس بالدموع على خديها وهو يقبلها، وهمست له، "أنا خائفة جداً، مات...".



"أرجوك لا تكوني كذلك... أحبك كثيراً... لن أؤذيك أبداً. أعدك". صدقته، ولكنها لم تعد تصدق الحياة. فالحياة ستؤذيهما، إن سنحت لها الفرصة. أشياء مروعة يمكن أن تحدث إن سمحت لحارسها بالدخول إلى عالمها بالكامل. ستفقده، أو سيخونها، أو سيتركها، أو سيموت. لا شيء مضمون بعد الآن، علمت ذلك. لا يمكنها الوثوق بأي أحد أو أي شيء، حتى هو. ليس لهذه الدرجة. أدركت حينها أنها غبية لأنها فكّرت أن بإمكانها القيام بهذا.

"مات، لا يمكنني..." قالت بصوت مليء بالكرب. "أنا خائفة جداً". لم تتمكن من مطارحته الغرام، لم تتمكن من السماح له بالوصول إلى هذه الدرجة منها. كان من المخيف جداً أن تهتم لهذا الحدّ، وحالما ستسمح له بالدخول إلى حياتها، ولجسدها، ولقلبها لا شيء سيكون آمناً بعد ذلك. سيمتلكها بأكملها، والأرواح الشريرة التي تفسد حياة الناس ستمتلكهما.

"أحبك"، قال بهدوء. "يمكننا الانتظار... لا حاجة للعجلة... لن أذهب إلى أي مكان. لن أتركك، أو أؤذيك، أو أخيفك... لا بأس... أحبك". أظهر معنى الكلمة كما لم يفعل رجل آخر قبله، ولا حتى تيد. أقلهم كان تيد. شعرت بالفظاعة لأنها أصابت مات بخيبة الأمل. ولكنها علمت بأنها ليست جاهزة بعد، ولا تعلم الآن إن كانت ستكون كذلك لاحقاً. من المستحيل معرفة ذلك. كل ما عرفته أنه ليس بإمكانها الآن. وكان قادراً على انتظارها.

عانقها بين ذراعيه لوقت طويل تلك الليلة، شاعراً بجسدها الرشيق بجانبه، وشعر بالتوق إليها، ولكنه كان شاكراً لما فعلاه. وإن كان ذلك كل ما يمكنهما فعله حتى الآن، فهذا يكفي. كان ضوء الفجر ينبثق عندما استيقظت، وارتدت ملابسها ثانيةً. كانت قد غفت بالقرب منه، وعانقها طوال الليل. حتى أنها لم تشعر بالحرج لكونها عارية بالقرب منه. أرادته، ولكن ليس بما يكفي.

قبلها قبل أن تغادر الغرفة، وعادت إلى سريرها ونامت. نامت نوماً متقطعاً لساعتين، عندما استيقظت أخيراً، وقد شعرت بعبء مألوف على صدرها. ولكنه مختلف هذه المرة. ليس من أجل تشاد أو تيد، ولكن من أجل

ما لم تكن قادرة على فعله الليلة السابقة. شعرت وكأنها قد خدعته، وكرهت نفسها لأنها خيّبت أمله. أخذت حماماً، وارتدت ملابسها، وهي تشعر بالتلهف لرؤيته، ولكن حالما فعلت، علمت بأن الأمور بخير. ابتسم بوجهها من الجهة الأخرى للغرفة، وأتى ليضع يده حولها ليطمئنها. كان رجلاً لا يصدق، بطريقة غريبة، شعرت وكأنها قد طارحته الغرام حقاً. شعرت براحة أكبر الآن مما كانت عليه من قبل. وشعرت بالغباء لإصابتها بالذعر، ومع ذلك، كانت ممتنة له لانتظارها.

تزلجا سويةً في اليوم الأول من السنة الجديدة دون التحدث عن الليلة السابقة على الإطلاق. تزلجا وتحدثا، واستمتعا سويةً، وأمضيا الليلة الأخيرة يتناولان العشاء مع الأولاد. ففانيسا ستعود إلى أوكلاند في اليوم التالي، وهذا ما أصاب مات بالغم، ولكن مات سيسافر إليها في الشهر التالي لرؤيتها. بيب وأوفيلي ستعودان إلى المنزل في الصباح التالي، وفي اليوم الذي يلي ذلك، ستعود بيب إلى المدرسة. أما روبرت فلديه أسبوعان من العطلة، وسيسافر إلى هيفينلي ليتزلج مع أصدقائه. وسيعود مات إلى الشاطئ. لقد انتهت العطلة، ولكنه كان أسبوعاً رائعاً. لم يتغير شيء بين مات وأوفيلي، ولكنهما علما أنهما ليسا على عجلة. وعلمت دون شك، أنه إن ضغط عليها، أو أجبرها، أو غضب منها، فسيتلاشى حتى الأمل بالحب بينهما. ولكن مات كان أكثر حكمة من ذلك، ويحبها كثيراً. غادرا بعضهما في الصباح التالي دون أية وعود، ودون تأكيدات، فقط الحب والأمل. كان ذلك أكثر بكثير مما امتلكه أيٌ منهما عندما التقيا، وكان كافياً لكل منهما الآن.



# 26

جاء مات لرؤية أوفيلي وبيب بعدما أوصل فانيسا إلى المطار للذهاب إلى أوكلاند. كان حزيناً بعد مغادرتها، وكان يتوق لكوب من الشاي قبل عودته إلى حياته المنعزلة على الشاطئ. أدرك الآن أكثر من قبل أن الحياة التي اشتركوا بها جميعاً في الأسبوع الماضي هي ما يريد. لقد تعب من وحدته. ولكن في هذه الأثناء، ليس لديه خيار آخر. لم تكن أوفيلي جاهزة لأكثر مما كانوا عليه، لقد كانت صادقة بوعدها بالحب والعاطفة في المستقبل. من المستحيل أن تكون جاهزة الآن. وليس لديه أي خيار آخر سوى الانتظار ومعرفة ما الذي سيحدث بينهما، إن كان سيحدث شيء. وإن لم يحدث، لن تكون قادرة على الحصول عليه أبداً، وعندها على الأقل يمكنه أن يكون صديقاً لها ولبيب. علم بأن ذلك احتمال ممكن أيضاً، فلا توجد ضمانات في هذه الحياة. وكلاهما امتلك أدلة وافرة على ذلك.

لقد سُرّ وهو يدخل المنزل لرؤيته اللوحتين اللتين رسمهما لبيب ولتشاد معلقتين في غرفة الجلوس في مكان رائع.

"تبدوان جميلتين، أليس كذلك؟" ابتسمت بفخر وشكرته ثانيةً. "كيف كانت فانيسا قبل أن تغادر؟" لقد أغرمت أوفيلي بالولدين كثيراً كما كان والدهما مغرماً بهما تماماً، كانا طيبين، بسلوك رائع، وقلب طيب، وقيم جيدة. لقد أحبتهما بصدق.

"كانت فانيسا حزينة عندما غادرت"، أجاب على سؤال أوفيلي، وتوجب عليه مقاومة ذكريات تلك الليلة التي قضاها مع أوفيلي عارية في السرير.

تمنى لو كانت قادرة على الوثوق به، ولم يتمكن سوى من التمني أن تصبح كذلك لاحقاً، إن حالفهما الحظ. "سأراها بعد أسابيع قليلة. لقد أحببتكِ أنت وبيب".

"نحن أحببناها أيضاً"، قالت بلطف. وعندما صعدت بيب للأعلى للقيام بواجباتها، نظرت إلى مات بحزن. "أنا متأسفة لما حدث في تاهوي". كانت تلك أول مرة يذكرها أيٌّ منهما. لم يرد إحراجها بذكر الموقف، ولا الضغط عليها. اعتقد أنه من الأفضل أن يترك الأمر دون التكلم عنه. "لم يتوجب عليّ فعل هذا. بالفرنسية، أولومو. أعتقد أن هناك بديلاً لها بالإنكليزية. ولكن ذلك لم يكن جيداً. لم أكن أحاول الاستهزاء بك، أو خداعك. إن كان هناك شيء، فأنا من خدعت نفسي. اعتقدت أني جاهزة، ولكني لم أكن كذلك".

لم يرغب بالتكلم معها حول الأمر، فكان يخشى أنه إن فعل ذلك سيضغط عليها لتتخذ قرارات نهائية. ولم يرغب بإغلاق أية أبواب بينهما. أراد أن يتركها مفتوحة على مصراعيها، وأن يمنحها الفرصة لتدخل منها عندما تصبح جاهزة. ومتى حدث ذلك، إن حدث، سيكون بانتظارها. أما في هذه الأثناء، فكل ما يمكنه فعله هو حبها بأفضل ما لديه، حتى ولو كانت العلاقة محدودة. "لم تخدعي أحداً، أوفيلي. إن الوقت شيء مضحك. لا يمكنك تحديده، أو شراؤه، أو التوقع بتأثيره على الأشخاص. البعض يحتاج إلى المزيد، والبعض إلى الأقل. خذي وقتك كيفما شئت".

"وإن لم أتمكن من الوصول إلى هناك على الإطلاق؟" سألته بحزن. كانت تخشى من ألا تفعل. عمق مخاوفها، والشلل الذي سببته، قد أخافاها كثيراً.

"إن لم تتمكني من الوصول أبداً، سأظل أحبك على أية حال"، طمأنها، وهذا كل ما كانت بحاجة لسماعه. وكما يحدث دائماً، جعلها تشعر بالأمان، دون أي إلحاح أو عجلة. البقاء مع مات كان دائماً كالمشي على الشاطئ بأمان



ولوقت طويل. لقد أراح روحها. "لا تعذبي نفسك. لديك أشياء أخرى تكفيك لتقلقي بشأنها. لا تزيدي ذلك إلى قائمتك. أنا بخير". ابتسم لها، وانحنى عبر الطاولة وقبلها من شفتيها، ولم تقاوم. بل رحبت بذلك، في الحقيقة. لقد أحبته من أعماق قلبها، ولكنها لم تعلم ماذا تفعل بذلك بعد. إن أحبت أي شخص، وسمحت لنفسها بالعيش ثانيةً، فتعلم أنه سيكون مات. ولكنها تدرك احتمال أن يكون تيد قد أنهى حياتها كامرأة للأبد. لا يستحق أن يمتلك تلك القوة ضدها، ولكن بقدر ما تكره الاعتراف بذلك لنفسها، إلا أنها ما تزال تفعل. لقد دمر جزءاً كبيراً منها لم تعد تتمكن من إيجاده أو استرجاعه. كجورب صغير قد ضاع. ولكن الجورب ذاك كان ممتلئاً بالحب والثقة. وليس لديها أية فكرة عن مكان وجوده. لقد رحل، كما يبدو. كان تيد قد ألقاه بعيداً. حتى أنه لم يأخذه معه. ظلت تتساءل ماذا كانت تعني له، وإن كان يحبها قبل أن يموت... أو طوال حياته. ولن تعرف الإجابة أبداً. كل ما تبقى لها الآن هو الأسئلة.

"ماذا ستفعلين الليلة؟" سألها مات قبل أن يغادر.

بدأت بإخباره، ومن ثم ترددت عندما التقت عيناهما. من النظرة التي على وجهها، عرف، وكره ما عرفه.

"الفريق الخارجي؟".

"نعم"، قالت وهي تضع الأكواب في المغسلة. لم ترغب بالتجادل معه حول الأمر.

"يا إلهي، أتمنى أن تتوقفي عن فعل ذلك. لا أعلم ما الذي سيجعلك تقتنعين. في يوم من الأيام، سيحدث شيء مريع، أوفيلي. أتمنى ألا يحدث لك. لقد كانوا محظوظين، ولكن لن يكونوا كذلك للأبد. احتمال تعرضك للخطر كبير جداً، وكذلك هم. تخرجين معهم ليلتين في الأسبوع. عاجلاً أم آجلاً، هناك احتمال لتعرضك للإصابة، إن لم يحدث شيء آخر".

"سأكون بخير"، حاولت طمأنته، ولكن كالعادة، لم يكن مقتنعاً.

غادر في الساعة الخامسة، وبعد عدة دقائق، جاءت أليس لتجلس مع

بيب. أصبح ذلك روتيناً. فقد مضى على أوفيلي وهي تفعل ذلك منذ شهر أيلول، وشعرت بالثقة التامة حيال الأمر، على نقيض مات، الذي كان يتوقع على الدوام كارثة. ولكن أوفيلي لم توافقه على ذلك. فهي تعرف الفريق جيداً، وكم هي مقدرتهم. فهم حذرون ومدركون على الدوام. إنهم رعاة البقر، كما يطلقون على أنفسهم، ولكن رعاة البقر الذين يعرفون طريقهم في الشوارع، ويحمون ظهورهم، وظهرها. ولقد ازدادت مهارتها فيما تفعله. لم تعد جاهلة في أمور الشوارع.

بحلول الساعة السابعة، كانت في الشاحنة، التي يقودها بوب، وكان جيف وميلي في الأخرى. كانوا قد أضافوا المزيد من المعدات، وعدداً من الأطعمة، والمزيد من المعدات الطبية، والملابس، والواقيات الذكرية، كان هناك تاجر جملة يمنحهم السترات دائماً. تم تحميل الشاحنات تلك الليلة، وكانت ليلة باردة بشدة. أخبرها بوب بابتسامة أنه كان يتوجب عليها ارتداء ملابس ذات أكمام طويلة.

"كيف الأحوال معك؟" ثرثرا بلطف كما يفعلان دائماً. "كيف كان الميلاد؟".

"جيد جداً. كان اليوم صعباً". لقد مرّ كل منهما به، وأومأ بالإيجاب. "ولكننا ذهبنا إلى تاهوي في اليوم التالي. ذهبنا للتزلج مع الأصدقاء. كان ذلك ممتعاً".

"جيد، ذهبنا إلى ألبين السنة الماضية أيضاً. كان عليّ شراء الملابس للأطفال هذه السنة. فهذا شيء مكلف". جعلها ذلك تدرك كم هي محظوظة لأنها لا تقلق بشأن هذه الأمور. أما هو فلديه ثلاثة أفواه يطعمها والقليل من المال فقط. ولكنه فعل كل شيء يمكنه من أجل أطفاله. "ما أحوال الحب، بالمناسبة؟" فهما يشتركان بالكثير، ويجوبان الشوارع طوال الليل، ولديهما أطفال وحياة الترمل مشتركة بينهما. إنهما يتبادلان الكثير من النصائح والمعلومات، ويتحدثان أكثر مما لو كانا في مكتب. فهذا ليس بعمل مكتبي.



"أي حب؟" بدت ساذجة، فدفعها مازحاً.

"لا تتظاهري بذلك، أيتها المخادعة. قبل عدة أشهر كان لديك وميض في عينيك. وكأن كيوبيد قد رماك في قلبك... ماذا حدث؟" أعجب بها. كانت امرأة جيدة وقلبها رائع، ومما رآه أثناء عمله معها في الشوارع، فقد كانت تمتلك الكثير من الصفات، كما يقول لجيف عادةً. كانت لا تخشى أي شيء تقريباً. ولم تتراجع أبداً، أو تتردد، كانت تأخذ مكانها، ليلة بعد ليلة، كل أسبوع، تساعد الآخرين. وأحبها الثلاثة. "إذاً ما أخبار الحب؟" أصرّ على سؤاله. فأمامهما وقت يثرثران فيه وهما يتجهان نحو ميشن.

"كنت خائفة. لقد بدوت غبية، على ما أعتقد. إنه رجل رائع، أحبه كثيراً، ولكن لا يمكنني ذلك، بوب. أو ليس بعد على الأقل. أعتقد أن الكثير قد حصل". لم يكن هناك فائدة من الشرح له عن تيد وعن ابن أندريا، أو عن الأشياء المريعة التي قالتها عن أوفيلي وعن تشاد في رسالتها، الشيء الذي أوحى أن تيد متفق معها، وأن أوفيلي غير كفوءة وقد تعاملت مع طفلها المريض عقلياً بشكل رديء وكانت السبب لمشاكله. إن القباحة المطلقة للأمر ما تزال تقتلها. حتى أنها سألت نفسها إن كانت أندريا تقول الحقيقة، وبأنها كانت السبب في تفاقم مشاكل تشاد. حتى ولو أنها كانت تتلاعب بتيد، هناك شيء حقيقي ربما في الأمر. لقد عذبت نفسها بلا توقف بسبب تلك الرسالة، ومن ثم أحرقتها في النهاية، لكي لا تعثر عليها بيب أبداً وتقرأها، كما فعلت.

"أعلم، حدث الكثير من الأمور القذرة لي أيضاً، عندما توفيت زوجتي. من الصعب تصديق ذلك الآن، ولكن المرء يتغلب على الأمر، بما يكفي ليسترجع حياته. وبالمناسبة". حاول أن يبدو لا مبالياً وهو ينظر عبر النافذة إلى الخارج وليس إلى 'أوبي' كما يسميها الجميع، والذي أصبحت تحبه. "سأتزوج". ألقى بالقنبلة، وهتفت عندما سمعتها.

"جيد! هذا رائع. ما رأي أطفالك؟".

"إنهـم يحـبونها... ومعجبون بها... كما فعلوا دائماً". علمت أوفيلي أن خطيبـته هـي صديقة زوجته المفضلة، القصة التي بدت شائعة بين الأرامل. يتزوجون أخوات زوجاتهم أو صديقاتهن المفضلات عند رحيلهن.

"متى؟" كانت أوفيلي مسرورة له.

"أوه، لا أعلم... لم تتزوج من قبل، لذلك تريد أن تجعل الأمر كبيراً. أنا أريد فقط الذهاب إلى المدينة والانتهاء من الأمر".

"لا تكن من أولئك المفسدين للبهجة. استمتع بالأمر. على أمل ألا تتزوج مرة أخرى".

"نعم، آمل ذلك. إنها امرأة جيدة، وهي صديقتها المفضلة".

"هـذه أفضل طريقة". كالطريقة التي تقوم بها مع مات. كان محزناً جداً ألا تـتمكن مـن التغلب على مخاوفها لإقامة علاقة حقيقية معه. كادت تحسد بـوب. ولكن زوجته قد رحلت منذ وقت أطول من رحيل تيد. ربما يوماً ما، كما تأمل، يمكنها إلقاء مخاوفها في الرياح، وتقوم بالأمر.

جابوا أطراف ميشن بعد ذلك، وأخذوا استراحتهم في هانترز بوينت ولم يواجهوا أية مشكلة على الإطلاق. ذكّرها ذلك بأن مخاوف مات لا أساس لها. كانـت مرتاحة بالكامل، وتمزح مع ميلي وجيف عندما توقفوا لاحتساء القهوة الساخنة ولتناول شيء من الطعام. كان الطقس صقيعاً في الخارج، وكان الناس فـي الـشوارع في حالة يرثى لها، وكانوا يشكرونهم على كل شيء يمنحونهم إياه.

"يا رجل، إنها ليلة باررررددة"، قال بوب وهم ينطلقون ثانيةً. انتهوا من أرصفة التحميل، ومن السكك الحديدية، والطرق التحتية، والأزقة الخلفية، كما يفعلـون دائماً. عملوا على الشوارع ذات الأرقام ثلاثة وأربعة وخمسة وستة، رغـم أن بـوب لم يكن يحبها أبداً. كثير من صفقات المخدرات تحدث هناك، وسيشعر الأشخاص بالتهديد بوجودهم، ويعتقدون أنه من الممكن أن يتدخلوا. لم تكـن مقاطعـة الأعمـال فكرة جيدة في الشوارع. الأشخاص الذين يحاولون



الوصول إليهم هم أولئك الذين يحاولون وببساطة البقاء على قيد الحياة، وليس أولئك المفترسين. يمكن للإشارات أن تختلط أحياناً. ولكن جيف أحب المنطقة، وكـان محقـاً أحياناً، فهناك أعداد هائلة من المشردين المستلقين في المداخل والأزقـة، تحـت المزق والمعدات البالية، وفي العلب التي أطلقوا عليها اسم *مأوى المشردين*.

دخلـوا زقاقـاً يدعـى جيسي بين الشارع الخامس والسادس، لأن ميلي أخبرت جيف أنها رأت زوجاً من الأشخاص في نهايته، وقفز كل منهما خارج الـشاحنة. انتظر بوب وأوفيلي، وعندما رأيا مجموعة صغيرة من الأشخاص أمامهمـا، اعتقدا بأن الأخرين يمكنهما تدبر أمورهما، ولكن جيف أشار إليهما بأنه يريد بعض أكياس النوم والمعاطف، والتي كانت موجودة في شاحنة بوب وأوفيلي. فقفزت هي أولاً.

"سأحـضرها"، صاحت، وتردد بوب، ولكنها تحركت بسرعة، كانت في منتـصف طريقها في الزقاق مع الأكياس والمعاطف بين يديها قبل أن يتمكن بوب من الخروج.

"انتظـري!" صـاح بها، وتبعها، ولكن الزقاق بدا خالياً من الأشخاص، باسـتثناء مجموعة مشردين في آخر الشارع. كان جيف وميلي قد وصلا إلى هناك مسبقاً، وكادت أوفيلي أن تصل إليهما عندما أوقفها رجل نحيل طويل من أحـد المـداخل وأمـسك بها. رآه بوب يمسكها، وبدأ يركض باتجاههما. كان الـرجل يمسك بأوفيلي من إحدى يديها، ولكن الغريب أنها لم تكن خائفة. وكما تعلمت أن تفعل غريزياً، نظرت إليه في عينيه مباشرة، وابتسمت له.

"هل تريد كيس نوم أو معطف؟" تمكنت من معرفة أنه قد تناول شيئاً ما، ربما مخدر سبيد، أو كريستال ميث، ولكن تحديقها الثابت به أوصل له الرسالة بأنها ليست خائفة منه، ولا تنوي الإضرار به.

"لا عزيزتي، لا أريد. ماذا لديك غيرهما؟ هل لديك أي شيء أريده؟" كان للرجل عينان كبيرتان متوحشتان تنظران بحدة.

"طعام، دواء، ملابس دافئة، بعض المعاطف الواقية من المطر، أكياس نوم، أغطية، قبعات، جوارب، معدات تخييم، قماش مشمع، كل شيء تريده".

"هل تبيعين هذه الأشياء؟" سألها بغضب، حال وصول بوب إليها، ورؤيته المشهد.

"لا، نحن نهبها لكم"، قالت بهدوء.

"لم؟" كان عدائياً ويتحرك بسرعة، وبدا غاضباً. وقف بوب بثبات. تمكن من الإحساس بوجود ورطة، ولم يرغب بتوتير التوازن الحساس.

"اعتقدت أنك بحاجة إليها".

"ومن مرافقك؟" كان ما يزال يمسك أوفيلي من ذراعها، وكانت مسكته تشتد. "هل هو شرطي؟".

"لا، ليس كذلك. نحن من مركز ويكلسر. ماذا يمكنني إعطاؤك؟".

"تجعلينني مسروراً، أيتها العاهرة. لا أريد أية قذارة منكم".

"هذا يكفي". تدخل بوب بهدوء، عند وصول جيف وميلي ببطء من النهاية الأخرى للزقاق. علما أن شيئاً ما يحدث، إلا أنهما لم يتمكنا من رؤيته بعد، ولكنهما تمكنا من سماعه. "دعها تذهب، أيها الرجل"، قال بوب بهدوء ولكن بتأكيد.

"من أنت؟ قوادها؟".

"لا حاجة لأن توقع نفسك بمشكلة، ولا نحن أيضاً. توقف عن ذلك. دعها تذهب"، قال بوضوح، وكان يشعر بالأسف لأنه لم يعد يحمل مسدساً. كان الرجل ليبتعد إذا رآه مصوباً أمامه. وبحلول ذلك الوقت، وصل جيف وميلي، وبدا الرجل الممسك لأوفيلي بقبضته غاضباً، وجذبها بعنف فجأة نحوه.

"ما هذا؟ عملية سرية؟ يبدو وكأنكم رجال شرطة".

"لسنا رجال شرطة"، صاح جيف بوضوح. "كنت في مغاوير البحرية، وسأحطمك إن لم تتركها". كان قد سحبها عبر الزقاق باتجاه أحد المداخل،





حيث تمكن بوب من رؤية رجلين ينتظرانه بفارغ الصبر. ذلك هو الموقف الذي يكرهونه بشدة، دخلوا إلى صفقة مخدرات في طور الانعقاد. "لا نبالي لأي شيء تفعلونه. لدينا أدوية، وأطعمة، وملابس للأشخاص الموجودين هنا. أنتم لستم بحاجة إليها، لا بأس، ولكن أمامنا عمل نفعله. استمروا في عملكم. هذا لا يهمني على الإطلاق". كل ما يمكنهم فعله هو التحدث بقسوة عند ازدياد الأمور قسوة، ليس لديهم أي شيء يحتمون به. وتاجر المخدرات الممسك بأوفيلي بدا بأنه لا يصدقهم.

"ومن هي؟ تبدو كالشرطية أيضاً". أشار إلى ميلي، وبقيت أوفيلي صامتة. كانت ميلي دائماً تبدو كالشرطية بنظرها.

"كانت كذلك. لقد طردوها بسبب البغاء"، قال جيف بشجاعة، ولكن الرجل لم يصدقه.

"هذا هراء. تصدر منها رائحة الشرطة العفنة، وكذلك هذه"، وبذلك، حرر ذراع أوفيلي، ودفعها إلى الخلف باتجاههم، وهي تتعثر. كادت أن تسقط، ولم تتوقع ذلك، وحال تمكنها من التوازن والنهوض، كل ما سمعوه هو صوت إطلاق النار. لم يشاهدوه يسحب المسدس أبداً. وبأجزاء من الثانية، دار وقفز في الهواء، وثب كراقص باليه، وبدأ بالركض.

بدأ جيف بالركض خلفه، وصاح بوب عليه عند اختفاء الرجلين الواقفين أمام المدخل فوراً. اختفيا وأغلق الباب. حدث كل شيء بسرعة، والتركيز بأكمله كان على جيف والرجل الذي يلاحقه، بينما ركضت ميلي بشكل أسرع وصاحت لجيف أيضاً. لم يكونوا مسلحين، فلا حاجة لملاحقته. إن أمسك به، فليس هناك ما يفعله سوى تعريض نفسه لخطر إطلاق الرصاص عليه فيما يتصارعان على الأرض. لم يكونا من رجال الشرطة، وما أراده بوب هو الخروج من هنا. التفت ليخبر أوفيلي بأن تركض إلى الشاحنة، وهو يركض، رآها قد سقطت على الأرض حيث كانت واقفة، والدم في كل مكان. لقد أطلق الرجل صاحب المسدس عليها النار.

"اللعنة، أوبي... ماذا فعلت؟" قال وهو جاثم على ركبتيه ويحاول رفعها. أراد الخروج من هناك، على أمل أن تكون تلك جروحاً سطحية، ولكنه رأى على الفور أن إصابتها بليغة بحيث أنها تمنعها من الحركة، وقد كانا هدفين سهلين حيث تواجدا. كانت تتم هناك صفقة مخدرات، وكان الزقاق خياراً سيئاً.

صرخ بوب بأعلى ما يمكنه، وسمعته ميلي أولاً. لوّح لها، ونادت لجيف. عندها، رأيا أوفيلي على الأرض بين ذراعي بوب، وعادا راكضين بسرعة. كان جيف يحمل هاتفه الخلوي بيده، وهو يتصل بالرقم 911. عادا إلى بوب وأوفيلي خلال لحظات. بدا بوب وكأنه مصدوم، وهي كانت فاقدة للوعي، ولكنه وجدها تنبض، وما تزال تتنفس، ولكن قليلاً جداً.

"اللعنة"، قال جيف، وهو جاثم على ركبتيه بالقرب منها. ركضت ميلي إلى أول الزقاق لتلوح لسيارة الإسعاف لتعلمها بمكان وجودهم. "هل ستنجو؟".

"لا تبدو جيدة"، قال بوب مطبقاً على أسنانه. كان غاضباً من جيف، فذلك الزقاق كان خياراً سيئاً. ذلك أول عمل غبي يقومون به منذ وقت طويل. كان أكثر غضباً من نفسه للسماح لها بالذهاب، وعدم اللحاق بها عن قرب أكثر. ولكن من دون أسلحة، ليس هناك شيء يمكنهم فعله لحماية بعضهم البعض في مواقف كهذه. تحدثوا عن السترات الواقية من الرصاص في إحدى المرات، ولكن قرروا أنهم ليسوا بحاجة إليها. وحتى ذلك الوقت، لم يكونوا كذلك. "إنها أرملة مع طفلة"، قال بوب لجيف وهو يراقبها.

"أعلم ذلك، يا رجل... أعلم... أين هم؟".

"سيأتون، أسمعهم"، قال بوب، وهو يراقبها واضعاً أصابع يديه على النبض في رقبتها. إنه يتضاءل، ولم تمضِ سوى دقائق، ولكنها بدت وكأنها عمر بكامله. تمكنوا من سماع صفارات الإنذار قادمة، وبعد ثانية، رأى جيف ميلي وهي تلوح، وجاء المسعفون راكضين.

حملوها على النقالة بسرعة، بينما علّق أحدهم خطاً وريدياً في ذراعها وهم ما زالوا يتحركون. "كم طلقة؟" سأل أحدهم جيف وهو يركض بجانبه.



ركض بوب إلى شاحنته، ليتمكن من اللحاق بالسيارة إلى مستشفى جنرال. لديهم أفضل وحدات الرضوض في البلدة. وتمكن من سماع نفسه يصلي لها وهو يقود الشاحنة ويدورها.

"ثلاث طلقات"، أخبرهم جيف، وهم يضعون النقالة في السيارة بأسرع ما يمكن، وقفز المسعفون إلى داخلها. انطلقوا بينما كان أحدهم يغلق الباب. وركض جيف عائداً إلى شاحنته. كانت ميلي قد سبقته إلى مقعد السائق. لحقت كلتا الشاحنتين بسيارة الإسعاف بالسرعة القصوى. إنه أول حادث كهذا يحدث لهم، ولكن ذلك ليس بالتعزية الآن.

"أتعتقد أنها ستنجو؟" سألت ميلي، كانت تناور بين ازدحام السيارات، وعيناها على الطريق، وقدمها ثابتة على البنزين.

أخذ جيف نفساً وهز رأسه نافياً. كره أن يقول ذلك فلم يقله، ولا هي. "لا أعتقد"، قال بصدق. "تلقت ثلاث طلقات من مسافة قريبة. إنها ميتة، إلا إذا كان الرجل يطلق بمسدس من الألعاب. لا يمكن لأحد أن ينجو من هذا. على الأقل النساء لا ينجون".

"أنا فعلت"، قالت مبتسمة. وذلك ما سبب إبعادها عن الشرطة وإصابتها بالإعاقة، واستغرق ذلك وقتاً طويلاً، ولكنها عاشت. كان زميلها رجلاً قد أصيب في الوقت نفسه، ولم ينجُ. أحياناً يكون الحظ هو المسيطر في مواقف كهذه.

وصلوا إلى المستشفى خلال سبع دقائق، وخرج الثلاثة من الشاحنتين، ولحقوا بالنقالة إلى الداخل. كانوا قد مزقوا ثيابها بحلول ذلك الوقت، وكانت تتمدد نصف عارية، متكشفة، وبكثير من الدماء عليها لا يمكنك معرفة ما حدث. وخلال ثوانٍ، اختفت في وحدة الرضوض، فاقدةً للوعي، مع قناع الأوكسجين على وجهها. جلس زملاؤها الثلاثة بصمت، لا يعلمون بمن يتصلون، أو هل يتوجب عليهم ذلك. بدا إثماً أن تتصل بطفلة، وأدركوا عندها أن هناك جليسة أطفال معها. على الأقل يجب على أحدهم أن يعلم بالأمر.

"مـــا رأيكـــم، شباب؟" سأل جيف. فهو المسؤول، ولكن كان ذلك قراراً صعباً.

"سيرغب أطفالي بمعرفة ذلك إن حصل"، قال بوب بهدوء. بدا الجميع يـشعر بالغثـيان، والتفـتت ميلي إليه ثانية قبل أن يمشي إلى الهاتف في الصالة.

"كم عمر الطفلة؟".

"اثنتا عشرة سنة. اسمها بيب".

"هـل تـريد مني أن أتحدث مع الجليسة أو معها؟" عرضت ميلي. ربما يـبدو الأمـر أقل إخافة إن اتصلت امرأة، ولكن هل هناك أمرٌ أكثر إخافة من إخـبارها أن أمهـا قد تعرضت لإطلاق النار بطلقتين في صدرها وواحدة في معـدتها. هز جيف رأسه وتوجه نحو الهاتف، بينما انتظر الآخرون، يستندون علـى الحـائط أمام باب وحدة الرضوض. على الأقل، لم يخرج أحد ليخبرهم أنها قد ماتت. ولكن بوب بدا واثقاً من أن الأمر لن يطول قبل أن يفعل أحدهم ذلك.

رنّ الهاتـف في البيت الواقع في مرفأ الأمان (سيف هاربر) بعد الساعة الثانية صباحاً تقريباً. كان مات قد نام لما يقارب الساعتين، ولكنه استيقظ فجأة. بما أن لديه أولاداً الآن، لم يعد يطفئ الهاتف أبداً، وقلق إن كان أحدهما يتصل بـــه في مثل هذه الساعة. تساءل إن كان روبرت، أو فانيسا في أوكلاند. تمنى ألا تكون سالي.

"مرحباً؟" قال بصوت نائم، بعد أن تلمس طريقه إلى سماعة الهاتف.

"مات". كانت بيب، وبكلمة واحدة تمكن من سماع صوتها يرتجف.

"هـل هناك خطب ما؟" ولكنه علم ذلك مسبقاً، وقد سيطرت عليه موجة من الذعر.

"أمي. تعرضت لإطلاق النار. إنها في المستشفى. هل يمكنك المجيء؟".



"حـــالاً"، قـــال، ملقياً الغطاء، وواقفاً على الأرض، وهو ما يزال يحمل الهاتف. "ماذا حصل؟".

"لا أعلم. اتصلوا بأليس، ومن ثم تحدثت معهم. قال الرجل بأنها تعرضت لثلاث طلقات".

"هل هي على قيد الحياة؟" كاد أن يغص وهو يسألها.

"نعم". كان صوتها خافتاً جداً وكانت تبكي.

"هل قالوا كيف حدث الأمر؟".

"لا. هل ستأتي؟".

"ســأكون هــناك بأســرع ما يمكن". لم يعرف إن كان عليه الذهاب إلى المستشفى أم إلى بيب في المنزل. أراد أن يكون مع أوفيلي، ولكن بدا أن بيب بحاجة إليه.

"هل يمكنني الذهاب معك؟".

تردد لأجزاء من الثانية، ومن ثم أمسك بنطاله الجينز وهو يسمعها. "نعم، ارتدي ملابسك. سأكون عندك بأسرع ما يمكنني. أين هي؟".

"فـــي مستـــشفى إس إف جنرال. لقد دخلت هناك للتو... لقد حدث الأمر للتو. هذا كل ما أعرفه".

"أحـــبك، بـــيب. وداعاً". لم يضيع الوقت في التحدث معها، أو طمأنتها. ارتدى ملابسه، وأمسك بمحفظة جيبه ومفاتيح سيارته، وركض إلى السيارة. لم يهـــتم بإقفال باب منزله حتى. اتصل بالمستشفى من السيارة. لم يكن لديهم أية أخـــبار، إلا أنها في حالة خطيرة، إنها تخضع لعملية جراحية، وليس لديهم أية فكرة عن حالتها.

قـــاد مات سيارته بأسرع ما يمكنه وثبت قدمه على دوّاسة البنزين حال وصوله إلى الطريق السريع. كاد أن يطير فوق الجسر، وألقى المال للمرأة في حجـــرة الضرائب، ووصل إلى منزل بيب وأوفيلي خلال أربع وعشرين دقيقة

من اتصالها. لم يضيع أي وقت في الدخول، أطلق بوق سيارته، وركضت إلى الخـارج وهـي ترتدي بنطال الجينز الأزرق، وسترة التزلج التي وجدتها في حجرة الجلوس. بدت شاحبة وخائفة بشدة.

"هـل أنـتِ بخير؟" سألها، فهزت رأسها بالنفي. ولكنها كانت خائفة جداً لدرجة لا تتمكن فيها حتى من البكاء. بدت وكأنها على وشك أن يغمى عليها، وتـضرّع ألا تفعـل. كـان تضرعه الأكبر لأجل والدتها. ولم يعلق لبيب عن حماقـة أمهـا في الخروج إلى الشوارع في وقت متأخر من الليل مع الفريق الخارجي. كان هذا ما يخشاه، لقد توقع حدوثه منذ وقت طويل. ولكن لا حاجة الآن مـن كونه محقاً. لم يتمكن أن يتخيل كيف ستتمكن من النجاة. وحتى بيب كـذلك. ثلاث طلقات بدت شيئاً كثيراً لا يمكن لأي إنسان تحمله، رغم أن مات علم بأن البعض قد تمكن من ذلك.

قـاد السيارة إلى المستشفى بصمت مؤلم، وركن السيارة في أحد الأمكنة المخصصة لسيارات الإسعاف، ومن ثم ركض هو وبيب للداخل. جيف، بوب، وميلـي رأوهما حال دخولهما من الباب، وعلموا على الفور من هما، أو على الأقل، الطفلة. بدت كأمها تماماً باستثناء شعرها الأحمر.

"بيب؟" اقترب بوب منها وربت على كتفها. "أنا بوب".

"أعلـم". عرفته بيب من وصف أمها له، وللآخرين. "أين أمي؟" سألت، وبـدت متوتـرة، ولكـنها هادئة بصورة ملحوظة. قدّم مات نفسه لهم عابساً بغـضب. لم يتمكن من لومهم لما كانت تفعله، فهي التي اختارت ذلك، ولكنه كان غاضباً على أية حال.

"إنهم يخرجون الرصاصات الآن". شرحت ميلي.

"كـيف حالها؟" سأل مات، وكان ينظر بشكل مباشر إلى جيف، فقد أحس أنه هو المسؤول.

"لا نعلـم. لم يخبرونا بأية كلمة منذ دخولها". وقف الجميع هناك لما بدا وكأنه ساعات، ومن ثم جلسوا أخيراً.



ذهـب بوب لإحضار القهوة، وأمسكت ميلي بيد بيب، فيما أمسكت بيب بمات بيدها الأخرى. جلسوا بصمت، فلا شيء يمكن لأحد أن يقوله لكي يبرر، أو يشرح، أو يريح. لم يكن لدى أيٍّ منهم أمل كبير، بما فيهم بيب، ولم يرغب أحد بالكذب عليها. فاحتمال نجاة أوفيلي بالنسبة للجميع كان ضئيلاً.

"هل أمسكوا بالرجل الذي أطلق الرصاص عليها؟" سأل مات أخيراً.

"لا، ولكنـنا نميزه جيداً. إن كان لديهم صورة عن وجهه، فستتمكن من القـبض علـيه. ركضت خلفه، ولكنني لم أتمكن من الإمساك به، ولم أرغب أيـضاً بتركها". شرح جيف، وأومأ مات. وحتى ولو أمسكوا به، فما الاختلاف الـذي سـيحققه ذلـك له، أو لبيب إن ماتت؟ لا شيء يمكنه إعادتها ثانيةً، إن توفيت. ولكنها على الأقل لم تمت بعد.

ذهـب إلى المكتب عدة مرات وسألهم، ولكن كل ما أمكنهم قوله بأنها ما تـزال تحـت العملية. في النهاية، ظلت تحت العملية لسبع ساعات. ولكن في نهاية الأمر، كانت ما تزال على قيد الحياة.

كان جيف قد اتصل بالمركز، واتصل الصحفيون بالمكتب، ولكن لحسن الحـظ لـم يظهـر أي منهم بعد. في الساعة التاسعة والنصف صباحاً، خرج الجـراح أخيـراً ليتحدث معهم. كان مات مرتعباً مما سيقوله، وكذلك بيب. لم يكن قد ترك يدها منذ أن وصلا، وكان يفعل ما يريد فعله باليد الأخرى. كانت تمسك به بشدة، وهو أيضاً.

"إنهـا علـى قـيد الحـياة"، قال الجراح ليطمئنهم. "لا نعلم بعد ما الذي سـيحدث. الرصاصـة الأولى مرت مباشرة عبر رئتها وخرجت من ظهرها. والثانـية خـرجت مـن رقبتها، ولم تلمس عمودها الفقري. بالنظر إلى الأمر بكلّيـته، كانـت محظوظة جداً، ولكنها لم تصبح بحالة الأمان بعد. الرصاصة الثالـثة أصابت المبيض والزائدة، وسببت بعض الضرر لمعدتها وأمعائها. كنا نعمـل علـى ذلك في الساعات الأربع الماضية. يوجد أربعة جراحين يعملون معها، وهذه أفضل خدمة يمكن الحصول عليها هنا".

"هل يمكننا رؤيتها؟" نطقت بيب بصوت كان أشبه بالنقيق. لم تنطق أي كلمة طوال الليل، وهزّ الجراح رأسه نافياً.

"ليس بعد. إنها في وحدة العناية الجراحية المشددة. ولكن بغضون ساعات، إن كانت علاماتها الحيوية مستقرة، يمكنكم الصعود. إنها ما تزال فاقدة للوعي بسبب المخدر، ولكن يجب أن تصحو بعد ساعات قليلة. ستكون مضطربة بعض الشيء، وسنبقيها على تلك الحال الآن".

"هل ستموت؟" سألت بيب، وشدّت على يد مات بشدة فشعر وكأنها ملزمة تطبق على يده، وحبس نفسه عندما أجاب الجراح.

"تأمل ألا يحدث ذلك"، قال وهو ينظر إلى بيب مباشرة. "يمكن ذلك، إن إصابتها كبيرة. ولكنها نجت من العمل الجراحي والإصابة. إنها متينة بعض الشيء، ونحن نقوم بكل شيء يمكننا فعله".

"حسناً"، قال بوب، وهو يصلي لأن تفعل.

جلست بيب ثانية، وبدت متخشبة. لن تذهب إلى أي مكان، ولا حتى مات والآخرون. جلسوا هناك ينتظرون، وعند الظهر، قالت الممرضة أن بإمكانهما الصعود إلى وحدة العناية المشددة. كان ذلك مكاناً مخيفاً، والغرفة الزجاجية التي مكثت فيها أوفيلي كانت مليئةً بالآلات، وشاشات المراقبة، والأنابيب في كل مكان. ثلاثة أشخاص كانوا يراقبونها، وكل إنش منها بدا مغطى بالإبر، والضمادات، والأنابيب. بدت شاحبة بصورة مميتة، وكانت عيناها مغلقتين عند دخول بيب ومات إلى الغرفة.

"أحبك، مامي"، قالت وهي تقف عند حافة السرير، بالقرب من مات، وفعل كل شيء ليقاوم الدموع كيلا تراها بيب. علم أنه يحتاج لأن يكون قوياً من أجلها، ولكن كل ما أراده هو مدّ يده ولمس أوفيلي، وكأنه يشجع الحياة على الدخول إليها. بدا أنهم يفعلون كل شيء يقدرون عليه من أجلها. ولم تتحرك طوال الوقت الذي وقفوا فيه هناك. كان على وشك المغادرة عندما أخبرتهما الممرضة أن الوقت قد انتهى. يمكن للزوار الدخول لخمس دقائق



فقط كل ساعة، وكانت الدموع تنهمر على خدي بيب. كانت خائفة من فقدان والدتها أيضاً. أوفيلي هي كل ما تبقى لها. أمها هي العائلة الوحيدة التي تمتلكها في هذا العالم. وكأنها تحس بالكارثة، فتحت أوفيلي عينيها ونظرت مباشرة إليها، ومن ثم إلى مات. ثم ابتسمت، وكأنها تريد تشجيعهما، ومن ثم أغلقت عينيها ثانيةً.

"مامي؟" رفعت بيب صوتها في الحجرة الزجاجية الصغيرة. "هل يمكنك سماعي؟" أومأت بالإيجاب. الشيء الوحيد الذي لم يكن يؤلمها هو رأسها، وكان هناك قناع من الأوكسجين على أنفها.

"أحبك، بيب"، همست ومن ثم نظرت إلى مات. النظرة التي مرّت بينهما قالت إنها تعرف ما الذي سيقوله. كان ذلك آخر شيء فكّرت به قبل أن تنهار، بأنه كان محقاً، ومن ثم تحول كل شيء إلى السواد. والآن، يقف أمامها، وخشيت أن يغضب منها. كانت مسرورة لأنه مع بيب، وتساءلت كيف حدث هذا. لا بد أن بيب قد اتصلت به. "أهلاً، مات"، قالت أوفيلي، ومن ثم أغلقت عينيها وغطت في النوم ثانيةً. كانا يبكيان وهم يغادران، ولكنها كانت دموع الراحة ودموع الحزن. بدت وكأنها ستتمكن من اجتياز الأمر، ولكن علم كل منهما أن ذلك ليس مؤكداً بعد.

"كيف حالها؟" سأل الآخرون حال خروجهما من الغرفة. كانوا ينتظرون بفارغ الصبر في غرفة انتظار وحدة العناية المشددة، وكانوا قلقين عندما رأوا بكاء بيب ومات. خشوا من أنها قد ماتت وهما في الغرفة.

"تحدثت معنا"، قالت بيب، ومسحت دموعها.

"فعلت؟" بدا بوب مصدوماً ومتحمساً. "ماذا قالت؟".

"إنها تحبني". بدت بيب مسرورة. ولكن كان من الواضح للجميع، حتى لبيب، كم سيكون انتظارهم مطولاً ومحفوفاً بالمخاطر. لقد كانت حالتها سيئة بكل المعايير.

عاد الجميع إلى المركز في فترة ما بعد الظهر، ووعدوا بالعودة مساءً

وهم في طريقهم إلى الخارج. عليهم العودة إلى منازلهم، والنوم قليلاً. كان هناك اجتماع قد خطط له في المركز، لمناقشة قضايا سلامة الفريق الخارجي. كانت تلك صدمة للجميع. وقال بوب وجيف بأنهما من الآن وصاعداً سيحملان معهما الأسلحة، فكل منهما ما يزال يحمل الرخصة لذلك، ووافقت ميلي على ذلك. وكان هناك سؤال أكثر أهمية، فهل الفريق الخارجي مكان مناسب للمتطوعين أم لا. من الواضح للجميع، أنه لم يكن كذلك. ولكن الأوان قد فات على أوفيلي.

بقي مات في المستشفى مع بيب طوال بعد الظهر، لقد رأيا أوفيلي مرتين. في المرة الأولى كانت نائمة، وفي الثانية بدا أنها تتألم. وحال مغادرتهما أعطوها المورفين. حاول إقناع بيب بالذهاب إلى المنزل لساعة، لترتاح وترتب نفسها، وتأكل شيئاً ما. وبعدما أعطوا حقنة لوالدتها كي تنام، وافقت أخيراً، رغم ترددها. عاد إلى المنزل معها، ورحب بهما موس. ومن ثم ذهب مات لإعداد بعض البيض المقلي والتوست لهما. كانت هناك رسالتان على الهاتف من مدرسة بيب، تعبران عن قلقهم عليها. يبدو أن أليس قد اتصلت بهم في الصباح قبل مغادرتها، وتركت رسالة على طاولة المطبخ، تخبر بيب أن تتصل بها إن احتاجت أي شيء. وتركت رسالة أخرى تقول بها إنها ستعود لتأخذ موس للمشي بعد ظهر اليوم.

أخذه مات للمشي قبل أن يتناول الطعام ومن ثم جلس مع بيب على طاولة المطبخ، وكأنهما ناجيان من تحطم سفينة. كانت بيب مرهقة بشدة فأكلت قليلاً، أما مات فلم يتمكن من تناول الطعام.

"ما رأيك بحمام لكل منا قبل أن نعود؟" سألها بحلم. بدا كل منهما بشكل مزرٍ. بغض النظر عن حاجتهما للنوم. في النهاية عليهما الحصول على القليل منه، حاول أن يقنع بيب بأخذ قيلولة على الأقل قبل عودتهما.

"أنا لست متعبة"، قالت بشجاعة، ولم يرغب بالضغط عليها. وافقا على الاستحمام وارتداء الملابس النظيفة، ومن ثم أرادت بيب العودة إلى المستشفى





لقضاء الليل. لم يناقشها في ذلك. أراد هو أن يكون هناك أيضاً. قاد سيارته وعادا سويةً، بعد أن أخذ موس للمشي ثانيةً، وجلسا سويةً على أريكة في غرفة الانتظار في وحدة العناية المشددة.

أخبرتهما الممرضة أن أصدقاء أوفيلي قد أتوا للاطمئنان عليها، ولكنها كانت نائمة، وهي كذلك الآن. وعندما ذهب مات للاطمئنان عليها، كانت ما تزال في حالة حرجة. وحال جلوس بيب على الأريكة في غرفة الانتظار، نامت على الفور، وشعر بالارتياح لذلك. جلس يراقبها، متسائلاً ماذا سيحدث لها إن توفيت أوفيلي. لم يتحمل التفكير بذلك، ولكنه احتمال ممكن. إن حدث ذلك، سيجعل بيب تعيش معه، أو سيشتري شقة في المدينة. احتمالات قبيحة كانت تجوب عقله، عندما عادت الممرضة لتأخذه في الساعة الثانية صباحاً. بدت عليها الجدية، وذعر مات في اللحظة التي شاهدها فيها.

"زوجتك تريد رؤيتك"، قالت بهدوء، ولم يصحح لها. وضع يد بيب للأسفل بلطف وتبع الممرضة إلى وحدة العناية. كانت أوفيلي مستيقظة وبدت متلهفة لرؤيته. أومأت له بأن يأتي بالقرب منها، وشعر بالخوف لاحتمال أنها تحس بشيء داخلي ينذر بحدوث الأسوأ، وحال انحنائه بالقرب منها، لمس رقبتها بلطف، فبدأت تتحدث مع مات هامسةً. كان من الواضح أنها تتنفس بصعوبة.

"أنا آسفة جداً، مات... كنت محقاً... أنا آسفة جداً... هل ستعتني ببيب؟" كان ذلك ما يخشاه. خشيت من أنها تحتضر، وأرادت منه القيام ببعض الإجراءات من أجل بيب. علم أن أسرتها صغيرة جداً، باستثناء أقاربها البعيدين في فرنسا. لا يوجد أحد يأخذها إلا هو.

"تعلمين أنني سأفعل... أوفيلي، أحبك... لا تذهبي إلى أي مكان، حبيبتي... ابقي هنا معنا... نحتاجك نحن الاثنان... عليك أن تتحسني..." كان يتوسل لها.

"سأفعل"، وعدته، ومن ثم غطت في النوم. عندها أشارت له الممرضة بالمغادرة.

dodyadodo
www.rewity.com

"كيف حالها؟" سأل الممرضة عند المكتب وهو يغادر. "هل تغير أي شيء؟".

"إنها تتماسك"، طمأنته الممرضة. كانت متأثرة لبقائه هو والطفلة طوال النهار والليل. أمور كهذه تحقق اختلافاً حقاً، وكانت دائماً تتفاجأ بعدم اكتراث الكثير من الأشخاص. ولكن بيب ومات لم يتحركا إلا قليلاً، باستثناء رحلتهما القصيرة إلى المنزل لأقل من ساعتين. وفي الصباح، عند تغير المناوبة، كانا ما يزالان هناك. ولكن أوفيلي بدت أحسن قليلاً.

أخذ بيب إلى المنزل ثانيةً، وأخبرها بأنه إما يتوجب عليه شراء بعض الملابس أو الذهاب إلى المنزل لإحضار ملابسه. تناقشا بالأمر على الفطور، وقرر التوقف عند محلات ماسي في طريق العودة لشراء بعض الأشياء له. كان من الواضح بأن بيب لا تريده أن يرحل، ولذلك لم يفعل.

أخيراً، حصل على دقيقة ذلك الصباح ليتصل بروبرت ويخبره، ورتب بعض الإجراءات مع أليس لتأخذ الكلب للمشي بانتظام. اتصل بمدرسة بيب، وأكدوا له أنه لا حاجة لقدومها. كانوا متعاطفين جداً وتمنوا أن تتحسن السيدة ماكنزي قريباً. وكان هناك العديد من الاتصالات الحزينة من مركز ويكسلر، ولكن لم تكن لديه أية رغبة في التحدث معهم، فلم يفعل.

بعد توقف سريع عند محلات ماسي، عادا إلى المستشفى، وبدأا بمراقبتها لليلة الثانية في وحدة العناية المشددة. وأخيراً، بحلول الليل، بدت أوفيلي أحسن حالاً. كان بوب وجيف وميلي قد مروا لرؤيتها، ولاحظوا ذلك أيضاً. وبعد مغادرتهم، غطى بيب بغطاء دافئ أعطته إياه الممرضة، وعندها نظرت إليه وهي على الأريكة.

"أحبك، مات".

"أنا أحبك أيضاً، بيب"، قال بهدوء. كان قد اشترى بعض الملابس وملابس داخلية لتكفيه طيلة الأسبوع. فعاجلاً أم آجلاً، عليه العودة إلى الشاطئ، ولكنه كان يخطط للبقاء في المدينة مع بيب طالما كانت بحاجة إليه. لم يبدُ أنه سيتمكن من العودة إلى المنزل في وقت قريب.



"هل تحب أمي أيضاً؟" لم تكن واثقة تماماً مما حدث بينهما. فكلاهما كان قد كتم الأمر بعناية.

"نعم، أحبها". ابتسم لها، فابتسمت له.

"هل ستتزوجها عندما تتحسن؟" أحب أنها قالت عندما وليس إن. أراد أن يفكّر بتلك الطريقة هو أيضاً. "إنها تحتاجك، مات. وأنا أيضاً أحتاجك". كاد الإصغاء إليها أن يبكيه، ولم يكن واثقاً مما سيقوله لها. قبل أن تصاب، لم تكن أوفيلي على الإطلاق متأكدة من مشاعرها تجاهه، أو ما الذي تريد أن تفعله بخصوصه، رغم أنه كان متأكداً تماماً من مشاعره تجاهها.

"أرغب بذلك، بيب"، قال بصدق. "أعتقد أنه يتوجب علينا سؤالها، أليس كذلك؟".

"أعتقد أنها تحبك أيضاً. إنها خائفة وحسب. لم يكن والدي لطيفاً معها دائماً. كان يصرخ كثيراً، بسبب تشاد على الأغلب. كان تشاد مريضاً بعض الشيء، وقام بأشياء سيئة، كمحاولته الانتحار. ولم يعتقد والدي أنه مريض، لذلك كان يصرخ على أمي، واعتقد بأنها غريبة الأطوار". كان ذلك تقديراً صحيحاً بعض الشيء لما حدث، ومما علمه مات أيضاً، رغم أن بيب قد عبّرت عنه بمصطلحاتها الخاصة. "أعتقد أنها خائفة من أن تكون مزعجاً لها أيضاً، رغم أنك لم تكن مزعجاً لنا على الإطلاق، ولكن ربما تخشى من أن تصبح كذلك إن تزوجتك. كان والدي سيئ الطباع حقاً، وذكياً، وربما لم يكن لطيفاً معها كما يجب... ويمكن أن تكون قلقة عن احتمال أن تموت، لأنها أحبته حقاً، رغم أنه كان رديئاً وأنانياً ولم يتحدث معنا كثيراً. كان منشغلاً دائماً، ولكن أعتقد أنه كان يحبنا على أية حال... هل تعتقد أنه بإمكانك إخبارها بأنك ستكون لطيفاً معنا، ومن ثم ستوافق. ما رأيك؟" لم يعلم أيضحك أم يبكي وهو يستمع لها، فانحنى وقبلها على جبينها بدلاً عن ذلك.

"إن لم توافق على الزواج مني، فأعتقد أنني يجب أن أتزوجك. فأنت منطقية جداً، بيب. هذا ما أعتقده".

فهقهت وهي تتمدد على الأريكة في غرفة الانتظار الفارغة. كانا هما الشخصين الوحيدين تلك الليلة، وضحكت معه. "أنت كبير جداً مات بالنسبة لي، ولكنك جميل إلى حدٍّ ما بالنسبة لرجل كبير مثلك... كوالد، أعني".

"أنتِ جميلة أيضاً".

"هل ستسألها؟" بدت بيب قلقة ثانيةً. لديها الكثير في عقلها.

"سأبذل ما بوسعي. أعتقد أنه يتوجب علينا الانتظار حتى تتحسن أكثر، أليس كذلك؟".

فكّرت بيب بالأمر، ومن ثم عبست. "لا أعتقد أنه يتوجب عليك الانتظار كثيراً. ربما تشعر بتحسن إن طلبت منها الزواج. ما رأيك؟ ربما يساعدها ذلك على التحسن بشكل أسرع، ويمنحها شيئاً تتطلع إليه".

"إنها فكرة جيدة". أو ربما تخيفها حتى الموت. علم أن ذلك احتمال ممكن أيضاً، أكثر من بيب. تذكر جيداً تلك الليلة في تاهوي عندما كانت خائفة جداً من مطارحته الغرام. الزواج قد لا يكون الحل الذي تأمل به بيب. ولكنه تمنى ذلك. غطت في النوم بعدها، مسرورة لتحدثها معه، ومن ثم جلس هو هناك لوقت طويل، يراقبها بابتسامة هادئة.

عاد للاتصال بروبرت ثانيةً عندها، فقد وعده أن يفعل، وأن يخبره بما يحصل. كان قد عرض المجيء من ستانفورد في ذلك الصباح. ولكن مات شرح له أنه لن يتمكن من رؤيتها على أية حال، لذا قال إنه سيتصل ليعلمه عن حالها. وشعر روبرت بالراحة الشديدة عند سماعه من والده أنها ما تزال على قيد الحياة على الأقل. أصيب بالصدمة عندما سمع الخبر في البداية.

كانت إصابة أوفيلي تعمّ أخبار الساعة الحادية عشرة تلك الليلة. ولكن المستشفى كان قد أبعد الصحفيين. فنقلوا بوجوه كالحة على شاشة الأخبار أن متطوعة من مركز ويكسلر قد أصيبت بإطلاق نار وهي في حالة حرجة في مستشفى سان فرانسيسكو جنرال، ولكنها على قيد الحياة.



جاء جيف في منتصف الليل، ليخبر مات أنه قد تمّ الإيقاع بالفاعل. تحدثا همساً بينما كانت بيب نائمة، وكان جيف مسروراً لتمكنه من نقل ذلك له. كان قد ذهب هو والآخرون إلى مركز الشرطة وتعرفوا على وجهه. كان قد اعتقل وهو ينهي صفقة مخدرات على بعد ثلاثة أبنية من جيسي، ذلك الزقاق الذي أصيبت فيه. كان المشتبه ما يزال يحمل المسدس معه. وكانوا سيحاولون التعرف عليه بين صف من الأشخاص في اليوم التالي، ولكن لم يكن هناك أي شك في تعرفهم عليه. سيسجن لوقت طويل، فلديه سجل إجرامي حافل. حتى الآن، كانت جميعها أخباراً جيدة. باستثنائها هي، فما تزال حياتها متأرجحة وهذه هي الأيام الأولى.

ولكن عندما رأوها صباح اليوم التالي، ابتسمت لهم جميعاً، وسألت متى ستتمكن من العودة إلى منزلها. نقلوها من العناية المشددة إلى الحالات الأقل خطورة، وقال الجراح المسؤول أنها تتحسن. لم يكن أحدٌ أكثر راحة من بيب، باستثناء مات. طلبت أوفيلي منهما أن يذهبا إلى المنزل ويأخذا قسطاً من الراحة. بدت شاحبة، ولكن أكثر تماساً وأقل ألماً. قال مات بأنه سيصطحب بيب إلى المنزل لفترة قصيرة، وسيعودان بعد الظهر. وفي الطريق إلى خارج وحدة العناية، نظرت بيب إليه بتأمر ومن ثم سألته إذا كان يعتقد أن عليه أن يسأل أمها الآن، عن المسألة التي تناقشا بها الليلة الماضية.

"الآن؟" بدا مجفلاً. "ألا تعتقدين أنه يتوجب علينا الانتظار حتى تشعر بتحسن أكبر؟ ربما تكون أكثر تقبلاً إن كانت تشعر بألم أقل".

"ربما من الأفضل أن تتحدث معها وهي ما تزال غافلة قليلاً وتحت تأثير المسكنات". كانت بيب جاهزة للجوء إلى أية وسيلة لتحقق المطلوب، وضحك عليها، وهما يغادران المستشفى ويتجهان نحو سيارته.

"من الواضح أنكِ تعتقدين أنها بحاجة لأن تكون مخدرة لتوافق على الزواج مني"، قال وهو يشعر بالمرح لأول مرة منذ إصابة أوفيلي. بدأت الأشياء تبدو أقل قلقاً، وبدت أوفيلي أكثر تحسناً مما كانت عليه. ولكنه ما يزال متوتراً وقلقاً عليها.

"حسناً، ربما يساعد ذلك"، قالت بيب، كإجابة عن تعليقه عن ضرورة كون أوفيلي مخدرة عندما يتقدم بطلب الزواج. "تعلم كم هي عنيدة، وخائفة من الزواج ثانيةً. أخبرتني بذلك".

"حسناً، لن أطلق عليها النار على الأقل. فيجب أن يكون هذا لقاء شيء ما"، قال بنظرة ضاحكة.

"ربما"، قالت بيب ضاحكة.

عادا إلى المنزل، وكان موس مبتهجاً لرؤيتهما. لم يتمكن من فهم تركهما له. طها مات الطعام للثلاثة، وتمدد لبرهة. فقد ظل مستيقظاً ليلتين. وبدت بيب بحالة أفضل وهي في نشاط صاخب في المنزل. أحبت وجود مات معها، وقد وعدها بالبقاء حتى عودة أوفيلي إلى المنزل.

عادا إلى المستشفى متأخرين أكثر مما خططا له، وكانت أوفيلي تعاني من ليلة صعبة. قالت الممرضة بأن ذلك متوقع، وهذا يحصل عادة بعد العمل الجراحي، وبعد الرضوض التي تعرضت لها. كانت تعاني من ألم شديد، فسكنوا ألمها بكمية كبيرة من المورفين. ولكن حالتها كانت تنتقل من الخطورة إلى المستقرة رغم كل هذا. كانت تحقق تقدماً ملحوظاً، مما أثار دهشة الجميع، وتلك الليلة قرر مات أخذ بيب إلى المنزل. أخبرها أن بإمكانهما قضاء الليلة في سرير حقيقي، وبتردد وافقت. ودّعت أمها قبل مغادرتها، ولكن أوفيلي كانت نائمة. وبحلول الساعة التاسعة من ذلك المساء، كانا في المنزل، وبعد نصف ساعة كانت بيب نائمة في سريرها، وكان مات فاقداً الوعي في سرير أوفيلي.

لم يستيقظ أي منهما حتى الصباح، تناولا الفطور قبل الذهاب إلى المستشفى. وعندما رأيا أوفيلي، شعرا بالراحة الكبيرة. كان لديها القليل من اللون على وجهها، وتمت إزالة الأنبوب الأنفي المعدي الذي كان يزعجها. كانت تعتبر في قائمة الحالات المستقرة، وتتذمر من كل شيء، وهذا ما قالت الممرضة أنه إشارة جيدة. وابتسمت عندما رأت مات وبيب يدخلان.



"ماذا كنتما تفعلان؟" سألت وكأنها كانت في استراحة، ولم تعانِ من جروح ناجمة عن ثلاث طلقات، فابتسم زائراها بابتهاج لها.

"صنع لنا التوست الفرنسي، أمي. وقال إنه يصنع فطائر محلاة لذيذة".

"جيد، أحضرا لي بعضاً منها"، قالت، ولكن الجميع كان يعلم بأنها ستبقى على نظام غذائي يعتمد على السوائل لوقت طويل، وما زالت تتغذى وريدياً. وعندها التفتت إلى مات بنظرة جادة. "شكراً لاعتنائك ببيب". لم يكن لديها أحد غيره تطلب منه ذلك، وكل منهما يعرف ذلك. الوقت والظروف، وتبد، قد عزلوا حياتها عن الكثير من الأشخاص. ولم يكن لديها أقارب غير بيب. "أنا متأسفة لحدوث كل هذا. كان غباءً مني، على ما أعتقد". ولكنها أحبت عملها مع الفريق الخارجي.

"لن أقول بأنني أخبرتك بذلك، ولكنك تعرفين كيف أشعر. أخبرني جيف بأنهم لن يدعوا المتطوعين يقومون بمثل هذا العمل بعد الآن، وهذا يبدو صواباً برأيي. كانت تلك فكرة رائعة، ولكنها خطيرة جداً".

"أعلم. إنني واثقة من أن الأمر قد خرج عن السيطرة بسرعة تلك الليلة. حتى أنني لم أعلم ما الذي ارتطم بي عندما سقطت على الأرض". لم تطق التفكير بما يمكن أن يكون قد حدث لها، تحدثوا عن الأمر لبرهة، بينما أطلقت عليه بيب نظرات مليئة بالمعاني وحاول أن يبقي وجهه طبيعياً. تناقشا بالأمر ثانية على الغداء.

"لا يمكنني سؤالها وأنت تقفين هناك".

"حسناً، من الأفضل أن تفعل ذلك سريعاً"، هددته بيب، وضحك.

"لم؟ إنها لن تذهب إلى أي مكان. ولم العجلة؟".

"لأني أريدكما أن تتزوجا". بدت بيب مهتاجة.

"وماذا إن رفضت؟".

"حسناً، سأتزوجك أنا إذاً، حتى ولو كنت كبيراً جداً. ها ها ها... لم أرَ

أحـــداً بطيئاً مثلك!" مازحته. وفي المرة التالية التي دخل فيها لرؤيتها، رمقته بيب بنظرة صارمة.

"لا أعـــدك بشيء"، ذكرها. "سأرى كيف تشعر". أخذ احتياطاته، ولم يرغب بإحـــباط بـــيب أكثر من إحباط نفسه. لم يكن يرغب بالإلحاح عليها، مهما فكّرت بـــيب. عليه أن يثق بغريزته هو، وليس بتلك الخاصة بطفلة في الثانية عشرة من العمر، رغم أنها كانت محقة وقلبها في المكان المناسب، ويحبها هو أيضاً.

"أنـــت أكبر جبان عرفته!" اتهمته، وضحك وهو في طريقه إلى الداخل، عندما وصل إلى الحجرة، وجد أوفيلي تبدو مرتاحة ومن ثم قلقة.

"أين بيب؟".

"نائمـــة على الأريكة في غرفة الانتظار"، كذب عليها، يشعر بالسخافة، ومـــن ثم تساءل إن كانت بيب محقة. ربما تكون الطلقات قد غيرت كل شيء. فالحياة قصيرة، ومشاعرهما حقيقية، وكل منهما يحب الآخر. ربما حان الوقت ليضع قلبه أمامها ثانيةً. وهذا يستحق المخاطرة.

"أنـــا آسفة لتسببي بكل هذا"، قالت وهي تشعر بالذنب. "لم أعتقد أبداً بأن هـــذا ســـيحدث"، قالت وهي تبدو متعبة. ما يزال الطريق أمامها طويلاً، وقال الأطباء إن الشفاء سيستغرق وقتاً طويلاً، الأمر الذي لم يكن مثيراً للاستغراب، بالنظـــر إلـــى الـــضرر الذي سببته الطلقات. كان من الممكن لشيء أسوأ أن يحدث، وهذا ما كان عليه الأمر تقريباً.

"كنت أخشى دائماً من أن يحدث هذا"، قال مات بصدق.

"أعلـــم ذلك. كنت محقاً"، قالت وهو يمسك يدها. كان يقف بالقرب منها، ويمرر يده على شعرها بلطف.

"أنا محق بخصوص الكثير من الأشياء أحياناً، ومخطئ بأشياء أخرى".

"لـــم تكن مخطئاً كثيراً"، قالت وهي تنظر إليه بامتنان، وكان سماع ذلك مريحاً.



"أنا سعيد لاعتقادك بذلك".

"أحمد الله أن بيب وجدتك على الشاطئ"، قالت وهما يضحكان.

"كما أذكر، لم تكوني مسرورة لذلك كثيراً".

"اعتقدت أنك متحرش أطفال"، قالت له بمرح. "مخطئة ثانيةً". ابتسمت له وأغلقـــت عينيها، ومن ثم فتحتهما ثانيةً ونظرت إليه. بدت مطمئنة بشكل مثير للغـــرابة، بالنظر إلى ما مرت به. كانت امرأة شجاعة جداً، لقد أحبها من كل قلبه.

"وماذا تعتقدين الآن؟" سألها بلطف.

"عـــنك؟ أنـــت أفضل صديق عرفته في حياتي... وأنا أحبك..." أضافت بحـــذر وهي تنظر إلى عينيه. "أحبك كثيراً، في الحقيقة". أكثر مما عرفت من قـــبل. كـــان أكثـــر ممـــا تستحق تقريباً، أو ذلك ما اعتقدته، وخاصة بعد كل المشاكل التي سببتها لبيب، وله، ولنفسها. كانت خيبة أمل كبيرة للجميع.

"أحـــبك أيضاً، أوفيلي..." خشي من أن يسألها، ومن ثم فكّر ببيب وهي تـــوبخه ثانـــيةً، والتفكيـــر بـــذلك جعله يبتسم ويستمر. "هل تحبينني بما يكفي لتتزوجيني؟" سألها، ونظرت إليه مصدومة.

"هل قلت للتو ما أعتقد أنني سمعته، أم هو بسبب المخدر؟".

"يمكن أن يكون الاثنان معاً. كيف بدا لك؟".

مـــلأت الدموع عينيها وهي تنظر إليه، كانت ما تزال خائفة، ولكن ليس كمـــا كانت مسبقاً. كادت أن تفقد كل شيء تقريباً عندما أصيبت. كم ستفقد بعد ذلك؟ ولديها كل شيء تكسبه معه.

"يـــبدو جيداً بالنسبة لي"، قالت همساً، وانهمرت دمعة على خدها. "ولكن لا تمت وأنا على قيد الحياة. من فضلك، مات... لا يمكنني اجتياز ذلك ثانيةً...".

"لن أفعل"، قال وهو ينحني لتقبيلها. "ليس إلا بعد وقت طويل على الأقل. وســـأكون شـــاكراً لـــك إن بذلت جهدك ألا تصابي ثانية. لست أنا من كاد أن

يمـوت هـنا"، ثم أضاف بجدية، "... كنت سأموت إن فقدتك، أوفيلي... أحبك كثيراً...".

"وأنـا أيـضاً"، قالت ومن ثم قبلها، وهو يفعل ذلك، ظهرت الممرضة، وأخبـرته أنــه يتوجب عليه المغادرة الآن، فقد انتهى الوقت. لا يمكن لزوار مرضـــى العناية الفائقة أن يبقوا لأكثر من خمس دقائق، أو عشر على الأكثر، ولكنها كانت تكفي لمعرفة ما يرغب كل منهما بمعرفته.

"هـل الأمــر رسمي، إذاً؟" سألها قبل أن يغادر. "هل تتزوجينني؟" أراد سماع ذلك من شفتيها.

"نعـم، سأفعل"، قالت بلطف وعنت كل كلمة. لقد أصبحت جاهزة، وحان الوقت.



"هل يمكنني إخبار بيب؟" سألها عندما لوحت له الممرضة باتجاه الباب.

"نعـم، بإمكانك ذلك"، قالت والابتسامة قد ملأت وجهها من إحدى أذنيها إلى الأخرى وهو يغادر، ومن ثم نظرت إلى الممرضة مبتسمة. "أنا مخطوبة".

"اعتقدت أنك متزوجة"، قالت، وقد بدت متفاجئة.

"أنا كذلك... ولكنني لست كذلك... حسناً، كنت في السابق... وأنا كذلك تقريباً... وسأكون"، شرحت لها. أصيبت بالدوار، فقد كانت مثارة جداً. كل ما استهلكه الأمر هو إصابتها بثلاث طلقات حتى تكتشف الأمر. ثمن صغير لتدفعه.

"تهانيـنا"، قالـت الممرضة، ثم قاست لها حرارتها، بعد عودة مات إلى غرفة الانتظار، حدقت بيب به في محاولة لمعرفة ما حصل.

"هـل جبـنت؟" اتهمته بنظرة قلقة، فهز رأسه نافياً، محاولاً إخفاء إثارته كي لا تفضحه.

"لا، لم أفعل".

اتسعت عيناها. "هل سألتها؟".



"نعم، فعلت".

تمكـنت بيب بصعوبة من السيطرة على نفسها، وكذلك هو. "ماذا قالت؟" كانت تحبس نفَسها وهو يبتسم ويمد ذراعيه حولها. أصبحت له تقريباً.

"قالت نعم"، قال والدموع تملأ عينيه ثانيةً. كان يوماً عاطفياً جداً.

"فعلت؟ أوه يا إلهي! واو! ستتزوجك! أوه يا إلهي! مات!" وضع ذراعيه حولها، وأرجحها حول الغرفة. "فعلتها! فعلتها!".

"فعلنا ذلك! شكراً لك على الفكرة، وعلى التشجيع، وعلى الحماسة. لو لم تدفعيني، لكنت انتظرت ربما لسنة أخرى".

"ربما كان من الجيد أن تصاب بإطلاق النار، نوعاً ما، حسناً... تعلم..." قالت بيب مستغرقة في التفكير.

"لا، لا أعلم. وإن فعلت ذلك الشيء ثانيةً، سأقتلها بنفسي".

"وأنا أيضاً"، اتفقت بيب معه، وهما يجلسان جنباً إلى جنب، كشريكين في الجـريمة. كل شيء انتهى كما هو مخطط له، بفضل بيب. كل ما عليهما فعله الآن هو اختيار موعد لذلك.

# 27

بقيت أوفيلي في المستشفى لثلاثة أسابيع. وبقي مات في المنزل مع بيب طوال الوقت. عادت إلى المدرسة بعد أسبوع من وجود أمها في المستشفى، ولكنها كانت تذهب لزيارتها بعد ظهر كل يوم. كان مات يمضي كل صباح في المستشفى مع أوفيلي، وكان يذهب بعدها ليصطحب بيب من المدرسة ويحضرها لرؤية أمها في المستشفى بعد المدرسة. التزما بهذا الروتين لثلاثة أسابيع تقريباً. وعندما عادت إلى المنزل، حمل مات أوفيلي وصعد بها للأعلى إلى غرفتها. عليها أن ترتاح لستة أسابيع أخرى.

لقد أنقذوا لها الرئة وأصلحوا معدتها، وقالوا إن الأمعاء لن تسبب أية مشكلة. ويمكنها تدبر أمرها بمبيض واحد، وحتى الحصول على المزيد من الأولاد إن أرادت، وقد تمت إزالة الزائدة. كانت محظوظة بشكل لا يصدق، كما أتت لويز أندرسون من المركز لتعتذر منها لأنها سمحت لها بوضع نفسها في ذلك الخطر. ولكن أوفيلي ذكرتها مراراً بأن ذلك هو ما أرادته. كان خيارها. لكن لن يكون هناك المزيد من المتطوعين في الفريق الخارجي، الأمر الذي كان جيداً تماماً، رغم أن أوفيلي أحبت العمل معهم. ووعدت أن تعود للعمل في المركز نفسه بعد بضعة أشهر، إن وافق مات. يجب أن يؤخذ رأيه الآن، ولم يعد واثقاً من ذلك. فكّر بأنه يجب عليها البقاء في المنزل مع بيب، ومعه.

نام في حجرة تيد القديمة بعد عودة أوفيلي إلى المنزل. أراد أن يبقى هناك في حال احتاجته، وكانت مسرورة بوجوده. فهي ما تزال بحاجة

للمساعدة، وجعلها ذلك تشعر بالأمان. وشعرت بيب بالإثارة أيضاً.

كانت خطط زواجهما تتقدم بصورة جيدة، واتفقا على الزواج في حزيران، بحيث تتمكن فانيسا من الحضور. كان مات قد اتصل بها في أوكلاند وأخبرها، وكانت مسرورة له. كما أخبرا روبرت عندما جاء لرؤية أوفيلي في المستشفى.

"سنصبح عائلة مرة أخرى"، قالت بيب لأمها بابتسامة عريضة عند وصولها إلى المنزل. كان من الواضح أن بيب أحبت الفكرة، وكذلك أوفيلي. استغرق منها الكثير لتصل إلى هناك، ربما الكثير جداً، ولكنها شعرت بالراحة للقرار، وكانت هي ومات يتحدثان عن شهر عسل في فرنسا، وربما يأخذان الأولاد معهما. أحبت بيب الفكرة.

كانت أوفيلي تستريح بهدوء في سريرها بعد ظهر أحد الأيام، خلال ذهاب مات لإحضار بيب من المدرسة. مضت ستة أسابيع على تعرضها لإطلاق النار، وكانت تشعر بأنها أكثر قوة، ولكن لا يمكنها القيادة بعد، وقد خرجت من المنزل مرات قليلة فقط. شعرت بالإثارة لتمكنها من النزول إلى الأسفل لتناول العشاء.

زارها الفريق الخارجي في المنزل عدة مرات أيضاً. وكانت تفكّر بهم، عندما رنّ الهاتف وردت عليه. كان الصوت مألوفاً لها، ولكن غير مرحب به، وبدا ضعيفاً جداً. كانت أندريا هي المتصلة، وفكّرت أوفيلي بإغلاق السماعة وحسب. ولكن أندريا أحست بذلك، وتوسلت إليها ألا تفعل.

"أرجوك... دعيني أتكلم معك لدقيقة فقط... إنه أمر هام". بدا صوتها غريباً وقالت إنها قد سمعت عن تعرضها للإصابة وأصيبت بالذعر عليها. "أردت أن أكتب لك، ولكني كنت في المستشفى أنا أيضاً". الطريقة التي بدا عليها صوتها، جعلت أوفيلي تستمر في الاستماع.

"هل تعرضت لحادث؟" سألت ببرود، ولكنها كانت قلقة مع ذلك. كانتا صديقتين جيدتين لسنوات عديدة.



"لا"، ترددت أندريا، "أنا مريضة".

"ماذا تقصدين، مريضة؟".

ساد صمت مطول. أرادت أندريا أن تتصل بها منذ أشهر، ولكنها لم تجرؤ، وكان عليها أن تعرف. "أنا مصابة بالسرطان"، قالت بهدوء. "اكتشفوا ذلك منذ شهرين. يعتقدون أنني كنت مصابة به منذ وقت طويل. فقد كان هناك ألم في معدتي لسنة تقريباً، واعتقدت أنها الأعصاب وحسب. من المفترض أنه قد بدأ في المبيض أولاً، ولكنه انتقل إلى رئتي، والآن في عظامي. إنه ينتقل بسرعة شديدة". بدت وكأنها مستسلمة تقريباً، ولكن حزينة. وأصيبت أوفيلي بالصدمة. مهما كانت غاضبة منها، لم ترغب بأن تصاب بمكروه، وانهمرت الدموع من عينيها.

"هل تلقيت العلاج الكيميائي؟".

"نعم، وما زلت أتلقاه. أجريت عمليتين جراحيتين، وسيتبعون المعالجة الكيميائية بمعالجة شعاعية، ولكن لا أعتقد... لا أعتقد أني سأنجو"، قالت بصدق. "يبدو أن الوضع سيئ جداً... أعلم أنك لا تريدين رؤيتي ربما، ولكن أحتاج إلى شيء ما منك... هل ستأخذين ويلي من أجلي؟" كانتا تبكيان في الوقت الذي سألت فيه.

"الآن؟" بدت أوفيلي مندهشة.

"لا"، قالت بحزن. "عندما أموت. لا أعتقد أن ذلك سيطول. ربما بعد أشهر قليلة". كانت أوفيلي تنشج بالبكاء عندها. الحياة لا تصدق أبداً، غير عادلة، وخاطئة بشدة. كيف يحدث هذا للأشخاص؟ لتيد، لتشاد... ولها الآن. التفكير بذلك جعلها أكثر امتناناً لمات. ولكنها ما تزال مصدومة مما سمعته لتوها. مهما فعلته أندريا لها، فهي لا تستحق هذا، ولكن يبدو أنها لا توافق على ذلك. "ربما يعاقبني الله على ما فعلته لك، أوفيلي. أعلم أن كلمة *متأسفة* لا تكفي حتى لمعالجة الموضوع، ولكني كذلك. كان لديّ الكثير من الوقت لأفكّر بالأمر... أنا متأسفة جداً... هل ستأخذين ويلي؟" سألتها ثانية، وبكت أوفيلي. كان الأمر بأكمله بشعاً جداً.

"نعم، سأفعل"، قالت وهي تبكي. كل ما كانت تفكّر به الآن هو ما فعله مات من أجلها مع بيب، لم تعرفه إلا منذ ثمانية أشهر، تقريباً تسعة. علمت أنه ليس لأندريا أحد غيرها، وليس عندها خيار آخر. فقد كانت هي العرابة له، ولا بأس بذلك، حتى ولو كان ابن تيد. فليس هذا خطأ الطفل. "أين هو الآن؟ هل هناك أحد يساعدك في الاعتناء به؟".

"وظفت طالبة لتساعدني به"، قالت أندريا، تبدو متعبة ثانيةً. "أريده معي الآن، حتى النهاية". تحدثت عن الأمر وكأنه مؤكد. كان الأمر فظيعاً... لا يصدق. بلغت الخامسة والأربعين من العمر، ولن يعرف ابنها أياً من والديه.

دخل مات بينما كانت أوفيلي ما تزال تتحدث معها، ونظر بحيرة. تمكن من رؤية أن أوفيلي تبكي، فخرج من الغرفة ثانيةً. لم يرغب بالتطفل. افترض أنها ستخبره عن الأمر فيما بعد.

"هل هناك أي شيء يمكنني القيام به لك الآن؟" سألت أوفيلي بحزن. لم ترغب بترك أية مشاعر سيئة بينهما، وخاصة الآن، رغم أنها تعلم بأنه من الصعب ردم الهوة التي تشكلت بينهما.

"أرغب برؤيتك ثانيةً"، قالت أندريا، بصوت ضعيف. "ولكنني أشعر بالدوار معظم الوقت. العلاج الكيميائي سيئ جداً".

"أنا أيضاً لا يمكنني الخروج. حالما أتمكن، سآتي لزيارتك".

"سأكتب وصية جديدة، إن كان لا بأس بالأمر معك، بأن أترك ويلي لك. هل أنت متأكدة أن بإمكانك تدبر الأمر، ولن تكرهيه لما فعلته؟".

"لا أكرهك"، قالت بهدوء. "أنا حزينة وحسب. لقد جرحت". ولكن فقط بالإصغاء لها، علمت أنها قد سامحتها. ولم تفعل ذلك وحدها، كان تيد جزءاً من ذلك أيضاً. وكان هذا هو أسوأ جزء بالنسبة لها. ولكن حدث الكثير منذ ذلك الحين.

"سأبقى على اتصال وأعلمك عن حالي"، قالت أندريا. "سأضع رقمك في



قسم الطوارئ". كان هناك مسبقاً، ولكن بعد ما حدث بينهما، حذفته. "وسأعطيه للموظفة، في حال حدث شيء ولم تسنح لي فرصة الاتصال".

"يجب أن تتماسكي، أندريا. لا يمكنك الاستسلام". كانت تشعر بتأثر عميق بكل ما سمعته وبما بدت عليه أندريا، وشعرت بالأسف لأنها لا تتمكن من الخروج بعد. علمت أن رؤية أندريا ثانيةً ستسبب لها التوتر. فلم يمضِ وقت طويل على ما مرّت به هي أيضاً. "سأتصل بك. أعلميني عن حالك".

"سأفعل"، قالت وهي تبكي بصوت عالٍ، "شكراً لك، أعلم أنك ستعتنين به".

"أعدك أن أفعل"، ومن ثم قررت إخبارها عن مات. لديها الحق بأن تعرف. "سأتزوج في حزيران، من مات".

ساد صمت طويل، ومن ثم تنهد بطيء. وكأنها شعرت بأنها قد حلت مشكلتها بعض الشيء، ولم تدمر حياة أوفيلي بالكامل، ولم تفعل. "أنا مسرورة جداً. إنه رجل طيب. آمل أن تكونا سعيدين سويةً". قالت بهدوء.

"أنا أيضاً. سأتصل بك قريباً. اعتني بنفسك، أندريا".

"أحبك... وأنا آسفة"، قالت هامسة، وأغلقت السماعة. وضعت أوفيلي السماعة بلطف، عند دخول مات إلى الغرفة ثانيةً.

"عم كان هذا؟" سأل، وقد بدا عليه القلق. فقد كانت أوفيلي غاضبة بشكل واضح.

"أندريا"، قالت وهي تنظر إليه مباشرةً.

"هل هذه أول مرة تتصل بك؟" أومأت.

"هل كانت تتوسل لك من أجل العفو عنها؟ يتوجب عليها ذلك". كان ما يزال غاضباً ممّا فعلته هي وتيد، ومن ثم أدركت أوفيلي فجأة أنها يتوجب عليها سؤاله بخصوص الطفل. ولكن كيف يمكنها أن ترفض؟ لم تعتقد أن بإمكانها ذلك، أو يتوجب عليها. فإنه على أية حال، أخ لبيب من والدها، وطفل تيد.

"إنها تحتضر".

"متى حدث هذا؟" بدا منذهلاً.

"اكتشفت الأمر قبل شهرين. بدأ بسرطان في المبيض، وينتشر الآن إلى رئتيها وعظامها. تعتقد أنه تبقت لها بضعة أشهر. تريدني أن آخذ الطفل. أن نأخذ..." قررت أن تعترف بوضوح فوراً. "قلت نعم. كيف تشعر بالأمر؟ أخبرتها أننا سنتزوج، ويمكنني إخبارها أنه لا يمكننا أخذ الطفل، إن لم ترغب. ولكن ليس لديها أحد غيري. كيف تشعر حيال الأمر؟" جلس عند حافة السرير لدقيقة وفكّر بالأمر. كان ذلك إضافة كبيرة لحياتهما، وليس بالشيء الذي توقعه، ولكنه تمكن من فهم الأمر. سيكون من الصعب رفض ذلك، وبطريقة أخرى، أكثر صعوبة بالنسبة لها، لأن الطفل هو ابن تيد وأخ لبيب. كان ذلك وضعاً غريباً جداً.

"يبدو أن عائلتنا تزداد بسرعة، أليس كذلك؟ لا أرى كيف يمكنك رفض ذلك. هل تعتقدين حقاً أنها ستموت؟".

"تبدو كذلك. بدا صوتها سيئاً جداً".

"لا أعتقد أن أمامنا الكثير من الخيارات. على الأقل، هو لطيف"، قال وهو ينحني ليقبلها. كان رجلاً رائعاً حقاً. واتفقا على عدم إخبار بيب عن الأمر في الوقت الراهن. فالأمر محبط جداً، وقد شهدت الكثير من الحزن مع والدتها خلال الأسابيع الستة الماضية. لا حاجة لأن تعرف بأن أندريا تحتضر. فذلك كثير جداً عليها.

تلقت أوفيلي رسالة من أندريا تشكرها بها، بعد عدة أيام، ولم تتصل بعد ذلك. كانت أوفيلي ستتصل بها، ولكنها كانت متعبة وضعيفة هي أيضاً، فاستمرت في تأجيل الأمر، فما يزال يغضبها. قاد مات سيارته إلى الشاطئ بعد أسبوعين، مع بيب والكلب. تمشيا قليلاً على الشاطئ، وجلسا تحت أشعة الشمس. بدا الجو وكأنه صيف، ولكنهم في آذار. تحدثا عن خطط للزفاف. قررا جعله زفافاً هادئاً عند الشاطئ، بوجود الأولاد وحسب، وكاهن يعرفه



مات في بوليناز. بدا ذلك مناسباً لهما. فلا أحد منهما يرغب بحدث اجتماعي فاخر.

بعد أخذه بيب إلى الشاطئ بيومين، عادوا سويةً في يوم جميل مشمس. قالت إنها تعتقد أن هواء البحر جيد لها، ووافق على ذلك، ولكن كان يخطط لشيء آخر. جهزوا غداء النزهة في المدينة، فلم يكن لديه شيء يأكله هناك. وحال وصوله إلى مرفأ الأمان (سيف هاربر)، وضع السلة على الطاولة، وشغّل بعض الموسيقى. كانت لديها فكرة عما يفكّر به، وكانت جاهزة هذه المرة. لقد انتظرا هذا وقتاً طويلاً جداً. هذا ما كان يجب أن يحدث في تاهوي، ولم يحدث.

حال دخولها، وضع ذراعيه حولها، وقبلها، ومن ثم نظرت إليه. حتى قبل أن يلمسها بوقت طويل، كانت ملكه، وأرادت ذلك. تبعته إلى غرفة النوم، وخلع ملابسها بلطف، ومددها على السرير، ومن ثم انضم إليها، تعانقا بهدوء تحت الغطاء، حتى سيطرت عليهما العاطفة، وجرفتهما بعيداً إلى البحر الرائع. كانت ذلك اندماجاً لروحين، شخصين، قلبين، وعالمين، وكل ما يريدانه. كان ذلك ما تمناه كل واحد منهما وحلم به. وسويةً في أحضان بعضهما البعض، في مرفأ الأمان (سيف هاربر)، تحقق الحلم أخيراً.

# 28

كانت أوفيلي تخطط للاتصال بأندريا بعد حديثها معها قبل أسبوعين. ولكنها انشغلت بشدة، في محاولة تعويض الأشياء التي تراكمت عليها خلال مرضها. توجب عليها الذهاب إلى جلسة استماع في قضيتها ضد المعتدي عليها، لأن الدفاع أراد أن يكبت شهادتها، ويمنعها من الشهادة في المحكمة. وبعد صباح منهك في المحكمة، حيث كان مات حاضراً، تم رفض طلب الدفاع. كانت ما تزال تشعر بالتعب. هناك شيء يوقفها دائماً عندما تنوي الاتصال بأندريا. وعدت نفسها أخيراً أن تتصل بها بعد ظهر ذلك اليوم، قبل عودة بيب إلى المنزل. كانت على وشك طلب الرقم، عندما اتصلت الموظفة التي استخدمتها أندريا بها.

كنت على وشك الاتصال بها"، قالت أوفيلي بلطف. "كيف حالها؟ أنا مسرورة لاتصالك".

بدا الصوت في الطرف الآخر غير مرتاح، وكره نقل الخبر لها. "توفيت هذا الصباح، قبل الظهر بقليل"، قالت لها، شعرت أوفيلي وكأن أحداً ضربها بقرميدة.

"أوه، يا إلهي... أنا آسفة جداً... لم أكن أعرف... اعتقدت... أخبرتني أن الأمر سيستغرق بضعة أشهر... لم تكن لديّ أية فكرة أن ذلك سيحدث سريعاً جداً". لا يأتي الموت دائماً حسب موعده، أو كما هو مخطط له. في الحقيقة، لا يحدث ذلك على الإطلاق. كل ما تمكنت من التفكير به وهي جالسة هناك وجودها مع أندريا أثناء الولادة، منذ أقل من سنة. كان الأمر مثيراً جداً

ومبهجاً، ومؤثراً بشدة، وبينما تفكّر بالأمر، أدركت بأن تلك الحادثة هي التي ستتذكرها عنها. وفجأة كانت مسرورة لأنها لم ترها وهي مريضة. بعد صداقة استمرت لعشرين سنة تقريباً، تفرقت حياتهما، وربما القدر هو من أراد ذلك. فأمام أندريا طريق تسلكه لا يتضمن وجود أوفيلي معها. لقد اقترفت خطأً بغيضاً آذى أوفيلي بشدة، ولكن الطفل هو النتيجة، والآن سيعود إلى منزلها. جميع انحرافات والتفاتات الحياة الغريبة لا تقودك إلى حيث توقعت. من المستحيل حتى تخمين ما المقدر.

"هل هناك جنازة؟" سألتها أوفيلي، متسائلة، إن كانت هي من يتوجب عليها تنظيم ذلك. كم كان هذا غريباً أيضاً، كانتا تتحدثان دائماً عن الزفاف والعلاقات، وقدّمت لها أوفيلي حفلة تعميد ويلي كهدية لأنها هي عرابته. ولكن الموظفة شرحت لها بأن أندريا لم تكن ترغب بذلك. كانوا قد جاؤوا مسبقاً لأخذها، أرادت أن تحرق جثتها وترش في البحر. لا صلوات، ولا ضريح، ولا حداد، فقط في ذكريات الأشخاص. بدا ذلك أكثر طهراً لها، ولأول مرة اتفقت أوفيلي معها. بالنظر إلى الظروف الراهنة، سيكون ذلك أقل إيلاماً للجميع على الأقل.

كانت قد جهزت الترتيبات المتعلقة بها فتخلصت من شقتها، وأغراضها. وكل ما تبقى هو ويلي. عرضت الموظفة إحضاره في وقت متأخر اليوم. وهذا يعني أنه يتوجب على أوفيلي إخبار بيب.

كانت تنتظرها في المطبخ عندما عادت إلى المنزل من المدرسة مع مات. وتفاعلت بيب فوراً مع النظرة التي كانت على وجه أمها. عرف مات ذلك مسبقاً. فقد اتصلت به وهو في السيارة في طريقه للمدرسة. وقال إنه سيفعل كل شيء يمكنه فعله لدعمها، ودعم بيب.

"هل حدث مكروه؟" ما زالت تتذكر المرة الأخيرة التي رأت تلك النظرة بوجه أمها، كان الأمر أسوأ من ذلك، ولكنها أخافتها على أية حال. خشيت أن يكون الخبر هو قرارها بعدم الزواج من مات، ولكن أوفيلي طمأنتها بأن كل شيء بخير، وبأن لديها خبر سيئ.



"هل أصاب موس مكروه؟" كان خارجاً في الحديقة، ولم تره، فابتسمت أوفيلي لها. لم يتبقَّ لهما أحد، باستثناء مات.

"لا، إنها أندريا. توفيت اليوم". صدمت بيب في البداية، ومن ثم شعرت بالحزن. "كانت مريضة جداً. اتصلت بي منذ أسبوعين، ولكني لم أرغب بقول ذلك لك لفترة".

"هل ما زلت غاضبة منها؟" سألت بيب، وهي تراقب وجه أمها.

"لا. قمنا بتسوية الأمر عندما اتصلت وأخبرتني أنها مريضة".

"ماذا فعلت لك؟" تبادلت أوفيلي مع مات النظرات وتساءل ما الذي ستقوله لها، ووافق على ما قالته لبيب.

"سأخبرك عن الأمر يوماً ما، عندما تكبرين، وليس قبل ذلك".

"لا بد من أن الأمر كان سيئاً جداً"، قالت بيب بكآبة. تعلم أمها جيداً وتعرف أنها كانت لتغفر لأندريا، لترياها ثانيةً لو كان أمراً عادياً.

"اعتقدت أنه كذلك"، ولكن لا بد من أن تعرف بيب يوماً ما بأن ويلي هو أخوها.

"ماذا سيحصل لويلي؟" سألت بيب بحزن. أصبح يتيماً الآن. كانت تلك فكرة بغيضة، حتى بالنسبة لها.

"إنه سيأتي للعيش معنا"، قالت بهدوء، فاتسعت عينا بيب.

"سيفعل؟ الآن؟".

"اليوم". بدت بيب مسرورة، وابتسم مات. كان ذلك تحولاً غريباً للأحداث دون شك، ولكن مثل كل شيء، حدث هذا بتلك الطريقة لأنه مقدر لأن يحدث. جعله ذلك يدرك ثانيةً مقدار غرابة الحياة. لو انتهت الأمور بصورة مختلفة، فربما كانت أوفيلي قد توفيت بجروح الطلقات. بدلاً عن ذلك، سيتزوجان، وسيأتي طفل من امرأة أخرى، وهو ابن لتيد أيضاً، للعيش معهم. تلك هي الحياة وغرائبها وتعقيداتها وتحولاتها غير المتوقعة للأحداث.

أحضرت الموظفة ويلي مع كل ممتلكاته بعد الظهر، وكانت أوفيلي وبيب بانتظاره عند وصوله. كانت لحظة عاطفية لأوفيلي، لأن الطفل لم يكن لتيد وحده، بل لأندريا، صديقتها منذ ثمانية عشرة سنة. لقد كبر كثيراً، فهما لم يرياه منذ أربعة أشهر، وسألت أوفيلي المرأة إن كانت ترغب بالبقاء والعمل معهم، ووافقت. فالأعمال المنزلية تزداد كثافة وازدحاماً الآن. وأوفيلي ليست جاهزة للاعتناء به وحدها بعد، وسيستغرق وقتها بكامله. من أجل بيب ومات، أرادت من أحدٍ أن يساعدها به، أو لن تمتلك الوقت والطاقة لهما.

قامت بالتفكير سريعاً وتحدثت مع مات لبضع دقائق، فوافق، إن اعتقدت أن ذلك لا بأس به مع بيب، وهذا أمر مؤكد. طلبت منه الانتقال إلى غرفة نومها، فهم سيتزوجان على أية حال. ومنحت حجرة تيد، حيث كان ينام مات، للطفل والموظفة. كان ذلك جيداً في الوقت الحالي. أما غرفة تشاد فهي ما تزال تعتبر أرضاً مقدسة وخارجةً عن الحدود. ولكنها اتفقت مع مات، فهم بحاجة للانتقال إلى بيت جديد قريباً. أرادت أن يكون لديها غرف للضيوف من أجل روبرت وفانيسا. فبالنظر إلى الأمور الآن، يتوجب على فانيسا النوم مع بيب عندما تأتي للزيارة، وهذا ما أبهج بيب، وكان ممكناً بالتأكيد. ولكنهم بدأوا بالازدياد. والمنزل الموجود في مرفأ الأمان (سيف هاربر)، بغرفة نومه الوحيدة، وغرفة الجلوس المريحة، لا ينفع إلا كملتجأ عاطفي لمات وأوفيلي، الأمر الذي لم يبدُ بالفكرة السيئة.

في وقت متأخر تلك الليلة، وحال هدوء الطفل والموظفة، ونوم بيب في سريرها مع موس عند حافته، كان مات في السرير بالقرب من أوفيلي، ثم التفت إليها بابتسامة.

"الأشياء تتغير حولنا سريعاً، أليس كذلك، حبيبتي؟".

"تماماً. تخيل إن حملت!" كانت تمزح معه فقط. فبوصول ويلي، بدت عائلتهم كبيرة بما يكفي، وليس لديها أية نية في إضافة المزيد، لا الآن ولا



لاحقاً. وقبل أن يغطا في النوم، شكرت مات لكونه شخصاً متفهماً.

"لا يمكنك توقع ما الذي سيحصل هنا بين اليوم والآخر"، قال بسعادة، "لقد بدأت استمتع بالأمر".

"وأنا أيضاً"، اقتربت منه وهي تقول ذلك. وبعد دقائق قليلة، كان جميع المقيمين في المنزل الواقع في شارع كلي نائمين.

# 29

بدا يوم زفافهما في حزيران مشمساً بصورة لطيفة. كان يوماً رائعاً، بشمس مشعة ونسيم عليل. ومع وجود القليل من قوارب الصيد في الأفق، وشاطئ بدا نظيفاً تماماً. لم يكن مرفأ الأمان (سيف هاربر) قد بدا بمثل هذا الجمال من قبل أبداً.

وصل الكاهن في الساعة الحادية عشرة والنصف، حيث كان الزفاف مقرراً وقت الظهيرة. ارتدت أوفيلي ثوباً أبيض مزركشاً بسيطاً، يمتد حتى كاحليها وحملت باقة من الأزهار، وارتدت كل من فانيسا وبيب ثوباً من الكتان الأبيض. أما مات فارتدى بنطالاً وسترة فضفاضة، وكذلك روبرت. أما ويلي، فكان بين ذراعي المربية، كان يرتدي بذلة بحار صغيرة باللون الأزرق والأبيض. كان قد بدأ بالمشي لتوه، وكان ينتعل أو زوج من الأحذية. ولاحظت أوفيلي أنه يشبه أمه تماماً، وكان ذلك شيئاً مريحاً. حيث يصعب شرح البديل، رغم أنه بدا يشبه بيب قليلاً. ساد جوّ عائلي رائع. وعندما علّق الأشخاص على ذلك، سُرت بيب. لم تكن لديها أية فكرة، ولن تكون قبل وقت طويل، كما أملت أمها، بأن ذلك حقيقي، وبأن ويلي هو من عائلتها، بالرغم من أنه ليس ابن أوفيلي.

تمتّع الجميع بمعنويات عالية، إنهم سيغادرون إلى فرنسا في اليوم التالي. ليقضوا أسبوعين في باريس، ومن ثم أسبوعين في كاب دي أنتيب، في إيدين روك. ذلك شهر عسل فاخر، أصر مات على دعوة الجميع إليه، ولكنه قال إنه لم ينفق قرشاً منذ سنوات. وكان الجميع يتلهف لذلك. وفور عودتهم، اتفق مات